المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

المورسكيون فى المغرب

تأليف: غييرمو غوالبيس بوستو
ترجمة: مروة محمد إبرهيم
مراجعة و تقديم: جمال عبد الرحمن

726

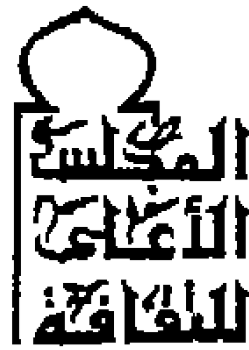
المشروع القومى للترجمة

الموريسكيون فى المغرب

تأليـــف : غييرمو غوثالبيس بوستو

ترجمـــة : مروة محمد إبراهيم

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٢٦
- الموريسكيون فى المغرب
- غييرمو غوثالبيس بوستو
- مروة محمد إبراهيم
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه هى ترجمة كتاب :

Los moriscos en Marruecos

By:

Guillermo Gozalbes Busto

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

تقديم المراجع

بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس - بل وقبيل السقوط - كانت الهجرة إلى بلد إسلامى تعد فى كثير من الأحوال هى الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور فى بلدهم تسير من سيئ إلى أسوأ وأن دولة الإسلام منهارة لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أى شىء يوقف زحف الملك الكاثوليكى.

بدأ الناس فى الهجرة ، وكانت لتلك الهجرة - كغيرها من الحركات الكبرى فى التاريخ - نتائج ملموسة ، سواء على الذين هاجروا ، أو على بعض البلاد التى هاجروا إليها. رحل الأندلسيون إلى تركيا ومصر وشمال إفريقيا وأوروبا ، بل وأمريكا التى كان قد تم اكتشافها منذ قليل.

لم تكن هجرة الأندلسيين ذات أثر بارز فى بلد كمصر، فالمهاجرون قد استقروا فيها وصاهروا أهلها ، وبعد فترة قصيرة لم يعد من الممكن التمييز بين المصرى والأندلسى(*)

لكن الوضع فى شمال إفريقيا كان مختلفًا تمامًا، فقد أقام المهاجرون فى قرى ومدن خاصة، شيدوها على غرار المدن التى جاءوا منها، وظلوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم ، ولم يندمجوا فى المجتمعات المغربية التى هاجروا إليها إلا بعد زمن طويل.

(*) (راجع كتاب عبد الرحيم عبد الرحمن عن الأندلسيين فى مصر من واقع ملفات المحاكم الشرعية ، إصدارات مؤسسة التميمى للبحث العلمى بزغوان، تونس) ونظن أن الوضع لم يكن يختلف كثيراً فى بقية البلاد الإسلامية مثل تركيا.

كان لهجرة الأندلسيين نتائج ملموسة على المغرب العربى ، فقد نقل الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ثقافتهم الخاصة ، بإيجابياتها وسلبياتها، كما سنعرض فيما يلى.

كانت إعادة تأسيس مدينة تطوان على يد المندارى، وهو نبيل غرناطى، هى أولى ثمار الهجرة الأندلسية إلى المغرب، والكتاب الذى بين يدينا يبرز الطابع الغرناطى الخالص الذى تمتعت به مدينة تطوان عند إعادة تأسيسها.

وصل الغرناطيون إلى شمال إفريقيا فأعادوا هيكلة الجهاد البحرى الذى تحول فى بعض الأحيان إلى وسيلة لكسب العيش. إن الجهاد - بشقيه: البرى والبحرى - قد جعل من تطوان قبلة للمسلمين المضطهدين فى أوروبا.

كانت هجرة نبلاء غرناطة المسلمين إلى شمال إفريقيا سبباً فى وضع حد للتوسع البرتغالى على حساب بلاد المغرب العربى، وقد استطاع المغاربة - بمعاونة الغرناطيين المنفيين- تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه بمفردهم. إن النصر على البرتغال فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ إنما ترجع أسبابه الرئيسية إلى معاونة الأندلسيين الذين وقفوا إلى جانب السلطان المغربى.

على أن ثمار الوجود الموريسكى فى المغرب لم تقتصر على الجانب الجهادى، فيكفى أن نتذكر أن الأندلسيين - بالإضافة إلى تقديم المحاربين الشجعان للجيوش المغربية - كان من بينهم الوزراء ذوو الرأى ؛ وكان منهم المستشارون والصناع المهرة والجنود والتجار ، هذا إلى جانب المسائل الفقهية التى أثارها الوافدون الجدد إلى المغرب ، وإلى جهود الأندلسيين أنفسهم فى ترجمة العلوم الدينية. كل ذلك أسهم فى أن يلمع بريق الأندلس فى الشمال المغربى. والكتاب الذى نقدم له يبين الآثار المعمارية التى خلفها الموريسكيون فى المغرب والتى انعكست - دون شك - على الطراز المعمارى المغربى فيما بعد.

لا نستطيع أن نؤكد أن ترحيب أهل المغرب العربى بأولئك المسلمين المهاجرين كان ترحيباً بلا تحفظ، فقد كان القادمون الجدد يمثلون - فى نظر البعض- تهديداً للقمة العيش من ناحية، وكان المغاربة ينظرون إليهم بعين الشك أحياناً حين يرون أنهم

يمارسون إسلامًا مختلفًا فى شكله عن الإسلام الذى عرفه الناس فى المغرب. وعليه فقد تعين على الموريسكيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد سكان البلاد الأصليين وضد البرتغاليين فى آن واحد.

وقد أدى انهماك المسلمين الغرناطيين فى المغرب فى توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن أنفسهم ، ضد البرتغاليين من ناحية وضد سكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى، إلى نتائج منها اتجاه الوافدين الجدد إلى الجهاد البحرى (ومن هنا أهملوا بقية الأنشطة الاقتصادية كالزراعة والصناعة)، كما انحصر النشاط الأدبى فى كتابات دينية ضرورية.

ذكرنا أن الأندلسيين قد نقلوا إلى المغرب الطراز المعمارى للمدن والبيوت التى كانوا يقيمون فيها فى إسبانيا، وهذا أثر إيجابى. لكن الهجرة الموريسكية إلى المغرب كانت لها أيضا جوانب سلبية ترتبت عليها.

يشير المؤلف إلى تفكك دولة الخلافة فى الأندلس وما ترتب عليه من ضعف أدى فى النهاية إلى سقوط غرناطة الإسلامية، ويذكر كيف أن الصراعات الأهلية بين الغرناطيين أدت إلى ضياع نفوذهم فى الشمال المغربى ، كما أدت فى السابق إلى ضياع دولتهم فى إسبانيا.

يتحدث المؤلف عن طبقة العامة فى غرناطة والتى ظنت أن خلاصها من الظلم يكمن فى تغيير الحاكم ، وثبت أن الأمر لم يكن بهذه البساطة. هل يعيد التاريخ نفسه؟ انهارت المؤسسات فى غرناطة الإسلامية فسقطت الدولة فى نهاية الأمر. هل يكفّ المؤرخون العرب الحاليون عن اتهام أبى عبد الله الصغير بالخيانة؟

لماذا يتخصص باحث إسبانى مثل صديقنا الراحل غوثالبيس بوستو فى تاريخ المغرب العربى؟ المؤلف نفسه يجيب على هذا التساؤل فى أكثر من مناسبة: إن قراءة تاريخ ضفتى مضيق جبل طارق فى القرن السادس عشر يدل على أن تاريخهما لا يمكن فصله، وعليه فإن دراسة تاريخ المغرب العربى – من قبل الباحث الإسبانى – ليست من باب التعرف على الآخر، بل هى ضرورة للتعرف على الذات.

نلحظ فى الكتاب نقد الذات: يعيب المؤلف على المؤرخين الإسبان فى القرن السادس عشر عدم الاهتمام بمشكلة الإسبان المسلمين الذين عبروا المضيق واستقروا فى شمال إفريقيا. ونذكر هنا أن المستعرب الإسبانى سيرافين كالديرون فى القرن التاسع عشر كان قد نادى بدراسة الثقافة الموريسكية فى الشمال المغربى للتعرف على تاريخ إسبانيا بشكل كامل، وللتعرف على الجار المغربى(*) .

يلفت النظر فى كتابات المؤرخين الإسبان رجوعهم إلى المصادر العربية كابن الخطيب وابن خلدون ، بالإضافة إلى ما خلّفه الكتّاب الإسبان المعاصرون لهما. وقد اعتمد صديقنا الراحل غوثالبيس بوستو على وثائق كتبها مؤرخون عرب ، لكنه اعتمد كذلك على بعض ما كتبه مؤرخون إسبان فى القرن السادس عشر ، وهو يعلم أنها كتابات دعائية لا يمكن الاعتداد بها كثيرًا، ومن ثم كان عليه أن يوضح ذلك للقارئ غير المتخصص. على أننا لانعفى المؤرخ العربى المعاصر للأحداث من المسئولية ، فمؤلف الكتاب يلجأ إلى المصادر الإسبانية وحدها عندما لا يجد بديلاً عربيا. إن تقصيرنا – فى الماضى والحاضر– فى كتابة التاريخ جعل الرؤية الغربية هى السائدة. هل من حقنا أن نلوم الآخرين إن هم اعتمدوا على كتابات أوروبية فى حالة عدم وجود مصادر عربية؟

الكتاب يتضمن فصلا عن اليهود الذين طردوا من إسبانيا وأقاموا فى المغرب. من الطبيعى أن تنشأ علاقة طيبة بين المسلمين واليهود فى المنفى ، فالمجموعتان تربطهما علاقة الوطن المفقود وعلاقة اللغة الإسبانية التى كانوا يتحدثونها. إن الدور البارز الذى لعبه اليهود بصفتهم تجارا ووسطاء فى المفاوضات التى كانت تجرى بين المسلمين والمسيحيين لابد أن يدرس بعناية. مبلغ علمنا أن عدد اليهود الذين رحلوا إلى المغرب كان ضئيلاً إذا ما قورن بأعداد المسلمين الذين اختاروا نفس المكان وطنًا بديلاً. ورغم قلة عدد اليهود فإنهم قاموا بدور بالغ الأهمية فى المجال الاقتصادى وفى مجال

(*) جاء ذلك فى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة افتتاح قسم الدراسات العربية فى نادى مدريد الثقافى Ateneo ، وفى كتابه "دليل الضابط الإسبانى فى المغرب" انظر : Seraf in Calderon : *Obras Completas*, ed. Atlas, Madrid, 1955 (المراجع).

السياسة فى حوض البحر المتوسط. إن أهمية أمة ما لا تكمن فى عددها وإنما فى إيجابية مواطنيها واجتهادهم فى تحقيق أهدافها.

يتبين من الكتاب أيضًا الدور البارز الذى لعبه اليهود - على قلة عددهم - فى مفاوضات تحرير الأسرى الإسبان ، وربما يكون من المناسب أن تخصص دراسة مستقلة للدور الذى لعبه اليهود فى عالمنا العربى الإسلامى بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢ .

قام اليهود فى بعض الأحيان بدور بارز فى الترجمة ، ولعلهم بذلك عرفوا كثيرًا من الأسرار واستغلوها لصالحهم ، ونتساءل الآن - بعد مرور خمسة قرون على تلك الأحداث - هل عجز حكام المغرب آنذاك عن العثور على مترجم كفء من بين الموريسكيين؟

الأمر الذى يعنينا فيما يتعلق باليهود أن مؤلف الكتاب يعترف أنهم عاشوا فى المغرب فى جو من الحرية والتسامح لم يتمتعوا بهما فى إسبانيا الكاثوليكية.

على أن اليهود لم يصلوا إلى المغرب ابتداءً من عام ١٤٩٢ حين طردتهم إسبانيا منها ، بل تدل الوثائق على وجدهم فى بلاد المسلمين قبل ذلك التاريخ بكثير وتوليهم مناصب مهمة وإساءتهم إلى من أحسن إليهم. أشير هنا إلى ما يذكره الدكتور عيسى الحريرى - نقلا عن السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - فى كتابه عن دولة بنى مرين (ص. ١٨٦) وكيف أن يهوديا تولى الوزارة وكان سببًا رئيسيا فى انهيار دولة بنى مرين:

"واضطرم حقد السلطان على رعيته، فسولت له نفسه تعيين اثنين من اليهود هما هارون وشاويل فى منصب الوزارة تأديبًا لرعيته وتشفيًا منهم. وأثار هذا التصرف كافة طوائف الشعب، لأنه تصرف يمس عواطفه الدينية ، وفقد السلطان عبد الحق تأييد شعبه خاصة وعامة ، ومما أزكى حقد الشعب على السلطان أن الوزيرين اليهوديين شرعا فى "أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا فى الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودى هارون قد ولى على شرطته

رجلا يقال له الحسين لا يألو جهداً فى العسف واستلاب الأموال ، واستمر الحال على ذلك والناس فى شدة"... واقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة(المرينية)، ففى أحد الأيام قبض الوزير اليهودى على امرأة شريفة من البليدة - من أحياء فاس - "فأنحى عليها بالضرب، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمى اليهودى وكاد يتميز غيظًا من سماع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بالإبلاغ فى عقابها" وانتشر الخبر فى المدينة فأسرع الناس إلى الاجتماع عند خطيب مسجد القرويين واتفقوا على خلع السلطان عبد الحق والبيعة للشريف أبى عبد الله الحفيد ، وهو محمد بن على عمران الإدريسى من أهل البيت، وبايعوه فى السابع عشر من رمضان (٨٦٩ هـ / ١٤٦٥م) ،..... وهكذا انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية المشرقة بعد أن عاشت فى بلاد المغرب بعطائها السياسى والحضارى الغزير زهاء مائتى عام(*).

يتضمن الكتاب عدداً لا بأس به من الوثائق، وربما كان أهم ما تعرضه الوثائق فى هذا الكتاب هو سعى حاكم مغربى إلى غزو أمريكا الجنوبية بمساعدة الإنجليز ، وقد جاء رد الملكة إيزابيل بالموافقة واشترطت تحمل المغاربة مبلغ مائة ألف جنيه مساهمة فى نفقات الأسطول الإنجليزى، وتعرض الوثائق أيضًا محاولة جزائرية لغزو أمريكا بالتعاون مع الهولنديين، وهكذا نرى أن سعى أمتنا لاحتلال مكان لائق بين الأمم لم يتوقف عند سقوط غرناطة كما يحلو للبعض أن يردد.

الكتاب مفيد بلا شك، ونحسب أنه يمثل إضافة إلى مكتبتنا العربية الخاصة بتاريخ المغرب العربى وبالنتائج التى ترتبت على سقوط غرناطة الإسلامية ، وقد اجتهدنا فى أن تصل المعلومات الواردة فيه كاملة إلى القارئ العربى، وحاولنا التغلب على بعض المشاكل التى صادفناها.

(*) بتصرف محدود ، نقلاً عن كتاب "تاريخ المغرب الإسلامى والأندلس فى العصر المرينى" تأليف د. محمد عيسى الحريرى ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

كانت هناك مشكلة فى كتابة الأسماء العربية للشخصيات والعائلات المذكورة فى الكتاب لأن تسجيل بعض هذه الأسماء - كما أشار المؤلف - كان يتبع نظام اللهجة المغربية ، وبالتالى لم نتمكن فى بعض الأحيان من رصد الاسم العربى. كان الحل الأمثل هو الرجوع إلى الزملاء المغاربة ، لكننا ندرك أن الكتابة إليهم وانتظار الرد قد يستغرق وقتًا غير قصير. لذلك اجتهدنا فى التوصل إلى النطق العربى لبعض الأسماء المذكورة ، ويبقى أمام الباحث المتخصص أن يكمل الطريق ، فهو - دون شك - أقدر منا على القيام بهذه المهمة.

على أن الأسماء ذات الأصل الإسبانى- وهى كثيرة - والأسماء المشتقة من اللغة العربية الفصحى - وهى كثيرة كذلك - لم تشكل أمامنا عائقًا ، ونحسب أننا قد كتبناها بشكل صحيح.

أما أسماء البلاد الصغيرة فهى تمثل مشكلة أخرى ، فالوثائق التى نطالعها كتبت فى القرن السادس عشر ، ولم يتبع الكتاب نهجًا واحدًا فى كتابة أسماء المدن. لذلك رأينا أن نعالج المشكلة بوضع الاسم كما هو وأن نجتهد فى كل حالة. نعلم أننا أصبنا فى بعض الأحيان وأن الصواب جانبنا فى أحيان أخرى ، ونظن أن الباحث المتخصص سيمكنه تصحيح الأخطاء التى وقعنا فيها دون قصد.

لنا ملاحظة على الأرقام الموجودة فى الكتاب. إن المؤلف - فى أثناء حساب تكاليف عمليات الافتداء - يستخدم عند ذكر المعلومة أكثر من رقم: مرة يذكر التكاليف بعملة معينة ، ومرة يذكر ما يقابل ذلك بالعملات الأخرى. ندرك أن كثرة هذه الأرقام قد تشوش أفكار القارئ العادى، أما الباحث المتخصص فسيجد فيها معلومات مهمة عن قيمة العملات آنذاك.

سيلاحظ القارئ عدم انسيابية النص أحيانًا، ومبلغ علمنا أن ذلك لا يعود إلى قصور فى طريقة عرض الموضوع ، وإنما لأن المؤلف يعتمد على وثائق متفرقة ، مختلفة المصدر والتاريخ، ويحاول أن يرسم من كل ذلك صورة للوضع آنذاك.

يبقى أمامنا أن نقدم مؤلف الكتاب ، وهـو أحد أبرز المتخصصين فى تاريخ المغرب ، وقد التقيته فى مؤتمر علمي بتونس ، وكان قد تجاوز السبعين إلا أنه كان أكثر المشاركين حرصا على حضور جميع المحاضرات ، ولم يكن يدع محاضرة تلقى دون التعليق على ما جاء بها. استمرت العلاقة بيننا عن طريق المراسلة والهاتف، وكنت أتلقى منه الكتب والمقالات التى ينشرها فى المجلات العلمية، وكانت فى مجملها تدور حول تاريخ المغرب العربى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يبقى كذلك أن أعبر عن جزيل الشكر والامتنان لكل من أرملة المؤلف وابنه الدكتور إنريكى غوثالبيس أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة على تعاونهما فى إصدار هذا الكتاب .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

جمال عبد الرحمن

إهـداء :

إلـى تطـوان

و

إلـى غـرنـاطـة

مقدمة

كانت الواجهة الجنوبية لشبه جزيرة إيبيريا محكومة تاريخيا بالتغيرات التى ظهرت فى موقعها الجغرافى. لكن هذه الأحداث كانت مهمة جدا وقاطعة لشبه الجزيرة كلها، حيث لا نستطيع أن نعرف جيداً تاريخ إسبانيا دون أن نفهم بالتحديد ما يحدث فى الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق والذى وضع الشكل النهائى لهذه الواجهة الجنوبية.

خير مثال على ذلك المشكلة الموريسكية أو بمعنى أصح المأساة الموريسكية. تلك المأساة التى يبدو أنها بدأت عقب سقوط السلطة الإسلامية فى إسبانيا، وامتدت طوال القرن السادس عشر وكانت لها نهايتها الظاهرية بقرارات الطرد التى نُفذت منذ عام ١٦٠٩ وحتى عام ١٦١٤ .

إنها نهاية ظاهرية لأن المشكلة المأساوية لم تنته عندما عبر الموريسكى المضيق، ولم تنته بالنسبة للبعض والبعض الآخر. لا بالنسبة للمنتصرين القدامى ولا بالنسبة للأقلية المهمشة.

إن التاريخ الإسبانى لم يقم بدراسة ما حدث عندما استقرت هذه الأقلية فى دول شمال إفريقيا إلا قليلاً وبانحياز. ومجمل القول إننا نجهل ماذا كان مصير الموريسكيين فى المغرب، ممن هاجروا بكثرة و سراً طوال القرن السادس عشر، أو الذين وصلوا عندما حدث الطرد النهائى فى القرن السابع عشر.

حقا إن هناك بعض العوامل المهمة جدا شاركت فى هذا الجهل من أهمها قلة المصادر المناسبة، وثانيها هى اعتقاد مؤرخ أحد الأطراف أو حتى الطرف المعارض أن الموريسكى فقد تاريخه عندما غادر إسبانيا، حيث أنه الآن لا يشكل شعباً

ولا حتى أقلية مختلفة. ليس لديه لا كيان ولا حدث. أحياناً يكون هناك خبر صغير يشير إلى وجوده، فقد اختفى غارقاً فى مأساته الخاصة.

إن الذين أوجدوا حالة انعدام الأمان الرهيبة فى أراضى ومياه البحر الأبيض المتوسط الغربى لم يكونوا موريسكيين، بل كانوا "قراصنة من البربر". ولم يكن الموريسكيون هم الذين أوقفوا، فى أكثر من فرصة حاسمة، الهجوم البرتغالى على مملكة "فاس"، بل كانت "القوات المغربية"، والتى قلما ساعدها بعض الأندلسيين(*). ولقد يُنسى أنهم مؤسسو مدن فى مغرب غارق فى الفوضى عبر القرون. و هكذا، برغم هذا التغيير، يختفى تاريخ مشوق وأليم ولكنه لا يخلو من العظمة، بطله هو شعب فقد جذوره المادية، ولكنه تعلق بجذور روحية أخرى لكى يعيش ككيان مختلف.

الموريسكيون فى المغرب، هذا هو الموضوع الأساسى والوحيد تقريباً فى هذا الكتاب. إنه إسهام آخر فى تفسير هذا اللغز الذى بقى من تاريخ ذلك الشعب فى المنفى.

منذ أعوام، وبالتحديد فى عام ١٩٧٤، كتبت فى إحدى دراساتى شيئاً عن الموريسكيين فى الفترة الثانية من نفيهم الإجبارى إلى المغرب، والذين أسسوا "الرباط" Rabat وحركوا عجلة تاريخ هذا البلد المغربى طوال ما يقرب من نصف قرن. هؤلاء الأورناتشيون hornacheros والأندلسيون أسسوا فى جنوب البلاد، كما هو معروف، جمهورية مستقلة فى القرن السابع عشر.

لم يكن يُعرف شىء، أو كان يُعرف القليل جدا، عن المنفيين فى شمال مملكة فاس، وبالأخص فى ذلك الجزء الشمالى المغربى والذى لعبت جغرافيتة السياسية دوراً حاسماً جدا فى التحول التاريخى للضفة المواجهة.

(*) يريد المؤلف أن يعيد صياغة التاريخ وأن ينسب إلى الموريسكيين ما نسبه المؤرخون القدماء إلى غيرهم . (المراجع)

لقد أسهمنا فى التعريف بأولئك المنفيين الذين توجهوا إلى هذا المكان الاستراتيجى فى المرحلة الأولى بعد سقوط دولة الإسلام الإسبانية مباشرة، و قدمنا السيرة الذاتية للمندارى مؤسس تطوان. و اليوم نحاول بهذه الدراسة التى نقدمها أن نكمل رؤية المنفى الموريسكى لشمال المغرب، فى مرحلته النهائية، مع ربطها بالمعلومات التى لدينا عن الفترة الأولى.

و هذا ليس كثيراً، لأن التوثيق ليس فقط تاريخيا، و لكننا أردنا أن نستفيد منه بسبب المعلومات العديدة التى يقدمها. فنحن مقتنعون بأنه سيساعد بدرجة كبيرة فى معرفة تاريخ الموريسكيين فى المنفى، وفى هذه الحالة بالتحديد، فى معرفة نفس التاريخ فى المغرب. إنها دولة قريبة جدا و مع ذلك بعيدة جدا عن أذهاننا و بالأخص عن تلك التى تحاول تقصى الماضى و تقديمه للأجيال الجديدة. هذا الموضوع هو جزء من دراسة أطول، ليس هذا هو الوقت للحديث عنها.

ملاحظة أخيرة عن هذا الكتاب. من الفصول العشرة أو الأبواب التى تكّون الكتاب، نجد أنها تشير كلها تقريبًا الى مدينة تطوان. فمن جانب يرجع هذا الى أن المخطوطات التى بين أيدينا كانت تشير إلى هذه المدينة، و من جانب آخر أنه كان هناك احتياج فى شمال المغرب الى دراسات أكثر للبحث فى هذا المجال.

ففى تاريخ المغرب سنجد أجوبة للكثير من التساؤلات، والتى لا تزال مجهولة، من تاريخنا ذاته.

غرناطة فى ٣١ ديسمبر ١٩٩١

على شكل تمهيد: الموريسكيون فى المغرب(*)

(جوانب من الحياة فى المنفى)

توجد فترتان من المنفى الإسبانى - الإسلامى فى شمال إفريقيا تسترعيان اهتمام المؤرخ، بصفة خاصة، أو ببساطة دارس التاريخ، وهما: سقوط مملكة بنى نصر فى غرناطة، وطرد الموريسكيين ١٦٠٩-١٦١٤ .

بالرغم من أنهما كانا حدثين أساسيين فى تحول الشعوب فى كلتا الضفتين من مضيق جبل طارق، ولكن كان ينظر إليهما بطريقة انحيازية وحزبية. حيث أُخذت فى الاعتبار المظاهر الدينية و الاقتصادية والاجتماعية لهذه الأحداث، من وجهة نظر ناحية واحدة فقط، ألا وهى وجهة نظر المنتصرين.

بقى المنهزمون الذين تم تهميشهم فيما بعد دون تاريخ، كما يحدث عادةً فى كل أزمنة الأحداث الإنسانية.

ليس سبب هذا أن المنفيين لم يؤثروا كثيرًا فى البلاد التى وصلوا إليها، ولكن لم يهتم أحد لا من هنا ولا من هناك بأن يبرز أفعالهم ولا بانتصاراتهم وفشلهم، بصعودهم و هبوطهم، بحياتهم التى اقتُلعت فى النهاية بمنتهى القسوة من وطنهم ومن ثم من عائلاتهم ذاتها. سنعرض لخروج الإسبان المسلمين الجماعى عند سقوط مملكة غرناطة وكيف أن وصول هؤلاء المنفيين إلى المغرب كان فى غاية الأهمية

(*) ملخص لمحاضرة ألقيتُها فى سبتة، فى ١٦ نوفمبر من ١٩٩٠، نظمها معهد الدراسات السبتية.

وكانت له نتائج أكثر من التى كتبت، ومن التى ما زال يجهلها المتخصصون فى هذا المجال.

سوف نتناول – فيما بعد – هذه الأهمية وهذه النتائج المعروضة بطريقة موجزة جدا.

لقد كانت للمواجهة الإسلامية –المسيحية على امتداد العصور الوسطى فى كلا الجانبين الشمالى والجنوبى، من البحر الأبيض المتوسط، عواقب خاصة فى شبه جزيرة أيبيريا كما نعرف.

إن الثمانية قرون من الحرب والتى تأخرت فيها الممالك المسيحية فى أن ترجح الكفة ناحية الحضارة الأوربية الغربية قد حددت، بشكل ما، خصائص الشعوب التى قاومت.

فى الواقع كانت لهذه الحرب الطويلة والتى أطلق عليها المسيحيون "حرب الاسترداد" هذه الخاصية منذ البداية وامتدت حتى وقعت فى أيديها كل الأراضى، أى حتى اختفت السلطة الإسلامية من شبه جزيرة إيبيريا.

و قامت قشتاله بالدور الأخير فى إنهاء هذه المهمة.

و كانت البرتغال قد أنهتها مسبقًا.

لقد واصل الجانب البرتغالى المواجهة الحربية عندما ثبّت قدميه فى الضفة المواجهة لجبل طارق، باحتلال سبتة، عام ١٤١٥ .

كانت هناك صدمة عظيمة فى العالم الإسلامى تجاه هذه الخسارة، بالرغم من أنه، وخلال فترة ما، كان هذا مجرد حادث عرضى مما كان يمكن أن تعانى منه البلاد الإسلامية فى الشمال الإفريقى والتى كانت مهددة بالسقوط، تماماً مثلما حدث للممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة. كانت الدول المسيحية تريد أن تشمل حرب الاسترداد الشمال الإفريقى.

كان يبدو أن احتلال كل من القصر الكبير فى ١٤٥٨ و أرسيلة و طنجة فى ١٤٧١، أدى إلى نتيجة متوقعة و هى وجود محمية برتغالية فى الشمال المغربى، قابلة للامتداد فى فترة قصيرة لتشمل مملكة فاس.

لقد أوضح إيقاف هذه الحركة التوسعية صعوبة المحاولة وأن البرتغال بمفردها لن تستطيع تنفيذها. حدث هذا مع كارثة طنجة فى ١٤٣٧ .

ولكن لم يكن هذا عائقًا، كما قلنا، لكى يتم الاستيلاء لاحقًا على الموانئ الساحلية والتحكم هكذا فى التجارة وخنق اقتصاد بلاد المغرب.

كان البرتغاليون يشنون، من قواعدهم، غارات مفزعة ويفرضون ضرائبهم على المدن الواقعة فى الشمال المغربى.

لم تنج من ذلك قبائل بعيدة جدا عن الحدود كبنى عروس **Beni Arós** أو بنى حسن **Beni Hasan** .

كانت أطلال تطوان المدمرة، التى أتلفها جيش سبتة فى ١٤٣٧، تستخدم مرات عديدة كمكان لمبيت الجيش البرتغالى فى أثناء انتقالاته من و إلى الداخل.

لم تكن هناك قوة مركزية منظمة قادرة على مواجهة هذا الهجوم المسيحى بفاعلية. وكانت المغرب غارقة فى الفوضى. والكل كان يحارب بعضه بعضًا .

كان المرشدون الدينيون يتحولون بسهولة إلى رؤساء سياسيين وحربيين ويقسِّمون البلد إلى طموحات و سلطات متنازعة فيما بينها.

كان يبدو أن كل الأراضى محكوم عليها بالوقوع فى أيدى إيبيرية. هذه القوى الإيبيرية كانت تنهض بشدة فى الغرب الأقصى من البحر الأبيض المتوسط، وكانت تدفع الإسلام تجاه الجانب الآخر.

كان يبدو أنه لا يمكن إيقاف هجومها.

وحتى آخر قطعة أرض أوروبية صغيرة فى أيدى المسلمين كانت على وشك الاختفاء قرب نهاية القرن الخامس عشر.

ولقد تقاسمت نفس هذه القوى مناطق السيطرة فى العالم، فمملكة فاس كانت من نصيب البرتغال و كانت جزر الكنارى من نصيب قشتالة.

عندما سقطت غرناطة، دوى الحدث كصدى للنصر وللانتقام من سقوط القسطنطينية. إذا كان الإسلام قد كسب مراكز في الشرق، فقد فَقَدَ مركزًا في الغرب. كانت المسيحية، في الجانب الآخر من البحر المتوسط، تستطيع أن تحاول استرداد الأماكن المقدسة. وكانت المغرب تبدو غنيمة سهلة.

كانت حاميات أرسيلة و طنجة تنهب و تحرق ميناء العرائش Larache، و كانت تصل إلى موانئ القصر الكبير.

كانت قبائل سبتة تتنزه دون عقاب في جنوب المدينة، وفي فترات ليست قصيرة، كان لشعب سبتة مزارعه وماشيته في وادي نغرون Negrón .

وكانت المراكب، التي لها قواعد في سبتة، تسيطر على المضيق و كانت تغير على السواحل المغربية حتى ما بعد ترغة Targa، على بعد مائة كيلو متر، والتي نُهبت عدة مرات.

كان سكان الساحل يبتعدون عن الشواطىء أو يذهبون للنوم في الجبال المجاورة لكي ينجوا من الضرر الذي يلحق بهم أثناء مواكب الفرسان أو الإنزال المفاجئ للركاب والبضائع من السفن.

كان يكفي، في نهاية حرب غرناطة، أن تتفق القوتان الإيبيريتان لكي تسقط في سلطتهم كل الممالك الشمالية - الإفريقية الصغيرة التي أنهكها التقسيم والفوضى، كما حدث جزئيا عندما بدأ فرناندو الكاثوليكي Fernando el Católico هجومه، في بداية القرن السادس عشر، والذي ترك كل الموانىء الرئيسية من شمال إفريقيا وحتى مصر في أيدي قشتالية.

ليست هذه رؤية افتراضية للموقف، ولكنها واقعية، تمامًا كما كان يحدث في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر والأعوام الأولى من القرن السادس عشر والذي كان يغلق الفترة الأخيرة للعصر الوسيط.

ومع ذلك، كانت هذه النظرة تتغير بطريقة غير محسوسة، في الشمال المغربي، الذي كان مسرح لقاءات حربية مكثفة، والذي كان على وشك التحول إلى محمية برتغالية.

كانت مناطق شاسعة من نفس المنطقة، التي تحول سكانها إلى دافعي ضرائب للبرتغال، شهود حزينة على الإتاوات والحرائق والدمار من جانب المحاربين، الذين كانوا يمنعون هذا الاستسلام السهل للعدو الديني وكانوا يعاقبون من يُطلق عليهم اسم "مسلمي السلام" .

لقد تحولت تطوان، التي ظلت أطلالها خاوية على مدى ما يقرب من نصف قرن، إلى مركز الحرب، الأرضية وأيضًا البحرية، التي وضعت حواجز لا يمكن اجتيازها للتوسع البرتغالي.

لم يعد أهل تطوان الآن ريفيين بائسين، مسلحين بالعصي والحجارة، ولكن أصبحوا آلافًا من المحاربين، الماهرين في تشغيل الأسلحة الخاصة بالعصر، وفي نفس الوقت، فرسان مهرة، وكانوا يتحدّون مع المقاومين القلائل الغزو المسيحي، وكانوا يغيِّرون مفهوم الحرب. وبالإضافة إلى ذلك، كان في تطوان مركز حرب بحرية أنشأه وطوره محاربون وبحارون ما عادوا مجرد صيادين فقراء في السواحل وغنائم سهلة للمقارع السبتية.

هؤلاء الخبراء و المقاتلون في البحر كانوا على وشك تحويل مياه الألبوران Alborán إلى مصدر خطورة لأي سفينة مسيحية، وتحويل سواحل شبه الجزيرة إلى شواطئ محفوفة بالمخاطر حيث كان يعاش فيها في خطر دائم من الوقوع في أسر العدو.

والآن كانت المدن الساحلية في مملكة غرناطة القديمة هي التي تهرب إلى الداخل، تاركةً مساحة شاسعة بجوار البحر مهجورة وخالية.

كان الزمان يتبدل، إلى حد أن فرناندو الكاثوليكي ذاته، قبل وفاته بخمسة أعوام، أراد أن يوقف المستقبل السيئ الذي كان ينتج عن الموقف الخطير في الضفة الجنوبية

القريبة من المضيق واعتزم العبور إلى الضفة المواجهة بجيش قادر، محاولاً احتلال مملكة فاس.

منعت المشاكل الأوربية تنفيذ المهمة. ماذا حدث؟ من كان هؤلاء الآلاف من المحاربين الذين ظهروا فى ساحة الحرب فى شمال المغرب وكانوا يغيّرون، كما يبدو، مجرى التاريخ؟

ببساطة كان المحاربون المنفيون من غرناطة هم أول من نراهم يتحركون فى ساحة اللقاءات الحربية فى شمال المغرب .

فلم يكن الشعب أو الفلاحون أو الحرفيون أو رجال القانون أو الفقهاء هم أول من هاجروا، بعد انكسار المملكة الإسبانية- الإسلامية المهزومة. إن الذين فتحوا مسيرة النفى هم المنهزمون النبلاء الذين يمثلون نخبة جيش غرناطة.

كانوا هم " زهرة غرناطة " على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين.

كان الكثيرون منهم، و قد خُيبت آمالهم مسبقًا، أمام الهزائم المستمرة والنزاعات المدنية، يتحركون فى جماعات وفى المقدمة رئيسهم، قبل سقوط عاصمة المملكة فى أيدى مسيحية بأعوام. هذا ما حدث مع الثلاثمائة فارس، الذين أرسلهم الزعيم سى على المندارى Si Ali al Mandari والذين سوف يشيدون الأبراج والأسوار والبيوت من بين أطلالها فى مدينة تطوان الخالية.

حدث ذلك فى حوالى عام ١٤٨٤ – ١٤٨٥ وبالتأكيد فى هذه الفترة لم يتبق لأبى عبد الله الصغير Boabdil ولا نصف هذا العدد من الفرسان لكى يواجه جيش الملك فرناندو القوى.

أيضًا لم تكن حامية سبتة مستعدة لمواجهة هذه الآلة الحربية القادرة.

ستظهر قريبًا وبشكل ملموس هذه النواة العسكرية، المتماسكة والمدربة بصورة كافية، خلال الحروب التى ستنشب فيما بعد.

لم يشكل وصول هذه المجموعة الموريسكية مجرد إيقاف مفاجئ لتنامي السيطرة البرتغالية على الأراضي و سلبها المتوالي و الذي أدى، إلى جانب ذلك، إلى اشتداد صلابة جزء كبير من الشعب المهزوم في الطرف الآخر، محولين تطوان إلى بداية نهاية هذه السيطرة المسيحية والتي كانت تهدد باحتلال مملكة فاس.

منذ ذلك الحين، كانت المواقع العسكرية للحدود مضطرة إلى تقليل الهجمات أولاً، ثم اختصارها بعد ذلك، وأخيراً بقاء جنودها معزولين خلف الأسوار ذات الحصون المزودة بالمدفعية.

انعكس هذا الموقف في أخبار العصر البرتغالية، حيث تروى بالتفصيل هجمات الجنود المسلحين الماهرين الغرناطيين من تطوان ومن الأندلسيين، الذين يحاصرون الآن الميادين القوية دون أن يحصلوا على نتائج ملحوظة بسبب نقص المدفعية.

نستخدم تعبير "دون نتائج ملحوظة" لأن، تأثيرات الهجوم الموجه ضد هذه الموانئ الحصينة لم تُنتج تغييرات مثيرة كما كان سيحدث لو سقطت سبتة و القصر الكبير وطنجة أو أرسيلة في قبضة المهاجمين.

لقد بقيت كلها كنقط محفوفة بالمخاطر، لكنها فقدت فاعليتها العدائية المهولة ودورها كرؤوس جسور للقيام بأي غزو أو توسع أرضي.

مع الزمن ستكون تكلفتها عالية جدا على الملك البرتغالي، بالنظر إلى الفوائد القليلة التي تعود منها، وسيبدأ البرتغاليون في إخلائها في منتصف القرن السادس عشر.

لقد فشلت غايتها القصوى ومرادها الأعلى.

لقد فعل الغرناطيون المنفيون والموريسكيون الهاربون في البلد المغربي ما لم تستطع القوات الإفريقية الوحيدة تحقيقه، وهو إيقاف الهجوم المسيحي الموجه لاحتلال الأراضي.

ليس من شأننا أن نحلل ما يمكن أن ينتج من إخضاع واستعمار لملكة فـاس إما من جانب البرتغال، أو من قشتالة، أو من اتحاد القوتين. فعلى الأقل نحن نعتقد أن الخيال التاريخى لا يجب أن يمثل مجالاً للبحث لأى باحث تاريخى.

لقد حاولنا ببساطة أن نشخص بعض الأحداث التاريخية لكى نوضح، بخطوط عريضة أنه لولا الهجرة الموريسكية إلى المغرب، و دعمهم للقوات المغربية، لاختلف الأمر اختلافًا جذريًا.

عندما قررت البرتغال المخاطرة عام ١٥٧٨، كان ذلك متأخرًا جدا، بالإضافة إلى عوامل سلبية أخرى ليس هنا مجال لعرضها.

فى أراضى القصر الكبير، أمالت القبائل الأندلسية ميزان القوة لصالح السلطان المغربى الذى استطاع أن يصد بسهولة نسبية تلك المحاولة، التى ليس أفضل من أن يقال عنها أنها متأخرة، والتى كانت قد فقدت فاعليتها منذ حوالى قرن على الأقل.

فى الواقع، لم تكن المغرب منذ وقت طويل، الهدف الاستراتيجى الذى تريده إسبانيا، فقد تحولت السياسة الإسبانية الخارجية ١٨٠ درجة عند موت فرناندو الكاثوليكى و اتجهت إلى نواح أخرى.

ترك حفيده، الامبراطور كارلوس el Emperador Carlos، تقريبًا الجبهة الجنوبية المجاورة، بالكامل فى يد قريبه، خوان الثالث JuanIII ملك البرتغال، هذا الأخير الذى كان يستطيع بالكاد دعم القوات الموجودة فى ممالك مراكش و فاس، بدأ استشارة كبار رجال الملكة لإبداء رأيهم فى محاولة ترك الميادين الإفريقية القوية.

بدأت عملية الإجلاء فى فترة حكمه كما أشرنا، وكان خليفته الملك سبستيان D.Sebastián هو الذى انتهى بصورة مأساوية فى معركة القصر الكبير.

نستطيع أن نطيل أكثر فى الحديث عن تأثير الموريسكيين والأندلسيين، كقوة أسهمت فى ميدان القتال بفضل الجهود و التضحيات.

لقد سال الدم الموريسكى بسخاء فى المغرب. و قد غمر الموريسكيون مساجد المغرب بالفقهاء ومدارسها بالأساتذة، وحكوماتها بالوزراء، وكل وظائفها، بمستشارين وقادة وفنانين وصناع وجنود وتجار وبحارين وأدباء وقضاة، إلخ، حتى تشربت حضارة إفريقيَّة ببريق أندلسى.

الفصل الأول

تطوان من قرن المندارى إلى قرن عائلة النقسيس
(من القرن السادس عشر إلى السابع عشر)(*)

مقدمة

لعبت مدينة تطوان، الواقعة على بعد ٤٠ كيلو متر من جنوب سبتة، إلى جانب هذه المدينة الأخيرة، دوراً حاسماً فى التغييرات التى حدثت فى مضيق جبل طارق فى كل العصور، ولكن بالأخص، بداية من إعادة تأسيسها على يد المنفيين الغرناطيين، حوالى عام ١٤٨٥ .

عندما خسر الغرناطيون الحرب ومعها آخر الممالك الإسلامية فى إسبانيا، فضلت نسبة كبيرة من نبلاء غرناطة النفى الإرادى حتى قبل أن يجربوا معايشة المنتصر.

ظهر قائد غرناطى، وهو أبو الحسن على المندارى **Abu-l-Hasán Alí al Mandari** على رأس المئات من الفرسان فى وادى نهر مارتين، و هو يحارب البرتغاليين فى سبتة. و حصل على إذن بالاستقرار فى تطوان، التى أعاد تأسيس أطلالها ومنازلها وأسوارها وأبراجها، واستقبل التوافد المستمر والمكثف، والجماعى أحياناً للمهاجرين الغرناطيين.

تكونت نواة مدينة، ذات كثافة عمرانية عالية، على بعد ١٠ كيلو متر من شواطئ البحر الأبيض المتوسط فى مصب نهر مارتين السابق ذكره، وكانت لها خصائصها

(*) وثيقة خطية مقدمة للمؤتمر الثانى حول مضيق جبل طارق، سبته، نوفمبر ١٩٩٠ .

الذاتية، الموروثة من المدن الإسلامية فى شبه الجزيرة، ولكن هناك، فى الأراضى الإفريقية، كانت لها ملامح مختلفة جدا.

يكفينا أن نوضح اثنين من هذه الملامح. أولاً: البيئة المحيطة، و ثانيًا: وسائل المعيشة.

بالنسبة للبيئة المحيطة، فنحن نشير أساسًا إلى المحيط البشرى، حيث كان غرناطيو تطوان محاطين بسكان ليسوا غرناطيين، و يتخذون موقفًا عدائيا من الذين وصلوا حديثًا ولذلك وجب عليهم العيش منغلقين على أنفسهم لفترة كبيرة.

فيما يتعلق بوسائل العيش، كان هناك عنصر غريب فى شبه الجزيرة ولكنه ليس كذلك فى الشمال المغربى، وبالأخص، فى هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوسط، بالرغم من كونه ليس جديداً، بل كان على عكس ذلك، أعنى بذلك عنصر القرصنة، الذى كان يُمارس قبل ذلك عند وصول الغرناطيين إلى مصب نهر مارتين، ولكن، بعد وجودهم، أُعيدت ممارسته وتم تكثيفه، و بعد أعوام قليلة شكّل وسيلة العيش الأساسية لمعظم السكان الغرناطيين فى تطوان.

إن وجود هذه البؤرة الحربية، سواء البرية أو البحرية فى أيدٍ تكنّ عداءً لمسيحيى شبه الجزيرة، سوف يشكل عاملاً ذا أهمية قصوى فى تطور كل الأحداث التى ستقع فى منطقة المضيق، من نهايات القرن الخامس عشر فصاعداً.

و ستدوى تطوان فى مسامع كل الدول المسيحية الغربية بأصداء ليست واعدة.

على العكس، ستكون تطوان نفسها المقصد المأمول لآلاف كثيرة من البشر، مهمشين كأقلية منهزمة، تواقين لحريتهم السياسية والدينية، و هم المدجنون أولاً والموريسكيون بعد ذلك، هذا بجانب مجموعة لا يستهان بها من اليهود.

بالإضافة إلى ذلك، فإن ذريتهم التى تزايدت بسبب الهجرات المتتابعة، سوف تتأخر وقتًا طويلاً فى أن تصبح عنصرًا أساسيا من عناصر البلد الذى استقبلهم.

هناك، فى تطوان التى أعادوا تأسسيها، يبدو أن الشعور بنبضات قلب إسبانيا الأخرى يأخذ صورة أكثر قوة. إسبانيا الإسلامية التى حاربت لمدة ثمانية قرون لكى تفرض ثقافة باءت بالهزيمة فى نهاية الأمر.

من حين لآخر، يتجه هذا النبض بشكل ما إلى الضفة الأخرى التى يبدو أنها كانت توقظ حنينًا بعيدًا. فى الحقيقة، الأمر يتعلق بتصورات تاريخية حقيقية جعلت، على سبيل المثال، أحد حكام تطوان يعتبر نفسه تابعًا للملك الإسبانى.

إن الأهمية الاستراتيجية التى أعطاها الحكام الإسبان لتطوان كبيرة جدا، إبتداءً من فرناندو الكاثوليكى ذاته، حتى فيليبى الثانى، حيث كانوا يناقشون و يصممون خططًا، خلال أعوام كثيرة، لغزوها أو هدمها.

إن بطولة هذه المدينة، و التى كانت بؤرة القرصنة الإسلامية، قد تزايدت عندما احتل البرتغاليون المفتاح الإفريقى لمضيق جبل طارق فى أوائل القرن الخامس عشر، وقد انعكست آثارها فى الحكام الإسبان و امتدت لتشمل السلطة البابوية. و فى ٢٣ مايو عام ١٤٨٨، كتب البابا إينوثنثيو الثامن Inocencio VIII رسالة للملوك الكاثوليك، يقترح فيها توجيه أسطول دائم ضد القراصنة المسلمين[(١)].

من الواضح أن الفكرة كانت تستهدف بشكل أساسى مياه المضيق، التى كانت مسرحًا أساسيا لأنشطة القراصنة.

تطوان لم تنج فقط من انهيار و سقوط آخر، كالذى حدث فى ١٤٣٧، عندما هدمها برتغاليو سبتة، ولكنها نمت وتطورت أيضًا، بصورة كبيرة لدرجة أنها سوف تؤثر بشكل واضح فى غالبية الأحداث، التى تجرى فى محيط مضيق جبل طارق.

إن فحص الأحداث المتعلقة بكل ضفة على حدة يشير إلى أن تاريخ الضفتين لا يمكن فصلهما و ذلك من خلال ازدواجية كلٍ من سبتة و تطوان.

ومن هنا يجب الأخذ فى الاعتبار بحث تاريخ تطوان، على غرار البحث فى تاريخ سبتة.

بالإضافة إلى ذلك، فهناك مظهر من مظاهر التاريخ الإسبانى، لم يُبحث بعمق، وهو مصير المنفيين الذين توجهوا إلى السواحل المقابلة، عبر المضيق.

لقد تحدثنا عن القرن الأول بعد أن أعاد الغرناطيون بناء تطوان. و هو القرن الذى يمكن أن نطلق عليه قرن المندارى.

سنركز دراستنا على فترة ما بعد موت مؤسسها، ووراثة زوجته، ست الحرة Sit al Hurra ، وأحد أحفاده السياسيين، أحمد حسن، Ahmed Hasan، الذى وصلت أخباره حتى ١٧ سبتمبر ١٥٥٧ .

منذ قرن المندارى وحتى ظهور عائلة النقسيس كحكام لتطوان حوالى عام ١٦٠٠، فى فترة طويلة من التاريخ التطوانى، سنجد فترة انتقالية غامضة إلى حدٍ ما، سوف نحاول إلقاء الضوء عليها فى هذه الدراسة.

نعتقد أنه من الواجب القيام بذلك قبل الشروع فى محاولة التعرف على قرن عائلة النقسيس فى تطوان.

حروب غرناطة الأهلية فى تطوان

عرضنا، فى دراسة سابقة، الفترة التى تلت المندارى مباشرةً، حتى اختفاء القائد أحمد حسن بشكل غامض، وكان ذلك القائد رئيسًا لحكومة تطوان.

من الممكن أن تكون آخر وثيقة ظهر فيها اسمه هى الرسالة التى كتبها حاكم سبتة، فرناندو دى مينسيس Fernando de Menses، إلى الملك البرتغالى سبستيان، والتى قال له فيها، بين أشياء أخرى، إن لديه أنباء من بلاد البربر Berbería على وجود ملك فاس فى حملة عسكرية(٢) .

"dizen que hee para vir sobre Tetuao, por Acem recolher nele navios de Turquos sem sua liçença".

إن تاريخ الرسالة، ١٧ سبتمبر ١٥٥٧، يضعنا فى العام الذى اغتال الاتراك فيه السلطان محمد الشيخ Muhammad as Saij ، مؤسس السلطة الملكية السعدية. ربما يكون هذا الأخير نفسه هو الذى هدد القائد حسن لتواطؤه مع الأتراك الذين كان يكرههم ويخاف منهم.

كل من حسن فى تطوان، أو محمد بن راشد Muhammad ben Rashid فى شاون، وهم الملاك الحقيقيون للشمال المغربى، قد ساعد السعديين فى مواجهة الوطاسيين، وهم يعتقدون أنه يمكن أن يستمروا فى التمتع بالاستقلالية الفعلية. ولكنهم سريعًا ما ندموا، بعدما اقتنعوا بالعكس. وكانت أفعالهم معارضة تمامًا لأى محاولة لترسيخ سلطة مركزية كالتى كان السعديون على وشك تنفيذها.

قبل الوثيقة التى فحصناها نجد آثارًا لثورة فى الشمال ضد السلطة السعدية المستجدة، حدثت فى عام ١٥٥١ . لا نعرف ما إذا كان قادة تطوان و شاون قد أيدوا هذه الثورة، ولكن إذا كانوا فعلوا ذلك، فقد أخفوه لأنهم استمروا فى مناصبهم عدة سنوات أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الثورة لم تتركز فى مدينتىّ تطوان والشاون نفسها، ولكنها كانت فى "جبل بالقرب من تطوان"، إن الأمر، بالتالى، يتعلق بسكان جبليين والذين، وفقًا للأخبار التى جُمعت فى الثانى من أغسطس ١٥٥١، هزموا العديد من القادة الذين أرسلهم الشريف(٣) .

كان يجب على الشريف أن يفعل الكثير لكى يعرف بشكل مباشر ما إذا كان قادة الشمال يتبعوه بإخلاص أم لا. على الأقل ساعده واحد منهم، وهو حاكم الشاون، بقواته الخاصة عند حصار فاس، والآخر كان يقدم طاعته صوريًا.

كان التطوانى حسن، الأكثر مكرًا وحذرًا، يلعب على الجانبين: جانب تقرُّبه إلى إسبانيا، (فى ذاك العصر الامبراطورى الذى كان يعمى فيه بريق الملكية بسلطته وامتداده)، و جانب إخلاصه للسلالة الملكية الجديدة التى قامت أكثر قوة من السلالة الوطاسية المحتضرة.

منذ عام ١٥٤٢ تربع حسن، البسطى القديم، على رأس حكومة تطوان إثر انقلاب فى القصر، و قد أدار شئون المدينة والقرصنة وكل ما يتضمنه ذلك المجتمع الغرناطى – التطوانى الذى تكون فى المنفى. كان يحسب له التفاف طبقة النبلاء الغرناطيين حوله، وكانت هذه الطبقة نواة المركز المدنى للشمال المغربى(٤) .

لا نعرف فى الحقيقة، ما إذا كان الشريف مولاى الشيخ قد طرد أحمد حسن من الحكومة التطوانية أم لا. كانت مشاكل السلطان كبيرة جدا فى ذلك الوقت بحيث نشك فى تنفيذه لحركة فعلية ضد القائد.

من ناحية أخرى، فإن عُمر أحمد حسن كان يحتمل أن يكون متقدمًا جدا فى أواخر عام ١٥٥٧، إذا أخذنا فى الاعتبار أنه ولد فى باثا Baza وأنه أتى مع الهجرة التى تلت حرب غرناطة أو بعد ذلك بقليل.

لا نتعجب ، إذًا، من وجود شخص آخر يقود مصائر المدينة فى بدايات عام ١٥٦٢ .

نعرف القليل جدا عنه. كان يُدعى سيدى حامو Sidi Hamu و تمرد علنًا على الشريف مولاى عبد الله، و كان يأمل فى مساندة الأتراك له(٥) .

لقد تعارض بالفعل تاريخ ٦ مارس ١٥٦٢، فى أحد الوثائق التى تذكر القائد حامو، مع تاريخ آخر تالى ذكره المؤرخ الإسبانى مارمول كارباخال.

فى الواقع، يحدثنا مارمول أيضًا عن القائد حامو، و يروى بعض الظروف التى يهمنا عرضها. ينقلنا نص المؤرخ إلى غرناطة فى الأعوام الأخيرة للسيطرة الإسلامية، الممزقة بسبب الانقسامات والاغتيالات والصراعات القبلية المستمرة، و مع ذلك فإن تطوان كانت موقع الأحداث.

"فى هذا الوقت كان فى مدينة "تطوان" حزبان: حزب أولاد بو على Bu Alis وحزب أولاد بو حسن .Hassenes Bu بعد ذلك طرد أولاد بو على أعداءهم بالقوة، فى عام ١٥٦٧، فى اليوم الذى تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكة بعيد الجسد Corpus Christi ، وكان حسن قائد المدينة غائبًا عنها، ودخل سيدى حامو قائد الحزب المعارض إلى

المدينة وقتل كل نسل بوعلى، واستولى عليها. وفيما بعد، و عندما علم الشريف ملك فاس بذلك، أرسل قائداً يدعى بن حُليفة Ben Holifa ، ومعه ألف فارس على ظهور الخيل، والدوغيلى Dogueyli الأندلسى، مع ألفين من الجنود المشاة من حملة البنادق الأندلسيين، فدخلوا بسلام فى تطوان واعتقلوا سيدى موسى Sidi Musa وأرسلوه محبوساً إلى فاس، وطردوا أولاد بو حسن مُن المدينة وبقى فيها بنو حليفة، ورحل الدوغيلى إلى المغرب، عندما كان الشريف عبد الله Abdela موجوداً هناك، وهكذا انتهت سيادة عائلة المندارى(٦) ".

لا يتفق، كما رأينا، تاريخ عام ١٥٦٧ الذى ذكره مارمول، مع تاريخ ١٥٦٢ المذكور فى الوثيقة الموجودة، ويجب أن نرجّح، من وجهة نظرنا، صحة هذا التاريخ الأخير.

هناك أمر آخر لا يبدو واضحاً وهو ما إذا كان "الحسن" الذى ذكره مامول، والذى ساعد غيابه عن المدينة فى وقوع انقلاب حامو، هو نفسه أحمد حسن، خليفة الحرة، أم أنه واحد من أبناء حسن الذى ذكره المؤرخ، أو أن يكون من نسله.

ما نستطيع أن نستنتجه، طبقاً للمؤرخ القشتالى، هو أن سيدى حامو هو الذى طرد حزب أفراد الحسن من الحكومة التطوانية.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أحزاب وصراعات بين الغرناطيين أنفسهم، ومنذ التدخل المركزى، لن تكون القيادة فى تطوان حكراً على الأندلسيين، و سيعينهم السلطان خلال الفترة الزمنية التي امتدت، على الأقل حتى حكم عائلة النقسيس فى القرن التالى.

وجدنا اسم قائد تطوانى، وهو على غودويش "aligudubex" أو على غودوبيرا "aligudubera" ، بجانب أحد الحكام من عائلة النقسيس، فى مخطوط افتداء أسرى، مؤرخ فى عام ١٦٠٧ (٧) .

هناك مصدر آخر، ليس أقل أهمية من مصدر مارمول، و فى رأينا له نفس القيمة، وهو الذى قدمه المؤرخ التطوانى العظيم محمد داوود Muhammad Dawd . لم يحتو

كتابه عن تاريخ المدينة على مجرد أخبار معاصرة، كالموجودة في كتاب"مصادر جديدة عن تاريخ المغرب"، ولكن هناك أيضًا أخبار ترد في كتب كلٍ من مارمول وليون الإفريقي. علاوة على ذلك، يقدم لنا أخبارًا وأحداثًا، وردت في مؤلفات الكتاب العرب عامة والمغاربة بوجه خاص، ولم يبحثها أو يجمعها الأوروبيون، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة. إن ما يقدمه لنا الكتاب من أشياء قيمة، وما يتمتع به من دقة علمية بالغة، استثنائية في كاتب من عصره، قد جعل من استخدام الكتاب أمرًا عظيم الفائدة . وبعد تلخيص نص مارمول وإيضاح ما يعتبره داوود فراغات في معلومات المؤرخ، يضيف أنه لا توجد تفاصيل كثيرة عن هذه الصراعات الأهلية في الكتابات العربية.

يذكر لنا أنه في تاريخ السلطان عبد الله يمكن قراءة معلومات عن الحملة التي وجهها في ٩٦٩ ه/ ١٥٦١-٢م إلى المنطقة الجبلية الشمالية، حيث وصل إلى مدينة الشاون، والتي طرد منها بني راشد Banu Rasid . وفقًا لما نراه، كان هذا التاريخ هو الذي سار فيه مولاي عبدالله ضد سيدي حامو، الثائر في تطوان.

من الجائز جدا أن يكون السلطان قد سار مباشرة في حملة ضد الشاون وبعد ذلك أرسل الجنود مع القادة ضد القائد التطواني الثائر.

ولكن بالإضافة إلى ذلك سوف يستمر تضارب التواريخ.

كان للصراعات الأهلية في تطوان تأثيرها في المؤرخين المغاربة. وسوف يذكر لنا داوود بعضًا منهم: ابن القاضي Ibn al Qadi و إسكيري Esquirey و إيرهوني Erhuni، على سبيل المثال.

يقدم لنا ابن القاضي، وفقًا لداوود، معلومات عن يوم و شهر و سنة الحدث الأخير لهذه الظروف.

" في ٩ من محرم من ٩٧٥(الموافق ١٦ يوليو من ١٥٦٧)، طرد الأمير أبو محمد عبد الله الشريف الحساني القائد حسين، كقاضي لتطوان"[(٨)] . يفسر داوود ما حدث: ثار بعض سكان تطوان، والذين كان يرأسهم القائد حسين، ضد القائد الشرعي،

والذى كان يُسمى الحاج على الديب Hayy Ali ad Dib وطردوه. انتقل على الديب إلى جزء آخر من المدينة، طالعة Tal'aa، و التى من اسمها يُحتمل أن يكون موقعها فى الجزء الأعلى من منحدرات جبل درسه Dersa . هناك جمع مؤيدين له، و تمكن بعد ذلك من هزيمة الحسين، و طرده من المدينة، و عاد إلى حكمها. لكن، فى غياب الديب، غزا القائد حسين المدينة مع أتباعه، وقام بمذبحة عظيمة بين أعضاء الحزب المعارض. عندئذ أتت قوات السلطان وسجنوا القائد حسين وحملوه إلى فاس(٩) . الآن، وبالإضافة إلى التواريخ، نعانى من تشويش أكثر عند قراءة الأسماء المختلفة التى استعملها الكتّاب بالعربية للحديث عن أبطال الأحداث.

أول خبر مؤرخ عن القائد حامو كان من عام ١٥٦٢ . وحتى الآن لدينا هوة وثائقية منذ ١٧ سبتمبر ١٥٥٧ وحتى ٦ مارس ١٥٦٢ . أربعة أعوام وأكثر من خمسة شهور قليلاً بدون أخبار عن القائد التطوانى. ربما يمكن تغطية هذه الهوة الزمنية شيئًا ما إذا لجأنا إلى رسالة أخرى مؤرخة فى ٢٨ مايو ١٥٥٩ فى طنجة، و كتبها حاكم هذه المدينة إلى الملك البرتغالى، معلمًا إياه بأخبار بلاد البربر، ومن بينها، هجوم على هذا المكان قام به " ثلاثة حكام لتطوان والشاون وترغة Targa". من المنطقى أن نظن أنه، عندما ظهر باراّيشا Barraixa كقائد للشاون، كان أحمد حسن نفسه أو أحد أقاربه من عائلة بو حسن هو حاكم تطوان، لأن ابن راشد ينتمى إلى عائلة المندارى وكان يتفق مع قريبه السياسى، أحمد حسن، الذى نتصوره بصعوبة فى حلف مع عدو له، وهو حامو، والذى وصل إلى حد تنظيم مذبحة للحزب الحاكم القديم(١٠) .

إذا كان أحمد حسن قد مات فى فترة الهوة الوثائقية أو خُلع وجاء مكانه على الديب آنف الذكر، فهذا تساؤل لا يمكن لنا الآن الإجابة عليه. بالرغم من أنه مسموح لنا أن نعتمد، بالنسبة للأسماء، على ترجمة مارمول، والتى تضع على رأس الحزبين كلاً من حامو و حسن، دون تغيير الاسم الأول إلى حسين كما هو موجود فى الكتب المغربية.

و قد زاد من التشويش أن يطلق المؤرخان التطوانيان، إسكيرى و إيرهونى، اسم وسيج Wasij على حسين السابق ذكره، و أضاف المؤرخان أن وسيج هذا حكم تطوان

حتى موته. وقد ذكر إيرهونى خليفة آخر لوسيج فى حكومة تطوان، وهو محمد الزبان Muhammad az Zaban ، والذى لم يذكره إسكيرى.

نستنتج من الترجمات المختلفة ومن التناقضات الموجودة، أنه كانت هناك فترة فوضى عاشها المجتمع الغرناطى فى تطوان، و قد كرر الغرناطيون فى المنفى قصة انقساماتهم وصراعاتهم الأهلية. هذا فى لحظة طويلة إلى حدٍ ما، وحين سمح لهم ضعف السلطة المركزية المغربية بحياة مستقلة بالفعل.

هناك ملحوظة لداوود، فى الصفحة ١٢٨ من كتابه المذكور آنفًا، تدعونا إلى التفكير أكثر من أى نص طويل. تقول إن الأندلسيين كان لديهم أحزاب: منهم نبلاء ومنهم من ليسوا كذلك. كان النبلاء وأفراد عائلة الديب مناصرين للمنداري أو لعائلته، الغُمارى gumaris .

وبما أننا نعلم أن المنداري و أنصاره كانوا من حزب بنى سراج فى غرناطة، فإننا نجد أن روح العصبية ذات العواقب الوخيمة فى شبه جزيرة إيبيريا كانت قد انتقلت إلى المنفى، و ستكون لها هناك نفس العواقب: الضعف ثم ضياع الاستقلال الذى كان يحظى به الغرناطيون عند تأسيس هذا التجمع العمرانى.

توجد معلومة أخرى فى ملحوظة داوود تجعلنا نفكر فى تشكيل الحزب الآخر، المنافس لنبلاء بنى سراج. كل البيانات تجعلنا نتأكد من أنه فى هذا التاريخ زاد سكان تطوان بطريقة مفرطة بسبب الموجات الكبيرة من المهاجرين الذين كوّنوا حزبًا شعبيا كبيرًا جدا، والذى اختلط فيه العنصر الغرناطى، مع الغُماريين، و هم سكان القبائل المجاورة.

وكذلك فإن الحالة العامة للموقف، والمنعكسة فى وجود الصراعات الأهلية، تجعلنا نفكر فى تبريرات اقتصادية كأساس لتلك المشاكل. نريد القول إن الثروات الضخمة التى تجلبها القرصنة كانت تبقى فى أيدٍ قليلة والتى كانت دائمًا نفس الأيدى: النبلاء الغرناطيون.

هناك ملاحظة أخرى لداوود فى منتهى الأهمية فى هذا الصدد. يقــول داوود إنه لا يوجد شك فى أن تطوان فى ذلك العصر كان يسكنها المحاربون والجنود المشاة والفرسان، و لم يكن من الممكن لأى شخص أن يتولى الحكم إذا لم يكن على رأس المحاربين[١١] .

لقد كان أفراد عائلة بنى سراج المحاربين- وهم المؤسسون الحقيقيون للمدينة والذين شكلوا غالبية السكان فى البداية- يفقدون تفوقهم العددى، وذلك يرجع إلى الهجرة المكثفة والمستمرة، والتى لم تتوقف حتى بداية القرن السابع عشر. و لم يعرف أبناء هذه العائلة و لم يريدوا مواجهة المشاكل التى كان يطرحها النظام الاجتماعى بأى طريقة أخرى غير استخدام القوة. و كان هذا هو الأمر التقليدى. لقد أدت الحروب الأهلية فى غرناطة الى السقوط الكامل للدولة الإسلامية الإسبانية. وأدت الصراعات الأهلية فى تطوان إلى اختفاء الطابع الغرناطى الصافى الذى كان يميز المدينة، و قد أدى ذلك إلى الإسراع فى ذوبان العنصر البشرى لشبه الجزيرة فى العنصر البشرى للشمال الإفريقى.

وعمومًا كان من المحتم- كما حدث فى مناطق أخرى من المغرب- أن يذوب المنفيون الأندلسيون، لكن ليس بتلك الطريقة السريعة.

قرن المندارى الذى بدأ بحدثٍ ملحمىٍ حقا فى التاريخ، كتأسيس مدينة، قد انتهى للأسف بطريقة دامية، مع أسوأ المشاهد التى يمكن أن يقدمها سكان المدينة نفسها.

ربما كانت النتائج الأكثر حزنًا والتى ترتبت على ذلك هى اضمحلال تأثير الثقافة الأندلسية على الوسط الذى نشأت فيه.

إن الفترة التى ندرسها لم تكن كلها صراعات أهلية. بل كانت توجد أحداثٌ أخرى، إما فى تطوان نفسها، أو خارجها، مع ردود فعل يجب أخذها فى الاعتبار.

هجوم إسبانى على القرصنة التطوانية

تولى السلطان مولاى عبدالله الحكم حتى موته، فى ١٥٧٤ . كان هو، كما أثبت مارمول، من أطفأ نيران الحروب الأهلية التطوانية والذى عين مباشرة الحكام الجدد. شخصية هؤلاء ومدى أهليتهم أو عدم أهليتهم، كل ذلك شكل فجوة فى تاريخ تطوان، قلما تم تغطيتها بأسماء مشكوك فيها.

قال إيرهونى إن محمد الزبان هو الذى خلف وسيج.

لم يقل إسكيرى شيئًا عن الزبان هذا. مع ذلك يتفق المؤرخان فى ذكر إسم القائد محمد بوردان Muhammad Burdan، كحاكم لتطوان بعد وسيج وفقًا لإسكيرى، وبعد الزبان وفقًا لإيرهونى. لم يقولا شيئًا عن حكومته ولا عن الأحداث التى كانت موجودة خلال فترة حكمه، والتى يقال إنها امتدت حتى موته. حدث نفس الشىء مع القائد عبد الرحمن العلى Abd er Rahman al Aly، والذى امتد حكمه أيضًا حتى موته، ولكن دون أن يقول إيرهونى ولا إسكيرى شيئًا آخر عنه. يذكر داوود أن هؤلاء الحكام الأربعة هم الذين وجّهوا مصائر تطوان فى الربع الأخير من القرن العاشر الهجرى و الذى نحدده من ٨ يوليو ١٥٦٧و حتى ١٩ أكتوبر ١٥٩١ (١٢) .

هناك شىء آخر جديد يمكن أن نقدمه، فيما يتعلق بحكام تطوان بين التواريخ المذكورة. من الغريب، أننا قد وجدنا فى هذا اللغز أسماء بوردان والزبان، ولكن فى مرحلة زمنية أخرى غير التى ذكرهما فيها إيرهونى وإسكيرى.

فى المقام الأول، وفيما يتعلق بفترة الربع الأخير من القرن العاشر الهجرى، فإن لدينا مصادر تقدم لنا أخبارًا جديدةً عن سبتة، بجانب وثائق أخرى، أيضًا جديدة، ووثيقة أخرى، بالرغم من عدم كونها جديدة، و لكنها كذلك بالنسبة لهوية الشخصية التى تذكرها.

وفقًا للترتيب الزمنى سنبدأ بالحاكم حامو Hamú، و نؤكد وجوده على رأس حكومة تطوان فى عام ١٥٦٢ . النص الذى يؤكد ذلك هو التالى:

فى أغسطس عام ١٥٦٢عاد السيد فرناندو دى مينيسيس إلى حكومته / فى سبتة/ وشرع فى اشتباك شجاع مع سيدى حامو، أخو قائد تطوان... [١٣] .

بعد ذلك سجلت نفس الوثيقة وجود قائد تطوان السابق ذكره فى الموقع الإسبانى، والذى هرب من فاس وعاد إلى سبتة فى عام ١٥٧٠ ونزل فى مركب كوسميى لورينثو وذهب إلى طنجة، فى مركب آخر كان معه...[١٤] .

لا نعرف الآن شيئًا آخر عن القائد حامو بعد هروبه. ووفقًا لمارمول فإن حكم حامو لتطوان استمر عدة أعوام، على الأقل منذ عام ١٥٦٢ وحتى ١٥٦٧ حين خُلع وأُرسل مسجونًا إلى فاس.

فى أثناء تلك الفترة حدث هجوم الملك ألبارو دى باثان D. Alvaro de Bazan على خور نهر مارتين، والذى سنتحدث عنه لاحقًا، ولكن يبدو أن قوات السلطان هى التى واجهت هذه الهجمة الحربية. قصة هذه الواقعة ليست واضحةً تمامًا. نفس الخبر يحكى قصة حملة حربية أخرى ضد سبتة قام بها القائد سيدى موسى فى ١٥٧٧ . إنه القائد الذى يمكننا تحديد موقعه فى تطوان لأنه يتحدث عن هجوم برى وبحرى بمراكب شراعية وسفن تركية[١٥] .

علاوة على ذلك، فقد عُين سيدى موسى كحاكم لتطوان، منذ ذلك التاريخ على الأقل، كما ورد فى وثائق أخرى سوف ندرسها فيما بعد.

من المحتمل أن موسى كان قائدًا فى الثامن عشر من مارس ١٥٧٦، عندما خاطبه الملك عبد الملك Abd el Malik، دون أن يسميه بأكثر من اسم وظيفته، وعندما خاطب أحمد مفضل Ahmed Mufadal بعبارة "أمين خزائننا، حفظه الله"[١٦] .

أفضل من "أمين خزائن" يمكن أن نترجمها "جابى الضرائب"، وهى الوظيفة التى سوف نجدها مع أحمد مفضل هذا فى وثائق سوف نراها فى الحال.

مفضل هو سليل أحد الحكام الغرناطيين القدماء، و كان رفيقًا للمنداري فى إعادة بناء تطوان. ظهر مفضل والمنداري فى مخطوط من عام ١٥٢٣ كملاّك للعبيد، وعندما مات القائد المؤسس فى ١٥٤٠، ظهر مفضل آخر كقاضى للمدينة فى نص من عام

١٥٤٨، ونفترض أنه إبن مفضل الأول. نعتقد، كذلك، أن مفضل هذا الذى ظهر فى عام ١٥٧٦ ليس هو نفسه الذى ظهر فى عام ١٥٤٨ . فقد استمرت الثروات والمناصب السياسية تورَّث فى هذه العائلة الغرناطية المقيمة فى تطوان.

من المؤكد تقريبًا أن مفضل الذى ظهر فى عام ١٥٧٦ هو نفسه محصل الضرائب الأكبر ذاته والذى ذُكر كما هو فى إحدى مخطوطات عام ١٥٧٩ . وهنا يتحدث عن أحد قادة تطوان، و يغفل اسمه، برغم ذكر اسم أحد أخوته (بوايا Buaya)، وتذكر عدة وظائف، كسيدى جمعة Sidi Juma، قائد القصر وشيخ دريس Saij Dris ، المقدم والحارس الأكبر لريف تطوان و مفضل جابى الضرائب الأكبر لملك فاس(١٧) .

و نظرًا لتغيير الملك السابق ذكره بعد موت عبد الملك فى معركة المخازن Mejacen وانتصار أخيه أحمد المنصور كنتيجة لذلك، يسترعى انتباهنا القدرة العظيمة التى كانت لعائلة مفضل لكى تتجاوز الصراعات الأهلية والملكية. إنها قدرة سوف تجعلهم يستمرون، كحكام أغنياء، حتى انتهاء النصف الأول من القرن السابع عشر.

فى نصٍ من عام ١٥٧٩ لم يكن أفراد عائلة النقسيس قد ظهروا بعد كرؤوس بارزة للبرجوازية التطوانية. هذا المقدم، سيدى دريس، لا يبدو أن له علاقة بهم، بالرغم من أننا نعتقد بأن لقب" الحارس الأكبر لريف تطوان"، يمكن أن يشير إلى احتياج المدينة لحمايتها من الريفيين فى الجوار، وهو الأمر الذى سبب نجاح أوائل أفراد عائلة النقسيس.

مخطوط آخر من عام ١٥٨٣ يتحدث عن القائد التطوانى، دون أن يقول لنا من يكون. مع ذلك فإنه يذكر حامد مفضل، هكذا باسمه، والذى استمر فى كونه جابى ضرائب و ثريًا من جرَّاء القرصنة(١٨) .

و هكذا فإن عائلة مفضل كانت تلفت الانتباه أكثر مما يحتكره القادة و المقدمون حتى بالنسبة للحزب الآخر. كان يمكن أن تُنسى أسماء القادة، حتى فى رسائل الملك، ولكن دائمًا كانت تظهر عائلة مفضل.

إن مخطوط سبتة المشار إليه يذكر، من حين لآخر، هذه الأسماء المنسية، وبالأخص عندما تُبرز أحداث خطيرة هجمات الفرسان التطوانيين و النتائج المأساوية للحامية المسيحية.

فى الأول من أبريل عام ١٥٥٨، وجه حامد بن بكر Hamet Bembucar حاكم تطوان هجومًا عنيفًا.... وعند انتهاء العام، و بالتحديد فى ٩ ديسمبر، ألحق كمين القائد التطوانى خسائر ضخمة، حيث أُحصى أربعون قتيلاً ومائتان وثلاثة أسيرًا[١٩] .

تُعزى المصادر المغربية هذا الانتصار للمقدم أحمد بن عيسى النقسيس، والذى سوف نتحدث عنه بالتفصيل فى هذا الكتاب، لكن هذا لايتعارض مع أن يكون القائد هو بن بكر أو مفضل الشهير، واللذان ظهرا فى هذه المناصب فى العام التالى فى المفاوضات التى أُجريت لإنقاذ الأسرى[٢٠] .

نفس الأخبار التى تفيدنا بخلافة مفضل لابن بكر فى قيادة تطوان، ذكرت اسم حامد بن عبدالله Hamed ben 'Abd Allah تقول إنه "قائد القصر وتطوان"، فى عام١٥٩٤ [٢١] . هذان المكانان، المنفصلان بأكثر من ١٠٠ كم، أحدهما على البحر الأبيض والآخر على المحيط الأطلنطى، يجعل افتراض وجود سلطة فوق العادة لشمال البلد، فى هذا التاريخ، صحيحًا. بالرغم من أننا نعتقد أنه مقياس مؤقت، بسبب هذه السمة المعقدة لهذه المنطقة من الشمال المغربى وأن تطوان، فى عام ١٥٩٤، كان يمكن أن تكون تحت التأثير السياسى العسكرى لأول فرد من عائلة النقسيس.

فيما بعد سنلتقى بوثيقة أخرى، لعام ١٦٠٧، و سنجد فيها شخصًا يدعى النقسيس Anacazis المقدم، بالإضافة الى أحد القادة وهو على غودوبر All Gu-duber [٢٢] .

ولكن هذه هى بداية عصر آخر وملك آخر وحكام آخرين وشخصيات أخرى وأوضاع أخرى، وبالتالى، ظروف أخرى يجب أن ندرسها منفصلة.

فى الفترة منذ عام ١٥٦٧ حدثت، مع ذلك، أشياء كثيرة لا يمكن أن نتجاوزها فى صمت. لأنه يوجد حدثان أثر كلٌ منهما بصفة خاصة فى تطوان: واحدٌ بطريقة مباشرة

والآخر بطريقة ليست مباشرة جدا، فقد أثرا بوضوح شديد في السياسة المغربية، بل في التاريخ العالمي كله.

بالرغم من ذلك فنحن نجهل اسم القائد الذي كان يحكم المدينة. مع ذلك، وبغض النظر عن اسمه، لانعتقد أن التطوانيين -الغرناطيين قد أوقفوا أبدًا أنشطتهم الحربية، سواء عبر البحر، مصدر الموارد التي لايمكن استبدالها، أو عبر البر ضد منافسيهم من البرتغاليين في سبتة.

إن القوة المحركة لذلك المجتمع، الذي كان يعيش فعليا على القرصنة والغنائم، لم تكن لتتوقف، حتى مع فقدان ذلك المجتمع للحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به تطوان من قبل، و حتى لو أصبح القائد غير غرناطي و يتعين عليه تقاسم الغنائم مع السلطة المركزية. هناك، مع ذلك، حدث لا يمكن أن نتركه دون أن ينتبه إليه أحد: مدينة تطوان، والتي أُعيد إنشاؤها ودمرت عدة مرات على مر العصور، لديها الآن هوية متماسكة والتي تُنبئ بقدرتها على العيش في المستقبل. فهي يرمز إليها بالأسطورة التي جمعها إسكيري، والتي ترجمها ثيرديبيرا Cerdeira بعد ذلك، وهي ظهور النبي محمد (في المنام) للمنداري مؤسس تطوان، عندما كان يتفقد أعمال إعادة البناء حيث قال له ألا يقلق، فعندما يصل ضرر الأخرين إلى عنقهم سيصل في تطوان فقط حتى الركبة، وعندما يصل خير الأخرين إلى ركبهم، سيملأ تطوان حتى العنق (٢٣) . وأكثر من ذلك، ستذوب بمنتهى السهولة، كل الخطط التي صُنعت لتدميرها، مع أن نشاط القرصنة بالذات كان مزعجًا، وقد زاد منذ أن أرسل الأتراك، المسيطرون على الجزائر(العاصمة)، سفنهم الكبيرة والصغيرة، ناحية غرب البحر الأبيض المتوسط للصراع في البحر.

لقد تدخل الأتراك سريعًا جدا أيضًا في الصراعات بين الوطاسيين والسعديين. في المعركة التي دارت بينهم عام ١٥٤٤، استخدم كل فريق منهما أتراكًا مرتزقين. وعند فوز الشريف سعدي، احتفظ بأتراك جيش العدو (٢٤) .

قبل ذلك، و كان فرناندو الكاثوليكي لا يزال حيًا، خطط كونت تنديا Tendilla والملك نفسه في عدة مناسبات إحدى الهجمات إما ضد المدينة نفسها، وإما ضد الخور والذي كان أسطول القرصنة يحتمي بين تعرجاته، عندما يكون ملاحقًا أوعندما كان

يحتاج إلى التموين أو إلى وضع بضائعه فى سوق العبيد الشهيرة فى تطوان[٢٥] . فى إحدى المناسبات، عام ١٥٤٥، قامت حامية سبتة بهجوم على تطوان تحول إلى هجوم على قرية بنى مدن Beni Madan، حيث كان هناك ميناء المراكب ذات الغاطس الصغير والتى كانت تركب الخور من البحر. فى هذه المناسبة دُمر الكثير من سفن القرصنة، والتى أحرقها فرسان سبتة، و اعتقد السيد ألفونسو دى نورونيا don Alfonso de No-rona، حاكم سبتة، أنه صوب ضربة قاضية للقرصنة وهذا ما أبلغه فى رسالة إلى الملك البرتغالى، لكن هذه الحركة كانت معركة أخرى من المعارك القائمة فى الحرب التى شهدتها ضفتا البحر الأبيض المتوسط خلال قرون ... [٢٦] .

لم تتوقف القرصنة، واستمرت سلطات شبه الجزيرة فى التفكير فى كيفية تدمير وكر الحرب البحرية هذا، الضار جدا بالنسبة للبحارة فى مياه المضيق والذى كان ذا خطر واضح بالنسبة لسواحل الجنوب الإسبانى.

لقد تلقى الملك فيليبى الثانى معلومات من السيد غاريثا دى توليدو don Garía de Toledo، بمعنى أنه بعد احتلال مضيق بيليث Penón de Vélez والذى قام به هذا القائد فى السادس من سبتمبر عام ١٥٦٤، كان يتبقى للقراصنة فقط ملجأ فى السواحل المواجهة لشبه الجزيرة وهذا الملجأ كان خور نهر مارتين [٢٧] .

كان السيد غاريثا دى توليدو ينصح ببساطة بسد مصب نهر مارتين. طلب الملك فيليبى النصيحة كذلك من الأمير ألبارو دى باثان، و جاء رده متفقًا مع وجهة نظر غاريثا دى توليدو. ولذلك أذن الملك بالمشروع، وأمر باثان بتنفيذه، فى رسالة وجهها إليه من مدريد فى ٢١ نوفمبر ١٥٦٤: " ألابارو دى باثان، مستشارنا لشئون السفن التى تبحر فى المضيق ... لقد ارتحت لفهم أن ما كتبناه لكم بخصوص سد مصب نهر تطوان، حتى لاتستطيع أن تدخل فيه سفن الأعداء، قد لقى استحسانكم ... عندما ترون أن الوقت مناسبٌ، اذهبوا ... لكى تنفذوا الأمر السابق ذكره ... "[٢٨] .

لقد رأى ألبارو أن الوقت المناسب هو يوم ٩ من مارس ١٥٦٥، فنفذ فيه المهمة، وفقًا لما ورد فى رسالة بعثها إلى الملك فى اليوم التالى، من سبتة : " لقد أُغلق النهر وسُدت القناة..." بعدة سفن مليئة بالحجارة[٢٩] .

أرسل السلطان مولاى عبدالله – الذى تم إخباره باختصار عن إحدى الهجمات على واحد من الجرفين الرمليين، جرف العرائش أو جرف تطوان– إمدادات لكلتا المدينتين. وتعرقلت لذلك الحركة الإسبانية.

لسوء الحظ لم يُذكر لنا فى أى مصدر اسم القائد التطوانى، والذى يجب ان تكون قد أوكلت إليه مسئولية صد الهجوم الإسبانى.

على الجانب الأخر لم يوضح لنا داوود شيئًا بهذا الصدد. فقد نقل القصة المختصرة لكتاب "المصادر الجديدة لتاريخ المغرب" وقال إنه لايوجد شيء عن هذه الواقعة عند الكتّاب العرب، و أضاف :"ولانعرف من هى الشخصية التى كانت تحكم تطوان فى هذا التاريخ"[٣٠] .

هذا الهجوم الإسبانى على القرصنة التطوانية كان له أثر محدود جدا فى الزمن. إن التيارات والشكل الخاص لنهر مارتين، الذى يجرى فى تعرجات واسعة عبر الوادى، قد غيرت مصب النهر بطريقة طبيعية عدة مرات على مر القرون[٣١] . ربما كان للعامل النفسى أثرًا يفوق الجانب الواقعى واستمرت القرصنة و وجدت لها فى تطوان سريعًا واحدة من قواعدها الاساسية من تموين ومرفأ.

جعل السلطان مولاى عبد الملك، فى عام ١٥٧٦، بعد انتصاره الذى وضعه على العرش، من ميناء تطوان أو خور مارتين، قاعدة للمراكب التى كان يفكر فى إرسالها إلى السلطان التركى مع الهدايا، شاكرًا المساعدة المقدمة[٣٢] .

مرت عشرة أعوام دون أن يُعيد التطوانيون استخدام الميناء الذى كان يوهب لهم الحياة.

و جدير بالذكر، أنه بين القادة القتلى فى المعركة، التى انتصر فيها عبد الملك، كان يوجد بن شكرا **Ben Xacra** وبن زيكريم **Ben Zequerim** من تطوان. لا نعرف ما إذا كان أحدهما أو كلاهما كان يحكم المدينة فى هذا التاريخ. على كل الأحوال نجد أسماءً

وأسماءً أخرى يمكن أن تضاف إلى روايات كل من إسكيرى و إيرهونى، ومؤلف آخر، يجهله داوود.

كنا سنقارن اسم القائد التطوانى، إذا كان قد ذُكر فى نسخة الرسالة التى وجهها عبد الملك إلى "قائد تطوان مدينتا" و "صديقه العزيز" فى ١٨ مارس ١٥٧٦، قبل ثلاثة أشهر من المعركة المشار إليها، التى قامت فى ٧ يوليو من نفس العام. وللأسف فقد أُغفل الاسم فى الوثيقة المشار إليها(٣٣) .

والذى يبدو فعلاً مؤكداً هو أن عبد الملك عين قائداً جديداً لتطوان، فور انتصاره أو بعده بقليل جدا، و قد ذُكر اسم هذا القائد فى الوثائق المتعلقة بحكومة تطوان، على الأقل فى عام ١٥٧٧ (٣٤) . إنه سيدى موسى، و هو شخصية مهمة جدا، ربما كان السلطان قد أرسله لكى يقاوم التأثير التركى المتغلغل فى مدينة مارتين، حيث أنه فى ٢٤ من أبريل ١٥٧٦، أبلغ ملك إسبانيا، فيليبى الثانى، بوجود قائد تركى فيها وبخروج ١٧ سفينة متجهة إلى تطوان من الجزائر(العاصمة)، حاملة على متن إحداها زوجة القائد السابق ذكره لكى تنضم إليه(٣٥) . هل يمكن أن يكون هذا القائد التركى هو ابن زيكيريم Zequerim الذى مات فى المعركة التى دارت بين مولاى محمد ومولاى عبد الملك؟ لقد ترك سيدى موسى حكومة تطوان فى بدايات عام ١٥٧٨ أو أواخر ١٥٧٧، لتعيينه كنائب ملك فى فاس. هذا الخبر أرسله حاكم أرسيلة Arcila، السيد دوارتى دى مينيسيس don Duarte de Meneses، إلى الملك سبستيان(٣٦) .

لا نجد ايضًا سيدى موسى مذكوراً عند الكتّاب المغاربة الذين تحدثنا عنهم من قبل. وقد تولى سيدى موسى المنصب فى فاس لفترة قصيرة، لأنه فى نفس عام ١٥٧٨ ظهر فى البرتغال هارباً من البلاط السعدى، كما سنرى لاحقًا.

هناك احتمال أن بعض الأسماء المذكورة فى وثائق وروايات المؤرخين المحليين هى لنفس الشخص، مع الأخذ فى الاعتبار أنه فى بعض هذه الوثائق يمكن أن يُذكر الاسم فقط وفى البعض الآخر يُذكر اللقب أو ببساطة اللقب الذى كان يعرفه به الشعب.

وهكذا، يمكن أن يكون حسين هو وسيج Wasij، وأبو على الذى ذكره مارمول هو على الديب، أو على اللوبو(*) Ali el Lobo، وبهذه الطريقة فإنه يمكن توضيح هذا التشويش فى الأسماء بظهور أحد الأخبار، التى ما زلنا نجهلها حتى الآن.

إن عدم التوافق الواضح بين الوثائق الأوربية والمغربية قد يزيد، ليس فقط من مشكلة الأسماء هذه و الأحداث، فبعض الوثائق توليها أهمية قصوى، بينما تتجاهلها الوثائق الأخرى تماماً. هذا ما يحدث، على سبيل المثال، مع الواقعة التى نتحدث عنها فى هذا الفصل، والخاصة بالهجوم الإسبانى على القرصنة التطوانية.

سنرى حدثًا آخر، بالرغم من أنه من الناحية الظاهرية لا يؤثر على تطوان فى هذه الفترة، إلا أنه سيكون مشهوراً، ليس فقط فى التاريخ المغربى القومى، ولكن فى التطور التالى لسياسة البحر الأبيض المتوسط الغربية وأيضًا لكل السياسة الأوربية لذلك العصر.

تطوان حتى نهايات القرن السادس عشر

كانت المغرب تُرى، عندما بدأ العصر الحديث، كغنيمة سهلة نسبيًا لدول شبه جزيرة إيبريا التى كانت ترغب فى امتداد الاحتلال على الشاطىء الآخر للبحر المتوسط. كانت مملكة فاس، والتى يرغب فيها البرتغاليون والقشتاليون، غارقةً فى تغييرات مفاجئة فى الحكم، وفى حالة فوضى من جراء الصراعات الداخلية. لقد اعتقد بعض أصحاب الرأى أنها كانت اللحظة المناسبة لتحقيق المهمة الكبرى. كان ملك البرتغال، سبستيان، واحداً منهم و سعى إلى إنشاء مملكة مسيحية فى شمال إفريقيا، دون أن تُردعه الخبرات السابقة(٣٧)، ولا النصائح العظيمة، كنصيحة عمه نفسه، فيليبى الثانى Felipe II (٣٨). ولم يلتفت أيضًا للأصوات ذات الخبرة، كصوت سيدى موسى ذى التأثير الكبير، والذى تحدثنا عنه منذ قليل، كقائد سابق لتطوان ونائب الملك السابق

(*) كلمة lobo فى الإسبانية معناها ذئب أو "ديب". (المراجع)

لفاس. دُعي سيدي موسى أثناء هروبه في إيبورا Evora ، لكي يقول رأيه حول الحملة التي كان يعد لها الملك البرتغالي. قال كلامًا حقيقيا لم يعره الملك أي أهمية، لأنه كان يعارض رغباته. كان موسى يؤكد أنه لم يكن ضروريا أن يذهب الملك بشخصه، وإنما يكفي إرسال قائد على رأس سبعة أو ثمانية آلاف رجل. فذهاب الملك شخصيا كان يعني النية في الاحتلال وحينئذ سيجد كل المغاربة وأيضًا أتراك الجزائر(العاصمة) ضده. كان احتلال المغرب مستحيلاً، "برغم توافر نهر من النقود وآخر من الرجال لدى الملك" . لقد أنهى تحذيراته قائلاً إن الملك يسير إلى خطر أكيد[٣٩] . في الواقع، كان الملك سبستيان وجيشه متفككين بصورة خطيرة في معركة القصر الكبير و المخازن Mejazen ، أو الملوك الثلاثة، والتي سميت هكذا لأنه مات فيها ملكان مغربيان والملك سبستيان[٤٠] . هذه المعركة التي حقق فيها المغاربة انتصاراً ذائع الصيت جعل البلد في موقع مشرف بين أمم ذلك العصر.

استفاد أحمد المنصور، السلطان المنتصر، الذي زاد ثراؤه من جراء الافتداءات وسيل الذهب الذي وصله من السودان[٤١]، من كلا العاملين لكي يقوي دعائم الملكية، فكان يميل إلى واحدة أو أخرى من دول القرن الكبرى والتي كانت تبحث عن مساعدته. فقد كان يميل إلى إسبانيا ضد الأتراك، أو إلى إنجلترا ضد إسبانيا، و لهذا فقد جعل البلد في حقيقة الأمر في عزلة. أدى موته، في عام ١٦٠٣، إلى فترة أخرى من الفوضى والحروب الأهلية، و هذا يوضح لنا أن الانتصار المغربي قد أثمر عن منافع قليلة أو أنه لم تتم الاستفادة منه كما كان يجب.

تطوان، منذ أن جعلتها خلافاتها الداخلية تفقد استقلالها الذاتي، لم تظهر كثيراً في الأحداث التي وقعت قبل وبعد معركة القصر الكبير. بالتأكيد كانت ستلعب دوراً مهمًا، لو أن الملك سبستيان قد وافق على العرض الذي قدمه له السلطان عبد الملك، الذي قدم اقتراحات للملك البرتغالي، عندما كان الأخير موجوداً في معسكر قرب أرسيلة. و كان يدرك أن السيطرة على السواحل المغربية كانت خلال فترة كبيرة هي الهدف الاستراتيجي للبرتغال، و قد جعله هذا يعرف أن تطوان والعرائش و كابو دي غوير أو أغادير ستتخلى عنه، إذا لم يستمر في التقدم في مشروعه. الأخبار عن هذا الالتزام تلقاها فيليبي الثاني بتاريخ ٢٥ يوليو عام ١٥٧٨، أي قبل المعركة بعشرة أيام.

قال "يهودى من تطوان" فى نفس الخبر، إن قوات السلطان قد مرت بالفعل من سلا Salé وأن عددها بلغ ٧٠ ألف رجل، و من جانب آخر " قدم اليهودى بشائر اتفاق، لأنه قال إنه يوجد فى القصر أحد قادة الملوك muluk لديه صلاحيات لكى يعطى للملك الإسبانى تطوان والعرائش و أغادير، قبل أن تصل الأمور إلى تمزق أكثر(٤٢) .

فى ٥ أغسطس، أجاب فيليبى الثانى بأنه لم يكن عليه أن "يقبل العرض الذى نقله إليه اليهودى و المتعلق بالاحتلال السلمى لتطوان والعرائش و أغادير"(٤٣) . لو كان قد نفذ ذلك، كان سيضع كل التجارة المغربية فى أيدٍ برتغالية. وأيضًا فهو ضمان لاختفاء القرصنة، سواء الغرناطية أو التركية، والتى كانت تضر ضررًا بالغًا بالملاحة والسواحل البرتغالية والقشتالية فى جنوب شبه الجزيرة. كانت تطوان تشكل مركزًا لتموين الأساطيل التركية الصغيرة والتى كانت تمثل صلة السلطة التركية فى الجزائر بالشئون المغربية. لدينا دليل على ذلك فى الأخبار التى تلقاها فيليبى الثانى، من سبتة، فى ١٣ من أغسطس، و التى حذرته من أن قائد جيش عبد الملك التركى أرسل على جناح السرعة "مركبين تركيين، كانا فى نهر تطوان، لتحذير ملك الجزائر"، مما كان يحدث فى القصر الكبير، شارحًا له وضع المغرب، المناسب وفقًا له، لتدخّل تركى مسلح(٤٤) . كان الملك الإسبانى منتبهًا لذلك الخطر التركى وفى الأيام الأولى من أغسطس أرسل أسطولاً، من قرطاجنة Cartagena، لمراقبة المضيق. قدم السيد ألبارو دى باثان تفاصيل عن عمليته فى رسالة كتبها إلى الملك من جبل طارق فى ١٦ أغسطس، يخبره فيها بخروج عشرة سفن صغيرة من تطوان(٤٥) . فى هذا الوقت كان يمكن أن ينتبه البحار الإسبانى إلى عدم فائدة الحركة التى شرع فيها قبل ثلاثة عشر عامًا والتى كانت تهدف إلى سد مصب نهر مارتين.

وصلت تفاصيل عن معركة القصر الكبير إلى ملك إسبانيا عبر بعض الأسرى من تطوان، بعد أيام قليلة جدا من المعركة، بالرغم من أننا نعرف أنه كان هناك تشويش كثير، حتى فى التفاصيل ذات الأهمية. فعلى سبيل المثال، كتب القائد التطوانى، والذى لم يُذكر اسمه إلى حاكم سبتة، ليخبره بانتصار ملك المغرب "ملوك"، مضيفًا أن الملك سبستيان كان مسجونًا. هذا الخبر جعل فيليبى الثانى، وكانت لديه معلومات أخرى أكثر دقة، يصيح قائلاً: " ياليت السجن يكون حقيقة"(٤٦) .

لابد وأن يكون قد وصل إلى تطوان القليل من الأسرى، وعلى الأخص هؤلاء الذين قبض عليهم سكان الجبال الموجودة حول تطوان وشاون، والذين اشتركوا في المعركة. لابد أن يكون الأمر هكذا حيث أن الجزء الأساسى من الغنيمة تشكله "الغنيمة البشرية"، كما أعلن واحدٌ من المشاركين فى القتال.

"Os despojos que os enemigoos alcançarao do campo forao muy pocos, tirando a presa dos cativos, porque erao tantos que a muitos nan coube mais hum pedaço de tenda" (٤٧).

إن الدليل على تجمع العبيد فى تطوان تقدمه لنا الوثيقة الخاصة بافتدائهم، والذى قام به رجال الدين الرهبان، فى العام التالى للمعركة، أى فى عام ١٥٧٩ ، كان تحت تصرف الرهبان مبلغ كبير بلغ ٧,٤٦٣,٢٥١ مرابطى. و هى أكبر ثروة مجمعة لعملية افتداء واحدة فقط رأيناها فى مخطوطات من هذا النوع.

من قائمة الأسماء التى كانت ستحرر بهذا المبلغ نجد ٥٢ اسمًا من تطوان وأكثر بقليل من ٣٠ فى فاس. فى مراكش البعيدة ظهر ٢٢ اسمًا، و اسمين من القصر الكبير، واسمين من سلا Salé واسم واحد فى مكناس Mequinés واسم آخر فى تلمسان Tremecén وآخر فى سفن الجزائر، ولكن كان من المعروف أنهم كانوا يذهبون إلى تطوان. لذلك ترجع الى تطوان نسبة ٥٠ ٪ تقريبًا من عدد الغنائم، كانوا كلهم إسبان ومتفرقين جدا، كما نرى، فى كل مملكة المغرب. لا نتحدث عن عبيد برتغال، اتخذ تحريرهم طرقًا أخرى. فنحن نفترض أن كثيرًا منهم، الأغلبية من أندلوثيا، والذين سوف يتم افتداؤهم فى هذا العام ١٥٧٩، هم أيضًا غنائم فى معركة القصر الكبير. فى المقام الأول هم شباب، استدعاهم آباؤهم و أجدادهم. فى المقام الثانى هم ليسوا من أماكن ساحلية، الأمر الذى يبعد احتمال أن يكونوا نتيجة عمليات ترحيل كالتى أخلت أماكن ضفاف أنهار كثيرة(٤٨) . كانت تطوان، بعدما مرت بعض الشهور على ذلك اليوم ٤ أغسطس ١٥٧٨، مسرحًا لحدث سيئ متعلق بالبرتغاليين المأسورين فى القصر الكبير. منح السلطان، بناء على طلب فيليبى الثانى، الحرية لابن أخيه " دوق بارثيلوس Duque Barcelos (٤٩) . هذا الأخير، بالاتفاق مع أسرى مفتدين آخرين، رحل من

المغرب ناحية سبتة، و أعد قافلةً وصلت إلى تطوان بعد أربعين يومًا من الرحيل. كان التحرير وشيكًا، ولكن قام اثنا عشر يهوديا انضموا إلى القافلة فى فاس، باحتجاز بعض الأسرى لأنهم كانوا يدينون لهم بنقود كثيرة، ومر البرتغاليون بلحظة سيئة حتى جاء نبيل آخر كان لديه تعاملات كثيرة مع اليهود وضمن ديونهم.

وأخيرًا خرج دوق بارثيلوس وباقى النبلاء البرتغاليين من تطوان إلى سبتة، ووصلوا إلى المكان المسمى نيغرون Negrón ، حيث أبحر كثير منهم فى سفن ماركيز سانتا كروث، التى كانت فى هذه المياه، بينما واصل دوق بارثيلوس سيره فى نفس اليوم مع نبلاء وسادة آخرين، حتى دخل فى سبتة،حيث عمت الفرحة الجميع(٥٠) .

تحدثنا عن سكان جبال مناطق تطوان والشاون كعناصر حربية ذات أهمية فى الحرب المشار إليها، فهم سوف يكونوا أبطال الأحداث التى مرت بتطوان فى الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر.

فى الواقع هناك عاملان أساسيان سوف يساعدان فى إعادة ظهور شخصية زعيم بجوار القائد الحربى فى تطوان، و هو القائد الذى تعينه القوة المركزية. يتضح لنا الوضع الحقيقى فى المغرب، الذى يسيطر عليه بصورة ملحوظة ملك ذو نفوذ و قوة.

العامل الأول سوف يكون الاحتياج إلى بقاء مجموعة من المحاربين فى المدينة لمواجهة الحملات البرتغالية المنطلقة من سبتة التى تهاجم هذا الموقع. العامل الثانى هو الضغط المرهق الذى يمارسه سكان الريف على سكان المدن، بالهجمات والنهب والاحتجازات، التى أجبرت السكان على التسلح لمواجهتهم. وجه داوود انتباهنا لكلا العاملين، مقدمًا نص لكتاب "الاستقصاء" للناصرى:

" فى هذا العام ١٥٨٨ / ٩٩٦ فى شهر ذو الحجة، سافر المنصور إلى فاس، وبينما كان فى الطريق، (بعد بداية عام ٩٩٧)، وصله خبر هجوم مسيحى من سبتة. كان قائد المسلمين هو المقدم أحمد بن عيسى النقسيس التطوانى، مع مجموعة من الفرسان من المكان. خرج المسيحيون مع أتباعهم. و تدخل النقسيس بينهم وبين سبتة. التقوا وانتصر المسلمون. فرح المنصور بذلك الخبر..."

تاريخ اللقاء واستشهاد كاتب آخر يحدده لنا داوود أيضاً:

" يقول سيدى مفضل إنه كان فى يوم جمعة ٢٢ من محرم ٩٩٧ (٩ ديسمبر ١٥٨٨) عندما وقع حدث جديد بالذكر أو حركة حربية ضد مسيحيى سبتة، نفذها المقدم أحمد النقسيس، والذى يحمل اسمه شارع المقدم فى تطوان"[٥١] . يعطينا مؤرخ ثالث تاريخاً مختلفاً. يقول لنا العفرانى Al Ufrani أن الحدث وقع فى شهر ذى القعدة ٩٩٦، من ٢٢ من سبتمبر إلى ٢٢ اكتوبر ١٥٨٨ . "رئيس الحملة الموجهة ضد الخونة، أحمد النقسيس، نصب كميناً على رأس مجموعة من الفرسان. خرج السكان من مدينتهم، مع أبنائهم وأقاربهم: كان المسلمون بين المسيحيين وسبتة، وهم على وشك الاستيلاء على المدينة"[٥٢] . لكن لم يكن يكفى عداء سبتة، صانعة الكثير والكثير من محاربين هذا الحزب أو ذاك، لتأسيس ظهور رئيس مطلق أو طبقة قادة محاربين. أضيف إلى ذلك واحداً من أسوأ الأضرار المستوطنة فى هذا المغرب للقرن السادس عشر: الفوضى السياسية والاجتماعية.

لم تحرر تطوان ولاميناؤها من سلب ونهب سكان القبائل المجاورة[٥٣] .إن إيرهونى و إسكيرى يصفان هذه الفوضى هكذا:

" كان سكان القبائل المجاورة لتطوان، وأولها وادراس Wadras ، ثائرين فى ذلك العصر. كانوا يهاجمون الطرق ويسلبون الممتلكات ويؤذون الناس بأضرار بالغة. كان محمد النقسيس، المنتسب إلى قرية بنى حوسمار Husmar ، جارة تطوان، حينئذ طالباً يتابع دراساته فى المدينة. وعندما رأى غطرسة سكان الجبال، اجتمع مع أعيان تطوان وطلب منهم الدعم لكى يُنهى، بمساعدة قبيلته، سطوة سكان الجبال. لم يروا ضرراً فى الاستجابة لرغباته و أعطوه إمكانيات وفيرة لكى يحقق ذلك". يقول ثيرديرا، و يكمل داوود، إن القائد محمد هذا طلب مساعدة أحد أقاربه، وهو المقدم أحمد النقسيس، رئيس المحاربين البارزين فى مواجهة سبتة. وافق على طلبه وفى وقت قليل، أنهى الثورة الجبلية، مسيطراً بأمان وهدوء على البلد.

حكم القائد محمد تطوان و إقليمها حتى موته، وورثه ابن عمه القائد محمد بن عيسى النقسيس فى عام ١٦١٠ [٥٤] .

يبدأ، إذن، ما أسميناه بقرن النقسيس فى تطوان، نهاية المرحلة التاريخية التى بدأناها بالصراعات الأهلية التى حدثت عند اختفاء عائلة المنداري. لكن قبل أن ننهى حديثنا، يهمنا أن نوضح قليلاً ما وجدناه عن هذه الشخصيات التى ذكرها كل من إيرهوني و إسكيرى: القائد محمد بوردان Muhammed Burdan والحاكم محمد الزبان Muhammed Az Zaban، واللذان كانا، وفقًا لداوود، يحكمان المصائر فى تطوان فى الربع الأخير من القرن العاشر الهجرى، (من ٨-٧-١٥٦٧ إلى ١٩-١٠-١٥٩١). لانعرف ما إذا كان حامد بوردان حاكمًا أم لا، ولكن بالفعل ظهر شخص بهذا الاسم، فى وثيقة لعام ١٦٠٩، لبائع للعبيد(٥٥)، و مستمرًا فى هذا النشاط فى وثائق أخرى لأعوام ١٦١٢(٥٦) و ١٦١٤ (٥٧) و ١٦١٥ (٥٨) . لابد أنه لم يفعل الكثير فى السياسة، لأنه كان مع النقسيس عندما كان الأخير هو الحاكم الرئيسى، واستمر فى وجوده معه عندما هرب النقسيس، وكان عليه أن يمنح المنصب لبوديبيرا Budebira، والذى عينه السلطان الشيخ قائدًا و حاكمًا، وعاد بوردان للظهور عندما رجع النقسيس من منفاه المؤقت، شاغلاً منصب المقدم من جديد.

أما بالنسبة لمحمد الزبان، فكان هناك بالفعل شخص يُدعى زبان، حاكمًا لتطوان. كان يُدعى ابراهيم الزبان، فى النص الذى حرره كاتب العدل التابع للملك، فرانثيسكو غارثيا دى ليون Francisco García de León، و هو نص يتعلق بتأمين مرور موقَّع من الحاكم نفسه. أُعطى التأمين فى ٢٥ من يناير ١٦٣٦ لكى يستطيع الآباء المفتدون، وهم الراهب أغودو Agudo والراهب نيكولاس دى كاستانييدا Nicolás de Castaneda مع كاتب العدل المذكور المرور إلى تطوان لكى يفتدوا الأسرى وصدَّق عليه سكرتير هذا الحاكم على سوريا Ali Soria (٥٩) .

بطبيعة الحال لم تلعب أى من هذه الشخصيات أى دور فى العصر الذى ذكره المؤرخون التطوانيون و أيضًا فى التواريخ التى أُشير إليها فيها، وسوف نعود إليهم فى دراسات أخرى. ما سوف نبحثه الآن هو عصر آخر بظروف مختلفة وأبطال مختلفين، سواء كانت فردية أو جماعية.

الـهـوامـش

(1) SUÁREZ FERNÁNDEZ, Luis. Política internacional de Isabel la Católica. Valladolid 1966. Pág.458.

(2) Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) Portugal 1.a serie. Tom. V.P.65.

(3) S.I.H.M. España.1.a serie. Tom.I. P.606.

(4) لكل عصر المنداري، أنظر

GOZALBES BUSTO. Guillermo Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada, 1988.

(5) S.I.H.M. España.1.a serie. Tomo.III. P.18.

(6) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del. Descripción general de África. Libro Quarto. Granada 1573. Fols. 131 y 131vt.*

(7) كتاب وصل و نفقات كتبه الأب الراهب ماتياس دى كوبيار، مفتدى الأسرى لمقاطعة قشتالة، جمعية السيدة العذراء، فى عام ١٦٠٧، و الذى نُفذ فى ممالك فاس والمغرب وتطوان

Mss. 2791 de la Biblioteca Nacional de Madrid.

(8) التواريخ متناقضة فى:

COATTENAZ, Tables de concordance des eres Chretienne et Hegiriennne. 3.a edic. Rabat 1961.

(9) DAWD, Muhammad. Tarij Titwan. Tetuán 1959-1379, parte 1.a Pp.127 y sigs.

(10) S.I.H.M. Port. 1.a ser. Tom. V. P. P. 69.

(11) DAWD. Op. cit., P. 129.

(12) DAWD. Op. cit., P. 132.

(13) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Ceuta...Mss.9741 de la B.N.Madrid, Fol. 71.

(14) Mss.9741 de la B.N. Fol. 75.

(15) Id. id. Fol. 77 vt*

(16) S.I.H.M. France 1.a ser. Tom. 1. Pág.348.

(17) Mss.6569 de la B.N.

(18) Mss.3538 de la B.N.

(19) Mss.9741 Fol.83 vt.* y 85.

(20) Mss.9741 de la B.N. Fol.84 vt.*

(21) Id. id.Fol.86 vt*

(22) Mss.2791 de la B.N.

(23) فى رواية مأخوذة من إسكيرى بواسطة ثيرديرا، كليمنتيى، فى مقاله عن نفس الرواية
la Revista Hispano Africana, enero de 1923, año II, n.* 1. Pág. 18.

(24) TORRES, Diego de. Relación del origen y suceso de los
Xarifes... Sevilla, 1586. P. 158.

(25) MENESES GARCÍA, Emilio. Coorespondencia del
Conde de Tendilla. Tom. II. Madrid, 1974.
Véanse, sobre todo Pp. 110-120-122-123-139-
328-329-341 y 375.

(26) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "Ceuta y el corso". El
Cuadernos del Archivo Municipal de
Ceuta. N*. 5.

(27) S.I.H.M. Inglaterra. 1.a I. Pp. 79 y 83.

(28) S.I.H.M. España. 1.a III. Pp. 98-99.

(29) S.I.H.M. Id., id., id., P.130.

(30) DAWD. Op. cit. P.127.

(31) لقد كنا شاهدين على بعض هذه التغييرات، من بلدة نهر مارتين الحالية حتى مكان سيدى السلام البحار،
بالإضافة إلى الجنوب .

(32) S.I.H.M. España. 18- III-234.

(33) S.I.H.M. Francia. 1.a I- 348.

(34) S.I.H.M. España. 1.a III-374.

(35) S.I.H.M. España. 1.a III-360.

(36) S.I.H.M. España. 1.a III-362.

(37) كان الملك سبستيان فى طنجة عام ١٥٧٤، حيث وجب عليه أن يسمع جملة : "لا يُترك عمل الملك للقيام بعمل القائد .

V. S.I.H.M. España 1.a III Pp . 190-98 .

(38) كان الملك الإسبانى معارضاً لحملة ابن أخيه. كتب عند معرفته بالهزيمة قائلاً:" حدث ما كان يُخشى من ملك البرتغال".

Cfr. S.I.H.M. Inglaterra, 1.a I. P.30-4.

(39) يوجد الكثير من الروايات عن هذه المعركة و نختار منها ما قدمها الطبيب اليهودى الذى كان يراعى المريض مولاى عبد الملك الذى مات فيها.

Cfr.S.I.H.M. Inglaterra,1.a I. P.312-321.

(40) MELO LOPES, David de, Historia de la expansión

portuguesa en el Mundo. La expansion en Marruecos.

S/a. S/p. S/c. P.204.

(41) منذ عام ١٥٩٠ غزت حملة مغربية السودان، مكونة و مرسلة من قبل الأندلسيين،فاتحةً هكذا طريق الذهب .

(42) S.I.H.M. España. 1.a III.437.

(43) S.I.H.M. 450.

يذكر هذا التخلى خيرونيمو دى مندوثا، فى عمله: Jornada de AFRICA: Lisboa 1607.FOL.14V.*

(44) S.I.H.M. España. 1.a III.455.

(45) S.I.H.M. España. 1.a III.462.

(46) S.I.H.M. España. 1.a I. 310.

(47) MENDOZA, Jerónimo de, Op.cit. Fol.55. v.*

يعترف مندوثا نفسه أن حتى بعض الشرفاء، oficialmente "el lote" del sultán قد بقوا فى القصر الكبير و تطوان. Cfr. OP. cit. Fol.66.

(48) حسابات لجنة المجلس الملكى التى قدمها السيد غاسبار دى كويبار إلى الراهب أرثى و الراهب لويس دى ماتيينثو، من جمعية السيدة العذراء، و كانت اللجنة مكلفة بافتداء الأسرى فى سبتة وتطوان عام ١٥٧٩ . أنظر مخطوط رقم ٦٥٦٩ فى المكتبة الوطنية بمدريد .

(49) S.H.I.M. Inglaterra. 1.a I. 375.

(50) S.H.I.M. Inglaterra. 1.a I. 375.

(51) DAWD. Op.cit., 133.

(52) Al UFRANI, Nuzhat al Hadi..., Tr. O. Houdas, París 1889, P. 265.

قام أحد القادة الإنجليز، مينوورنج، في رسالة إلى ملك إنجلترا، و متحدثاً عن تطوان، بالإشادة
(53) بمينائها و مياهها، و لكنه حذر من أنه يجب وضعها تحت الحراسة بسبب الفوضى الموجودة.

Cf. S.I.H.M. Inglaterra 1.a II. P.507.

(54) DAWD. Op. cit.,P. 176.

(55) B.N. Mss. 4390.

(56) B.N. Mss. 3762.

(57) Arch. Hist. Nac. Cod. Lib 124/B

(58) B.N. Mss. 3870.

(59) A.H.N. Cod. Lib.129/B Fol.55v.*

الفصل الثانى

المجتمع الغرناطى- النصرى فى المنفى(*)

إن الغزو المسيحى لشبه الجزيرة، والذى كان على وشك الانتهاء تقريبًا فى القرن الثالث عشر إبان حكم فرناندو الثالث، قد تجمد وامتد مع خلفاء فرناندو حتى وصل إلى نهاية القرن الخامس عشر.

ففى أكثر من قرنين كان يُعانى، سواء فى مجال أو آخر، من تغييرات وصلت للمجتمع بأكمله، المسيحى من جانب والإسلامى من الجانب الآخر.

سوف يتطور المجتمع المسيحى وسيبقى فى الأراضى التى يسيطر عليها ويملكها. أما المجتمع الإسلامى فسيتوقف و سينحصر فقط فى نطاق مملكته التى كانت تتناقص.

سيكون من الإطالة شرح الدوافع والظروف التى تجعل مجتمعًا ما يتطور بتقدم متزايد، بقدر ما يخرج من العصور الوسطى، بينما يبقى الآخر فارغًا ويتشكل فى قوالب قديمة.

كان ابن خلدون يقول: "كل سلطان يجب أن يُبنى على قاعدتين. الأولى هى القوة، أى الجيش، و الثانية هى المال. إن الانحطاط يستنفد هاتين القاعدتين و يستولى على قوة العائلة الملكية، و يهاجم بعد ذلك موارد الدولة ودخلها"(1).

(*) منشور فى:

la Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino, n. 3-2.a Ep.1989-Pp.165a 180.

يبدو أنها طريقة بسيطة جدا لعرض الأمور، ولكن كان الأمر هكذا منذ ميلاد المملكة النصرية الغرناطية ذاته.

و كوريثة لممالك الطوائف، استطاعت، مثلهم، أن تحصل فى فترة ما على سراب من السلطة والاستقلالية، و لكنها مثلهم أيضًا، كان محكومًا عليها منذ ميلادها بأن يمتصها من هو أكثر قوة.

كان ملك غرناطة يجب أن يكون راعى إبل فى إفريقيا أو راعيًا للخنازير فى قشتالة، كان هذا هو المصير النهائى والذى لايمكن تفاديه.

فى هذه الأثناء كان المجتمع الإسلامى الغرناطى يتعايش بروح مواجهة أسوأ ما هو متوقع. كانوا يعرفون ذلك منذ القرن الحادى عشر: "يا أهل أندلس، شدوا رحالكم، فما البقاء بها إلا من الغلط"(٢) .

فُقدت القوة منذ نفس لحظة تقسيم الخلافة. و الموارد أيضًا، وبالأخص عندما كان يجب الخضوع لدفع "الجزية"، حتى لا تختفى.

قال ابن الخطيب، متذكرًا مملكة يوسف الأول، إنها كانت فترة سلام وسعادة، تتميز بالإعفاء من الضريبة السنوية الواجبة للمسيحيين، الأمر الذى كان يعتبر حدثًا نادرًا و غير عادى فى عائلة بنى نصر(٣) .

نشأت مملكة غرناطة بهذا الضعف المزدوج من الجيش والمال، و هو الضعف الذى سوف يظهر بسبب الخصائص الذاتية للمجتمع النصرى، وسينتهى بتفككه النهائى.

ماذا كانت تلك الخصائص التى لم تتحمل المواجهة عندما أصبح وجود هذه المواجهة قاطعًا؟

كان المجتمع الغرناطى مؤسسًا على سيطرة الأرستقراطية الحربية القائمة، بدورها، على تسلط بعض العائلات على الأخرى، " ... و هكذا، أدت العصبيات إلى التدمير والركود فى البلد، بالرغم من أنها قد صنعت له أساسًا لبنائه الاجتماعى والسياسى(٤).

كان الأمير فى قمة السلطة الحاكمة، فهو التجسيد الأعلى لحكومة البلد، من خلال رؤساء الجيش وعلماء الدين والزعماء الدينيين الذين كانوا يؤثرون جدا فى العامة.

إن هؤلاء الأوائل بملكيتهم للحاميات العسكرية والمعاقل فى المدن و القلاع فى المناطق المدنية، وكذلك الآخرون، كانوا يستحثون ويوحدون السكان كل مرة بصورة أكبر ضد العدو المسيحى، وكانوا يشكلون عناصر أساسية ذات تأثير، واستمرت تلك العناصر موجودة حتى ما بعد الهزيمة النهائية. عندما حدث ذلك، تزود الملك فرناندو بكل الوسائل، وانتصر عليهم، وأزال سلطة بعضهم وسبب أذىً للآخرين.

والآن سوف نلقى نظرة على الطبقات الاجتماعية الأخرى.

حدد ابن الخطيب، قبل قرن من زمان المجتمع الذى نبحثه، ستة طبقات اجتماعية، وتشمل الخامسة منها طبقة العامة، الرجل العادى(٥) .

فى الواقع، إن تصنيف المؤرخ الغرناطى العظيم كان عبارة عن نظرة سياسية أكثر من كونها اجتماعية. و يمكن أن نشمل طبقة العامة التى تحدث عنها ابن الخطيب كل ما هو ليس أرستقراطية السيف أو الحق، المحارب والقاضى واللذين يعتبرونها، كما فى كل بلد إسلامى، رجال قانون و رجال دين.

فى طبقة العامة هذه يمكن أن نفرق بين الوظائف المدنية والصناعية والتجارية والخدمية، للسكان الريفيين، و الذين يمكن أن يُضم إليهم الملاحين والصيادين فى المناطق الساحلية.

تختلف أيضاً طبقة العامة، وفقًا لما إذا كنا سنتحدث عن العاصمة وعلاقتها بالمدن الكبيرة فى المملكة، أو عن المدن الكبيرة وعلاقتها بالقرى أو الضياع.

فنحن نعتقد أنه من الوضوح أن نفرق بين أهل المدينة و أهل الريف وأنه لو استطعنا أن نجد رسمًا أوليًا للطبقة الوسطى، فسوف نجده فى أهل المدينة، الذين يتمتعون بمستوى معيشة أعلى من العالم الريفى. هذا العالم، المستغَل من قبل من هم فى الوسط ومن هم فى الطبقة العليا، اعتقد فى بعض اللحظات من حرب غرناطة الأخيرة، أن تحريره سوف يكون فى تغيير المُلاّك.

لم يكن السلاطين، فى الواقع، يستطيعون إلغاء الضرائب، لدرجة أنهم كانوا يخرقون قوانينهم الدينية(*)، و ذلك لكى يستطيعوا دفع الجزية الباهظة، ولدعم الجيش اللازم ضد قشتالة وكأداة للسلطة، ولتحمل نفقات الدولة، والتى كانت تختلط فى أحيان كثيرة بنفقاتهم. و فى آخر الأمر فإن الريف هو الذى كان يتحمل العبء الأكبر، دون أن تستطيع التجارة والصناعة، والتى تزداد ضعفًا شيئًا فشيئًا، أن تخفف من أعباء الريف الضريبية التى لا يمكن تحملها(٦) .

قال أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين عن والد أبى عبد الله الصغير إنه " أثقل البلد بالجزية و أثقل الأسواق بالضرائب. و كانت تسلب الأملاك... " ومع كل هذا فقد فرض، ضرائب جديدة وزاد من قيمة الضرائب الموجودة"(٧) .

إن الاستياء، الظاهرى أو الخفى، من السهل استنتاجه من هذا الوضع للأشياء. إن استثمار هذا الاستياء كان منطقيًا، وكنتيجة لكل هذا، ضعف الدولة نفسها ونقص القوات والمال، وهما المحركان اللذان وضعهما ابن خلدون كأساس لبقاء المبنى.

تلك هى الخطوط العريضة للرؤية الشاملة للمجتمع الغرناطى، فى العقود الأخيرة من وجوده كمجتمع حر، و كنموذج للدولة الإسلامية الوحيدة التى كانت على وشك السقوط، فى شبه الجزيرة الإيبيرية.

لكن هل انتقلت تركيبة هذا المجتمع فى الأراضى الإفريقية، عندما ساعدت الهجرة، فى خلق جماعات ذات حكم ذاتى ومستقلة فعليًا، مع إنشاء مدن ذات طابع غرناطى واضح؟

كيف كان هذا المجتمع الغرناطى فى المنفى؟

للأسف تنقصنا المصادر، سواء الإسلامية أو المسيحية، التى تفيدنا فى الإجابة على هذا التساؤل. المصادر المسيحية لأنها تجاهلت المنهزمين عندما اجتازوا المضيق،

(*) هذا ما أشار إليه ميكيل دى إيبالثا: عندما اضطر الملوك لدفع المال إلى المسيحيين استخدموا مصطلح "نفقات حرب" بدلاً من كلمة "جزية" حتى يتفادوا معارضة الفقهاء . (المراجع)

وقد تجاهلته المصادر الإسلامية لأن فقر المصادر التاريخية فى تلك البلاد و المشاكل السياسية و الاقتصادية التى كانت تعانى منها البلاد التى وفد إليها الغرناطيون، لم تجعل من الممكن الاهتمام بالغرناطيين.

إن نموذج هذا المجتمع الغرناطى شكَّله المجتمع المكون من جماعة المنفيين التى أسست مدينة تطوان فى الشمال المغربى، على بعد ٤٠ كم، من جنوب سبتة، أى من مضيق جبل طارق.

نعرف شيئًا آخر عن هذه المجموعة المهاجرة بفضل ثلاثة أسباب رئيسية:

أولاً: بسبب العقبات التى قدمتها المدينة الجديدة والمحاربون المستقرون فيها، عند التوسع الاستعمارى من أجل السيطرة على الشمال المغربى، والذى سوف ينعكس فى الأخبار البرتغالية لهذا العصر.

ثانيًا: البعث والإحياء السريع للقرصنة- السرقة وفقًا للبعض، والحرب المقدسة فى البحر وفقًا للبعض الآخر- بداية من إعادة إنشاء تطوان، والتى اكتسحت السواحل الإسبانية والبحار المتاخمة عندما انشغل الحكام بشدة فى شبة الجزيرة بكل ما يترك آثارًا فى الأخبار والوثائق القشتالية.

ثالثًا: لأن الأخبار الإسلامية أيضًا أحدثت صدىً، بطريقة ما، عن الشكل الدينى والقومى للصراع الذى قام به الغرناطيون لكى يصدوا المسيحية الغازية للسواحل المغربية، عندما كانت السلطة المركزية غارقةً فى فوضى خطيرة من أجل بقاء الدولة المغربية ذاتها.

يحدثنا أحد المؤلفات التاريخية، التى يمكن أن نسميها إسلامية، والمعاصرة تقريبًا للتأسيس، وأحد المؤلفات التاريخية القشتالية الأخرى، والذى ينقل كثيرًا عن الكتاب السابق، عن إعادة بناء تطوان و عن الغرناطيين الذين أتموا ذلك.

كاتب المؤلّف الأول، وهو الزيّاتى، az Zayyati ، زار المدينة، والتى كان مؤسسها قد مات مؤخرًا[٨] .

يقدم لنا مارمول، المؤرخ القشتالى، معلومات مماثلة، ولكنه يقدم أيضًا معلومات مختلفة، سوف تكون مفيدة لنا[٩] .

من الغريب أن البرتغاليين، الأكثر قربًا للزمان والمكان، لأنهم عانوا فى داخلهم من ضربات الحامية السبتية المقيمة تقريبًا على أبوابها، لم يحدثونا عن أى شىء بالنسبة للتأسيس أو بالنسبة لأساسيات صراعهم ضد هؤلاء المنفيين.

سنبدأ بالزيّاتى، لأننا سنجد فيه أصول وشكل هذا المجتمع الغرناطى المميز فى المنفى.

يقول الزيّاتى الإفريقى، بعدما أوضح لنا كينونة المدمرين الحقيقيين "للمدينة الصغيرة التى أنشأها الإفريقيون القدامى"، هذا التدمير الذى أرخته لنا الأخبار البرتغالية بمنتهى الدقة فى عام ١٤٣٧ [١٠]، إن هذه المدينة بقيت ٨٠ عامًا مهجورة، وفى نهاية هذه الأعوام جددها قائد غرناطى، كان قد قدم مآثر خلال حرب غرناطة. كان البرتغاليون يطلقون عليه المندارى وحصل على إذن لإعادة حكومة المدينة والانتفاع منها. و أعاد بناء الأسوار و أقام قلعة وأحاط هذه وتلك بالخنادق. حارب البرتغاليين باستمرار، مسببًا الكثير من الأضرار البالغة للحاميات العسكرية فى سبتة و القصر الكبير وطنجة. كل هذا بمجموعة من ٣٠٠ فارس، كلهم غرناطيون، والذين كانوا "زهرة غرناطة"[١١] .

هنا توجد، بطريقة مسجلة جيدًا، الخصائص الأولية التى ميزت المجتمع الذى سوف يحاول الغرناطيون إعادة بنائه فى الأرض التى استقبلتهم.

يوجد رئيس حربى تجمعت تحت قيادته مجموعة من النبلاء الغرناطيين والذين، كما ابتعد رئيسهم، ابتعدوا هم أنفسهم عن أى حرب أهلية لا يقتنعون بها وأى حرب دينية أخرى يعتبرونها خاسرة.

لدينا كل المعلومات لكى نشكل بعض مظاهر بذرة المجتمع الغرناطى هذه:

(أ) شخصية المندارى،

(ب) رد فعل السكان المحيطين،

(ج) تدفق المهاجرين،

(د) إحياء القرصنة التطوانية.

يمثل المندارى الشخصية الأساسية فى قمة هذا المجتمع، وفقًا للبناء المعمول به فى غرناطة: القائد و الأمير.

إن القائد السابق لقلعة بينيار Pinar ، المنتمى لطبقة الأرستقراطية فى العاصمة، قد حمل معه، عندما رحل إراديًا إلى شمال المغرب، هيبة موروثة ومكتسبة وضعته، منذ اللحظة الأولى، على رأس باقى المنفيين. فهو ينتمى إلى حزب بنى سراج، وينتمى لنفس الحزب بالتاكيد، النبلاء الفرسان الذين رافقوه.

اتفق المؤرخون المغاربة على رأى واحد عندما اعتبروا أبا الحسن على المندارى الغرناطى رئيسًا للغرناطيين الذين أسسوا تطوان الجديدة، هذا هو المندارى الذى ذُكر فى الأخبار البرتغالية والقشتالية[١٢] .

حاولت مؤخرًا عمل سيرة ذاتية لهذه الشخصية غير العادية[١٣] .

بدأت النخبة الحربية تعمل فى الجانب الآخر من المضيق على غرار طبقات المجتمع الغرناطى. من الحقيقى أنه هنا، فى تطوان، كان يجب على السيف أن يتقدم على أى عنصر آخر، لأن الجار، القريب نوعًا ما، كان متزعزعًا بسبب حملات الفرسان وغزوات الحاميات العسكرية البرتغالية من سبتة و القصر الصغير وأرسيلة و طنجة. فلو احتُلت هذه المواقع الرئيسية، لكان الشمال المغربى كله تحت رحمة الغازى المسيحى.

للأسف لم يكن البرتغاليون بالنسبة للغرناطيين هم الوحيدون فى مواجهتهم، فقد وجب عليهم أن يتعاملوا بأكبر قدر من المثابرة مع المعارضة والعداء الواضح العنيف فى البداية لسكان البلاد الأصليين، الغيورين على أراضيهم ومراعيهم. إلى هذه الدرجة

كان الوضع وفقًا للمؤرخين التطوانيين المحليين، حتى أنه بعدما أنشأ المنفيون المساكن الأولى، كان سكان القبائل يدمرونها[١٤] .

عمومًا، ألم يتقدم ما هو حربى على ما هو مدنى فى المملكة النصرية؟[١٥]

أول شىء يجب أن تفعله عناصر هذه المجموعة من المنفيين هو تحصين أنفسهم وأن يحيطوا أنفسهم بالأسوار والخنادق، التى تعطيهم قدرًا من الأمان. من المؤكد أنهم لن يأخذوا عائلاتهم حتى تنتهى هذه العملية بشكل مرضٍ . تقريبًا فى مدة ثلاثة أو أربعة أعوام. نفس الأعوام التى مرت منذ رحيل المندارى من غرناطة، ووصوله إلى الأراضى الإفريقية، حتى قرر الزواج من إحدى قريبات الملك أبى عبد الله ونقلها إلى مدينة، أُعيد بناؤها و محاطة بأسوار يمكن الدفاع عنها جيداً .

هذا الزواج، أو على الأقل مشروعه، يمكن تأريخه فى عام ١٤٩٠ ويوضح لنا الوقت الذى زاد فيه الغرناطيون، بعد بناء مساكنهم وأخذ عائلاتهم، من عدد مجموعة المحاربين المهرة الذين كونوا النواة المبدئية[١٦] . هناك حدث يجعلنا نفكر فى النتائج التى أدى إليها ذلك. إن السكان الريفيين المجاورين، منذ البداية وحتى وقت طويل، كانوا معارضين تمامًا، كما قلنا، لإقامة هؤلاء الغرباء فى أراضيهم.

هناك نتيجتان اجتماعيتان لهذا التصرف. فى المقام الأول، عزز من التزاوج والذى سوف يمتد عبر الزمن، بكل ما يعنيه هذا.

فى المقام الثانى سوف يؤمّن قطاع الخدم نفسه بالمهاجرين، موسعين هكذا الطابع الغرناطى للمجتمع الموجود فى مرحلة التطور.

يقود هذان المصدران اللذان بُحثا، إلى جانب الظروف السياسية للبلد، الغارق فى الفوضى، إلى الحكم الذاتى، أى الاستقلالى، الذى يساعد على التنمية العادية للمجتمع الغرناطى، والذى ينمو فعليًا بدون عراقيل لكى يستطيع أن يُحاكى النماذج الخاصة بشبة الجزيرة. هذا يشكل مركزًا للجذب، يرحب كل مرة أكثر، بعدد أكبر من اللاجئين.

إن تدفق المهاجرين، الذى كان يتزايد كلما أشرفت حرب غرناطة على نهايتها، جعل من تطوان مدينة غرناطية محضة. حدث ذلك، ولكن مع مرور الأيام ومع استقبال كل أنواع المنفيين، بنفس المشاكل الضخمة للمجتمع الغرناطى فى الأعوام الأخيرة والصراعات الأهلية.

إن الوحدة، تحت تهديد السيف، قد ساندت كل حياة القائد العجوز، المنداري، والتى كانت طويلة، و عند موته قلما استطاع أقاربه المقربين، و من بينهم زوجته نفسها، ست الحرة، الشهيرة، أن تسندهم حكومة هربت من أيديهم وهلكت نهائيًا بين الصراعات العائلية المتكررة، فى الأراضى الإفريقية. سنعود لذلك فيما بعد.

المظهر الرابع الذى يجب أن نبحثه، يتعلق بالقاعدة الثانية التى كان ابن خلدون يعتبرها ضرورية للوجود المحض للدولة، و فى هذه الحالة، لمجتمع مستقل، كما كان المجتمع الغرناطى فى المنفى: الأموال والنظام الاقتصادى.

لا يمكن أن يقال شيء آخر عن المجموعة الحربية الصغيرة التى كانت تحيط بالمنداري إلا أنها كانت تعيش فوق البلد. كانت هجمات فرسانهم وحركاتهم الحربية يمكن أن تكون، فى الأعوام الأولى من ظهورها فى وادى نهر مارتين، مخيفة جدا للبرتغاليين و للسكان الأصليين ذاتهم. هناك معلومات تلفت نظرنا فى هذا الاتجاه: الأولى، والتى أشرنا إليها من قبل، هى عدوانية السكان الأصليين عند استقرار الغرناطيين فى أراضيهم.

بالإضافة إلى الاستقبال الجيد من قبل السلطات للقوة المركزية ولبعض الطبقات الاجتماعية الكارهة للأجانب علنًا، كطبقة "الشُرفا" surfa التى كانت فى صراع دائم مع البرتغاليين، فإن غالبية السكان، فى هذه المنطقة من الشمال المغربى، الريفيين بشكل واضح والذين يعيشون بشكل بائس فى جماعات قروية، كانوا فقط يرغبون فى العيش فى سلام. وكانوا يشترون هذا السلام من المسيحيين، بثمن غالٍ جدا بالتأكيد، وبسرعة كان يظهر أجانب آخرون كانوا أيضًا يطالبونهم بالجزية. وإذا كانوا يعطون الجزية للبعض كان يعاقبهم الآخرون، و أصبحت الضرائب المزدوجة بالنسبة لهم

لا يمكن احتمالها. لدرجة أنهم توصلوا إلى أن يتفقوا مع البرتغاليين لكى يطردوا الغرناطيين .

استمر العيش على حساب أهل البلد ومن الحرب خلال فترة طويلة، ولكن عندما زاد السكان، لم يعد هذا كافيًا.

كانت البلد تستطيع أن تتحمل، بجهد جهيد، مجموعة متطفلة غير نافعة ولكن لم تكن تتحمل شعبًا متطفلاً بأكمله.

و على الجانب الآخر فإن المهاجرين الذين كانوا يلجأون إلى هذه المنطقة المتنازع عليها، والأقل هدوءًا حربيًا إلى حدٍ ما عن داخل البلد، كانوا يجلبون معهم تعطشًا إلى الانتقام لا حدَّ له . لقد فقدوا أماكنهم ووصل الأمر إلى أن يترك بعض منهم عائلاتهم فى السواحل المواجهة، مع الشوق الناجم عن ذلك لكى يأخذوهم ويحضروهم معهم إلى الأراضى الإفريقية، "دار الإسلام"(١٧) .

بدأ هؤلاء الرجال نشاطًا كان يُمارس دائمًا كلما أمكن فى مصب نهر مارتين، ولكنه انقرض تقريبًا، بسبب العقوبات القوية التى فُرضت فى بدايات القرن الخامس عشر، ولم يكن غريبًا فى تلك البحور. نقصد حرب القرصنة. حرب قرصنة أحياها ونفذها الغرناطيون، الذين كان لديهم تبريران أساسيان: الرد الحربى والثراء.

نشأ الأول كنتيجة منطقية للهزيمة التى عانى منها المسلمون الإسبان و التى أدت إلى توقف الملاحة العادية بين سواحل المملكة النصرية القديمة، مع التوقف التام للتجارة.

التبرير الثانى للقرصنة الغرناطية هو الإثراء وهو النتيجة المنطقية للنشاط الذى بدأوا فيه، و الذى سوف يشكل المظهر الأكثر ملاحظة فى مجتمع المهاجرين النصريين التطوانيين، بحيث أنه عبر قرون طويلة، ظل اسم تطوان مرتبطًا، فى العقول القشتالية وحتى الأوربية، بمفاهيم صعبة وقاسية، كالقرصنة والسجون المظلمة تحت الأرض وعمليات الافتداء والعبيد والمرتدين، إلخ.

تتحدث المصادر الأكثر قدمًا عن ثلاثة الآف أسير مسيحى، كان يوظفهم المندارى فى تحسين الدفاع عن المدينة.

ولكنها أعداد تقريبية، فهناك شك فى هذا الرقم، و لم يكن الدور الحقيقى للأسرى هو العمل اليدوى الثقيل الذى كانوا يقومون به، ولكنها الثروة التى كانت تجنيها عملية الافتداء[١٨] .

كانت هذه الثروة وهذه التجارة كبيرة بحيث اتجهت الغالبية العظمى من طبقة النبلاء الغرناطيين، سواء النواة البدائية أو الذين كانوا يصلون إلى هذه الطبقة بالتتابع، إلى التسلح بسفن القرصنة. كانت السفن ترحل مع رؤساء و طاقم ملاحة غرناطى لأن ابن البلد الغُمارى لم يكن مطلقًا يهوى الملاحة وبالكاد كان يتجه إلى الصيد عند ضفاف النهر[١٩] .

استطاع المندارى ذاته أن يمتلك سفينة حرب هامة كان يوجهها للقرصنة والهجمات على الشواطئ المسيحية لشبة الجزيرة[٢٠] .

فى أحد المؤلفات يأتى الحديث عن سفينة حربية ملكية وخمس مراكب شراعية، مارة من العرائش والتى كانت، بجانب تطوان، المراسى الوحيدة التى تعتمد عليها المراكب المغربية فى الشمال المغربى، بالإضافة إلى ترغة Targa التى كانت خليجًا مفتوحًا، ليس به مأوى.

اختفت وأُهملت القرصنة البرتغالية، التى كانت قوية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر، المتزامن مع احتلال سبتة عام ١٤١٥، وبدأت تُفرض القرصنة الغرناطية فى المضيق والمياه المجاورة، مع هذا التمازج الغريب من الانتقام والرغبة فى الربح، الأمر الذى يحدث عادةً مع المنهزمين.

بدأت تطوان فى الثراء بفضل القرصنة، و سريعًا تشكلت طبقة حاكمة من الملاّك، ليس من الملاّك الريفيين الثابتين أو المدنيين، ولكن ملاّك العبيد.

هذه الطبقة الحاكمة برزت فيها، منطقيًا، قبيلة المنداري العائلية وبعض المحاربين الذين رافقوه في المنفى. هناك وثائق مختلفة عن افتداء الأسرى، موجودة حتى الآن ومؤرخة فى فترات مختلفة من حياة وحكومة القائد الغرناطى ذاته(٢١) .

هكذا، إذن، تحولت المدينة إلى سوق كبير للعبيد وبالتالى نالت شهرة سيئة، حتى العصور الحديثة.

و بسبب ثرائها وضيافتها كانت تطوان تحمى عددًا كبيرًا من المهاجرين لم يكن من بينهم فقط، كما فى الماضى، نبلاء وطبقة حاكمة، فقد تكدس فيها صناع وتجار وقضاة وكل سلسلة الطبقة الوسطى المدنية تقريبًا من المملكة النصرية، والتى هى الآن فى يد المنتصر، فى المدينة الجديدة. و قد التزموا بإعادة بناء سورها المحصن وإنشاء أحياء جديدة أكبر سعةً فى الغرب والجنوب.

لم يتشابه هذا المجتمع فى شىء تقريبًا مع المجموعة العسكرية الأولى، التى تمركزت حولها تطوان الجديدة. كانت هناك رغبة فى التشبه بالمجتمع الذى تعيَّن عليهم أن يهجروه فى أرضهم الأندلسية، وأرادوا أن ينتجوا تصميماته التى كانوا يحفظونها حية فى أذهانهم، لكن الظروف لم تكن مطابقة، ولا حتى متشابهة. ربما تشابهت الطبقة الحاكمة فى تبرير أهدافها التى ظلت كما هى السيطرة والثراء، ولكن فى أراضٍ بعيدة لم يكونوا يستطيعون أن ينالوها بنفس الطرق.

كان عليهم أن يحاربوا برا وبحرًا للحصول على الغنيمة والتى كان الجزء الجوهرى فيها يشكله الأسرى. كان أولئك الأسرى يتركزون فى أيادٍ قليلة كانت تشتريهم لإعادة بيعهم أو استخدامهم لمنفعتها الخاصة.

كانت كل الطبقات الاجتماعية الأخرى تدور حول هذه التجارة، لأن الصانع، على سبيل المثال، لم يكن يتعامل مباشرةً مع هذه التجارة، بل كان يعمل لأجل هؤلاء الذين كانوا يشتغلون بها.

نشأ، إذن، مجتمع استرقاقى يصعب فيه جدا تكوين أى رأس مال لا يقوم أساسًا على المكاسب التى توفرها القرصنة.

توجد دلائل على أن الأمور وصلت إلى هذا الحد. كانت هناك فترة هدنة بين مملكة البرتغال ومملكة فاس، تكلف التوصل إلى إقامة نظام حكم فى تطوان جهداً عظيماً، كانت الطبقة الحاكمة تريد البقاء على هامش الهدنات المذكورة لكى تستمر فى نشاط القرصنة. لقد أظهر ذلك الحاكم البرتغالى لأرسيلة أمام ملكه، وانتقد تصرف مولاى إبراهيم، الوزير الأول لمملكة فاس، والذى كان يحكم تطوان حينئذ عن طريق أخته، و كان يقوم باللعبة المزدوجة من توقيع بعض الهدنات فى بعض النواحى والاستمرار فى الأنشطة الحربية المربحة للبعض الآخر(٢٢) .

يجب الأخذ فى الاعتبار أنه لم يكن ممكناً تكوين إقطاعيات كبيرة، أصل ودعامة طبقة النبلاء الغرناطية، و أن نتصور أن ربح القرصنة هو المصدر الأكثر أهمية لثراء نفس هذه الطبقة المنغرسة فى الأراضى المغربية.

بعد ذلك كانت هناك مجموعة كبيرة من الناس، والتى، من ناحية، لم تكن تستطيع ولم ترد التشتت فى الحقول، و من ناحية أخرى، كانت تظل متركزة فى المدينة حيث كان يجب عليها أن تبنى كل شىء من جديد، من إعادة تصنيع الأقمشة والأحذية حتى التزود بالغذاء الضرورى للحياة اليومية.

كانت الصعوبات تزداد بنفس معدل وصول اللاجئين الجدد، فى موجات كبيرة أحياناً. لأن تطوان قد تحولت إلى أرض الميعاد التى يشتاق إليها كل الغرناطيين وليس فقط النبلاء الميسورين، كما كان الحال فى الأعوام الأولى من هزيمتهم. ولكن الآن، فى بدايات القرن الخامس عشر، كان يشتاق إليها كل السكان. حتى الريفيين الأكثر تواضعاً فى البشرات Alpujarra والصياد الذى يحلم بأن يعبر إلى الجانب الآخر، كما كان يعترف كونت تنديبا Tendilla ذاته والذى عرف هؤلاء الريفيين جيداً(٢٣) .

نعتقد أنه ربما تبرمت أكثر من مرة بعض عناصر ذلك المجتمع الغرناطى فى المنفى، الذى خُلق لكى ينمو مع بعض القوالب الثقافية والتى كانت تريد تماماً الخلود مع هذا المنفى، ولكنه تحول بفعل قوالب أخرى مختلفة إلى كتلة مختلطة، مزيج من بحر وبر، من اشتياق وكره، من رغبة فى الحرب وحنين إلى السلام، من ذكريات الماضى والتشوق إلى مستقبل أفضل.

لا، ليست تلك هى غرناطة، ولا رنده Ronda ولا باثا Baza ولا أيضًا مدينة بحرية، مثل ملقة أو ألمرية، بالرغم من أنها على الأقل لم تكن أيضًا بلدًا مسيحيا وكان سكانها يتمتعون فيها بحرية العيش.

كان يجب أن ينسوا ما تركوه فى بلادهم ويفكروا فى الوضع الجديد.

كانت الأصول موجودة فى غرناطة، لكن الأفرع الجديدة كانت تنمو فى بلد غريبة وكان يجب عليهم مراعاة هذه الأجيال والعمل على بقائها.

كان من الصعب نسيان ما تُرك. فقد ذم القاضى المغربى الونشريسى Wansarisi كل المنفيين المسلمين فى ذلك العصر فى المغرب لشوقهم إلى الوطن المفقود(٢٤) .

فى غرناطة تركوا منزلاً أو قصرًا، شارعًا و ميدانًا و مسجدا و نهرًا و شوارع عريضة و جبالاً، و تركوا أيضًا عائلةً و نسلاً و علاقات إنسانية متشابكة فى الزمن. فى تطوان بذلوا الكثير من المحاولات لإعادة هذا البيت أو ذلك القصر و المسجد و شارعه، أو ذلك الميدان؛ كان هناك النهر والجبال؛ كان هناك سهل أو وادى نهر مارتين الصغير، لكن لم يكن شيئًا مشابهًا. كان كل شىء يخرج صغيرًا جدا ومتعجلاً، و أصبحت الطبيعة نفسها تقليداً لسلاسل الجبال المثلجة الهائلة وللأنهار الغزيرة، للغوطة الخصبة ولوديان نهر شنيل Genil والمنصورة Almanzora المروية: كيف نعيد قصر الحمراء أو حتى قلعة من القلاع الكثيرة التى أُجبرت على الاستسلام، مثل سالوبرينيا Salobre-na أو جبل فارو Gibralfar .

كيف يحرثون بنفس همة حرث الأراضى الخصيبة جدا التى ولدوا وتربوا فيها، وهذه الأراضى الأخرى فى وادى نهر مارتين، المحاطة بالقبائل المعادية المفتقرة لأى نظام رى؟

قدمت لهم القرصنة، التى امتصت طاقات الكثير من الغرناطيين، فى الواقع، وسيلة حياة وأيضًا مخرجًا لرغباتهم فى الانتقام، لكن، على العكس عطلتهم عن القيام بأنشطة أخرى.

نستطيع أن نؤكد أن الأنشطة الوجدانية كانت مقتصرة على ممارسة الواجبات الدينية. هذا على الأقل لا يمكن أن يكون هكذا حيث كانت هذه الاعتقادات الدينية بالتحديد هى أفضل ما مثّل الأشكال السلفية للحياة الثقافية، والتى حاربوا من أجلها والتى فضلوا، بسببها فى النهاية، أن يهجروا وطن أجدادهم.

اقتصر باقى المجال الثقافى الواسع على حفظ القليل جدا والذى أمكن نقله من الوطن المفقود. امتص الجهاد فى مرحلتيه، البحرية والبرية، طاقات أصحاب الرأى العظماء.

لم تكن القصور أو المعابد هى التى برزت فى مجال الهندسة، ولكنها كانت الأبراج والأسوار. فهو مجتمع وُلد من الحرب ونما فيها.

هذه السمة وتوظيف أيدى العبيد كانتا واضحتين جدا فى الأبراج التى تزين السور المحيط و التى لا تزال محفوظة من عصر حاكم بينيار السابق. و يمكن رؤيتهما بوضوح أكثر فى قصر الشاون فى المدينة الشقيقة التى تمثل، كذلك إبداع طبقة "الشرفا" Surfa الغرناطية. قصر وأبراج ذات تأثير قشتالى وبرتغالى واضح.

تعتبر المرافق العامة الأولى التى تُعزى إلى المؤسس، سيدى على المنداری- منزله والحمام أو المسجد- من الآثار المتواضعة، التى إذا ما قورنت بأى مدينة أخرى فى شبه الجزيرة و بالعاصمة الغرناطية، فسوف تكون المقارنة مثيرة للسخرية.

يُعلى من شأن هذه الأماكن فقط ذكريات مؤسسها والعمل الضخم الذى قام به حتى لا تفقد تلك الأمة، على الأقل فى حياته، الهوية التى تجعلها متماسكة، وفى نهاية الأمر، تجعلها بطولية.

تمثل ذكرى "أندلس تطوان" فى الأخبار البرتغالية حدثًا بالنسبة لتاريخ كلتا ضفتى مضيق جبل طارق. الأسطورة ليست أكيدة، و كتبت بتكرار، و تقول إن كل المهاجرين كانوا يحفظون مفاتيح بيوتهم فى غرناطة، لحين عودتهم، كى يفتحوا منازلهم من جديد. ولكن روح هذه الأسطورة حقيقية[٢٥] .

والأكيد أنه من الصعب تجنب الحنين الهائل للمنفى والسراب العظيم الذى يتراءى لذلك الشخص الذى رحل من وطنه لسبب أو لآخر.

إذا لم يكن الأمر كذلك فكيف نفسر أن هذه العائلات التطوانية من سلالة مملكة غرناطة لا زالت تتذكر، ليس فقط بفخر ولكن أيضًا بحنين لا يقاوم، أنهم وارثو ذلك الماضى؟

كان المندارى، المعمر إلى حد ما، فى الأيام الأخيرة لشيخوخته الممتدة، و بعد أكثر من نصف قرن من كونه قائداً لهذه الأمة، يتأثر عندما يتحدث يوميا عن الوطن المفقود وتقريبًا كان يميل إلى تحقيق أعظم تضحية شريطة أن يعود لكى يراه(٢٦) .

وكثيرون كانوا سيقومون بهذه التضحية إذا كانوا يستطيعون. بعد ذلك بقرون كتب أهل هورناتشوس الخائفون فى قصبة الرباط إلى ملك إسبانيا، أنهم مستعدون للخضوع لمحكمة التفتيش شريطة أن يعودوا إلى وطنهم(٢٧) . لم ينس الغرناطيون وذريتهم أصولهم أبدًا. هذا، إلى جانب ضعف القوة المركزية المغربية، هو الذى حدد خاصيةً أخرى اجتماعية لهذه الأمة التى لمست فى نفسها، منذ بدايتها، قوى كافية لكى تحكم نفسها، بدون تدخلات غريبة عندما كانوا هم الغرباء.

كانوا محاطين، بالإضافة إلى ذلك، بفلاحين بؤساء ومتخلفين، كساكنى الجبال فى جباله Yebala وأنييرا Anyera والهاوس el Haus أو بنو حوسمار Banu Husmar وبنو حسن Banu Hassan، وكانوا غير قادرين، على الجانب الآخر، على مواجهة القوات المسيحية الغازية، و قد أعلنوا أنفسهم أبطال "الجهاد" ضد هؤلاء الغزاة، و ليس غريبًا أن يخلقوا فيهم عقدة الاستعلاء. و قد ساعدتهم رغبتهم فى عدم فقد هويتهم لكى يحافظوا عليها خلال أعوام كثيرة.

يمكن القول أن القرن الأول لإقامتهم فى تطوان الجديدة والذى أُطلقتْ عليه قرن المندارى، كان يشكل فترة ذات طابع غرناطى صافى، فيما عدا العلاقات المتفرقة مع طبقة "الشرفا" los surfa فى البلد، والتى كان واحدًا منها، ربما، على المندارى ذاته(٢٨) .

حتى فى البلاد التى لم يكن تكوينها غرناطيا تماماً، كما حدث فى مدينة الشاون، فإن تأثيرها فى المدينة، التى تأسست مؤخراً أيضاً فى تلك التواريخ، كان حاسماً بدرجة كافية لكى تطبعها بالطابع الخاص الذى ما زالت محتفظة به.

لم ينمُ المجتمع الغرناطى فى المنفى دون تغيرات ومخاطر. إن جسامة تلك التغييرات لم تجعل تطوره يسير بشكل طبيعى، بالرغم من أن ما هو طبيعى كان يمكن أن يكون ذوبانه السريع والمألوف فى المجتمع المغربى الذى اندمج فيه. كما حدث فى أجزاء أخرى من المغرب.

إن الموقف السياسى والحربى للبلد لم يسمح له بالاندماج السريع، فقد وُجدت مجموعات كبيرة من المنفيين فى أرض يجوبها الأعداء الدينيين و لا تقدم لها سلطات الملكية الوطاسية الحاكمة حينئذ فى المغرب الحماية الكافية. يجب أن يضاف إلى كل هذا عامل حاسم، و هو الاستقلال الفعلى لكل الشمال المغربى تقريباً، بقيادة الشريف سيدى على بن راشد، أمير الجبل ومؤسس الشاون. كان الدعم الذى قدمه لكل الهاربين من مملكة غرناطة كبيراً(*) لدرجة أننا نستطيع القول إنه بدونه، كان تاريخ المنفى الغرناطى سيتطور بطريقة أخرى مختلفة تماماً. يجب أن نذكر أنه زوّج ابنته للمندارى .

فى بدايات القرن، نحو عام ١٥١١، اختفى ابن راشد. بعد ذلك، و بمرور الأعوام حتى منتصف القرن السادس عشر، اختفت الشخصيات الرئيسية فى الشمال المغربى: المندارى و زوجته ست الحرة، و صهره مولاى إبراهيم وحتى السليل الثانى فى حكومة تطوان، القائد أحمد حسن.

مع عدم وجود هؤلاء الحكام الكبار والذى يتزامن، بالإضافة إلى ذلك، مع أوقات توطيد الملكية الجديدة السعدية، فى فاس، عادت المنافسات والحروب القديمة بين السلالات للظهور فى المدينة الغرناطية فى تطوان.

(*) هذا ما فعله أبو الغيث القشاش فى تونس . (المراجع)

عندما نقرأ لمارمول يبدو لنا أننا نعيش مرة أخرى صفحات منسية، من غرناطة ذاتها.

"فى هذا الوقت كان يوجد فى المدينة (تطوان) حزبان، بوعلى وبو حسن. بعد ذلك طرد أفراد بوعلى أعداءهم بالقوة خارج المدينة فى عام ١٥٦٧ الميلادى... و عندما كان الحسن حاكم المدينة غائبًا عن تطوان، دخل سيدى حامو، قائد الحزب المعارض، وقتل كل سلالة بوعلى واستولى على المدينة. وقد علم الشريف ملك فاس بذلك، وأرسل بعد ذلك حاكمًا يُدعى بن حُليفة، على رأس ألف فارس، والدوغيلى، الأندلسى، مع ألفين من جنود المشاة الأندلسيين الذين يحملون البنادق، والذين دخلوا سلميًا فى تطوان واعتقلوا سيدى حامو وأرسلوه محبوسًا إلى فاس وطردوا من المدينة أفراد عائلة بو حسن واحتلها الشريف... وهكذا انتهت سيادة ونسل المندارى"[٢٩] .

هل أيقظت المكاسب المفرطة الأطماع والطموحات؟ على الأقل كان هذا، كما يبدو، هو سبب الهجوم المفاجئ الذى خطف الحكم والثروات من أجل أرملة المندارى وخليفته المباشرة.

إن النبلاء الغرناطيين، ومن بينهم الكثيرون الذين ينتمون إلى عائلة بنى نصر الملكية، استطاعوا أن يهاجروا بجزء زهيد من ممتلكاتهم.

"إن الذين قرروا العبور، كما يقول مؤلف مجهول، بدأوا يبيعون مزارعهم وممتلكاتهم وبيوتهم. كذلك كان يجب عليهم أن يبيعوا بساتينهم وأراضيهم الزراعية ومنازلهم الريفية وحقولهم بسعر أرخص بكثير من سعر الفاكهة ... و كانوا يتصرفون بطريقة مشابهة فى الجواهر والأموال"[٣٠] .

هكذا كان الجو العام فى الطبقات العليا فى المجتمع الغرناطى، وفقًا لما نقله لنا المؤرخ الإسلامى. من تلك الثروات الكبيرة، لم يحملوا معهم سوى ما هو ضرورى لإعالة الاحتياجات الملحة الفورية. ما هى المصادر الأخرى للثروة التى كان يستطيع أن يستغلها هؤلاء النبلاء الميسورون، المعتادون على العيش من الإيرادات الضخمة والتمتع بكل ما هو متميز مما كان يقدمه لهم الريف والتجارة والصناعة الغرناطية؟

لم يبق أمامهم سوى شـن الغـارات، إذا كانوا من الفرسـان، أو القرصـنة إذا لم يكونوا كذلك.

كانوا ينفقون ثروتهم القليلة أو الكثيرة فى تسليح السفن من أجل الحرب المقدسة فى البحر، و كان لهم حق فى جزء من الغنيمة التى تُسلب.

لكن علاوة على الأطماع التى استيقظت، فقد ساهمت القرصنة أيضًا فى الشهرة العالمية الأكيدة للسكان التطوانيين الذين بدأوا هكذا فى إذابة وجودهم الأندلسى بطريقة ما وبدأوا فى الاندماج فى الوسط البشرى الذى كان يحيط بهم، الأمـر الذى لم يكن فى الإمكان حدوثه.

ساعدت القرصنة على وجود عامل يُضاف إلى انتشار الأتراك من الجزائر عبر مياه المضيق، بعد بداية العقد الثانى من القرن السادس عشر بقليل[٣١] .

كان للأتراك، سـواء فى تطوان أو فى العـرائش، بعض القـواعد الإدارية التى استمرت بعض الوقت، و لكن كانت هناك فى تطوان قواعد أكثر بكثير من الموجودة فى العرائش[٣٢] .

كانت أسواق العبيد فى تطوان والجزائر متصلة بعمق، يكمل أحدها الآخر، و كان سوق تطوان بطبيعة الحال هو الذى يقدم للجزائرى النصيب الأفضل والأكثر من البضاعة المرغوب فيها[٣٣] .

بالنسبة للعوامل الأخرى فنحن نعتمد على كتابات داوود.

"أخيرًا استقر فى تطوان عدد كبير من الريفيين وساكنى الجبال، إلى جانب إخوانهم الغرناطيين، وسكن معهم أناسٌ من فاس. تصاهرت العائلات واختلطت الاهتمامات. وصل هكذا العصر الذى نُسيت فيه الاختلافات بين العائلات لمعظم الأشخاص. بعد الذين وصلوا إلى تطوان من فاس أو من القبائل الريفية والجبلية المختلفة، أتى عرب و أشخاص آخرون أيضًا من أماكن أخرى متعددة. قلدوا العادات الغرناطية فى طريقة معيشتهم و فى ملابسهم و فى مأكلهم وفى طريقة التحدث. تطبَّع الجميع بالصبغة التطوانية الخاصة، حتى أصبح من المستحيل التفريق بدقة بين من هو

من أصل غـرناطى و من هو من أصل فـاسى أو ريفى أو جـبلى. لكن حكم تطوان وقيادتها الروحية والاجتماعية كانت، غالبًا، فى أيدى العائلات الغرناطية"(٣٤) .

شىء قليل آخر يجب أن نقوله عن المجتمع الغرناطى فى المنفى.

بقيت الذكرى وعاطفة غرناطة التى تبعد كل مرة أكثر ولكن أيضًا بقى شىء آخر. ربما قليل و ربما كثير وفقًا لكيفية النظر إليه، ولكن هذا القليل أو هذا الكثير ما زال حيًا فى المجتمع التطوانى. وهو حىٌ لأنهم عملوا على عدم اختفاء هذه العناصر من المجتمع و من العائلة والتى قليلاً ما صُورت وقليلاً ما وردت فى الأخبار والتاريخ. هى الشخصية التى عانت بصورة أكبر من كل التضحيات، ومع ذلك، كانت هى التى يجب الاعتماد عليها ساعة الإقدام على المنفى. نحن نشير، كما هو واضح، إلى المرأة الغرناطية فى المنفى، إلى الرفيقة فى الحروب الكثيرة، إلى الأم و الأخت والزوجة والإبنة.

لكن موضوع المرأة الغرناطية فى المنفى هذا نعتقد أنه يستحق اهتمامًا أكبر وسوف نتحدث عنه قريبًا.

الهوامش

(1) IBN KHALDUN: Discourse sur l'Histoire Universelle (al Muqaddima). Tr. Vincent Monteil. Beyrouth 1968. T. II, pág.59.

(2) El siglo XV en primera persona...Tr. E. Levi Provençal y E. García Gómez. Madrid 1980. Nota 2 Cap. VII, Págs. 212-213.

(3) ARIE, Rachel: L'Espagne Musulmane au temps des nasrides. (1234-1492). París 1973, pág. 185.

(4) LADERO QUESADA, Miguel Ángel: Granada. Historia de un país islámico. (1232-1571). Madrid 1969, pág.34

(5) HOENERBACH, Wilhelm: "El historiador Ibn al Jatib: pueblo-gobierno-estado. I. Granada 1980, pág. 54 y s.

(6) LADERO QUESADA, Miguel Ángel: Granada después de la conquista. Granada 1988, págs. 261 a 271;

لاديرو يصف الضرائب " بمصلحة ضرائب الأمراء القاسية".

(7) Fragmento de la época sobre noticias de los Reyes Nazaritas. Pr. Y Tr. Bustani, Alferdo y Quirós, Carlos: Larache 1940, pág. 7.

(8) L'AFRICAIN, Jean Leon: Descripción de l'Afrique. Tr. Epaulard. París 1956, pág. 268.

(9) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del: Descripción general de África. Granada 1573. Libro 4: Fol.131.

(10) AZURARA, Gomes Eanes de: " Chronica de Conde D. Pedro de Meneses y Chronica D. Duarte". Colleçao de Livros ineditos de l'historia portuguesa, de José Correa de Serra. Lisboa MDCCXCII.

(11) L'AFRICAIN: Op.cit., pág.268.

(12) DAWD, Muhammad: Tarij Titwan. Titwan 1379/1959. Tomo 1.a, pág.90.

(13) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada 1988.

(14) DAWD: Op. cit., pág. 97.

(15) LADERO: Granada H.a de un país islámico..., pág. 65.

(16) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Op.cit., págs. 65 A 70.

(17) DAWD: Op. cit., pág. 97.

(18) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "Las mazmorras de Tetuán". Estudios de Historia y de Arqueolorgía Medievales. III y IV. Cádiz 1984, Págs.247 a 264.

(19) BRUNOT,L.: La mer dans les traditions et les indusrties indigenes de Rabat-Sale. Paris 1921, pág. 241.

(20) GOES, Damiao de: Chronica d'el Rei D. Manuel, Lisboa 1909. Vol.III, pág.16.

(21) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari..., págs.94 a 97.

(22) Sources Inedites de l'Historie du Maroc. (S.I.H.M.) Portugal. 1.a serie. Vol. III, Pág. 109-11. También GOZALBES BUSTO, Guillermo: "Sit al hurra, gobernadora de Tetuán (siglo XVI)". Actos I Congreso Internacional del Estrecho de Gibraltar. Ceuta 1987, pág. 461 a 479.

(23) MENESES, Emilio: Correspondencia del Conde de Tendilla. II Madrid MCMLXXIV. Pág.41.

(24) GASPAR REMIRO, M.: "Granada en poder de los Reyes Católicos. Primeros años de su dominación". Rev. del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino. N.* 4-1911-. Tomo I, Págs. 222-223.

(25) ينفى مؤرخ تطوان الشهير، محمد داوود، متحدثًا عن أسطورة المفاتيح، أن أحدًا كان يملكها. أنظر كتابه: Tarij Titwan. Tetuán 1379-1959. Tomo 1.*, pág.88.

(26) ARANDA, Gabriel: Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692, pág. 507 y 516.

(27) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "La República andaluza de Rabat en el siglo XII". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. Núms. 9-10. Tetuán. Junio-Diciembre 1974.

(28) GOZALBES BUSTO, G.: Al Mandari, el granadino..., págs. 70 a 72.

(29) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del Libro Quarto, del Reino de Fez... de la descripción general de África. Granada 1573. Folio 131 y 131 vuelto.

(30) Fragmento de la época... ya citado pág. 50.

(31) RODRIGUEZ, Bernardo: Anais de Arzila... Lisboa 1915. pág. 227.

(32) S.I.H.M. España 1.a-1, págs 1 y 2.

(33) S.I.H.M. España 1.a-1, págs 79-80. Portugal. 1.a-3, págs. 113-126, 499-500 y Portugal 1.a-4, págs. 52, 79, 85, 92, 130.

(34) DAWD: Op. cit., pág. 98.

الفصل الثالث

دراسة موريسكية لأسماء الأشخاص فى المغرب (قيد البحث)

من المألوف، عندما نتحدث أو نكتب شيئًا عن الموريسكيين فى المغرب، وبالأخص عن هؤلاء الذين سكنوا تطوان، أن نذكر بعض الأسماء القشتالية من عائلات كانت ولا تزال موجودة فى المدينة التى أسسها الغرناطيون.

أنا نفسي، منذ وقت ما، جمعت ١٦٩ اسمًا لعائلات أندلسية، عاشت وما زالت تعيش فى تطوان، و جمعتُ كذلك المعلومات التى أطْلعنا عليها بعض الدارسين المغاربة المعاصرين[١] .

برغم هذه المعلومات كان يوجد حينئذ انطباع بأن هذا الرقم لم يكن كاملاً وإنما كان مجرد رقم بيانى لهذا العدد الهائل من العائلات الإسلامية الإسبانية التى استقرت فى المغرب بعد عبورها مضيق جبل طارق.

فى المقام الأول، حتى دخول القرن العشرين لم تكن هناك نية لجمع أسماء العائلات فى مدينة تطوان يمكن أن تكون مرشداً للدراسة التى تهمنا.

مرت، إذن، خمسة قرون منذ أن بدأ الغرناطيون الهجرات الجماعية إلى المغرب.

فى هذه الأثناء فُقِد الكثير من الأسماء الأصلية. و فى البحث الذى قام به المؤرخ التطوانى فى عام ١٩٢٥، ظهر الكثير من الأسماء مع هذه العبارة: "غير موجود الآن"

هذا بالنسبة للذين تركوا أثرًا ما، ولكن الكثيرين سوف يختفون دون أن يتبقى أى أثر لوجود تلك العائلات أو هؤلاء الأفراد.

فى المقام الثانى، كما يمكن ملاحظة ذلك فى استشهادات هؤلاء الباحثين المحليين، أن بعض هذه الأسماء، و ليست كلها، عبارة عن أسماء مُقَشْتَلَة castellani-zodos . هذا يمثل صعوبة إضافية للباحث الذى لا يجيد لغةً سامية، وهى استطاعة التحقق من كون اسم عائلة ما موريسكيًا أو مغربيًا. فى هذه الحالة يجب أن نقوم بجهود حقيقية فى المطابقة فى الزمن وفى الظروف، لكى نتأكد من أن اسمًا ما حمله فى شبه الجزيرة إسبانىٌ مسلم أو موريسكىٌ أو أن الاسم ينتمى إلى مغربى أو إلى عائلة أخرى من باقى العالم الإسلامى.

مع ذلك، فإن الاستخدام القليل للقب بين المسلمين المغاربة، سواء فى العصر الوسيط أو الحديث، يسهِّل الأمور إلى حدٍ ما. مثالٌ توضيحى لاسم عائلة ليس قشتاليًا: لو أن لدينا اسم بوعلى، بن على، و هو اسم جارى الاستخدام جدا فى العالم الاسلامى، وبطبيعة الحال، فى المغرب أيضًا، و يظهر فى وثائق الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر أو الأعوام الأولى من القرن السادس عشر، فى تطوان المؤسسة مؤخرًا، فمن الواضح أننا نقصد به شخصًا غرناطيًا، رفيق للمندارى، مؤسس المدينة.

هكذا فى افتداء الأسرى، المثبت فى عام ١٥٢٣ فى تطوان، يوجد اسم خوان راميرث من سان لوكار دى باراميدا San Lucar de Barrameda، والذى ظل أسيرًا فى تطوان على مدى ٢٣ عامًا، فى قبضة "سيدى حامد بوعلى".

كان لابن على ونسله أكبر الأثر فى التاريخ التطوانى، وليس هناك مجال للشك فى انتمائه إلى الطبقة الارستقراطية الغرناطية المهاجرة مع المندارى، حيث أنه كان موجودًا فى تطوان عام ١٥٠٠ وكان لديه عبيد فى هذا التاريخ.

من المحتمل أن يكون ابن على هذا هو الذى يحدثنا عنه مارمول كارباخال عندما حكى عن الصراعات الموجودة فى المدينة عند موت المندارى.

يقول إنه كان فى الميدان حزبان، حزب بوعلى وحزب بو حسن، طرد أفراد الحزب الأول معارضيهم من المدينة عام ١٥٦٧ . بعد ذلك جاء سيدى حامو ودخل المدينة وقتل كل افراد عائلة حسن الذين استطاع أن يجدهم ... إلخ[٢] . كان يمكن أن تنتهى حرب

السلالات و الأحزاب بموت عائلات بأكملها، وكان يمكن أن تختفى أسماؤها للأبد. مات أحد أحفاد ابن على (الذى عرفناه فى وثيقة لعام١٥٢٣) مقتولاً فى عام ١٦٣٥، عندما كان حاكمًا لتطوان، وذلك على يد الموريسكيين الثائرين. لم يتكرر اسمه مرة أخرى فى وثائق تالية، ولا حتى بقيت ذكراه، و قد استمرت مسيرته السياسية أكثر من قرن كما استطعنا أن نثبت ذلك فى وثائق تم بحثها. مثلما حدث مع المندارى أو على، سنجد آخرين من النوع نفسه حيث أننا نعرف أن المجتمع الغرناطى فى المنفى قد استمر فى المصاهرة خلال وقت طويل وذاب فى قومية البلد بطريقة متأخرة وبطيئة[٣].

إن استخدام اللقب فى المغرب ربما انتشر بعد الأحداث التى قام ببطولتها الموريسكيون الإسبان بكثير.

ولذلك يمكن أن نجد الكثير من أسماء عائلات تنسب إلى البلاد، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وليست مقشتلة، وهى عائلات موريسكية بالرغم من أنه يصعب التمييز بينها وبين أسماء أخرى أقل أو أكثر تشابهًا مع العالم الإسلامى. فى المقام الثالث، وبالنسبة لهذه النقطة الأخيرة، فهناك احتمالان. الأول، أن المنفيين احتفظوا بالأسماء التى تلقوها عند تعميدهم. الثانى، أنهم غيّروها عند الوصول إلى أراضى الإسلام.

هناك الكثير من الأسماء التى حفظها المهاجرون والتى لا تزال موجودة حتى يومنا هذا. ولكن هناك أيضًا حالات عديدة غيرت فيها العائلات أسماءها بالكامل لكى تبتعد بذلك عن أى ذكرى للحضارة التى ظلمتهم.

لدينا وثيقة دقيقة مؤرخة فى عام ١٥٣٧ أكدت لنا هذه النظرية.

نحن بصدد رسالة مؤرخة فى ١٦ يناير من عام ١٥٣٧، مرسلة من مدينة أزمور **Azemur**، الواقعة فى الساحل الجنوبى الأطلنطى المغربى، و كانت موقعًا برتغاليًا قويًا، وبعث هذه الرسالة إستيبان ربيرو دى ألميدا **Esteban Ribeiro de Almeida**، إلى خوان الثالث ملك البرتغال.

يقول النص الذى يوضح لنا كثيراً القضية التى نتناولها:

سيدى، يوجد فى هذه المدينة بعض الأشخاص الذين تلقوا ماء التعميد والآن يعيشون هنا، متزوجين جهراً بمسلمات ويعيشون طبقًا للديانة التى كانوا يعتنقونها قبل ذلك، و يتسمون بأسماءٍ مسلمةٍ، وهكذا بعض اليهود، الذين كانوا أيضًا مسيحيين والآن هم متزوجون بيهوديات ويتسمون بأسمائهم اليهودية. لقد سألتُ القائد، كيف كان يوافق أن يعيش هؤلاء المسلمون هنا بطريقة علنية جدا، حيث أنهم كانوا مسيحيين. قال إنه كتب إلى سموكم يسأله عن كيفية وجود هؤلاء المسلمين وهؤلاء اليهود هنا وأنه أجابه بأن يتركهم موجودين، و ألا يضايقهم.

ننتظر أن ترسل سموكم إلى هنا محاكم التفتيش المقدسة التى يمكن أن تكون ضرورية جدا لأننى علمت أن الناس يعيشون هنا فى حرية، دون الحفاظ على وصايا عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، حيث أنها واجبة، و التحذيرات التى أقولها لهم لا تكفى ولا تؤثر فيهم. لذلك فإن محكمة التفتيش المقدسة سوف تصدر أحكامًا لكى شىء .

بالنسبة لهولاء الذين، بعد تناولهم ماء التعميد أصبحوا مسلمين أو يهود، تفضل سموكم بإرسال توضيح بما يجب فعله معهم(٤) .

لو عدنا لتاريخ عام ١٥٣٧، أى خمسة عشر عام قبل ذلك، كما يؤكد ريبيرو دى ألميدا، سنتقابل مع جيل قريب كان عليه أن يتقبَّل التعميد الحتمى أو الهجرة. أى أنه جيل يحمل استياءً لا يزال حيًا.

لذلك فإن كل الذين كانوا يعبرون إلى الجانب الآخر لم يكونوا يحتفظون بالأسماء القشتالية. بالأحرى يمكن الشك فى أنه كان يتوفر العكس ،لأنه إذا كان هؤلاء، الذين يشار إليهم فى رسالة رئيس كنيسة أزمور، يغيرون أسماءهم، وأيضًا حالاتهم وطريقتهم فى الحياة، لأنهم يعرفون أنهم مراقبون من قِبل مجتمع مسيحى فإن الذين أقاموا فى مجموعات اجتماعية إسلامية تمامًا سيفعلون ما هو أكثر من ذلك.

يجب أخذ عامل فى الإعتبار و هو عدد المنفيين الغرناطيين قبل عام ١٥٠٢، أى قبل الإجبار على التعميد أو الهجرة.

لم يكن لأحد من أفراد عائلة المندارى أو حسن أو ابن على أو مفضل، والذين ظهروا فى وثائق، منذ عام ١٥٢٣، أسماءً مسيحية أبدًا، و ملأ هؤلاء المهاجرون قرى ومدن المغرب، بالإضافة إلى تكوين مجموعات مستقلة. هاجروا إلى تلك المدن، الكبرى بالأخص، حيث لم تكن تستخدم أسماء عائلات مغربية، إلا فقط فى العائلات ذات النسب الشهير. لسنا فى حاجة إلى أن نذكر أنه فى القرى لم يكن يوجد شىء من هذا.

نجد أنفسنا، بالتالى، أمام مهمة ليست سهلة، ولذلك يجب أن نستفيد، كالمعتاد، من الوثائق غير المشكوك فيها. هذه الوثائق هى التى سوف نستخدمها اليوم لنزيد عدد أسماء العائلات الموريسكية التى نعرفها حتى الوقت الحاضر.

من الغريب أن نلاحظ – وهو ما حدث معى فى المغرب – أن العائلات تحتفظ بذكرى أسلافها الإسبان و ذكرى الوطن البعيد، المتلاشية الآن إلى حد ما، دون أن تفقد إسمًا مسيحيًا كما فى تورِّيس Torres أو موراليس Morales أو بايثا Baeza أو غارثيا Garcia والذى لا يرتبط بأى مضمون دينى أو عنصرى، ولا يفصله عن إسلامه العميق أو عن مغربيته الذاتية. كذلك كان هؤلاء، الذين يذكرون أسلافهم الإسبان، فخورين بأصولهم العربية. وأكثر من هذا، فإن مجرد حمل لقب أندلسى، المنتشر جدا، يشكل تبريرًا بسيطًا للإحساس بالفوقية على بقية الناس. وبالنسبة للقب "الأندلسى"، يجب أن نوضح ملاحظةً مهمة: هذا اللقب كان يجب أن تحمله، وإلى الآن تحمله، عائلات من أصول مختلفة، دون صلة أو أصل مشترك. من المحتمل أن يكون قد حمله الكثير من الموريسكيين الذين–عندما تركوا أسماءهم المقشتلة المفروضة عليهم فى التعميد الإجبارى – فضلوا أن يميزوا أنفسهم ببساطة مستخدمين اسم الوطن المشترك المهجور، وهو الأندلس.

نجد ذلك مكتوبًا بطرق متعددة بها فى كثير من الأحيان أسماء أعلام مختلفة.

عرفت شخصيًا فى تطوان عدة أفراد كانوا يلقبون بلقب "أندلسى"، الذى كان ينطق بنبرة حادة. يمكن أن يحدث المثل، بصورة أقل، مع ألقاب مثل المالكى(*) al Mali-qui من ملقة Málaga ، وكاثيرى Caceri من كاثيريس Cáceres وفورناتشو Fornacho من هورناتشوس ولوركى Lorqui من لوركا Lorca وريكينا Requina من ريكينا Re-quena وتشيليتشى Chelichi من خيريث Jerez ... إلخ.

تبقى كلمتان عن الموقف السياسى فى المغرب عند وصول المنفيين. فى الواقع كان الموقف سيئًا جدا فى الفترتين اللتين حدثت فيهما الهجرة الجماعية. أولاً، فترة سقوط مملكة غرناطة والتى تتزامن مع الأسرة الملكية الوطاسية الضعيفة والتى كانت على وشك الاختفاء، وبعد ذلك، الطرد أو سلسلة قرارات الطرد من ١٦٠٩ إلى ١٦١٤، والتى تتزامن مع الصراعات الأهلية التى تسببت فى انحطاط الملوك السعديين. فى الواقع فإن هؤلاء الإسبان المسلمين الذين دخلوا فى المجتمع المغربى – الذى لم يكن مستعداً لاستقبالهم و كانت لديه مشاكل كثيرة – قد شكَّلوا أكثر من عنصر خلل فى البناء الاقتصادى و السياسى و الاجتماعى للبلد. و بالمصطلحات الطبية، يمكننا القول أنه كانت هناك أعراض رفض لهذا الجسم الغريب، الذى دخل، مع ذلك، بترحيب من السلاطين وجزء من السكان.

عندما استطاعوا التجمع فى مجموعات مستقلة، فإن حظهم قد بدا، فى البداية، مواتيًا، كما حدث فى تطوان، فى عهد أوائل حكامهم الإسبان المسلمين ومجتمعها الغرناطى(٥)، وكما حدث فى الرباط، بعد ذلك، مع الهورناتشيين والأندلسيين(٦) .

و قد استفاد الموريسكيون من هذه الفوضى، و شكلوا مدنًا– دولاً مستقلة وحقيقية، ذات تاريخ خاص. مع ذلك، وكقاعدة عامة، فإن تاريخ باقى المنفيين قد فُقد، عندما امتصهم القاع العنصرى للبلد الذى استقبلهم، مع بقاء أسماء بعض العائلات كإشارة على الهوية، بينما اختفى الكثير منها.

(*) هناك فرق بين المالكى (من أتباع مذهب الإمام مالك) والملقى (المنتسب إلى إقليم ملقة الأندلسى) ونظن أن عدم إجادة اللغة العربية يؤدى إلى الخلط بين اللفظين . (المراجع)

ان الحالتين السابق ذكرهما، تطوان والرباط، هما اللتان احتفظتا، حتى يومنا هذا، بأكبر عدد من إشارات الهوية هذه، و التى اكتملت باستخدامات وعادات خاصة وكونت التقاليد القوية، حتى اليوم.

إن اختلاط القوميات المدنية، و هى الظاهرة التى أثرت كذلك على المدن المغربية فى الأعوام الأخيرة، إلى جانب زيادة السكان ومظاهر أخرى من الاتجاهات الخاصة بالهجرة الداخلية من جنوب إلى شمال البلد، يمكن أن تكون أسباباً لفقد الكثير من ذكريات الأسلاف، سواء التطوانيين أو الرباطيين.

و قد قدمنا هذا العمل حتى لا يُنسى كل شيء تماماً، حيث أننا مقتنعون بأنه بتسجيل تاريخ الموريسكيين المنفيين فإننا بذلك نسجل جزءاً من تاريخنا ذاته فى الخارج(*).

فهارس ومصادر:

نربط، من جديد، بين أسماء العائلات المغربية من أصل "أندلسى" أو، من أسلاف إسبانية إسلامية، مع تحديد المصدر أو الوثيقة التى تظهر فيها فى كل حالة.

يجب أن نذكر أنه الآن، لا تُذكر العائلات التطوانية فحسب، ولكن أيضاً العائلات المغربية كلها، بالرغم من أن العائلات الأولى كانت موجودة بأعداد كبيرة، مع الأخذ فى الاعتبار أن الوثيقة المستخدمة كانت تشير إلى تطوان أو توجد فيها. سنتبع ترتيباً أبجدياً إسبانياً معروفاً. نعرف أن الأبجدية العربية لا تتشابه مع الإسبانية، و بالإضافة إلى ذلك فإن اللغة العامية المغربية التى تعبر بها هذه الأسماء فى الزمن و تستمر فى التعبير بها، لا تتشابه كثيراً مع الأبجدية العربية.

(*) لاحظ الهدف من دراسة تاريخ الموريسكيين بالنسبة للباحث الأوربى: إنه فى المقام الأول يكمل دراسة تاريخ إسبانيا. هذا ما نادى به المستعرب الإسبانى سيرافين كالديرون فى القرن التاسع عشر. (المراجع)

يكفى أن نذكر أن الـ P هى (پ) بثلاث نقاط بالأسفل، أو الـ GUE هى (ك) بثلاث نقاط بأعلى، و هى حروف غير موجودة فى اللغة العربية الفصحى. ولذلك أكرر أننا قد فضلّنا أن نتبع ترتيبًا أبجديًا إسبانيًا، مع مطابقته مع النطق المتشابه إلى حدٍ ما مع الأسماء المغربية.

إن المصادر التى خدمتنا هى التالية، وفقًا لترتيب زمنى بسيط. الأول هو إيرهونى.

أحمد الرهونى Ahmed Al R'honi، كما كُتب فى الترجمة الإسبانية لمؤلَّفه، الذى كتب فى تطوان، وترجمه محمد بن عزوز، فى ١٩٥٣ . الأسماء المأخوذة من هذا المصدر تحمل حرف (E) [٧].

الثانى هو محمد داوود، والذى يجمع كتابه "تاريخ تطوان"، فى نفس الوقت، أسماء عائلات تطوانية عديدة من أصل إسبانى[٨] . نعرف عن طريق مصادر موثوق بها، أن السيد داوود عند موته كان يكتب عن هذا الموضوع. أسماء العائلات التى ذكرها تحمل حرف (D) .

مصدر آخر يأتى من السيد جبور عدى Yebbur Oddi، والذى ذكر فى إحدى محاضراته أسماءً ستحمل حرف (Y) [٩] . نشر السيد عزوز حكيم مؤخرًا قائمة طويلة من الألقاب التطوانية ذات أصل إسبانى، فى مجهود يستحق الشكر لإنقاذ تأثير الهوية الإسبانية فى الأراضى المغربية من النسيان[١٠] .

تعتبر هذه القائمة، والتى ستحمل أسماؤها حرف (A)، وثيقةً مهمة لا يمكن الاستغناء عنها فى دراسة الموضوع.

القليل من الأسماء يأتى من الدراسة التى قمنا بها عن جمهورية الرباط الأندلسية فى القرن السابع عشر، والتى ستحمل حرف (G) .

وبالرغم من قلة الأسماء، فهناك أسماء أخرى أُخذت من وثائق افتداء الأسرى المحررة عام ١٥٤٨، والتى نُشرت عام ١٩٥٨ فى إحدى المجلات [١١] .

هناك وثيقة افتداء أخرى للأسرى من عام ١٥٢٣، والتى نستخلص منها أسماء موريسكيين ذُكرت فيها، و نحدد العام فقط[١٢] .

لقد استخدمت المقال الذى ذكر هذا الافتداء الأخير فى كتابى عن المندارى الذى ظهر كقائد للمدينة التى أعاد بناءها.

بالنسبة للوثائق غير المنشورة والتى يرتكز عليها إسهامنا الأساسى، فهى تتكون من المخطوطات الموجودة فى المكتبة الوطنية، وتتعلق بوثائق على جانب كبير من الأهمية خاصة بافتداءات الأسرى فى أعوام مختلفة من القرنين السادس عشر والسابع عشر. يُذكر فيها بكثرة أسياد العبيد المحررين، والذين دُفعت إليهم الفدية. كانت الغالبية العظمى عبارة عن افتداءات دُفعت فى تطوان، بالرغم من أن هذا التفصيل ليس ذا أهمية، لأن المدينة كانت السوق الأساسى التى يتوقف فيها أسياد باقى المدن والأماكن من المغرب، لبيع العبيد. بهذه الطريقة، على سبيل المثال، نفهم أنه فى وقت معين كانت توجد مستعمرة موريسكية مهمة فى القصر الكبير أو أن ملك بيليث دى لا غوميرا Vélez de la Gomera كان يرسل أيضًا "بضاعته" إلى السوق التطوانى لجمع المكاسب المربحة التى كانت توفرها الصدقات والهبات، التى كان يحملها رجال الدين المفتدون، وأشياء أخرى أكثر من ذلك.

ولكن هذه التفاصيل وتفاصيل أكثر بكثير ستكون موضوعًا لدراسات تالية تخرج الآن عن موضوع دراسة أسماء العائلات التى نقدمها.

ستُتبع الأسماء المأخوذة من هذه المخطوطات بالعام الذى حدث فيه الافتداء، بجانب رقم المخطوط. هكذا فإن رمز R.1579/Mss. 6569 يعنى أن اللقب يظهر فى افتداء عام ١٥٧٩، والموجود فى المخطوط رقم ٦٥٦٩ فى المكتبة الوطنية. سنكتب فى الاستشهاد الأول فقط العام ورقم المخطوط، و نحذف هذه المعلومة الأخيرة من باقى الاستشهادات التى حدثت فى نفس العام للاختصار بقدر المستطاع.

توجد مجموعة أخرى من المخطوطات عن افتداء الأسرى فى القرن السابع عشر، فى الأرشيف التاريخى القومى (A.H.S.) . من الغريب أن الغالبية العظمى من

الافتداءات التى نراها فى المكتبة الوطنية تنتمى إلى الافتداءات المثبتة من قبل جمعية السيدة العذراء. فى هذه الجمعية الملكية الحربية يتوافر التوثيق الموجود فى المكتبة الوطنية، كما هو مذكور فى الكتب المهداة إليها. و على النقيض، ففى الأرشيف التاريخى القومى تشير مخطوطات الافتداءات إلى مخطوطات جمعية الثالوث المقدس.

كان أنصار الجمعيتين يتنافسون، ليس فقط فى الأسبقية، ولكن ايضًا فى التفرد بعملهم الإنقاذى، و كان يجب عليهم التوصل إلى توقيع اتفاقيات فى هذا الصدد. فى الواقع. كانت تتزامن هذه الاتفاقيات مرات عديدة فى نفس العام وفى تطوان نفسها، بالرغم من أنه للأسف كان هناك أسرى للجميع.

نعرف المخطوط رقم ٣٨١٩ من المكتبة الوطنية، المتعلق بافتداء ذى أهمية تم عام ١٦٣٣، وآخر من الأرشيف التاريخى القومى من نفس العام، من الكتاب رقم B/١٢٩ من قسم المخطوطات.

لكن ليس هدفنا، الآن، الوصف و التفريق بين الوثائق الموجودة فى أحد أكبر مراكز البحث الإسبانية أو فى مركز آخر.

كما عرفنا مخطوطات المكتبة القومية، يجب أن نوضح كيف نتعرف على تلك المخطوطات الصادرة من الأرشيف التاريخى.

الأسماء المأخوذة من هذه المؤسسة الأخيرة ستحمل أيضًا العام، و يتبعه رقم كتاب قسم المخطوطات الموجود بها. على سبيل المثال **R.1677 / 144 B** يعنى أن هذا المخطوط يتبع افتداء حدث فى عام ١٦٧٧، الموجود فى الأرشيف التاريخى القومى، قسم المخطوطات، كتاب رقم ١٤٤ B. لن نكرر، لذلك، الاختصارات **A.H.N** ولا أيضًا الكلمات "مخطوط" و لا "كتاب"، معتقدين أنه يكفى وضع رقم الكتاب بعد السنة متبوعًا بحرف **B** لكى نميزهم عن مخطوطات المكتبة الوطنية **(B.N)** .

لا نستطيع هنا، فى الأرشيف التاريخى القومى، أن نختصر كثيرًا، كما فعلنا فى المكتبة القومية، بأن نذكر فقط عام الافتداء، إلا فى الأسم الأول، لأننا بذلك سنخلط بين المصادر، و يبدو لى مهمًا جدا ترك المصدر واضحًا.

إجماليًا، فقد جمعنا أسماءً ظهرت فى ٢٩ وثيقة. يوجد منهم أربعة فقط تنتمى إلى القرن السادس عشر، اثنتان تم نشرهما و اثنتان جديدتان . أما الخمس وعشرون الباقون فهى مخطوطات: عشرة مخطوطات منها من المكتبة الوطنية وخمسة عشر من الأرشيف التاريخى القومى[١٣] .

إن مجموع التسع وعشرين افتداء تتضمن الفترة من عام ١٥٢٣ إلى ١٦٧٧، أى أكثر من قرن ونصف بقليل.

إذا أحصينا فقط مخطوطات القرن السابع عشر، سيكون لدينا معدل افتداء واحد لكل أربعة أعوام. هذا المعدل يكون أقل، إذا أخذنا فى الاعتبار أنه، بداية من فترة حكم مولاى اسماعيل، أو تقريبًا منذ عام ١٦٧٧، وهو عام آخر افتداء اطّلعنا عليه، كانت رحلات رجال الدين لافتداء الأسرى صعبة ونادرة، بالإضافة إلى أنها لم تكن تنفذ فى تطوان ولا فى سلا، لكن كان السلطان هو المالك الوحيد للعبيد والوحيد الذى يتدخل فى مبادلتهم أو تحريرهم. لذلك اختفت أسماء موريسكيى تطوان أو سلا من وثائق افتداء هذه المرحلة من نهاية القرن السابع عشر. هكذا، إذن، من دراسة الخمس وعشرين وثيقة تتعلق بالثمانين عامًا الأولى من ذلك القرن، نجد أن الافتداءات كان لها معدل أكثر بقليل من ثلاث أعوام من الفترة التى توجد بين افتداء وآخر. إن تقارب دراساتنا، سواء فى دراسة أسماء الأشخاص هذه أو دراسات أخرى، لهو ملحوظ وحقيقى.

إن أسماء سادة العبيد تعطينا، فى نهاية الأمر، مقياسًا لوضع اجتماعى وسياسى محدد، و سيؤثر لأسباب أو أخرى فى مستقبلهم وأيضًا فى وجودهم الفردى والعائلى.

كان لدى بعض "السادة" عبيد أكثر من الآخرين و كانت بعض الأسماء تتكرر فى أعوام متتالية. كان يمكن أن توجد، بالتالى، برجوازية لديها نقود حاضرة ودورية للتجارة، و آخرون لديهم نقود أقل، وأخيراً، كانت هناك مجموعة ذات عدد أكبر ليس لديها المال وفى هذه المجموعة، عبر الزمن، فُقدت الكثير من الأسماء التى كانت معروفة.

بالنسبة لهذه المجموعة الأخيرة، فقد أضفنا كلمة "موجودة" بجانب تلك الأسماء المعروفة التى، وفقًا لما يقرره السيد عزوز، ما زالت تعيش فى تطوان، والذين تعايشتُ مع الكثير منهم خلال إقامتى الطويلة فى هذه المدينة.

النسبة التقريبية للأسماء التى مازالت موجودة هى نسبة ١٥٪ والتى يمكن أن تطبق على المدن المغربية الأساسية، والتى كانت مكانًا لتمركز الموريسكيين، مثل فاس والرباط وتطوان نفسها أو الشاون.

نعرف القليل جدا عن هؤلاء الموريسكيين الذين انتشروا فى الأرياف و فى المدن، بالرغم من قلة نسبة الذين أقاموا فى المدن[١٤] .

من حين إلى آخر، يتحدث مؤرخٌ ما مثل مارمول، عن المجموعات الموريسكية التى أقامت كريفيين. يقول مارمول فى وصفه لمدينة مراكش، فى جنوب البلد، إن المسلمين الأندلسيين، الذين مروا من أورخيبا Orgiva وتابرنا Tabernas وأماكن أخرى من مملكة غرناطة، قد أنعم عليهم الشريف بقطع من الأراضى[١٥] .

يوجد شبه تأكد من أن كل الأسماء المأخوذة من الافتداءات هى أسماء موريسكية، لأن المفتدين أنفسهم وكاتب الافتداء، عندما يصادفون أحد سادة العبيد دون ألقاب، كانوا يعبرون عنه بالإشارة إلى أصله أو وظيفته. نرى، على سبيل المثال، أسيرًا لأحد الحلاقين، أو لأحد شيوخ ترغة. وبوضوح أيضًا عندما يكون أجنبيًا: " تحت قبضة كارا مامى Cara Mami وهو تركى الأصل".

يضيف بعض الكتاب صفة "أندلسى" أو "موريسكى" إلى اسم البائع. كانت صفة "موريسكى" موجودة بالأخص عندما امتلأت تطوان بالمطرودين منذ عام ١٦٠٩ فصاعدًا.

ليس هناك مجال للشك، إذن، فى أنهم موريسكيون إسبان : شانييث الأندلسى Xaniz من عام ١٦١٥ و بنداس، مسلم أندلسى Bendac من ١٦٢١ أو فرج، مسلم أندلسى Farache من عام ١٦٣٣ أو حاج موريسكى Hache من ١٦٤٦ .

وقعت كل الافتداءات التى تمت دراستها، فيما عدا إثنتين منها، فى تطوان، وكانت كل الأسماء الموريسكية التى تُذكر من نفس المدينة، وعندما يأتون من أماكن أخرى فإن موثق الافتداء كان يوضح ذلك.

اعتاد الموثقون أيضًا أن يضيفوا عبارة "من مواطنى تطوان" إلى اسم مالك العبد، إذا لم يكن من مكان آخر، وبذلك نستطيع أن نتأكد من أن غالبية الأسماء المسجلة تأتى من مدينة تطوان .

و حتى فى القرن السابع عشر، نشك أن الاسم الوحيد الذى ليس موريسكيًا والذى ظهر فى افتداءات تطوان ، هو اسم قائد المدينة أو، فيما بعد، الحاكم الذى يعينه السلطان.

نذكر أنه حتى القوات التى أرسلها الملك الحاكم لكبح الصراعات الأهلية التطوانية كانت مكونة من أندلسيين وهم الذين أرسلوها.

هناك بعض الأسماء التى سببت لنا بعض الشك، لأن محررى المخطوطات لم يكونوا على دراية باللغة العربية، أو على الأقل بدرجة كافية لكى ينقلوا الأصوات التى كانوا يسمعونها بطريقة صحيحة. فى هذه الحالات لم يكونوا دائمًا شديدى الدقة وبالمثل عندما كانوا ينقلون الأصوات التى كانوا يسمعونها إلى اللغة الإسبانية و كان البعض منهم، حتى فى نفس الخطوط، يكرر الإسم بطريقة مختلفة، بإضافة أو حذف حروف.

لقد حاولنا التعرف على هذه الأخطاء، وفى بعض الأحيان لم نضع أسماءً يبدو لنا أنها متشابهة مع أسماء أخرى مكتوبة بالفعل.

فى أحيانٍ أخرى، و فى حالة وجود نسبة من الشك، فضلنا أن نكتب نفس الشخص أو العائلة مرة ثانية. نسبة الخطأ هنا تبدو لنا قليلة.

من الممكن جدا أن يكتب بعض الموريسكيين اسمه، و كان ذلك يسهل مهمة الكاتب العام الذى كان يوثّق الافتداء. وصل الأمر حتى الحالة الغريبة التى حدثت فى افتداء عام ١٥٧٩، و هى أن مالك الأسير، و هو شخص يدعى أبينا Abena ، قد كتب رسالة

دفع للافتداء باللغة "الموريسكية والقشتالية"، مؤرخة في يوم ٢٣ أغسطس من عام ١٥٧٩ في تطوان[١٦] .

ليس من المؤكد جدا ماذا يعني القول باللغة الموريسكية، لأنه يمكن أن يعني أن الرسالة كتبت بالعربية، أو بالإسبانية المختلطة بتعبيرات عربية، لكني أسجل الفقرة لغرابتها.

لا نحاول أن تكون القائمة التي نقدمها نهائية. بل على العكس، نعتقد أنه يمكن أن تخرج أسماء أخرى، كلما عرفت وثائق جديدة بها أسماء موريسكية.

يمكن أن نعتبر هذا العمل، ببساطة، عبارة عن معلومات من أجل دراسة أسماء الأشخاص الموريسكيين في المغرب وكقاعدة لمعرفة اجتماعية أفضل لهذه الأقلية المهمشة.

أسماء مغربية من أصل إسباني(*)

Aacher عاشر	(D)
Aater عاطر	(E) (D) Aliatar segun (A) Existe
Aatitar عاطيتار	(E) (D)
Abarri أباري	يقول داوود إن هذه العائلة من نسل بني أمية (D)
Abbez عباس	(G)
Abdela عبدالله	R. 16114/124 B y R. 1645/Mss. 4365.
Abdum عبدوم	(G)
Abena أبينا	R. 1579/Mss. 6569
Abilacis أبو العزيز (عبد العزيز)	R. 1579
Abrayin ابراهيم	R. 1579
Abril أبريل ،شهر/إسم عائلة	(E) (D) (A)
Abrofen أبروفين	R. 1.523
Acrich أقريش	(A) Interpreta Acriz. Existe
Acsis أقسيس	R. 1640/Mss. 6160
Achaach عشاش	(A) Existe
Ache عاشي	R. 1645/Mss. 6160 y R. 1656/136 B y R. 1669/142B
Acheli اشيلي	R. 1646/134B
Afi عافي	R.1645
Agtas أغطس	(A)

(*) لكتابة الأسماء باللغة العربية رجعنا إلى دراسة محمد بن عزوز حكيم المنشورة في مجلة "أوراق" رقم ٩ ، ١٩٨٨ ، مدريد ، ص ١٠١ - ١٢٣ . (المراجع)

Aguilar أغيلار، اسم عائلة	R. 1625/Mss. 3634 y R. 1625/127 B y R. 1621/121B
Agzul أغزول	(E) (D) y (A) que interpreta Gazule. Existe
Ahadaui أحداوى	(D)
Ahmar أحمر	(E) Ben al Ahmar en (A) que int. Alhamar
Ainam أينام	R. 1621/126B
Ajer آخر	R. 1633/Mss. 3.819
Alafa ألافا (ألفة)	R. 1609/Mss. 4.390 اسم لفتاة
Alascar الاسقر (الأشقر)	R. 1614/124B
Alazar الاثار	R. 1583/Mss. 3588
Alban البان	R. 1633
Albudi البودى	R. 1635/Mss. 3628
Alcacan القاقان	R. 1633/129 B
Alcacari القاقارى	R. 1633/Mss 3819
Alcafi الكافى	R. 1579
Alcalfi الكالفى	R. 1633/129B
Alcamusi القاموسى (الجاموسى)	R. 1640
Alcant الكانت	(A)
Alcantara الكانتارا(القنطرة)	(A)
Alcarfil الكارفيل	(A)
Alcazar الكاثر(القصر)	R. 1625
Alcazarin الكاثارين(تصغير قصر)	R. 1639/131B
Alfangero (*) الفانخير	R. 1637/130B y R. 1645/Mss. 4365 y R. 1646/134B
Alfarage الفاراخى(الفرج)	R. 1649/131B
Alfonsero الفونسيرو(من ألفونسو)	R. 1645
Alguacil الغواثيل (الوزير)	R. 1632/128B y R. 1640

(*) اسم مهنة، ربما اشتُق من alfanje وهو نوع من الخنجر، وعليه يكون Alfangero هو صانع السكاكين أو الخناجر . (المراجع)

Alhaje الحاج	R. 1548
Alhamar الهامار (ابن الأحمر)	R. 1625
Alhija الحيخا (الحجة)	R. 1548
Alicampi على كامبى	R. 1579
Alicete عليثيتى	R. 1674/143B
Almacrun الماكـرون(المقـرون)	(A)
Almaden المادن	R. 1654/137B
Almaise المايسى	R. 1632/123B
Almalqui المالكى(الملقى)	(A) int. malagueno
Almansa المانسا (المنزه)	(A)
Almanzor المنصور	R. 1579 .
Almauxi الماوشى	R. 1579
Almeida الميدا	R. 1640/Mss. 6160
Almexi الميشى(الماشى)	R. 1579
Almirante الميرانتى	R. 1636/129B y R. 1645 y R. 1646/134B y R.1.648/Mss. 3631
Almogarracen الموغارّاثين	R. 1579
Almorabito الموابيطو(المرابط)	(A)
Almoroch المورروش	(A)
Almoron ألمورون	(A)
(*) Alvaro ألبارو.	(D)
Alvis ألبيس	(D)
(**) Amador أمادور.	R. 1579
Amaro أمارو	R. 1579
Amatrat أماترات	(D)

(*) اسم عائلة إسبانى . (المراجع)

(**) اسم شخص إسبانى . (المراجع)

Amer عامر	(G)
Amete أميتى	R. 1640
Amgani أمغانى	(A) Existe
Amigași أميغاسى	R. 1579
Amor عمور	R. 1656/136B
Amuda أمودا	R. 1674/143B
Amudi أمودى(عمودى)	R. 1583
Andaluce ×××أندلثى	R. 1633
Andalusi أندلسى(من الأندلس بشكل عام)	R. 1633 - Con al en (A) existe
(*) Andaluz أندلوث (الأندلسى ، الندلوسى)	R. 1579 y R. 1639/131B
Ani آنى	R. 1583
Ansar أنصار	R. 1648
Anuar أنور	(E) (D) (A)
Araez الريث(الرئيس)	R. 1.583
Aragon أراغون(اسم إقليم إسبانى)	(Y) R. 1632/128B y R. 1635/Mss 3628 y R. 1637/130B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1656/136 B y R. 1669/142B y R. 1674/143B Existe
Aragones أراغونيس(من أراغون)	R. 1625
Araxal أراشال	R. 1656/136B
Arbi أربى	(D)
Argaz أرغاث	(A) in. Orgaz. Existe
Armaz, al الأرمث	(A) Existe
(**) Artillero أرتييرو	R. 1625

(*) أندلثى أى من أندلوثيا وهى منطقة فى الجنوب الإسبانى تشمل عدة محافظات منها غرناطة وإشبيلية وقرطبة . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى " مدفعىّ " . (المراجع)

Aruxeia أروشيبا	R. 148 Es nombre femeniono
Ascar أسكار(عسكر)	(G)
Asor أسور	R. 1637/130B
Ast أسط	(D)
Atal أطال	R. 1656/136B
Atia عطية	(G)
Atif عاطف	R. 1633/129B
Atiman عاطيمان	R. 1523
Audala عبدالله	R. 1607 y R. 1625 y R. 1637/130B y R. 1674/143B
Audalazis عبد العزيز	R. 1625 y R. 1656/136B
Audar أودار	R. 1579
Avila أبيلا(مدينة إسبانية)	R. 1625
Ayana أيانا (أجانا)	(A) in. Ayala. Existe
Ayat أيات	(D)
Azam أثام(أعظم)	(A) int. Aceme. Existe
Azanat أثانات	R. 1646/134B
Baali باعلى	R. 1523
Baessa oBaiza بايثا	(E) (A) Baeza en (Y) R. 1639 / 131B. Existe
Baile بايلي(كلمة إسبانية بمعنى رقص)	R. 1674/143B
Bailen بايلين	(D)
Baina o al Baina باينا (البايه ، بيّنه)	(A) int. Baena
Bainia, al الباينيا	(A) int. Bonilla
Bairan بايران	(G)
Baiu بايو	(A) int. Bello
Baiz بايث (بايص)	(A) int. Baez.
Balafiqui بالافيقى	(G)
Balancu بالانكو	(A) int. planco

Balanes بالانيس	(A) int. blanes
Balazca بالاثكا	(A)
Balensianu (بالنثيانو(شخص من فالينسيا	(E) (A)
Balenyina بالينيينا	(A) int. Balaicena
Balenzuela بالينثويلا	R. 1635 Banuzuila en (A)
Balius باليوس	(A)
Banbus بانبوس	R. 1635/Mss. 3628 y R. 1639/131B
Baquerin باكرين	R. 1656/136B
Baraca بركة	(E) Hay un Barac en R. 1633
(*) Barbero باربيرو	R. 1645
Barbu باربو	(A)
(**) Barchina (بارشينة) بارشينا	(A) int. Barrachina
Bargach بارغاش o ****Bargas بارْغاس	(A) (G)
Barhun برهون	(A) int. Barahona. Existe
Barirech باريريش	(A) int. Barreiors
Barlu بارلو	(A) int. Barrero
Baris باريس	R. 1674/143B
Barka بركة(أى قارب)	(A)
Barquita باركيتا O Ben Raquita بن بركيتا(تصغير كلمة قارب أو مركب)	(A)
Barrada برادة	(A)
Barsina بارسينا	(A) int. Barcena

(*) اسم مهنة (حلاّق) . (المراجع)

(**) اسم عائلة إسبانية . (المراجع)

Bartal, al البارتال	(A) int. Partal
Baryi (باريى(بارجى	(A) int. Borgi
Batauri, al الباتاورى	(A)
Baxel باشيل	R. 1625
Bayda بايدا	R. 1579
Bayu باجو	(A) int. Bayo
Bazis باثيس	R. 1674/143B
Bebur بيبور	(g)
(*) Becerra البشاري ، البشرى	
Bechari بيشارى	(D) existe
Belaxcu بيلاشكو	(E) (A) Aque int. Blasco
Belium بيليوم	(A) int. Bellon
Bena بينا	R. 1648/Mss. 3631
Benacas بيناكاس	R. 1614/124B
Benacor (بيناكور(بن عاشور	R. 1633
Benagatas بيناغاطاس	R. 1633
Benaguas بيناغواس	R. 1640
Benaia بينايا	R. 1648/Mss. 3631
Benaise بينايسى	R. 1654/137B
Benamar (بينامار(ابن عمار	R. 1674/143B
Benani بينانى	R. 1583
Benasacor بيناساكور	R. 1625/127B y R. 1639/131B y R. 1646/134B
Benasar (بيناسار(بن ناصر؟	R. 1615
Benascar (بناسكار(ابن عسكر	R. 1615/Mss. 3860
Benasu بيناسو	R. 1612/Mss 3862
Benatas بيناتاس	R. 1674/143B

(*) اسم عائلة إسبانية . (المراجع)

Benaudalla بن عوض الله	R. 1523
Benavides أبن بيدس	(D) (A) R. 1669/142B y R. 1677/144B
Benazalo بيناثالو	R. 1656/136B
Bencaid بنقيد(بن قائد)	(G)
Bencaide بنقايدى	R. 1583
Bencala بنقالا	R. 1579 y R. 1583
Bencalema بنقاليما(بن سليمة)	R. 1625
Bencarte بنكارتى	(G)
Bencasir بن قصير	R. 1656/136B y R. 1677/144B
Bencasuba بن قسوبا	(A)
Bendaal بندال	R. 1632/128B
Bendac بنداق	R. 1621/126B
Bendacar بنداقار	R. 1632/128B
Bendahac بن ضحاك	R. 1633 y R. 1635 y R. 1639/131B y R. 1645
Bendali بندالى	R. 1625
Bendanabu بندانابو	(A) int. Maldonado"مالدونادو"
Bendejaque بنديخاكى	R. 1637/130B y R. 1674/143B
Bendibia بندبيا	(A) int. Valdivia" بالديبيا"
Benduza بيندوثا	(A) int. Mendoza""ميندوثا
Benflue بنفلوى	(A)
Benhamat بنحامات(بن أحمد)	(G)
Benhania بنحانيا(بن هانية)	R. 1548
Beniala بنيالا	R. 1579
Beninu بينينو	(A)
Bennamar بن عمار	(G)

Benquiqui بن كيكى	(A)
Benraquita بن راكيتا	(A) existe
O Berkita بركيتا	(A) int. Barroso
Benrusu بنروسو	R. 1645 y R. 1648 y R. 1646/134B y R. 1669/142B y
Bensacor بنساكور(بن شكور)	R. 1677/144B.
Bentagui بنتاغى	R. 1621/126B
Bentalha بن طلحة	(A) Existe
Bentamaiu بن تامايو	(A) int. Tamayo
Benyaco بن ياكو	R. 1656/136B
Benyamua بنياموا(بنى أموا)	(A) int. Benjumea
Benzaid بنثيد(بن زايد)	(E) El mismo Bencaide.
Berambus بيرامبوس	R. 1677/144B
Berberi, al البربيرى	(A) int. Berbera
Berbil بيربيل	(A) int. Berbel
Berbilia بيربيليا	(A)
(*) Berenyina "بيرينخينا" بيرينيينا	(A) int. Berengena
Berianu بيريانو	(A) int. Beriano
Beriberi, al البيريبيرى	(A)
Berka بيركة	(A)
(**) Bermejo بيرميجو	R. 1609 y R. 1621/126 B y R. 1645
(***) Bermiyu بيرميو	(E) (Y) con al en (A) El mismo anterior?
Bernal بيرنال	(A)

(*) كلمة إسبانية بمعنى باذنجان . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى أحمر . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى أحمر . (المراجع)

Bernat برنيط	(A)
Berni, al البيرنى	(A)
Bernit بيرنيت	(A) int. Bernet
Batauri, al الباتورى	(E) (A) Existe
Bexarri, al البيشّرى	(E) (A) int. Becerra. Existe
Bexer بيشير	(G) y R. 1633
Bilin بيلين	(A)
Bilinu بيلينو	(E)
Bira بيرا	(A) int. Vera
Birra بيرّا	(D)
Biscaino بسكاينو(من إقليم بيثكايا الإسبانى)	(G)
Bluxin بيوشين	R. 1677/144B
(*) Blanco (بالانكو) بلانكو	(A) (G) R. 1625 y R. 132/128B y R. 1635
Blanquo بلانكوو	(G)
Blasco بلاسكو(اسم شخص إسبانى)	(D) (Y) (A)
Boaisa بو عائشة	R. 1523
Boali بو على	R. 1523 y R. 1583 y R. 1632/128B y R. 1633 y R. 1633/129 B y R. 1635
Boicacin بولكاثين (بُلقاسم)	R. 1625/Mss. 3634
Boifete بولفيتى	R. 1523
Bordan بوردان(اسم عائلة إسبانية)	R. 1609 y R. 1615/Mss. 3870
Botaete بوتايتى	R. 1614/124 B y R. 1615
Botaibo بوتايبو	R. 1607/Mss. 2791 y R. 1583 y R. 1612/Mss. 382 y R. 1614/124 B y R. 1615
Botayo بوتايو	R. 1579 y R. 1583

(*) كلمة إسبانية بمعنى أبيض . (المراجع)

Bote البوطي ، بوطي	(D) Al Buti en (A) Existe
Boyaer بوياير	R. 1614/124B
Brabu برابو	(A)
Brada برادا	(A) int. Brada. Existe
Breda بريدا	(D)
Brianu بريانو	(A) int. Beriano
Briso بريسو	(D) Existe
Bru برو	(A) int. Berro. Existe
Bruk, al البروك	(A)
Bucis بوثيس	R. 1674/143B
Buchito بوشيتو	R. 1632/128B
Buchta بوشتا	(A) Buceta. Existe
Buda بودا	R. 1633
Budaran بوداران	1. 674/143B
(*) Bueno بوينو	(D) A)
Builler بويير	(D) Existe
Bujarez بوخاريث	(A) Existe
Bullein بويين	R. 1612/Mss. 3862
Burbaxe بورباشي	R. 1625
Burdan بوردان	R. 1612 y R. 1614
Buredan بوريدان	(D)
Buriat بوريات	R. 1677/144B
Buryi, al البوري	(A) int. Borge
Caaseres كاسيراس (اسم مدينة إسبانية)	(A) int. Caceres

(*) كلمة إسبانية بمعنى طيب . (المراجع)

(*) Cabexa كابيشا	R. 1679
(**) Cabiyu قبييو ، قبيى	(A)
Cabrera كبريرا	(D) R. 1621/126B y R. 1625 y R. 1635 y R. 1636/129B R. 1637/130B y R. 1639/131B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1646/134B y R 1648 y R. 1654/137B y R. 1656/ 136B y 1674-143B في هذه المخطوطة الأخيرة يظهر اسم كابريرو الصغير ونظن أنه من نفس العائلة .
(***)Cabrero القبرير ، القبريرو	R. 1635 y R. 1645
Cabriech كابريش	(A) int. Cabreros
Cabrit كابريت	(D) R. 1633
Cabriru كابريرو	(E) (A) El mismo Cabrero?
Caceri كاثيرى(من مدينة كاثيريس الإسبانية)	(G) Cacereno
Cacerin كاثيرين	R. 1625 y R. 1674/143B
(****) Cacero كاثيرو	R. 1625
Caces كاثيس	R. 1579
Cacid كاثيد	R. 1579 y R. 1645
Cacime كاثيمى(قاسمى)	R. 1579
(*****) Caciri كاثيرى	R. 1645

(*) ربما تكون مشتقة من كلمة cabeza بمعنى رأس . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى شَعر . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى راعى الماعز . (المراجع)

(****) ربما يكون الاسم نطقًا لكلمة casero أى منزلى أو بيتى . (المراجع)

(*****) ربما يكون النسب- على الطريقة العربية - من مدينة كاثيريس . (المراجع)

Cachcach كشكش	(A) int. Cascajo
Cache كاشى	R. 1646/134B
Cachnir, al الكاشنير	(A)
Cachuchu كاشوشو	(A)
Cadimi قاديمى	R. 1625 y R. 1635
Caid, al القائد	(A) Alcaide
Caide قايدى	R. 1548
Caitibur, al القايتيبور	(A)
Calafat, al القلفاط	(A)
Calema كاليما	R. 1669/142B
Calin, al الكالين	(A) int. Conejo
Calina كالينا	(A) int. Conejero
Calitu, al الكاليتو	(A)
Calman كالمان	R. 1648
Calsera كالسيرا	R. 1646/134B
Camar قمر	(D) (A) y R. 1625
Camaril كمريل	(A)
Camarin كمرين	(A)
Cambili كامبيلى	R. 1654/137B y R. 1637/130B
Camicha, al الكاميشا	(A)
Camiru "كاميرو"غاميرو	(A) int. Gamero
Camucha كاموشا	(A)
Camus كاموس	R. 163/129B
Canbi كانبى	R. 1633
Canbrana كانبرانا	R. 1625
Cancha, al الكانشا	(A) int. Concha
Cancho كانشو(سانشو)	(D)
Candil قنديل	(D) (A)

Candila قنديلة	(A) int. Candela
Cant, al الكانت	(A) int. Conte
Cantari, al الكانتارى(القنطرى)	(A) int. Alcantara. Existe
(*)Cantillana كانتيانا	R. 1633 y R. 1635 y R. 1636/129 B y R. 1639/ 131B y R. 1640
Car, al الكار	(A) int. Caro. Existe
Carar "كارار" كورال	(A) int. Corral
Carasi كاراسى	(E) con al en (A) Existe
Carascu كاراسكو(اسم عائلة إسبانية)	(A) int. Carrasco
Carazu كرازو	(A)
Carcanada كاركانادا	(A)
Carconada كاركونادا	(D)
Cardenach كاردبناش	(D) (A) R. 1615 y R. 1640 y R. 1645
Cardenas قردناش ، قرضناش	(Y) Posib. El mismo. Aparece en R. 1621/126B y R. 1625 y R. 1625/127B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1648 y R. 1669/142B y R. 1674/143B y R. 1677/144B
Cardusa قردوسة ، قردوشة	(A) int. Cardosa
Carich "كاريس"كارّيثو	(A) int. Carrizo. Existe
Criban كريبان	(A)
Carir "كارير"كارّيرو	(A) int. Carrero
Carit كاريت	(A)
Cariu "كاريو"كارّيو	(A) int. Carrillo
Carium "كاريوم"كارّون	(A) int. Carron

(*) قد يكون نطقًا لسانتيانا وهى اسم لعائلة إسبانية شهيرة . (المراجع)

Carmuna قرمونة (اسم عائلة إسبانية)	(A) int. Carmona
(*) Carpintero كاربنتيرو	R. 1625
Carracas كارّاكاس	R. 1633/129B
Carrasco كراسكو، كراشكو(اسم عائلة إسبانية)	R. 1625
Carrillo كريو ، قريو	R. 1648/Mss. 3631 y R. 1645 y R. 1674/143B y R 1677/144B
Carrion كريون ، قريون (اسم مدينة إسبانية)	(A)
Carriz كارّيث	R. 1669/142B
Caser كاسير	R. 1645
(**) Casero كاسيرو	R. 1648
Casi كاسى	R. 1645
Casibi كاسيبى	(D)
Casiri كاسيرو	R. 1645
Casit كاسيت	R. 1654/136B
Casman كاسمان	(D) (A)
Cassen كاسّين	R. 1646/134B
Castal, al الكاستال"كاستانو"	(A) int. Castano
Castali, al القسطلى	(A) int. Castaneda
(***) Castillo قشتيليو ، قشتاى	(D) (Y) (A) R. 1633/129B y R. 1635 y R. 1646/134B y R. 1645 y R. 1656/136B Existe
Casus كاسوس	R. 1655/144B
Cauli كاولى	R. 1648
Cautin كاوتين	R. 1579

(*) أى نجّار، وهو اسم عائلة إسبانى كذلك . (المراجع)

(**) كلمة بمعنى (شيء مصنوع فى البيت) أو "رجل يحب أن يتعلق بالبيت" . (المراجع)

(***) كلمة بمعنى قلعة، وهو اسم عائلة إسبانى كذلك . (المراجع)

Cavixa كابيشا	(G)
Cayde كايدى	R. 1583
Cebarbero ثيباربيرو	R. 1645
Cebtuni ثيتونى	(A) Aceituno. Existe
Cecri زكرى	(E) (A) int. Cegri. Existe
Ceitun ثيتون(زيتون)	(A) int. Aceiton
Cedive ثيديبى	R. 1645
Celin ثيلين	R. 1625
Ceraire ثيرايرى	R. 1645
Ceraixe ثيرايشى	R. 1640 y R. 1559/142B
Cerida ثيريدا	(A)
Ceron ثيرون	(G) R. 1625
Cerquid ثيركيد	(A) Existe
Cilan ثيلان	R. 1633
Ciudala ثيودالاّ	R. 1625
Clavicho كلابيشو	(G)
Cocain كوكاين	R. 1633
Cocerta كوثيرتا	R. 1639/131B
Cocile كوثيلى	R. 1625
Colaitan كولايتان	(G)
Coraide كورايدى	R. 1648
Corcon كوركون	R. 1607
Cordoban قوردوبان	R. 1625
Cordobes القرطبى	(G)
Coria كوريا	R. 1625 y R. 1645
Cortibi قورطيبى(قرطبى)	R. 1607
Cortobi قرطبى	(D) (Y) con al en (A)

Cote قوطي	R. 1579
Coto القوطي ، القويطي	(D) (Y)
Crasi كراسي	(E)
Cuas, al القواس	(A) int. Cacuas
Cub كوب	(A) int. Cobo
Cuete كويتي	(D)
Cuiti, al الكويتي	(A)
Cuitibum كويتيبوم	(A)
Curfi, al الكورفي	(A) Existe
Curian كوريان	R. 1625
Curron كورّون	R. 1637/130B
Cuti قوطي	(E) con al en (A) int. Coto
Cuzman قزمان	(E)
Chaachu شاشو	(A) Existe
Chabu شابو	(A)
Chacara مشاكارا Achcara أشكارا	(A) Existe
Chacur, al الشكور	(A) int. Chacon. Existe
Charma شرما	(A) int. Chamorro
Charian شاريان	(A)
Charifi شريفي	R. 1669/142B
Charit شريت	R. 1656/136B
Chat شات	R. 1645
Chate شاتي	R. 1674/143B y R. 1669/142B
Chauaj شواخ	(A)
Chaudery شاوديري	R. 1677/144B
Chaudri شاودري	(D) (E) Posib. El mismo
Chaves شابيس(اسم عائلة إسبانية)	(D) (E) (A)

Chevenalo شيبينالو	(D) (E)
Chiar شيار	R. 1669/142B
Chibu, al "الشيبو"شيبو	(A) int. Chivo
Cholo o Chulu شولو	(E) (D) (A) Existe
Chorbi شوربى	(E) (D) con al en (A) Existe
Chorti, al الشرطى	(A) Existe
Chrit شريط	(E) (D)
Chuen شوين	R. 1677/144B
Chuevis شويبيس	R. 1677/144B
Chuicher, al الشويشير	(A)
Daes دايس	R. 1646/134B
Dahar داهار	(G)
Daiz دايث	(E)
Damus, al "الداموس" أداموس	(A) int. adamuz. Existe
Daud داود	(E) (D) (A) Existe
Daudar داودار	(D) R. 1633 R. 1654/137B y R. 1674/143B y R. 1677/144B
Daza داثا	R. 1625
Decale ديكالى	R. 1648
Deiz دييث	R. 1579
Delasit ديلاسيت	R. 1654/137B
Del-liru ديل–ليرو	(E) (D) con al en (A) Existe
Derrij ديرّيخ	(D)
Diaz دياث(اسم عائلة إسبانية)	(G)
Dib ديب	R. 1667/142B
Diba ديبا	R. 1645
Dibu ديبو	(A)

Dinia دينيا	(A) int. Denia
Diudu ديودو	R. 1656/136B
Doblon دوبلون	(D)
Dogueli دوغلى	(G)
Drif دريف	(D)
Dris دريس	R. 1640
Duci دوثى	R. 1669/142B
Duduceo دودوثيو	R. 1648
Duque دوقى(دوق)	(G)
Durry دورّى	(E)
Dutor دوتور	R. 1656/136B
Duz دوث	R. 1579
Elivir إليبير	R. 1635
Embarque إمباركى	R. 1579
Enriquez إنريكيث(اسم عائلة إسبانية)	(G)
Enunar إنونار	R. 1633/129B
Erkaina إركاينا	(Y)
Escobar إسكوبار(اسم عائلة إسبانية)	R. 1635 y R. 1645
Esquerba إسكربا	R. 1674/143B
Esquerdo إسكيردو	(G)
Exiar إشيار	R. 1639/131B
Fadrique فادريكى(اسم شخص/ عائلة إسبانى)	R. 1648 y R. 1646/134B y R. 1656/136B
Fagi فاخى	R. 1646/134B
Fahal, al الفحال	(a)
Fajel فاخيل	1645
Fajjar فخّار	(E) con al en (A) Existe

Fajos فاخوس	R. 1614/124B
Flache فلاشي	R. 1656/136B
Famenchazar فامينشاثار	R. 1648
Fanicas فانيكاس	(A) int. Vanegas" "بانيغاس
Fanyiru فانيرو	(A)
Farachi فاراشي	R. 1633/129B y R. 1645 y R. 1654/137B
Faradeza فاراديثا	R. 1645
Faray (فرج ، فريج)	(A) int. Farage
Faraya فارايا	(E)
Fardal, al الفاردال	(A)
Fardeza فارديثا	R. 1645
Fares فارس	(A) int. Alferez. Existe
Farraj فارّاخ(فرّاج)	(D)
Farraxe فارّاشي	R. 1645
Fartut فارتوت	(E) (D) (A) y R. 1677/144B
Farun, al الفارون"فيرّون"	(A) int. ferron. Existe
Fasi فاسي	(Y) Los hace descendientes de los Banu ay Yadd el Fehri de C?rdoba
Fate فاتي	R. 1523
Federico فدريكو ، فدريك (اسم شخص إسباني)	(D) (A) R. 1645 y R. 1648 y R. 1654/137B y R. 1669/142B
Felu, al الفيلو	(A)
Felul فيلول	(A)
Felun فيلون	(A) Existe
Fenis فينيس o Fernnich فيرنّيش	(E)
Ferdel قيرديل	(D)
Feri فيري	(R) 1632/128B

Fernacho فيرناشو	(D)
Ferrais فيرّايس	R. 1633/129B
Ferreira فيرّيرا	R. 1637/130B
Ferrera فيرّيرا	(D)
Fexar فيشار	R. 1645
Fezzancari, al الفيثّانكارى	(A)
Fezzari فيثّارى	(Y) (A) Existe
Fezzecari فيثّيكارى	(E) (A) Existe
Forchado فورشادو	(A) Int. Fajardo
Fornacho فورناشو	(A) Int. Hornachos
Fornela فورنيلا	(A)
Fortunado فورتونادو	R. 1656/136B
Fote فوتى	R. 1523
Fraguane فراغوانى	R. 1639/131B
Fraque فراكى	R. 1646/134B
Fraxel فراشيل	R. 1645
Fraxi فراشى	R. 1656/136B y R. 1674/143B
Frixe فريشى	R. 1645
Fuentes فـوينطش ، فـونطش (اسم عائلة إسبانية)	(D)
Fuidel فويديل	R. 1607 y R. 160
Fuintech فوينتيش	(A) Int. Fuentes El mismo del (D)
Fukay فوقاى	(E) (A) Existe
Fute فوتى	R. 1579
Gacel غاثل(غزال)	R. 1523
Gacela غاثيلا(غزالة)	R. 1579
Gacelete غاثيليتى	(G)
Gaci غاثى(غازى)	R. 1559/142B

Gagu غاغو	(A) int. Gago
Gailan غيلان	(E) (D) (A) Existe
(*)Galan غالان	(G) R. 1625 y R. 1632/128B
Galefa غاليفا	R. 1579
(**)Gallu غاييو	(A) int. Gallo. Existe
Galvan غلبان(اسم عائلة إسبانية)	R. 1525
(***)Garbancero غاربانثيرو	R. 1646/134B
Garces غارثيس	R. 1632/128B
Garcia غارثيا(اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) (A) (G) y R. 1624/126B Existe
Garit غريت	(A) int. Garet
Garmas, al الغرماس	(A) Existe
Garnati غرناطى	(E) (D) con al en (A)
Garsa, al الغرسة	(A) Existe
Gatar غاتار	R. 1612/Mss. 3862 y R. 1614/124B
Gatas غاتاس	R. 1615
Gatis غطيس	(A) Existe
(****)Gayyu غجو	(E)
Gazulet غاثوليت	R. 1636/129B
Giad خياد	R. 1633
Gitre خيترى	R. 1614/124B
Gobeit غوبايت	R. 1645

(*) كلمة إسبانية بمعنى مغازل أو لطيف، وهو اسم عائلة كذلك . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى ديك .

(***) كلمة إسبانية معناها متعلق بالحمص .

(****) تحريف لكلمة gallo ومعناها "ديك" . (المراجع)

(*)Gordo غوردو	R. 1632/128B
(**)Granada غرانادا	(G)
Granda غراندا	(D) con al en (A)
Grandi الغرندى ، الغراندى	(D) con el en (A)
Granti غرانتى	(D)
Guali غوالى	R. 1632/128B y R. 1640
Guayed غوايد	R. 1612
Guesus غيسوس(عيسى)	(D)
Guiar غيار	R. 1645
Guirsa غيرسة	(G)
Guzman قزمان (اسم عائلة إسبانية)	R. 1614/124B y R. 1621/126B y R. 1632/128B
Hacen حثن(حسن)	(G)
Hache حاشى(الحاج)	R. 1645 y R. 1646/134B
Hachis حاشيس	R. 1614
Hadri, al الحَضْرى	(E) (A) Existe
Hamet حامد	R. 1579
Hameteni حاميتينينى(حمدانى)	R. 1625
Hamirla حاميرلا	R. 1523
Haudi حَودى	R. 1673/134B
Hatri, al الحطرى	(A)
Hernando هرندو ، هراندو(اسم عائلة إسبانية)	(A) R. 1523
Herrado إيرّادو	(G)

(*) كلمة بمعنى سمين . (المراجع)

(**) هذا هو النطق الإسبانى لاسم غرناطه . (المراجع)

(*)Herrador إرّادور	(G) R. 1607
Herrando إيرّاندو	(D)
Herras إيرّاس	R. 1648
Herrate إيرّاتى	R. 1648
Herrera (إيريرا(اسم عائلة إسبانية	(G)
Hezarios إثاريوس	(G)
Hezote إثوتى	R. 1632/128B
Hiar إيار	R. 1645
Hilal هلال	(D)
Hucain حثين(حُسَين)	(G), Husain
Irres إرّيس(إدريس)	R. 1615
Ismail إسماعيل	R. 1621/126B
Jabi خابى	R. 1579
(**)Jabonero خابونيرو	R. 1545
Jaifor خايفور	(G)
(***)Jaini خاينى	R. 1669/142B
Jalabi خالابى(شلبى)	R. 1579
Jalar خالار	R. 1545
Janino خانينو	R. 1677/144B
Jaque خاكى	R. 1612
Jarifi خاريفى(شريفى)	R. 1635
Jasifa خاسيفا	R. 1614 / 124B
Jarret خاريت	R. 1646 / 134B

(*) اسم مهنة ، أى من يحرث الأرض . (المراجع)

(**) أى بائع أو صانع الصابون . (المراجع)

(***) النسب – على الطريقة العربية – من مدينة جيان الإسبانية . (المراجع)

Jarrub, al الخرّوب	(A) int. Algarrobo. Existee
Jatib, al الخطيب	(A) Existe R. 1674 / 143B
Jaudi خاودى	R. 1673/143B
(*)Jayin خائين	(D)
Jenadi خينادى	R. 1656/136B
Jerevi خيريبى	R. 1548
Jiar خيار	(D)
Jimenes خيمينيث (اسم عائلة إسبانية)	R. 1621/ 126B
Jocure خوكورى	R. 1523
Jomi خومى	(D)
Joraique خورايكى	R. 1621 / 126B
Juabi خوابى	(G)
Juan خوان(اسم عائلة إسبانية)	R. 1637/130B y R. 1639/131B y R. 1645
Juma خوما(جمعة)	R. 1579
Jundi خوندى	R. 1632 / 128B
Jurs خورس	(E)
Jusepe خوسيبى	R. 1607 y R. 1612 y R. 1614 / 124B y R. 1625 / 127B
Kalkonada كالكونادا	(E)
Kerlich كيرليش	(E)
Kirfi كيرفى	(E) (D) con al en (A) Existe
Kisibi كيسيبى	(E)
Kisota كيسوتا	(E) (D)
Lacaraque لاكاراكى	(R. 1678
Lafia لافيا	R. 1646/134B
Laizar لايثار	R. 1674/143B

(*) الاسم الإسبانى لمدينة جيان الأندلسية . (المراجع)

Laluxi لالوشى	(E)
Lancaron لانكارون	R. 1579
Larachi لاراشى(العرائش)	R. 1632/126B
Lasso لاسّو(اسم عائلة إسبانية)	(D) y R. 1640
Layzar لايثار	R. 1674 / 143B
Lazaro لاثارو(اسم عائلة إسبانية)	R. 1625 y R. 1632 / 128B y R. 1639/ 132B y R. 1677/144B
Lebaris ليباريس	(A) Existe
Lebbadi ليبادى(العبّادى)	(E) (Y) con al en (A) b Existe
Lebat ليبات	(D) con al en (A)
Leburi ليبورى	(D)
Lecanti, al الليكانتى	(A)
Lecuti, al الليكوتى	(A)
Leisarte ليسارتى	R. 1677/ 144B
Leluchi ليلوشى	(A)
(*)Leon ليون	(D) Lion en (A) y R. 1635 y R. 1637/130B y R. 1639/144B
Leqanti, al الليكانتى"الكانتى"	(A) int. Alicante
Levanti ليبانتى	(D)
Liquen ليكن	R. 1583
Lirini, al الليرينى"بيرينا"	(A) int. Llerena
Liser ليسر	(A)
Lochi لوشى(من لوشى)	(D) con al en (A). Lojeno
Lopes لوبيس(اسم عائلة إسبانية)	(G)

(*) اسم إقليم إسبانى . (المراجع)

Loraybe لورايبى	R. 1523
Loria لوريا	R. 1523
Lurayeri لورايرى	(E) (A) Existe
Lub "لوبو"لوب	(E) (Y) (A) Int. Lobo o Lupu
لوكس ، لوقش ، الوقـاش (اسم شخص إسبانى) Lucas	(E) (D) (Y) (A) R. 1669/142 B y R. 1674 /143B y R. 1677 /144B Existe. Segun (Y) son los ultimos descendientes de los Omeyas.
Lucasat لوكاسات	R. 1640
Lucha (اسم مدينة إسبانية) "لوقا" لوشا	(A) Int. Loja
Luis (اسم شخص إسبانى)لويس	R. 1632 / 128B
Luk لوق	(A) Int. Luque
Lujari لوخارى	(D)
(*)Luna لونا	R. 1632 / 128B
Lurqui " لوركينو " لوركى	(A) Int. Lorqueno
Macote ماثوتى	R. 1640
Macus ماكوس	R. 1609
Macrus, al الماكروس	(A)
Machan "ميرشان"ماشان	(A) Int. Merchan. Existe
Madrid (اسم مدينة إسبانية)مدريد	R. 1645/ 137B
Malaquias مالاكياس	R. 1579
ابن ضنادو ، ملضنادو ، ملضناضو Maldonado (اسم عائلة إسبانية)	(D) (A) (G) R. 1633/129B y R. 1640 y R. 1645 y R. 1645 / 137B
Mali مالى	R. 1632 / 128B
Mami مامى	(A) Existe
Mancano مانكانو	R. 1677/144B

(*) كلمة إسبانية بمعنى قمر، وهو اسم عائلة إسبانية كذلك . (المراجع)

Mancira منسيرة ، منصيرة	(A) Int. Mancera
(*)Manco مانكو	(D)
Mandari منداری	(E) (A) Fundador de Tetuan. R. 1523 Existe
Mandusa ماندوسا	(E)
Manfarrat مانفارّات	R. 1523
Manino مانينو(معنينو)	(G)
Mank, al المنك	(A)
Mankeu, al المانكيو	(A)
Manun, al المانون	(A)
Maquida مكيدة ، مكيدا	(A) Int. Maqueda
Maracahi ماراكاهى	R. 1648
Maramilo ماراميلو	R. 1677/144B
Marbilia ماربيليا " ماربيبيا"(اسم مدينة إسبانية)	(A) Int. Marbella
Marcos ماركوس(اسم شخص إسبانى)	R. 1633 y R. 1639/131 B y R. 1648
Marchena مرشينة	(D) (Y)
Marijuana ماريخوانا	R. 1646 / 134B
Marin مارين(اسم عائلة إسبانية)	(D) (Y) (A) (G) R. 1645 y R. 1677/ 144B Existe
(**)Marini, al المارينى	(A) Int. Marinia Existe
Marino, al المارينو	(A)(G)
Maroto ماروتو	R. 1621/126B
Marquez ماركيث (اسم عائلة إسبانية)	R. 1625 y R. 1677/ 144B
Marsebil مارسيبيل	(A)
Marsu مارسو"مارثو"	(A) Int. Marzo. Existe

(*) كلمة إسبانية بمعنى مقطوع الذراع . (المراجع)

(**) ربما كان اسم شخص ينتسب إلى بنى مرين . (المراجع)

Martil مارتيل	(D) (A) Existe
Martin مرتين (اسم شخص إسباني)	(Y) Existe
Maruch ماروش	(D)
Mascatar ماسكاتار	R. 1674/ 143B
Masus ماسوس	(A) Existe
Mata ماتا	R. 1677/ 144B
Matrach ماتراش	(D)
Mauan ماوان	(A) Existe
Maxan ماشان	(E)
Mayu مايو	(A) Int. Mayo Existe
Mazus ماثوس	R. 1607
Mecud ميثود	(G)
Mechkaker ميشكاكير	(A)
Mechkitu ميشكيتو	(A)
Medanes ميدانيس	R. 1677 / 144B
Medina مدينة (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) (A) R. 1579 y R. 1645 y R. 1656/ 136B y R. 1669 / 142B y R. 1674/ 143B y R. 1677 / 144B Existe
Medira ميديرا "ماديرا"	(A) Int. Madera
Medur, al الميدور	(A) Existe
Megara ميغارا	(A) Existe
Megaru ميغارو "ماكارّو"	(A) Int. Macarro. Existe
Meherez ميحيريث(محراث)	R. 1548
Melaluz ميلالوث	R. 1646/134B
Meleani ميلياني	R. 1648
Melhesi ميلحيسي	R. 1648

Melin "ميلين"مولين	(A) Int. Molin
Melina "ميلينا"مولينا	(A) Int. Molina
Melirum, al "الميليروم"ميليرو	(A) Int. Melero
Mellado ميبادو	R. 1632 / 128B
Mendarien ميندارييـن	R. 1625 / 126B
Mendez منديس (اسم عائلة إسبانية)	(D) (A)
Mendoza منضوصة ، مندوسة (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) R. 1632/128B y R. 1633/129B R. 1648 y R. 1656/136B y R. 1647/143B
Menfor مينفور	R. 1632/128B
Menguali مينغوالى	R. 1677/ 144B
Menno مينّو	(G)
Mensah, al "المنساح"المانسا	(A) Int. Almansa
Menani مينانى	R. 1633
Mensure منصورى	R. 1669/ 142B
Merun, al "الميرون"مارّون	(A) Int. Marron Existe
Merasu ميراسو	(A)
Merendeque ميريندیکی	R. 1632 / 128B
Merin ميرين	R. 1579
Merino مرين	(G)
Mesah مساح	R. 1632/ 128B
Mesbah مصباح	(E)
Metrach متراش	(A)
Metrich "متريش"متريس	(A) Int. Matres
Metrun, al الميترون	(A)
Mexxia ميشيا	R. 1633

Michet ميشيت	R. 1632 / 128B
Milimoli ميليمولى	R. 1632/ 128B
Mocadal موكادال	R. 1579
Mocadar موكادار	R. 1637 / 130B
Mocadem مقدم	(G)
Mocoso موكوسو	R. 1656/136B
(*)Mochachu موتشاتشو	(A)
Mofadal مفضل	R. 1523
Moharrek محرّك	(D)
Molai مولاى	R. 1579
Molato مولاتو	(E)
Molina ملينة ، ملينا ، منينة (اسم بلدة إسبانية)	(E) (D) (Y) R. 1645/137B y R. 1656 /136B y R. 1674/ 143B
Monbal مونبال	R. 1639/131B
Mondafal منفضل	R. 1579 y R. 1583
Monfadal منفضَل	R. 1523 y r. 1607 y R 1615 y R. 1621/ 126B y R. 1645 R. 1646/ 134B y R. 1656/136B
Monforte مونفورتى	R. 1633
Monjadal مونخادال	R. 1548
Monleon	R. 1636/ 129B
Montalbo منطلبو ، بنطلبو	(A) Int. Montalvo
Montemayor ابن ، منطميور طميور(اسم عائلة إسبانية)	(D) (Y) (A) R. 1633 y R. 1648 y R. 1674/143B y R. 1677 / 144B
Montil مونتيل	r. 1635
Montiro (اسم عائلة إسبانية) منطير ، منطيرو	(A) Int. Montero

(*) كلمة إسبانية بمعنى فتى . (المراجع)

Montoro مونتورو	(A) R. 1645 y R. 1645/ 137B y r. 1656/ 136B y R. 1669/ 142B y R. 1674/ 143B y r. 1677/ 144B
Montutu مونتوتو	(A) Int. Montoto
Montuya منطوية ، ابن طوية، بنطوية	(A) Int. Montoya
Mora مورا	R. 1612
Morales مراريش ، مراليش	(Y) R. 1632/128B y R. 1635 y R. 1640 y R. 1645 y R. 1637/ 130B y R. 1656/ 136B
Moran مران	(A)
Moranu مرانو"مورينو"	(A) Int. Moreno
Morarix موراريش	(E) (A) Existe, Otra transcripotion de Morales?
Morat مورات	(G)
Morato مولاطو ، ملاطو ، الملاطو	(D) (Y) R. 1635
Mordafay مورداقاى	R. 1579
Moren مورين	R. 1669/142B
Moreno مورينو	R. 1625
Morin مرينو ، المرينو	(A) Int. Merino
Morinu مورينو	(A)
Morisco موريسكو	(D)
Moron مرون	(A) R. 1674/143B Existe
Muca موكا(موسى)	(G)
Muceique موثيكى	R. 1645
Muchkater موشكاتير	(A)
Mudi مودى	R. 1677/144B
Mufaq, al الموفق	(A) Existe
Mufaray موفاراى"الموفرى"(مفرّج)	(A) Int. Almofrey
Muguira موغيرا"الموغيرا"(المغيرة)	(A) Int. Almoguera
Mumen مومن(مؤمن)	R. 1615

Muofak موفق	(E)
(*)Mula مولا	R. 1632 / 128 B y r. 1645
Mulatu "مولاتو"موراتو	(D) (A) Int. Morato
Muley مولاى	R. 1645
Mural مورال	R. 1635
Murcia مرسية ، مورسية(اسم مدينة إسبانية)	(D) (A) Existe
Murchik مرشق	(A)
Murchina موِرشينا "مارشينا"	(A) Int. Marchena. Existe
Muribtu, al الموريبتو	(A) Existe
Mursina مورسينا"ماراثينا"	(A) Int. Maracena
Murta مورتا	R. 1635 y R. 1637 / 130B
Muruch, al المروش	(A)
Musa موسى	R. 1614 / 124 B y R. 1625 y R. 1637/130B
Musere موسيرى	R. 1645
Naqsis, al النقسيس	(E) (A) R. 1607 -9-14-15-21-25-45-54-56-61-64
Narvaez نارِبايث(اسم عائلة إسبانية)	(G) (A) Existe
Nasar, al النصار	(A) Int. Anaya Existe
Naya, al النايا"أنايا"(النجاة)	(D)
Nedichi نيديشى	(D)
Niara نيارا	(A) Existe
Nuino, al النوينو	R. 1621/126 B
Nuzena نوثينا	(G) R. 1621/126B y R. 1625 y R. 1632/ 128B y R. 1633/129B y R. 1637/130B
Olivares أوليباريث(اسم عائلة إسبانية)	

(*) كلمة إسبانية بمعنى "بغلة" . (المراجع)

Paasa, al الباشا	(A) Existe
Pachani باشاني	R. 1612 y R. 1614/ 124B
Padya بدية	(A) Int. Padilla
Paes o paez بايص	(E) (D) (Y) (A) Existe
Palafres بالافريس	(G)
Palomar بالومار	R. 1523
Palomino بلاميو ، البلامينو(اسم عائلة إسبانية)	(A)
Pantoja بانتوخ(اسم عائلة إسبانية)ا	(G) R. 1656/136 B
Panzi, al البانثى	(E) (A) Existe
Pardal بردال	(A) Int. Pardal
Pargan بارغان	R. 1614/ 124B
Parpane بارباني	R. 1615
Partil بارتيل	(A)
Penia, al بنية ، البنية	(A) Int. pena
Penida بينيدا	(A) Int. Pineda
Peralta بيرالتا	R. 1635 y R. 1636/ 29B y R. 1637/ 130B y R. 1640
Perdan بيردان	(E)
Perez بيريس (اسم عائلة إسبانية)	(G)
Pertil بيرتيل"بورشيل"	(A) Int. Purchil
Pinalossa بينالوسا	(G)
Pinar بينار	R. 1632/ 128 B y R. 1648
Pinta بينتا	(G)
Pinto بينتو	R. 1632/128B y R. 1648
Rires بيريس	(A)
Piru بيرو	(A) Int. Pero
Pizarra بيثارّا	R. 1674/ 143 B

[*]Pobre بوبرى	R. 1640 y R. 1645 y R. 1656/136B
Polo البولو	(E) con al en (A) Existe
Ponce البنزى(اسم عائلة إسبانية)	(D)
Ponde بوندى	(E)
Portal بورتال	R. 1579
Poypor بويبور	R. 1523
Prad, al البراد ، البرد	(A) Int. Prada
Pratil براتيل	(A)
Pras براس"بورّاس"	(A) Int. Porras
Prido بريدو"بريدا"	(A) Int. pereda
[**]Provinciano بروبينثيانو	(D) (G)
Prua, al البروا	(A)
Prubi بروبى	(E) con al en (A) Existe
[***]Puerto البويرطو	(E) con al en (A)
Puns بونس	Int. pons
Purt بورت"بورتو"	(A) Int. porto
Puyatu بوياتو	(A)
Querbal كيربال	R. 1648
Querrix كيرّيش	(E)
Quexia كيشيا	R. 1523
Quinato كيناتو	R. 1523
Quirfi كيرفى	(E)
Rabbai راباى	(D)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "فقير" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "إقليمى ، ريفى" . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى "ميناء" . (المراجع)

Racaa راكا	R. 1645
Radiis "راديس"روديليس	(A) Int. Rodiles
Rafael رافاييل(اسم شخص إسباني)	R. 1639/131 B y R. 1645 y R. 1656/136 B y R. 1669/142B
Rafai رافاي	(D)
Ragun راغون	(E) (A) Existe
Raina راينا	(E)
Rais, al الريس"أرّايس"(الرئيس)	(A) Int. Arraez Existe
Raiz رايث	R. 1646/134 B
Rajal راخال	R. 1645 y R. 1645 / 137B
Ramires الراميرس ، الرميريس (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) con al en (A) y R. 1645
Ramirez راميريث (اسم عائلة إسبانية)	R. 1633 y R. 1636/ 129B y R. 1637/ 130B y R. 1640 y R. 1645y R. 1648 y R. 1646/134B
Ramiro رميرو ، الرمير	(A) y R. 1645
Ramis, al الراميس	(A)
Ramon الرامون(اسم شخص إسباني)	(E) (D) con al en (A)
Ramuz, al الرموز ، الراموش	(A) Int. Ramos
Rasimu راسيمو	(A)
Rasis راسيس(الرازي)	R. 1548
Ratut, al الراتوت	(A)
Rayd رايد	(G)
Recaina ريكاينا	(E) Puede ser el Erkaina de (Y)
Recini ريثيني	R. 1645
Redondo الرضوندو ، الرضدضو (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) con al en (A) y R. 1633/129B y R. 1674/143B

(*)Reina الرينة	(D) (Y) con al en (A)
Rendan ريندان	R. 1625/127B
Requina, al "الريكينا"ريكينا	(A) Int. Requena. Existe
Resi ريسى	R. 1654 / 137B
Rettut ريتوت	(E)
Rexai, al الريشاى	(A)
Rife ريفى	R. 1621/126B
(**)Rios ريوس ، الريوس	(D) (A) (G)
Riyan "ريان"ريّان	(A) Int. Rellan
Roca الرُكة (اسم عائلة إسبانية)	(A)
Rocach روكاش	(D) Existe
Rochal روشاى	(D)
Rodrigo رودريغو(اسم شخص إسبانى)	(D)
Rojani روخانى	(D)
Rojas الروكاس (اسم عائلة إسبانية)	(G) R. 1633 y R. 1633/129 B y R. 1645
Roman, al رومان ، الرمان	(A) Int. Roman
Romano رومانو	R. 1640
Rond, al الروند	(A) Aranda
Ronda الرندة ، الرندى (اسم مدينة إسبانية)	(D) con al en (A) y R. 1632/128 B
(***)Rondi روندى	(D)
Rosado روسادو	R. 1645
Roxas روشاس	(G)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "ملكة" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "أنهار" . (المراجع)

(***) النسب – على الطريق العربية – من بلدة رونده . (المراجع)

Ruan روان	(A) Int. Roan. Existe
Ruano روانو	(A) Int. Ruano
Ruas رواس	(A) Existe
(*)Rubio الروبيو ، الروبى	(A)
Ruda رودا	(A) Int. Roda
Ruiz o Ruich الرويز (اسم عائلة إسبانية)	(E) (D) (Y) (A) y R. 1615 Existe
Ruck, al الروك	(A) Int. Roque
Rukas, al الروكاس"روخاس"	(A) Int. Rojas
Ruks, al الروكس"روس"	(A) Int. Ros
Ruxa, al الروشا"روسا"	(A) Int. Rosa
Ruxu, al الروشو"روخو"	(A) Int. Rojo
Sabaha صباحة	R. 1632/128 B
Sabban صبّان	R. 1633 y R. 1674/143 B y (D)
Salabata صالاباتا y Chalabata شالاباتا"ثاباتا"	(A) Int. Zapata. Existe
Sacol ساكول	R. 1677/144B
Safi صافى	R. 1640
Sahaf صحاف	(D)
Salas صالص ، صالش	(E) (Y) Existe
Salazar سالاثار(اسم عائلة إسبانية)	R. 1615 y R. 1621/126B
Salitan ساليطان	R. 1579
Salmon سلمون	(A) Int. Salmon
Saltillo سالتييو	R. 1648
Sammar سامّار	(D)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "أشقر" وهى اسم عائلة كذلك . (المراجع)

Sancho سانشو(اسم شخص إسباني)	R. 1646/134B
Santiago سانتياغو(اسم شخص إسباني	(G) R. 1625
Sana سانا	R. 1688 / 142 B
Sara سارة o Chara شارا "سيرّا"	(A) Int. Serra
Sarbi ساربي o al Charbi الشاربي "سورباس"	(A) Int. Sorbas. Al Sarbe en R. 1645
Sardina ساردينا	R. 1583
Sardira سارديرا "ثيرديرا"	(A) Int. Cerdeira
Sarray سرّاج "بن سراج"	(E) (A) Int Abencerraje. Existe
Savet سابت(ثابت)	R. 1635
Saya سايا o Charia شاريا "ساريّا"	(A) Int. Sarria
(*)Sastre ساستري	R. 1645
Settat ستّات	(D)
Seba سيبا	R. 1674/ 143B
Sebida سيبيدا "أثيبيدو"	(A) Int. Acevedo. Existe. He oido pronunciar Esbida
(**)Secundu, al السكوندو	(A) Int. Segundo
(***)Secura شكورة ، سكورة o Chacura شاكورا "سيغورا"	(A) Int. segura
Sefan سيفان	R. 1669/142B
Seli سيلي o al Cheli الشيلي	(A)

(*) كلمة إسبانية بمعنى "خياط" وهي اسم عائلة كذلك . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "الثاني" . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى "آمنة ، مطمئنة" . (المراجع)

Selis سـيـليس o Chelich شيليش"خيريث"	(A) Int. Jerez
Selisi سـيليسى o al chelichi شيليشى"خيريثانو"	(A) Int. Jerezano
Senadi سينادى	
al chenadi الشينادى	(A)
Sendir سيندير o Chendir شيندير	(A)
Sentil سينتيل o Chentil شينتيل"خنتيل"	(A) ?Gentil?
Serbira سيربيرا"ثيربيرا"	(A) Int. Cervera
Serquiq سيركيك	(A) Existe
Seron سيرون	(G)
Serrano سرّانو ، شرانو	(D) (A)
Setun سيتون o al Chetun الشيتون	(A)
Siar سيار	R. 1668/142B
Sini سينى o al Chini شينى"شينو"	(A) ?Chino?
Sira سيرا o Chira شيرا"سيرّا"	(A) Int. Sierra
Soba سوبا	R. 1674/ 143B
Soliman سُليمان	R. 1645
Soraique سورايكى	R. 1633
(*)Sordo الصردو ، الصوردو	(E) (A)
Sordur, al السوردور"سيرّادور"	(A) Serrador
Soria شورية (اسم مدينة إسبانية)	R. 1635 y R. 1637/130B y R. 1639/131B y R. 1645 y R. 1646 / 134B y R. 1648
Sorti سورتى o al Chorti الشرطى	(A)
Sorian سـوريان o Churian الشوريان"سوريانو"	(A) ?Soriano?

(*) كلمة إسبانية بمعنى "أصم" . (المراجع)

Squirech سكيريش	(D)
Sullah سويلاح	(D)
Sulami سولامى	(G)
Suleitan سوليتان	(G)
Sulta سولتا	R. 1646/134B
Suzer سوثر	R. 1646/134B
Tabbib تابّيب	(D)
Tabbin تابّين	(E) con al en (A) Existe
Tabyina تابينا	(A)
Tacon تاكون	R. 1677/148 B
Tacher تاشير	R. 1645 y R. 1674/ 143B
Tagali تاغالى	R. 1579
(*)Tagarino تاغارينو	(G) R. 1125 y R. 1635 y R. 1639/131B y 1640 y R. 1645
Taifor تايفور	R. 1637/130B
TYajar تاخار(تاجر)	R. 1669/142B
Talha طلحة	(E)
Tali تالى	(D) R. 1677/ 144B
Taliu تاليو"تييو"	(A) Int. Tello
(**)Taller تايير	R. 1645
Tanana, al التانانا	(E) (A) Existe
Tanasa تاناسا	(A) R. 1677/144B
Tania تانيا	(E) (D) (A)

(*) كلمة مشتقة من كلمة ثغر ، وهى هنا بمعنى ثغرى ، وكانت تطلق على المقيم فى الموانىء الإسبانية على البحر المتوسط . (المراجع) .

(**) كلمة إسبانية بمعنى "ورشة" (المراجع)

Tansa تانسا	(A)
Tarifa طريفة	(A)
Tarse تارسى	R. 1656/136B
Taudi تاودى	R. 1677/144B
Tello تليو	(G)
Temin تيمين	R. 1669/ 142B
(*)Tenaza تيناثا	R. 1677/144B
Tesso تيسّو	R. 1646/ 134B
(**)Tintorero تينتوريرو	R. 1636/129B
Tohairi توحيرى	(G)
Tomas توماس(اسم شخص إسبانى)	R. 1674/143B
Topal توبال	R. 1637/130B
(***)Toriru توريرو"تورّيرو"	(A) Int. Torrero
Tormo, al التورمو"تورمو"	(A) Int. Tormo
Torres الطريس (اسم عائلة إسبانية)	(E) (Y) con al en (A) R. 1614/ 142 B y R. 1615 Existe
Tramaci تراماثى	R. 1669/142B
Travesy ترابيسى	R. 1674/143B y R. 1677/144B
Trinin ترينين	R. 1674/143B
Tripol تريبول	R. 1648
Troya ترويا	R. 1648
Tunes تونس	R. 1645
Turtuchi, al التورتوشى"تورتوسا"	(A) Int. Tortosa

(*) كلمة إسبانية بمعنى "كماشة" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "صباغ" . (المراجع)

(***) كلمة إسبانية بمعنى "مصارع الثيران" . (المراجع)

Usir, al "الأوسير "ألغواثيل	(A) Int. Alguacil Existe
Vacher بشير	(G)
Valenzuela ابن صويلة ، بنو صويلة	R. 1636/129B y R. 1639/131B
Vallejo بابيخو(اسم عائلة إسبانية)	R. 1625
Vanegas بيناغاس(اسم عائلة إسبانية)	(G)
Vargas بارغاس برقاش (اسم عائلة إسبانية)	(G) R. 1625 y r. 1640
Vejales بيخاليس	R. 1640
Venutan بينوتان	R. 1640
Vizcaino بيثكاينو(من إقليم بيثكايا)	R. 1640
Xabenialu شابينيالو	(A)
Xaniz شانيث	(E) R. 1615
Xarife شريفي	R. 1579 y R. 1674/143B
Xarif شريفen	R. 1640
Xarrete شرّيتي	R. 1579
Xati شاتي(شاطيء)	R. 1639/131B
Xauan شاوان	R. 1637/130B
Xeral شيرال	R. 1640
Ximili شيميليo Alaximile الاشيميلي	R. 1583
Xura شورا	(A)
Xurbi شوربي	(E) (A)
Yaiyani جيجاني(جيّاني، أي من جيّان)	(Y) Anade Seffar
Yanino جنينو	(E) (A) Existe
Yebli جبلي	(A) Int. Jabali
Yebur جبور	(A) Existe
Yian جيان	(A) Int. Jaen

Yuder جودير	(G)
Yurio جوريو	(A) Int. Jorio
Yusso جوسّو	R. 1637/130B
Zaide زايدى	R. 1523
Zaidun زيدون	(A)
Zaldur ثالدور	(A)
Zalez "ثاليث"سالاس	(A) Int. Salas. Existe
Zamborino ثامبورينو	R. 1635
(*)Zantu, al "سانتو" الثانتو	(A) Int. Santo. Existe
Zapata سباطة ، شلباطة	R. 1639/131B y R. 1646/134B
Zaral ثارال	R. 1646/134B
Zarkik ثاركيك	(E)
Zarraget ثارّاغيت	
Zatani ثاتانى	R. 1646/134B
Zate ثاتى	R. 1625
Zecri ثيكرى(ذِكرى)	(E) (A)
Zilaudi ثيلاودى	R. 1674/143B
Zofaihi ثوفيحى	R. 1645
(**)Zordu, al "سوردو"الثوردو	(A) Int. Sordo . Existe
Zurron ثورّون	R. 1635
Zutu "سوتو"ثوتو o Zut ثوت	(A) Int. Soto. Existe

(*) كلمة إسبانية بمعنى "القديس" . (المراجع)

(**) كلمة إسبانية بمعنى "أصم" . (المراجع)

من فحص بسيط للقائمة التى انتهينا من تقديمها نستخرج بعض الملاحـظات ذات الأهمية.

لم يتجه كل الموريسكيين إلى تجارة العبيد. فهناك الكثيرون الذين لم يظهروا فى أى من الوثائق المختارة. هذا يعنى أنهم يمكن أن يظهروا فى وثائق أخرى لا نعرفها حتى الآن ، لكن العينة مستفيضة وموضحة بشكل كاف لكى نستطيع التأكد من أن الموريسكيين لن يظهروا فى أى وثيقة أخرى. يجب الأخذ فى الأعتبار أن هذا النموذج يتضمن فعلياً كل القرن السابع عشر.

لذلك نستطيع في نفس الوقت حساب نسبة الذين كانوا يشتغلون أو الذين اشتغلوا فى إحدى المرات فى بيع الأسرى. على العكس يوجد البعض الذين توارثوا تجارة العبيد من الآباء للأبناء. وهناك آخرون كانوا ينتمون إلى عائلات ذات نسل غرناطي عريق، كانوا يظهرون منذ ١٥٢٣ حتى ١٦٣٥، أى أكثر من قرن. ظهر الكثيرون فى مبيعات عام ما ولم تعد أسماؤهم للظهور فى الافتداءات، فهم تجار عارضون.

فى القائمة التى كتبناها، و التى تتضمن ١٠٢٨ اسماً ، لم يظهر عدد ٥٢٢ منهم فى مخطوطات الافتداء، هذا يعنى أنه من المحتمل جدا أنهم لم يتجهوا إلى عمليات شراء وبيع العبيد أو أنهم إذا كانوا يفعلون ذلك فإنه يكون بطريقة أخرى غير الامتلاك المباشر للأسرى المسيحيين. عددهم أعلى بقليل من نسبة ٥١٪ من مجموع الأسماء، ومن نسبة ٤٩٪ الباقية أو من ٥٠٦ اسماً، ظهر عدد كبير آخر من الموريسكيين، ٤١٢، مرة واحدة فى تجارة العبيد و بذلك يكون لدينا نسبة ٤٠٪ أخرى لم تكن تتجه لهذه العملية إلا عرضاً. لو أننا حذفنا من هذا العدد أسماء من ظهرت عائلاتهم مرتين فى سوق العبيد، على مدى قرن ونصف من الزمن، وهم ٣٦، فسوف يتبقى لنا ٩٧٠ شخصاً من ١٠٢٨ لم يقوموا، فعلياً، بأى عمل متعلق بالأسر، نستطيع أن نقول إن عدد الذين اشتغلوا بتجارة العبيد تقريباً معدوم. إذ لا يتعدى نسبة ٥٪ من المجموع.

ما زلنا نستطيع أن نصفي الحسابات لتخفيف نسبة ٥٪ هذه، لكن يكفينا ذلك لكى نستخلص نتيجة من نوع اقتصادى سياسى. نظراً لكون ثروات القرصنة المصدر الأساسى الذى كان يغذى الخزائن التطوانية، نرى بوضوح أن تلك الثروات كانت فى أيدى أقلية مكونة من الحكام و أقاربهم وأتباعهم الأكثر قرباً.

كان الفتات الذى كان يتقاسمه باقى المدنيين قليلاً وغير ثابت. لأن كون الغالبية العظمى من الذين ظهروا فى قائمة الأسماء لم يوجدوا كتجار عبيد، فإن هذا لا يعنى أنهم لم يكونوا متضمنين فى هذه القائمة، بطريقة أو أخرى، لأنه إذا كان الحاكم لديه عبيد أكثر، فليس سبب ذلك أنه كان يقبض عليهم، لكن لأنه كان يشتريهم من قبطان المركب و معاونيه،أو بوجه خاص قد أقتناهم بأسعار معتدلة من الشخص الأول الذى قبض عليهم أو، ببساطة، من السوق الذى كان يعمل فى تطوان كسوق لأى بضاعة أخرى. كان الحاكم يمكنه شراؤهم بأسعار زهيدة، و تخزينهم فى السجون بتكاليف أقل من الاحتفاظ بهم ثم يعيد بيعهم بعد ذلك عندما تأتى الفرصة فى شكل رجال دين محملين بالنقود والبضائع.

يتضح ذلك فى المخطوطات حيث كان القادة و المقدمون و الحكام يفرضون مسبقًا بيع عبيدهم و كانوا يرون أن أحد البنود الأولى التى يجب أن يصل إليها المفتدون هى تحديد عدد الأسرى الإجباريين الذين يجب أن يشتروهم من الحكام، لكى تبقى لها أموال كافية لافتداء بقية الأسرى. كان هذا التوزيع غير المتساوى للثروة سببًا لأكثر من فتنة وثورة. لكن الموقف تغير فقط عندما تولى مولاى إسماعيل بنفسه، فى نهاية القرن السابع عشر تقريبًا، كل ما يتعلق بالأسرى المسيحيين.

وبعد أن أوضحنا إلى حدٍ ما نسبة الأسماء التى تظهر بطريقة أو أخرى، نجد ملاحظة أخرى مهمة تتعلق بالعائلات الموريسكية التى اختفت بمرور الوقت، لأسبابٍ أو أخرى.

يقول السيد عزوز حرفيًا، فى ملحوظة مهمة فى نهاية دراسته:

"من باب الإسهاب أن نشير إلى أن عدد العائلات التطوانية ذات الألقاب الإسبانية كان ٣٦٥، انقرض منهم ٢٥٨، غالبيتهم بسبب مرض الطاعون الذى اجتاح تطوان عام ١٠٨٨هـ (١٦٧٧م) حيث لم تبق فى الواقع أكثر من ١٠٧ عائلة، والتى نجد من بينها عائلة مؤسس المدينة، المنذارى".

لقد أحصينا ٧٩ عائلة مختفية فى عام الطاعون،١٦٧٧، و من الغريب أن تظهر عائلة واحدة، عائلة فيديريكو Federico ، فى أربع وثائق افتداء لأعوام ١٦٤٥ و ١٦٤٨

و ١٦٥٤ و ١٦٦٩ : و فى ثلاث افتداءات أخرى فى وثيقة وحيدة و دائمًا لبيع أسير واحد فقط. لم يكن لأى عائلة من العائلات التى ماتت بالطاعون فيما يبدو جزء من الثروة التى كانت توفرها القرصنة . هل نستطيع أن نترجم قراءة هذه المعلومات كاختفاء للطبقات الأكثر فقرًا من السكان فى هذه الأوبئة؟ و هذا يعتبر حدثًا حقيقيًا فى حد ذاته، لكن هنا يمكن إضافة تعليق ما. ربما كان لتكدس السكان الموريسكيين فى مدينة تطوان نتائجه المأساوية، فى أثناء تفشى المرض، والتى تجتذب الظروف فيها السكان الأكثر ضعفًا.

هكذا اختفت فى العام المأساوى، ١٦٧٧، ألقاب إسبانية مثل بايو Bayo وبرابو Bravo وبرنال Bernal وبنخوميدا Benjumeda وبالومينو Palomino وسيرانو Serrano و ثيرديرا Cerdeira و تشامورو Chamorro و هيرناندو Hernando وتييو Tello وراميرو Ramiro وروبيو Rubio وموران Morán وألمانسا Almansa وغوثمان Guzmán وكابييو Cabello ومونتيرو Montero وغراندى ، Grande حتى اسم العائلة التاسع والسبعين.

لا يقول لنا ابن عزوز شيئًا عن الأسباب التى أدت إلى انقراض عائلات موريسكية أخرى كثيرة، و ما زلنا نتحدث عن القرن السابع عشر، كتلك العائلات الثلاث التى اختفت فى عام ١٦٣١ أو العائلات الخمس التى اختفت فى عام ١٦٦٩ . الحقيقة أن الصراعات الأهلية التى زعزعت المجتمع الموريسكى على طول القرنين السادس عشر والسابع عشر، ربما تكون قد تسببت فى اختفاء عائلات كثيرة.

إذا تأملنا الفترات الزمنية التى حدثت فيها بعض الافتداءات، يتضح أن اسم الشخص الذى ينفذ عمليات البيع لا يدل على شخص واحد. فعلى سبيل المثال، ليس من الممكن أن يكون النقسيس الذى ظهر عام ١٦٦٤ هو نفسه الذى ظهر فى عام ١٦٠٧ .

بهذه الطريقة من الممكن لنا أن نفرق بين بعض العائلات و بين الأشخاص المنفردين. عائلة بن ساكور Bensacor أو بنا ساكور Benasacor من عام ١٦٢٥ إلى ١٦٧٧، مع اثنين وخمسين عامًا منذ "المؤسس" الأول، لدرجة أننا لا نعرف من أى جيل

كان الذين قاموا بصفقات فى ٨ أعوام مختلفة. عائلة كابريرا Cabrera التى باعت بالتوالى عبيداً من عام ١٦٢١ حتى ١٦٧٤ . عائلة أراغون Aragón التى ذهبت إلى السوق ٨ مرات منذ عام ١٦٣٢ حتى ١٦٧٤ . عائلة مفضل، رفيق المنداري الغرناطي، الذى شارك معه فى أولى عمليات الافتداءات المعروفة من عام ١٥٢٣ و التى استمرت ذريته فى بيع الكثير من العبيد حتى عام ١٦٥٦ ، على الأقل.

هناك ملاحظة أخيرة فيما يتعلق بدراسة أسماء الأشخاص: توجد ألقاب مثل بيرالتا Beralta و ماركوس Marcos ولاثارو Lázaro وفادريكى Faderique وكانتييانا Cantillana وأوليباريس Olivares وتاغارينو Tagarino و ألميرانتيى Almirante وألفانخيرو Alfangero وأغيلار Aguilar وآخرون من أصول إسبانية واضحة جدا والتى ظهرت فى الافتداءات كمواطنين من تطوان ولم يسجلها السيد بن عزوز فى كتابه والتى تجعلنا نشك أنه مازال هناك الكثير لفحصه وبحثه لزيادة الأسماء الموجودة فى هذه القائمة فى مجموعة "الجانب الآخر" مثلما نحن متأكدون من تحقيق إسهامات جديدة فى المستقبل القريب.

تبدو لنا الآلاف من أسماء العائلات الموريسكية دليلاً بسيطاً على عشرات الآلاف التى ألقاها مد وجزر التاريخ فى الأراضى المغربية.

الهوامش

(1) GOZALBES BUSTO,Guillermo. "Notas sobre la tradición oral morisca en Tetuán". Anales del Colegio Universitario de Almería. Letras.Ano 1982. Pp.101 a 104.

(2) Mármol Carvajal, Luis del. Descripción general de África.Libro Quarto. Granada 1573.Fol.131 y 131Vto.

(3) GOZALBES BUSTO,Guillermo. "La sociedad granadina-nasrí en el exilio". Revista del Centro de estudios históricos de Granada y su reino.N.* 3. Nueva época.1989. Pp.165 a 181.

(4) Sources Inedites l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) Portugal A.a Serie. Tomo III.

(5) GOZALBES BUSTO,Guillermo, Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada. 1988.

(6) Hornacheros y andaluces fundaron Rabat.Cf. GOZALBES BUSTO,Guillermo."La república andaluza de Rabat en el siglo XVII" Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. 9-10. Tetuán 1974.

(7) تحمل دراسة سيدى إيرهوني عنوان عمدة الراوئيين فى تاريخ تطوان و هي محفوظة فى المكتبة العامة والأرشيف فى تطوان وقام محمد عزوز بكتابة ملخص لها باللغة الإسبانية، نُشر تحت عنوان "تاريخ تطوان" . أنظر صفحات من ١١٨ إلى ١٣٢ من هذا العمل.

(8) DAWD,Muhammad, Tarij Titwan. (En árabe). Tetuán 1958.

(9) YEBBUR ODDI, Abd- Errahim. Una ojeada sobre la historia de Tetuán y sus familias oriundas del Andalus. Tetuán-1948.

(10) IBN AZZUZ HAKIM, Mohammad. "Apellidos tetuaníes de origin español". Revista Awraq. Vol.II-1988. Pp. 101 a 123.

يوجد الجزء الأساسى الذى تبعناه من دراسة الأستاذ عزوز باللغة العربية تحت عنوان" فهرس".

(11) FRÍAS, Duque de. " Una redención de cautivos en tiempos del Emperador". Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2. 1958. Pp. 483 a 514.

(12) "Rescate de veinticinco cautivos". Revista Mauritania, N.* 182 Enero de 1943 Pp. 9 a 12 y n.* 183 Febrero de 1943. Pp.43 a 45.

(13) عرّفنا سيرّانو إي سانث Serrano Y Sanz بمخطوطات المكتبة القومية وقد نشر بعض المقالات عنها وفيما يتعلق بالأسر في حد ذاته و"العمل الخيرى" الذى نفذته جمعية السيدة العذراء. ومؤخراً استخدمها فريدمان FRIEDMAN في نطاق الأسر ذاته ومثلما استخدم مخطوطات الأرشيف التايخى القومي، وذلك فى دراسة إحصائية اجتماعية – اقتصادية شيقة جداً. أنظر:

SERRANO Y SANZ, Manuel. "La redención de cautivos por los religiosos mercenari-os durante los siglos XVII y XVIII", en Revista Contemporánea. Madrid 1893 y 1893. V. también FRIEDMAN, Ellen, G. Spanish Captives in North Africa in the Early Mod-ern Age. University of Wisconsin. 1983.

(14) كان بعض أصدقائى الأطباء فى تطوان يؤكدون أنه كان يصل أناس من القرى، القريبة إلى حدٍ ما، لاستشارتهم، و كان لهم ألقاباً أندلسية.

(15) MáRMOL. Op. cit. Fol. 33 del Libro 3.*

(16) Biblioteca Nacional. Manuscrito N.* 6569. Fol. 99 vto.

الفصل الرابع

المظاهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للموريسكيين فى المغرب(*)

ملاحظات أولية:

يجب التمييز بين فترتين فى دراسة الموريسكيين فى المغرب تتزامنان مع أكبر حدثين أثرا فيهم. الحدث الأول يتعلق بسقوط آخر مملكة إسلامية إسبانية. و الثانى هو الذى فرض نهاية المشكلة الموريسكية فى شبه الجزيرة، بالطرد أو سلسلة قرارات الطرد الصادرة من عام ١٦٠٩ حتى ١٦١٤ .

فى كلتا الفترتين كان يُرحب بهم بحفاوة فى الأراضى المغربية، بالرغم من ظهور بعض مظاهر الرفض وعدم التكيف. فى كلتا اللحظتين وُجد المنفيون، الذين يمثلون توجهات فوضوية سياسية، والذين سهلوا إقامة مجموعات مستقلة من الموريسكيين، ومن ناحية أخرى، ربما صعبوا مسألة إندماجها السريع جدا، و لم ينتفعوا بالثروة البشرية التى كانوا يمثلونها.

إن تاريخ هذه المجموعات بوجه خاص، و تاريخ الموريسكيين بوجه عام فى الأراضى المغربية، خاصة فى المغرب، لم يتضح حتى الآن.

من الممكن أن يكون عدم المعرفة هذا واحداً من النتائج التى أسميتها فى أحد أعمالى "هجر الواجهة الجنوبية من قِبل عائلة أستورياس الملكية"، أى عدم الاهتمام بكل ما كان يحدث على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق.

(*) تم عرضها فى المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية فى تونس، ديسمبر ١٩٩١ .

منذ زمن ما و حتى الآن حدث تاريخ الموريسكيين الأليم، مع رغبة في اكتشاف المأساة الكبرى التي هزت المجتمع الإسباني خلال قرنين طويلين.

حتى وقت قريب انتهى هذا التاريخ عندما عبر الموريسكيون حدود شبه الجزيرة الإيبيرية. كما لو كانوا عند قيامهم بذلك سيفقدون فجأة وجودهم الإسباني وسيكّونون "تاريخًا آخر".

من الغريب أن المؤرخين عندما يشيرون إلى القرصنة المنظمة التي كان يقوم بها الغرناطيون كرد على معركتهم الخاسرة في شبه الجزيرة و كانوا يهاجمون سواحل وطنهم القديم ويحصلون على الغنائم في بحار المضيق، كانوا يطلقون عليها قرصنة همجية. في حقيقة الأمر كانوا لا يريدون التعرف على هؤلاء القراصنة ولا على الموريسكيين ولا على الغرناطيين المنفيين على الإطلاق. فقلما يحدثنا مؤرخٌ ما، مثل مارمول، عن مغامرات ومعارك القبائل "الأندلسية" والقادة مؤسسي المدن، كالمنداري، أو القادة الحاسمين في تعيين الملوك الجدد كالدوغيلي، أو غزاة إمبراطورية أخرى، مثل جوديرYuder .

من كان يعرف حياة الجمهورية الأندلسية القوية بالرغم من أنها عابرة والتي أقامها الهورناتشيون في الرباط عام ١٦٢٧؟ كُشفت الدراسة عن الموريسكيين في أراضي المنفى شيئًا فشيئًا، و أطلعتنا هذه الدراسات على القوة الحيوية الرهيبة لتلك الأقلية الإسبانية التي شكلت، في أحيانٍ كثيرة، بناءات اقتصادية واجتماعية وسياسية في البلد الذي كان يؤيهم.

مع ذلك يُعرف القليل جدا عن الموريسكيين في المغرب، مع الأخذ في الاعتبار أنه وصلت إلى هذا البلد الغالبية العظمى من المنفيين، لأسبابٍ جغرافيةٍ واضحة.

ربما اليوم، ترجع قلة الاهتمام بهذه الدراسة إلى قلة المصادر، فلا يوجد في التاريخ الإسباني، ولا المغربي، عناصر كافية تساعدنا على معرفة كيف تطورت حياة الموريسكيين في وطنهم الجديد.

يجب، إذن، أن نستفيد من أى توثيق، و إن بدا لنا غريبًا، بهدف استخراج المعلومات التى تجعلنا نكوِّن مخططًا سليمًا، لنظرة صحيحة للموضوع الذى يشغلنا.

هذه هى حالة الدراسة الحالية، حيث استخدمنا مخطوطات ومطبوعات أخرى، غير معروفة إلى حدٍ ما حتى الآن، ومازال استخدامها قليلاً كقاعدة بيانات لبحث المجتمع الموريسكى فى المنفى. تقدمها لنا الكتابات والحسابات المتعلقة بافتداءات الأسرى، التى نفذت غالبيتها العظمى فى المغرب، وبالتحديد فى تطوان. هذه المدينة التى أسسها الموريسكيون و التى كانت سوقًا نشطًا للغنائم التى تجلبها القرصنة والتى كان ينفذها أساسًا المنفيون الغرناطيون.

يجب أن نذكر ما يقوله ابن خلدون عن القرصنة. كان كثير من الأفراد ينفقون أموالهم فى استئجار السفن والتسلح وتحمل نفقات إحدى السفن فى القرصنة، وكانوا يوزعون بعد ذلك المكاسب التى يحصلون عليها. و بوجه عام كان هؤلاء الرأسماليون الصغار يبيعون الأشياء أو العبيد بسرعة إلى أفراد آخرين كانوا أكثر قدرةً و كانوا هم الحكام المحليون. كان هؤلاء الحكام يمكنهم أن يتحملوا النفقات التى كان يفرضها امتلاك الأسرى، بينما كانت مجموعة المفتدين تصل ومعها نقودها وبضاعتها لافتداء الأسرى. حينئذٍ، كان هؤلاء الذين يحتكرون العبيد يعوضون عن رأس المال والوقت الذى استثمروه.

لقد رأينا افتداءات تمثل فيها النقود التى يكتسبها شخص محلى ما ثروةً مهمة.

ولما كان سكان تطوان فى مجملهم تقريبًا يشكلهم الموريسكيون المنفيون، فإن المعلومات التى توفرها لنا المخطوطات والوثائق عن الافتداءات تقدم لنا مظاهر كثيرة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. و ستكمل بعض الكتابات الجديدة - نوعًا ما - دراستنا. سوف نقسِّم دراستنا إلى جزئين، يتعلق الجزء الأول بالقرن السادس عشر و يتعلق الثانى بالقرن السابع عشر، و هما الفترتان اللتان قلنا إنه يمكن تأملهما عند دراسة القضية الموريسكية. فلكل فترة فيهما خصائصها الذاتية. إن الموريسكى الذى يهرب من الإسلام الذى هزمته الأسلحة، ولكنه حارب للحفاظ عليه فى شبه الجزيرة، لا يساوى الموريسكى المطرود بقوة القرار، و قد عاش الكثير منهم بسلام

على مر القرون، و قد تكيفوا بدرجة أو بأخرى مع انحطاطهم الاجتماعي والاقتصادي. يمكن التعمق في الموضوع، بالرغم من أننا لا نجد أن هذه هي اللحظة المناسبة للقيام بذلك.

سنقتصر على البحث و التعليق على المصادر الموجودة التي تشير إلى افتداءات القرن السادس عشر، و سننتهي بمصادر افتداءات القرن السابع عشر والتي تتزامن مع الهجرة الجماعية الأخيرة للموريسكيين.

سنبدأ في عام ١٥٢٣ – عندما كان مؤسس تطوان، سيدي على المنداري، لا يزال حيًا – بافتداء حدث في عصر الامبراطور كارلوس Carlos وسننتهي بافتداء آخر حدث في عام ١٦٧٧ في فترة حكم كارلوس الثاني. فترة طويلة مدتها قرن ونصف اختلفت فيها موجات الموريسكيين، التي صبت في شمال إفريقيا، كما ذكرنا. و كانت الظروف العالمية التي ظهروا فيها مختلفة أيضًا بطبيعة الحال و كذلك كان البلد نفسه الذي استقبلهم.

وجد أوائل المنفيين أن عائلة الوطاسي حاولت، دون نجاح، مد سلطة بني مرين. أدت الكارثة التي سببها الغزو البرتغالي للموانئ المغربية إلى تزايد القادة الدينيين الذين كانوا يُعتبرون في الحال قادة سياسيين و حربيين، بحجة الحرب ضد عدو الإسلام. و قد أسهم أوائل "الأشراف"، السعديين، الذين أقاموا الملكية الجديدة، في الفوضى العامة و حاولت كل سلطة محلية التحول إلى سلطة إقليمية ثم إلى سلطة قومية. لم يجد المنفيون في الشمال صعوبات كثيرة لتكوين جماعات ذات حكم ذاتي ومستقلة فعليًا خلال أعوام كثيرة وحرة لكي تنمي بناءاتهم الذاتية. سوف تكون تطوان، في الحقيقة، مدينة مؤسسة ومشكلة ونامية تحت تأثير ما هو غرناطي، من غرناطة التي سقطت في أيدي المسيحيين. فقد جعلهم الحنين ينشرون هذا البريق عبر القرون.

بالنسبة للموريسكيين المنفيين في القرن السابع عشر، فإن الأمر كان مختلفًا جدا، سواء بالنسبة لجانب أو لآخر. حيث أن الموريسكي الذي خرج من إسبانيا في

القرن السابع عشر لا يشابه الموريسكي الذى خرج في القرن السادس عشر، إلا في رغبته في التعلق ببعض أشكال الحياة التي كانت تحفظ هويته عبر الزمن. كان من بين أشكال الحياة هذه نظرته المختلفة للطريق الديني.

ما يفاجئنا في هذه الحالة هو أنه عندما وصل هؤلاء الرجال إلى بلاد الإسلام – نشير بالأخص إلى الأخبار التي لدينا في المغرب – وجدوا إسلاماً "خاصاً" مختلفاً كثيراً عن الدين الذى كانوا يحاولون ممارسته سراً في شبه الجزيرة.

لقد وصل الأمر إلى أن يسمونهم "مسيحيي قشتالة"، وفي الواقع، تعرض بعضهم للاستشهاد، كما أثبت لنا ذلك كاتب معاصر للأحداث وشاهد على الحياة في المنفى، وهو خوان لويس دى روخاس Juan Luis de Rojas في كتابه "روايات عن بعض الأحداث الأخيرة في بلاد البربر"، المنشور في لشبونة Lisboa في عام ١٦١٣، والذى يتحدث فيه عن الموريسكيين المساكين الذين سرقت السلطات نفسها أمتعتهم والذين كانوا مسلمين في إسبانيا و مسيحيين حقيقيين في بلاد البربر، كما يظهر ذلك من خلال أقوالهم و أفعالهم، و قد حاولوا العودة إلى المسيحيين، حتى على شكل عبيد، كما أكد الكثيرون ذلك بدمائهم، في استشهاد دائم، و كانت تطون شاهداً على ذلك، كم من الرجال أُحرقوا أحياءً لاعتراضهم على العقيدة و كم جرحوا وماتوا بالعصا والدبابيس...(ظهر الصفحة ٦٠)(*) .

لقد نسوا اللغة العربية، وكانوا يلبسون على الطريقة الأوروبية، وبطبيعة الحال كانت عاداتهم تتغير، بطريقة جوهرية، إلى عادات الوطن الجديد.

كان هناك الكثير من صعوبات التكيف خلال الفترة الأولى، ولكن لأنهم وجدوا بلداً

(*) لنا أن نبدى كثيراً من التحفظات على ما ورد في هذا الكتاب بل و في الغالبية العظمى من كتابات القرن السادس عشر، فقد كانت كتابات دعائية إلى أقصى حد. صحيح أن الموريسكيين قد وجدوا إسلاماً أكثر تشدداً في البلاد التي هاجروا إليها، لكن ذلك لم يدفعهم إلى كراهية الإسلام و حب المسيحية و لم يحدث أبداً أن أُحرق الموريسكيون أحياءً في البلاد التي هاجروا إليها. (المراجع)

مشابهًا في ما هو فوضوى، على رأسها العائلة السعدية التى كانت على وشك الاحتضار، من جراء الحروب الأهلية، فقد استطاعوا التمركز فى جماعات مستقلة وممارسة طريقتهم فى الحياة لبعض الوقت.

يمكن أن يعطينا تأسيس الهورناتشيين للرباط نموذجًا لما كان عليه المنفى فى هذه الفترة الثانية.

و بعدما أعلن الهورناتشيون أنفسهم جمهورية مستقلة و اشتغلوا بالقرصنة، مثل أقرانهم في تطوان، كانوا شبه دولة فى نظر الدول الأوروبية، التى توصلت معهم إلى توقيع معاهدات وتعيين سفراء، إلى أن كانت الخلافات بينهم وبين باقى الاندلسيين المنفيين وإنشاء سلطة مركزية قوية سببًا لإنهاء الحكم الذاتى الموريسكى.

يمكن أن تكون تطوان فى الشمال والرباط فى الجنوب أمثلة للمنفى الموريسكى فى المغرب. لم يحظ هذا المنفى بكثير من الدراسة حتى يومنا هذا ولذلك سنسمح لأنفسنا فى هذه الدراسة أن نقدم عدة مظاهر لم تبحث حتى الآن.

القرن السادس عشر. النصف الأول

إن الوثيقة الأولى التى نستطيع أن نستخلص منها معلومات مهمة هى عن عملية افتداء أسرى حدثت فى عام ١٥٢٣ .

خصص كونت بينابينتى Benavente ، السيد ألونسو بيمينتيل Alonso Pimientel، بعض الصدقات لافتداء الأسرى، و قد نفذ العملية شخص يدعى خوان أورتيث دى كويار Juan Ortiz de Cuéllar، و هو الذى جمع عدة وثائق للمبالغ المدفوعة و للأسرى المفتدين مع الأسماء الخاصة بكل منهم وتكلفة افتداء كل واحد منهم، وقد بلغ المجموع ١,١٨٥,٠٠٠ مرابطى، بالإضافة إلى نفقات الافتداء[1] . يجب أن نضع أنفسنا فى سياق تاريخ المغرب عامة، وتطوان خاصة، لكى نفهم الشخصيات المتواجدة وأهمية كل واحد منها.

مازال مؤسس المدينة، سيدى على المندارى، حيًا، وكان القائد الغرناطى السابق لبينيارPinar، والذى ترك الحرب و معه ثلاثمائة محارب من أفضل النبلاء الغرناطيين، قبل عام ١٤٨٥، وهاجر إلى المغرب و أعاد بناء أطلال تطوان. تزوج، فى الأراضى المغربية، من ابنة حاميه وصديقه المفضل، سيدى على بن راشد، مؤسس الشاون. كانت هذه الزوجة، ست الحرة تتدخل فى شئون الحكومة التطوانية فى غياب القائد. نراها فى وثائق عديدة تقرر أعمال القرصنة، وفى الواقع فإنها حكمت المدينة خلال شيخوخة المندارى التى استمرت طويلاً وكان المندارى بالإضافة إلى ذلك، كفيفًا.

مات ابن راشد فى عام ١٥١١ ، و خلَّفه ابنه مولاى إبراهيم فى حكومة شاون ومنطقة جبلية واسعة فى شمال البلد. سريعًا ما تحول هذا الابن إلى الشخص المفضل عند السلطان مولاى شيخ الوطاسى الذى ساعده على أن يعتلى العرش.

كان مولاى إبراهيم عن طريق أخته ست الحرة هو المالك الحقيقى للمصائر فى تطوان حتى وفاته عام ١٥٣٩ . كان اسم سيدى على المندارى العجوز غير القدير على رأس الحكومة التطوانية لكن، فى الحقيقة، كانت زوجته هى التى تحكم، تحت حماية سلطة وتأثير صهره، الوزير الأول فى بلاط فاس.

فى عام ١٥٢٣ طغى عمران المدينة التطوانية البدائية على الأسوار الأولى للمندارى، وزاد عدد السكان بالموريسكيين الذين كانوا يبدأون فى الخروج من إسبانيا، بشكل سرى ولكن بأعداد كبيرة. و مع ذلك، فإن المؤسسين، (هؤلاء المئات من المحاربين الذين صاحبوا المندارى، والذين أهلكت الحروب ونكبات أخرى، دون شك، الجزء الأكبر منهم)، كانوا يشكلون الصفوة الاجتماعية ولن نجد، فى هذا الوقت، أكثر من أسماء قليلة مقشتلة. كان المحاربون الغرناطيون القدماء، و كلهم من بنى سراج، مثل حاكمهم، الذى كان نصيرًا وفيًا لأبى عبد الله الصغير، يحافظون على أسمائهم الغرناطية التى تعود إلى العصر الإسلامى. بالطبع كان البعض الذى يشغل مناصب سلطة من المناصرين الأكثر ولاءً للحاكم ولعشيرته المقربة. من الممكن أن يكون الحكام مرتبطين ببعضهم البعض بروابط مصاهرة. يؤكد لنا مارمول وجود سلالتين تورطتا فى صراعات أهلية فيما بعد.

هذا التاريخ المكثف لتطوان، فى شخصياته، مهم لمتابعة المعلومات التى سوف نستخلصها من المصادر بدقة أكثر.

فى وثيقة لعام ١٥٢٣ يوجد فقط ١٧ مالكًا للعبيد، يتوزع بينهم المليون ومائتين ألف مرابطى، و هو المبلغ الذى سوف يتكلفه افتداء الأسرى. كان السبعة عشر مالكًا هؤلاء -إذا تحدثنا بمصطلحات تجارية - هم تجار الجملة فى السوق. إلى أن يصل المسيحى المقبوض عليه كغنيمة إلى سلطة التجار فإنه يمر عبر أيدى رئيس أو قائد قارب القرصنة، الذى كان يجب عليه أن يبيعه فى الحال لكى يدفع نفقات السفن وملاّحيها. كان يظهر بين المشترين هؤلاء التجار أو بالأحرى الوسطاء الذين كانوا يعيدون بيعهم، إما فى سوق تطوان ذاته، أو كانوا يُنقلونهم إلى الجزائر، إذا لم يكن السوق التطوانى مناسبًا بسبب الهدنات أو لأسبابٍ أخرى. هناك بين التجار ثمانية فقط جمعوا قيمة بيع تزيد عن ٨,٠٠٠ مرابطى، وإذا استثنينا ملك بيليث، الذى كان يرسل أيضًا بضاعته إلى سوق تطوان، فسيبقى سبعة رأسماليين أقوياء. سنرى من هم.

أولهم هو مولاى إبراهيم الذى حصل على ضعف ما حصل عليه صهره، المنذارى، القائد الإسمى لتطوان، (و قد أوضحنا من الذى كان السيد الحقيقى للموقف). تجاوزه بقليل صهر آخر للقائد، و يدعى ابن على. يليه أحد أعمام مولاى إبراهيم واسمه على فرنانديث Alí Fernández أو مارتينو النصرانى Martino Elche كما كان يسميه المؤرخون البرتغاليون لذلك العصر. الحكام الآخرون الذين حققوا مبيعات بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ مرابطى، هم الحاجب سعيدى Saide وشيخ ترغة، و هى ميناء الخروج من منطقة الشاون، حيث كان بالتأكيد من أقرباء مولاى إبراهيم. و شخصية ثالثة، مفضل، وهو غير معروف كليًا حتى الآن بالنسبة لنا. أول مرة نرى فيها اسمه كانت فى وثيقة مرتبطة بالأسرة الحاكمة من تطوان. لن تكون هذه هى المرة الأخيرة، وستسجل مناصبه والتطور السياسى والاقتصادى لأفراد ذريته والذين ظهروا كعائلة قوية.

مفضل، و ابن على، هما اثنان من النبلاء المحاربين القدامى الذين صاحبوا مؤسس تطوان فى منفاه. توجد إشارة متعلقة بالثانى، ابن على، والذى باع عبدًا،

يدعى خوان راميرث Juan Ramírez ، وظل في حوزته على مدى ٢٣ عاماً. هم، إذن، مؤسسو تطوان البدائية.

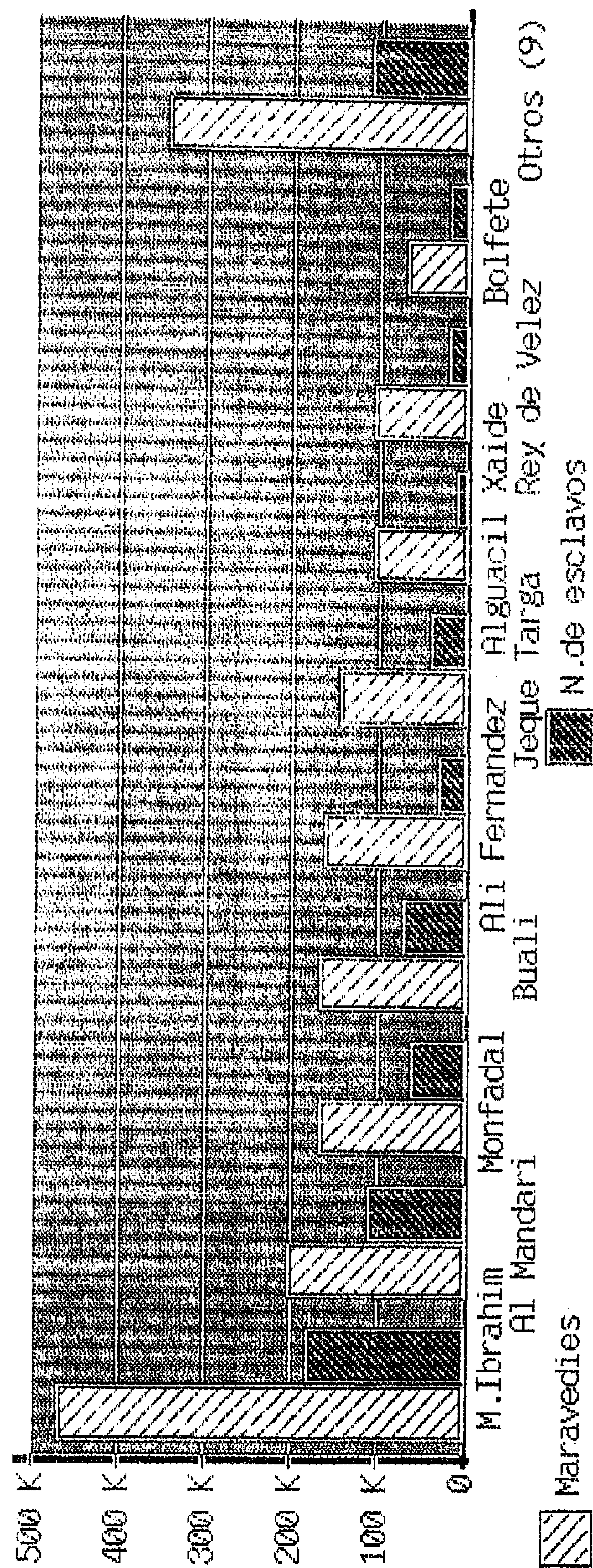
من بين الخمسة و ستين عبداً الذين تم افتداؤهم، كان ما يقرب من ٢٥ ٪ يخص المتحكم فى سياسة مملكة فاس. كان لديه عبيد فى إقطاعيته فى الشاون، وفى بلاط فاس وحتى فى سلا، وقد حصل تقريباً على ثلث الذى دفعه المفتدون.

يلى ذلك أفراد عائلته: المنداري، الذى يُذكر حتى الآن على أنه قائد تطوان، و ابن علي، قائد أفراد بوعلي، والذين ذكرهم مارمول كواحدة من العائلات الحاكمة فى المدينة، و هو بالتأكيد من عائلة المنداري و مفضل الذى، إذا لم يكن من العائلة فهو قريب منها.

نجد فقط اسماً مقشتلاً، عيسى بالومار Isa Palomar ، ربما يكون موريسكيًا دخل متأخراً فى المجتمع التطواني، و كان لديه عبد واحد فقط قدم له ٥٠ أوقية من الفضة الموريسكية، عندما كانت الأوقية فى هذا الوقت تعادل ٣٢٠ مرابطيا، و بذلك فإن سعره يصل إلى ١٦,٠٠٠ مرابطي . على نفس المستوى باع الريس غزالي Gacel عبداً آخر، هذا الريس هو واحد من قادة سفن القرصنة الكثيرين الذين كانوا يستولون على غنائمهم لإحضارها الى سوق تطوان.

لقد شككنا فقط بوضوح فى أحد سادة العبيد الذى لم يكن موريسكيًا، والذى وُصف بكلمة بربري، كان بالتأكيد أحد ساكنى الجبال المحيطة بالمدينة.

كتلخيص للملاحظات المستخرجة من هذا الافتداء، تجدر الإشارة إلى أنه فى عام ١٥٢٣، والذى لا يزال المنداري يحكم فيه، على الأقل إسمياً، كانت توجد أقلية صغيرة من الغرناطيين تشكّل السلطة الاقتصادية، والتى كانت تشارك السلطة السياسية، لأن المدينة كانت، بكل تأكيد، فى أيديهم. لم تستطع الأسرة الوطاسية المتهالكة والضعيفة أن تصل الى السيطرة المباشرة على ميدان القرصنة، خاصةً بينما كان مولاى ابراهيم حيًا. كون حكم الأقلية الغرناطي هذا نفس النبلاء الذين شكلوا النواة المؤسسة، والذين يتميز من بينهم اسمان، بجانب المنداري: مفضل وابن علي.



Redencion de 1523
500 K
400 K
300 K
200 K
100 K
0
M.Ibrahim
Al Mandari
Monfadal
Buali
Ali Fernandez
Jeque Targa
Alguacil Xaide
Rey de Velez
Bolfete
Otros (9)
Maravedies
N.de esclavos

شكل (أ)

من الصعب جدا حساب عدد سكان تطوان. تضاف العديد من الهجرات المستمرة إلى تسجيل مبدئى من ١,٥٠٠ إلى ٢,٠٠٠ نسمة، بحيث قارب عدد السكان عند بداية القرن السادس عشر على ٣,٠٠٠ . يشير مؤرخ برتغالى فى عام ١٥١٦ إلى وجود ٢٠,٠٠٠ شخص فى تطوان. و مع افتراض أن يكون نصف المدنيين فقط من المدينة، فهذا يعطينا ١٠,٠٠٠ نسمة، هذا الرقم كان يوجد فقط فى المدن الكبرى فى هذا الوقت. و من بين الـ ١٠,٠٠٠ نسمة هؤلاء يوجد ١٧ فقط يبيعون عبيداً و ٩ فقط يعتبرون أثرياء جدا. تعتبر نسبة ٠,١٧٪ و ٠,٠٨٪ على التوالى، كما هو ملحوظ، نسبة صغيرة جدا. هل يعنى هذا التفاوت فى توزيع الثروات، أن الأساس هو أصل الاضطرابات والانقسامات التى مزقت المجتمع الموريسكى؟

فقد امتزج عاملان فى اعتقادنا: الأول هو الجماعات أو السلالات التى ظهرت مرة أخرى فى المنفى، والآخر هو سوء الأحوال الاجتماعية التى أدى إليها التوزيع غير المتساوى تمامًا للمكاسب التى يتم الحصول عليها من نشاط القرصنة، المصدر الاقتصادى الأساسى للمدينة.

الوثيقة التالية، بعد خمسة وعشرين عامًا، لم تفعل أكثر من تأكيد شكوكنا؛ حيث أنها تتناول افتداء أسرى لعام ١٥٤٨ .

أتاحت لنا وصية ماركيز بيينا Villena الثانى، السيد دييغو باتشيكو Don Diego Pacheco، رؤيةً تالية لموت المندارى، الذى حدث عام ١٥٤١ .

فلكى ينفذ رغبة والده، خصص السيد دييغو الوريث مليون ونصف مرابطى لدفع افتداء الأسرى فقط، بالإضافة إلى تحمل النفقات المرتبطة بكل ما يترتب على نشاط الافتداء. نفذ الافتداء فى عام ١٥٤٨ .

هنا نجد شخصية غريبة، تستحق فقرة منفصلة لأسباب كثيرة، لكن من بينها، تلك التى تتصل بالعلاقات مع القادة التطوانيين، والتى ستجعلنا نبحث بإيجاز مظهراً سياسياً مهماً للمنفى الموريسكى فى هذه اللحظة من القرن السادس عشر.

قرر الماركيز الشاب أن ينفذ رغبة أبيه الأخيرة ولذلك أراد، وهو عالم قبل أى شيء، أن يضع كل ثرواته وثقته في الأب فرناندو كونتريراس P.Fernando Contreras . كتب إليه رسالة فى تطوان، راجيًا إياه أن يتحمل مسئولية الافتداء . اعتذر الأب كونتريراس مستندًا إلى أسباب قوية، بعضها مشروح والآخر غير مشروح. هذه الأسباب ستحمله، ليس بعد أيامٍ كثيرة، إلى إشبيليه، حيث مات.

لم تكن أعذار الكاهن قليلة الأهمية. فقد كتب له الأمير فيليبى Felipe عن بعض الشئون التى تحتاج إلى مقابلة شخصية، والتى من أجلها كان مضطرًا إلى الرحيل إلى إشبيليه، ولذلك، لم يكن يستطيع البقاء فى تطوان لتنفيذ الافتداء، كما رجاه الماركيز[٢] .

الذى لم يشرحه، ولا حتى ذكره الأب كونتريراس، هو نوع الأعمال الذى كان يحتاج إلى لقاء شخصى، بين الأمير فيليبى والأب. وهذا هو، بالتحديد، ما يهمنا الآن إظهاره. سنسعى إلى تقديم أخبار عن هذا الأمر بإيجاز.

قضى الأب كونتريراس عدة أعوام فى تطوان فى المهمة الصعبة والمؤلمة جدا لافتداء الأسرى. ولكن لم يكن هذا النشاط فقط هو المنتشر فى المدينة. لقد تعرف على المؤسس، سى على المنظرى، العجوز جدا، والذى كانت له معه علاقات صداقة حميمة، حتى أنه ضمن للحاكم ثقة الكاهن، و قد حاول الكاهن، فى الشهور الأخيرة من حياة القائد، السعى إلى محادثته. من المحتمل أيضًا فى بحر المحادثات المستمرة واليومية تقريبًا، بين الكاهن والحاكم، أنهم كانوا يتناولون موضوعات سياسية. كان على المنظرى يذكر أيامه كمحارب مؤثر فى بلاط أبى عبد الله الصغير وكان كونتريراس يحدثه عن إسبانيا مختلفة؛ و هى إسبانيا الامبراطور كارلوس. كان الكاهن يفكر فى جمع ثمار هذه المناقشات عند عودته من إحدى افتداءاته، فى عام ١٥٤١، عندما كان عائدًا إلى تطوان، عبر إشبيليه، وعرف أن المحارب العجوز قد مات قبل شهور قليلة[٣] .

مع ذلك فقد ترسخت علاقات المفتدى بالطبقة الحاكمة الغرناطية، مالكة المصائر فى تطوان، لأننا نراه، عبر وثائق متعددة محفوظة، له علاقات حميمة جدا، مع أحمد حسن، الذى تولى سلطة المدينة بعد موت المنظرى بقليل.

وفـقًـا لهـذه الوثائق التى ليس هذا وقت تفـصـيلهـا، كـان حـسن يعـرض على الإمبراطور كارلوس سلسلة من الاختلافات، منذ أن استسلم بكل بساطة للقوات التى بعثها الامبراطور، حتى أنهم بعثوا له جيوشًا لكى يغزو هو نفسه مملكة فاس من أجل إسبانيا.

كان الأمـر يأخذ مأخذ الجد من قِبل حسن والأب كونتريراس. و لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمناصب العليا الإسبانية التى كانت تعتقد أن تلك المشاريع غير معقولة[٤].

قبل موت الكاهن بقليل، فى عام ١٥٤٨، وقع هذا الحدث المعلن فى عملية الافتداء التى ندرسها، أى رسائل الأمير فيليبى إلى الأب كونتريراس لكى يتقابل الاثنان فى إشبيليه.

لذلك، فمن المؤكد أن الاجتماع بين الكاهن والأمير كان له هدف، و هو إعلام الأخير عن المحادثات والاقتراحات التى قدمها القائد التطوانى للدولة الإسبانية.

غير أنه، سواء أكانت هذه المشاريع خيالية أو واقعية، فإن ما نعرضه هنا الآن يشكل بالنسبة لنا لغزًا. تطلعات ورغبات حسن، هل هى نموذج فقط لاقتراح شخصى أم أنها تلبى رغبة جماعية للأمة الموريسكية التطوانية؟

كان النبيل الغرناطى القديم يبدو متأكدًا جدا من غزو مملكة فاس، لكونه تابعًا للإمبراطور، و لأنه كان يعتمد على النخبة الحربية التى كانت تبقيه فى السلطة.

على الجانب الآخر، عندما نقرأ واحداً من اقتراحاته لكى يوصلوه إلى الجنوب - أى إرساله إلى أراضٍ أخرى يُعتقد أن بها منازعات أقل - نتحقق من وجود أغلبية موريسكية لم يكن يُعتمد عليها فى أى مشروع. إذا استطعنا أن نستخلص نتيجة صحيحة، فستكون أنه كان هناك اتجاهان فى قلب الأمة الموريسكية التطوانية: الأقلية الأرستقراطية، (ربما كانت هى طبقة النبلاء الغرناطية القديمة، أو ذريتهم، الذين بحثوا عن سبل اتفاق مع الإسبان حتى يطأ هؤلاء الإسبان مملكة فاس بمساعدتهم).

والغالبية الأخرى التى كان يشكلها صناع وتجار وبحارة ورجال دين والطبقة الوسطى من الشعب، والذين هربوا وكانوا يستمرون فى الهروب من شبه الجزيرة، مع علمهم بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى الهابط الذى كان للموريسكيين هناك، وأنهم لم يكونوا يريدون العودة فقط، بل كانوا ينفرون من فكرة السقوط تحت سيطرة حكومة مسيحية.

بطبيعة الحال كان يوجد أنصار لكل فريق، ولكن كان هناك مجالان متنافسان فى الجماعة الموريسكية التطوانية. يثبت لنا مارمول ذلك وتؤكده لنا مصادر أخرى سوف نراها تباعًا.

فيما يبدو، بينما استمرت النواه الحربية متماسكة، لم توجد سلطة أخرى فى تطوان غير سلطة المندارى وخلفاؤه المباشرين، ست الحرة وحسن.

زاد عدد السكان الموريسكيين، ليس من قمة الهرم السكنى، و لكن من قاعدته، وقد جلبت هذه الزيادة، فى بعض الأحيان، اختلالات اجتماعية اقتصادية، انعكست آثارها فى السلطة السياسية. إذا أضفنا إلى ذلك الظروف الخارجية، المنبثقة من التقلبات السياسية للملوك المغاربة، الوطاسيين والسعديين، فسنجد أنه لم يكن من السهل أبداً متابعة تقلبات المجتمع الموريسكى، لا فى تطوان، و لا فى أى جزء به مجموعات مستقلة، ولا فى جماعات مرتبطة إلى حدٍ ما كمجموعات الأندلسيين التى كانت فى خدمة الشرفاء.

ظهر فى وثيقة افتداء عام ١٥٤٨، تقريبًا، نفس عدد ملاّك العبيد الذى ظهر فى عام ١٥٢٣ وتبين بالطبع، نفس تركيز البيع على شخصيات مركزية، كالقائد حسن ومفضل، بالرغم من أن بعضهم اختفى مؤقتًا، كابن على.

بما أن حسن كان يعتبر هو ذاته من أصل مدينة باثا، فهذا يجعلنا نفترض أن مفضل أو منفضل هذا هو نفسه صاحب الافتداء السابق، يعنى، أن جزءًا من الجيل الذى ذهب إلى المنفى كان لا يزال موجوداً، عندما قامت الحرب الغرناطية. ذُكر مفضل هنا فى منصب القاضى، ربما كان الثانى فى الأهمية بعد حسن، كصاحب الأمر والنهى فى التأثير على البعض والبعض الآخر.

هناك أمر جديد فى هذا الافتداء يستحق الملاحظة، وهو وجود عدد من اليهود، وهذا يدلنا على وجود مستوطنة عبرية بجانب الجماعة الموريسكية، تتعايش معها ولها تأثير ما على السلطة الاقتصادية. وُجدت هذه المستوطنة العبرية، من اليهود الغرناطيين، منذ الأعوام الأولى لتأسيس المدينة، لكن ظهر نشاطها حينئذ فى عملية شراء وبيع العبيد، وكما هو طبيعى، فى الثروات التى كانت تحت تصرفها. يمكننا التأكيد، على الأقل فيما يتعلق بتطوان والشاون، أن كلتا الأقليتين، العبرية والموريسكية، قد تعايشتا فى المنفى دون مشاكل كبيرة، ربما بمشاعر أكثر أخوية عن تلك التى كانوا يشعرون بها فى شبه الجزيرة.

بالنسبة لبعض التفاصيل الاقتصادية للافتداء، يبدو أن أكثرها أهمية هو ما يلى: فى المقام الأول، كان للقائد حسن أكثر من ٢٠ عبداً ومليون مرابطى. قارب نصيبه من المنافع ٤٩٪ من المجموع الكلى. و هو جزءٌ يقترب من نصيب الأسد، لأن من تلاه، القاضى مفضل، لم يصل حتى إلى نصف هذه النسبة. فقد وصل بالتحديد إلى نسبة ١٧,٧٪.

كان الباقون بعيدين جدا عن هذه النسب. يوجد يهوديان، اسحق بن فريمى Isaac Ben Frime، رئيس الجماعة اليهودية، بنسبة ٧٪ وشخص يدعى كانانيو Cananeo بنسبة٦ ٪. يصل يهودى ثالث، روتى Rute - والذى ظهرت مغامراته كمترجم ودبلوماسى فى وثائق عديدة- إلى نسبة ٥٪ تقريبًا. نشأ، إذن، يهود آخرون بجانب الرأسماليين الموريسكيين، و قد انتفعوا بكل ما استطاعوا من أعمال القرصنة والافتداءات. فى هذا الافتداء كان للعبريين نسبة تقترب جدا من ٢٠٪ من قيمته. وصلوا إلى هذه النسبة ليس فقط بالعبيد المملوكين لهم ولكن ببيعهم، كسماسرة، للأسرى الذين يُنقلون من أماكن أخرى، على سبيل المثال، فى القصر الكبير، حيث يبدو أنه كانت هناك مجموعة موريسكية وأخرى يهودية ذات أهمية أكيدة.

استطاع باقى أسياد العبيد اقتناء ثلاثة عبيد كحد أقصى، و أحيانًا كان يشترك شخصان فى ملكية نفس العبد.

كان هذا الأمر غير نادر بسبب صفات البضاعة التى كانت للأسرى. وقد باع أحد الفقهاء صبيًا بسعر مرتفع، حيث كان يعده لغرس عقائد الإسلام.

باعت امرأة، تدعى أروسيا Aruxela، عبدها التابع لها. هذا هو الافتداء الأول الذى تظهر فيه امرأة مالكة للرقبة. و بالنقود التى حصلت عليها من بيع عبدها الوحيد و تبلغ ١٢٢ أوقية محولة إلى ٧٥ دوقية حيث أن نسبة الدوقية إلى الأوقية المتعامل بها فى ذلك الوقت كانت ١٣/٨، كانت أروسيا تستطيع شراء بيت متوسط بسعر ٢٨,١٢٥ مرابطى، أو أن تنفق، خلال عام، ٧٧ مرابطيًا يوميًا فى العيش بمستوى أكثر رخاءً، أو أن تنفق النصف فقط خلال عامين دون أن ينقصها ما لا يمكن الاستغناء عنه. كانت أروسيا – إلى جانب شخص يدعى خالوى Jalui - أكثر ملاك العبيد تواضعًا.

يمكن لبعض الأسعار المأخوذة من عام ١٥٥٠، أو بعدها بعامين، أن تخدمنا كدليل لكى نقدر أهمية امتلاك العبيد. كان يمكن شراء زوج حذاء بسعر ٦٧ مرابطى، وزوج حذاء ذى كعب عال بسعر ٢٣٨ مرابطى، وحذاء من كتان بسعر ٣٨ مرابطى، ومعطف قصير بسعر ٥٧٨ مرابطى وقميص بسعر ,٢٠٤ كان السروال المنقوش يتكلف ٤ ريالات حيث يساوى الريال ٣٤ مرابطى فيكون ثمنه ١٣٠ مرابطى. كان يلزم للأكل يوميًا ١,٥ ريال، أى ما يساوى ٥١ مرابطى، بالرغم من أنه كان يمكن تغطية نفس الاحتياجات بمبلغ أقل، حتى بالنصف، و ندرك، على سبيل المثال، أن فطيرة شعير وزنها نصف كيلو كان يمكن شراؤها بسعر ٢ مرابطى. إذا كانت ممتلكات أروسيا ثمرة معاشها كأرملة، أو من إرثها عن أبيها أو شىء مشابه، فليس هناك مجال للشك أن المبلغ كان يمثل شيئًا طيبًا بالنسبة لها.

كان رئيس المجموعة اليهودية التطوانية، بن فريمى، والذى كانت تُمدح إنسانيته فى التعامل فى صفقات العبيد، يمكن أن ينفق فى عام واحد أكثر من ٥٠٠ مرابطى يوميًا، وهذا ما كان يسمح له بالعيش فى مستوى السادة العظماء.

لا نقول شيئًا عن الممتلكات التى يقتنيها مفضل أو حسن. هذا الأخير كان يستطيع شراء اصطبل رائع وجميل فيه أكثر من ١٣٠ حصان بتكلفة ١٠ آلاف مرابطى(٥) .

يجب الأخذ فى الاعتبار، بالإضافة إلى ذلك، لكى نفهم فيض الثروات التى كانت تدخل البلاد، من أن الافتداءات كانت تتكرر كل عامين أوعلى فترات أقل. وفى بعض المرات، كالحالة التى ندرسها، كانت هناك عدة افتداءات فى نفس العام. هنا يُذكر بعض أعضاء جمعية "الثالوث المقدس" الذين كانوا يفتدون فى تطوان، عندما وصل الأشخاص الذين أرسلهم الماركيز والذين أدلوا بشهادتهم لكى يثبتوا النقود التى دفعوها. فى هذا الافتداء سمح حسن للمفتدين أن يحرروا من يرغبون، ولكن لم يكن الأمر هكذا دائمًا. بعد ذلك سنرى المبالغة التى أظهرها قادة آخرون حيث كانوا يشترطون أن يكون عبيدهم هم أول من يتم افتداؤهم، مهما كانت جنسيتهم أو حالتهم. بل أكثر من ذلك، فلم تكن البضاعة فى حالات جيدة دائمًا وكانت تؤخذ افتداءات عن رجال مرضى أو على وشك الموت، دون أن تتسبب وفاة هؤلاء التعسين فى إرجاع المبالغ المحصلة.

سوف نتأمل دراسة مختلفة لبنود الافتداءات المتتابعة، حيث أن الافتداءات نفسها تؤثر فى أشكال الحياة لحكام وشعب الأمة الموريسكية التى كان مصدر الثروة الرئيسى لها فى تطوان يتمثل فى القرصنة ومشتقاتها.

قُدمت لنا بالخطوط العريضة بانوراما للموريسكيين التطوانيين فى النصف الأول من القرن السادس عشر، وهى الفترة التى حكم فيها المنظرى وأتباعه الغرناطيون المدينة وأعطوها صفاتها الخاصة.

لدينا وثيقتان أخرتان للنصف الثانى من القرن السادس عشر، هذه المرة منشورتان، و تتحدثان بالمثل بين السطور، عن كيفية تطور المجتمع الإسبانى – الإسلامى المهاجر، حتى وصلت الموجة النهائية من المطرودين. وقعت أحداث محددة بين هاتين الوثيقتين ، البعض منها حاسم، وبالأخص لوقف أو استمرار الحكم الذاتى الذى كان يتمتع به الموريسكيون فى المدينة التى أسسوها.

كانت هذه الفترة، من الربع الأخير للقرن السادس عشر، مشوشةً إلى حدٍ ما، فيما يتعلق بالأخبار عن الأمة الموريسكية. يقدم لنا كاتب عصر النهضة، مارمول

كارباخال، بعض المعلومات، حيث يتحدث عن الصراعات الأهلية التي تفجرت في تطوان بين أفراد بوعلي وأفراد بوحسن(٦) .

حصل سيدي حامو، قائد أحد الأحزاب، على السلطة أخيرًا، و أباد معارضيه، حتى أن السلطان أرسل قائدًا موريسكيًا آخر، الدوغيلي، مع ألفي جندي أندلسي مسلح أطاحوا بسيدي حامو وأعادوا إرساء السلام في تطوان.

يحتفظ مصدر آخر غير منشور بآثار هذه الأحداث، مؤكدًا أخبار مارمول. إنه تاريخ سبتة، الموقع البرتغالي القوي الذي كان قريبًا من مسرح الأحداث، و بالتالي فهو شاهد على الكثير من الأحداث وسجل للشخصيات التي تتحرك على الحدود التطوانية. قام كوريا دي فرانكا كاتب هذا التاريخ، الذي كتبه في منتصف القرن الثامن عشر، بتعريف و وصف إعادة إنشاء تطوان بواسطة المنداري وأتباعه الغرناطيين، و ذلك في طبعة مارمول، لكنه – كمؤرخ سبتي – يضيف المشاهد البارزة التي حدثت في الموقع، عامًا بعد عام، والتي لم يصل أي منها أو يستطع الوصول إلى مسامع مارمول كارباخال بسبب صداها المحلي الضيق: على سبيل المثال، لجوء الحكام التطوانيين إلى سبتة عندما كان يقترب منهم الخطر المميت. إنها حالة كثيرة التكرار، كما سنرى، في التاريخ السياسي المغربي المضطرب.

يذكر المؤرخ السبتي، ناقلاً عن مارمول، لأول مرة سي حاموس Si Hamus(sic) كحاكم لأحد الأحزاب، وبعد ذلك يتحدث عن تطوان قائلاً:" كانت مأهوله بالكثير من اليهود التجار والمسلمين الأندلسيين من عائلات بألقاب كارديناس Cárdenas و كابريرا Cabreras ومندوثا Mendozas ولوكاس Lucas وبايس Paes وأوليباريس Olivares وآخرين كانوا يحتفظون بأدوارهم وأوراقهم، على أمل أن يصل الوقت الذي يساعدهم في امتلاك منازلهم، والتي يقولون إن المسيحيين احتلوها ظلمًا"(٧) .

تُنقل المفاتيح الشهيرة، التي حفظها الموريسكيون لبيوتهم الإسبانية، هنا في الوثائق التي تثبت ملكيتهم إياها.

فيما يتعلق بالمغرب وبالتحديد بتطوان، كان المؤرخ التطوانى الشهير محمد داوود يؤكد أنه لم ير مطلقًا هذه المفاتيح ،ولم يعرف أنها كانت لدى أحد. نحن نضيف أنه من الممكن أن يكون لدى بعض العائلات وثائق أو أوراق، كالتى أظهرتها لنا ذرية الحضرى فى الشاون، ولكن ليست مفاتيح. من الغريب أن هذه الأوراق التى نعرفها هى صلوات مكتوبة باللغة الإسبانية ولكن بحروف عربية. هل كانت اللغة الأعجمية aljamiado تستعمل بين الموريسكيين المنفيين إلى تطوان والشاون؟ لم نستطع أن نكشف وثائق أخرى غير المعروضة قبل ذلك ولا آثارًا أكثر أو خبرًا يفيد استخدامها، بالرغم من أننا نفترض أنه فى حالة وجودها سيكون الموريسكيون هم من فعلوا ذلك فى الفترة الثانية من الهجرة الموريسكية(*). يذكر كوربيا دى فرانكا مرة أخرى حامو كقائد تطوان فى أغسطس ١٥٦٢ (٨) .

يظهر كل من تاريخ ١٥٦٢ وحامو القائد التطوانى كذلك فى وثيقة من ذلك العصر(٩) . ولدينا أخبار عن حسن، وريث المندارى، فى نهايات عام ١٥٥٨ (١٠) . لذلك فإن الصراعات الأهلية التى حكى عنها مارمول حدثت بين عامى ١٥٥٨ و ١٥٦٢ وليس فى عام ١٥٦٧، كما يؤكد كاتب عصر النهضة.

بقى سيدى حامو عدة أعوام حاكمًا للأمة الموريسكية الغرناطية التطوانية، وربما كان عام ١٥٦٧ هو تاريخ خلعه ونفيه إلى فاس، كأسير للشريف. يعطينا فرانكا أخبارًا غير مسبوقة عن الشخصية: سيدى حاموس (هكذا ورد الاسم) **Zidi Hamus** هرب من فاس وجاء إلى سبتة، فى عام ١٥٧٠ وركب سفينة كوسمى لورينثو **Cosme Lorenzo** وعبر إلى طنجة، فى سفينة أخرى كانت معه، لم يبلغ أمر مفاوضاته إلى أنصاره المقربين(١١) .

تبدو لنا جديدةً كذلك المعلومات التى أدرجها كوربيا فرانكا فى الخبر السابق وهى:... فى عام ١٥٦٩، الذى أبحرت فيه السفن والمراكب الشراعية التى طلبها مسلمو

(*) ليس هذا الاحتمال بعيدًا، فالموريسكيون الذين حرموا من التحدث بالعربية فى إسبانيا كانوا يجيدون الإسبانية فقط و قد درسوا الفقه الحنفى فى تونس مترجمًا إلى اللغة الإسبانية. أنظر المخطوطة ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية. (المراجع)

مملكة غرناطة، من تطوان بأمر ملك فاس لكى تحرض موريسكيى جبل روندا Ronda والبشرات Alpujarra لكى يحدثوا شغبًا فى نفس الوقت... (١٢).

تتناول، كما نستطيع أن نرى، المساعدة التى طلبها الموريسكيون الثائرون فى نهايات عام ١٥٦٨ والتى حاول إخوانهم من تطوان إعطاءهم إياها، عبر الطريق البحرى باستخدام سفن القرصنة التى لديهم. سوف يُذكر اسم رئيسين أو قائدين لهذه المراكب بعد ذلك: الرئيس كالافات Calafat المرعب والرئيس روخو الشجاع Rojo (١٣). كلاهما ذو رنين إسبانى إسلامى واضح فى أسمائهم.

نترك حاليًا تاريخ سبتة الذى كتبه فرانكا، لكى ندخل فى وثيقة أخرى جديدة تقدم معلومات أكثر عن المجتمع الموريسكى، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر.

هى الأوراق التى تقدم حسابات الافتداء الذى تم فى تطوان عام ١٥٧٩ ، حيث كانت المدينة لا تزال مليئة بالموريسكيين، لكنهم لم يكونوا يختارون سلطتهم العظمى، بل كان يقيمها الشريف سعدى حاكم البلد.

النصف الثانى من القرن السادس عشر.

إن افتداء عام ١٥٧٩ فريدٌ لأسبابٍ متعددة، ففى المقام الأول هو أول افتداء يتحقق فى المغرب بعد هزيمة الملك سباستيان D.Sebastián فى معسكرات القصر الكبير، فى أغسطس عام ١٥٧٨ . فى هذه المعركة لم يسقط سجناء محاربون برتغاليون فحسب، ولكن سقط آخرون، من جنسيات أخرى وبطبيعة الحال، من الإسبان الذين كانوا يرافقون الجيش المهزوم، و قبض عليهم المغاربة، و قد ملأ العبيد المسيحيون المدن، وبالأخص العواصم الأساسية. شهدت مراكش وفاس وبالأخص سوق تطوان تدفق ثروات كبيرة من المال والبضائع كثمن للافتداءات المتعددة. جمع افتداء عام ١٥٧٩ أحد الأرصدة الأكثر أهمية فى تاريخ الافتداءات، و وصل مجموع الإيصالات فقط للمبالغ المدفوعة إلى ٦٨,٤٩٨ أوقية من "عملة إفريقيا"، أى ما يعادل ٤ ريال قشتالى

للواحدة، أى ٢٧٣,٩٩٢ ريال أو ٩,٣١٥,٧٢٨ مرابطى. والذى يجب أن يضاف إليه تكاليف السفريات والإقامة والانتقالات، إلخ .

كان حقيقيًا وجود نوع من المراجعة للحسابات المقدمة من قبل رجال الدين، لكن حتى مع خفض تُسع هذا المجموع، فالقائمة مازالت جديرة بالاحترام. من ٦٥ سيداً تقريبًا، كان هناك ثمانية من فاس و واحد من القصر الكبير، و هو ما يشير إلى أسبقية تطوان كسوق وكبؤرة أساسية للافتداءات فى ذلك الوقت.

مع ذلك نلاحظ استمرار وجود أمة موريسكية فى القصر الكبير، كما لاحظنا فى وثيقة سابقة.

وصل عدد ملاك الرقبة الآن إلى ٦٥، فى مقابل السبعة عشر مالكًا الذين ظهروا فى أول افتدائين. و الحقيقى أن عدد السكان كان يزيد بطريقة غير قياسية، ولكن أيضًا من المؤكد أنه أهلكته كل أنواع المصائب، من بينها الأوبئة الرهيبة.

لدينا مثال على ذلك، و هو مرض الطاعون الذى عانى منه التطوانيون فى عام ١٦٧٧، والذى انقرضت بسببه ٧٧ عائلة موريسكية فى المدينة.

اختفت ١٩ عائلة أخرى على طول القرن السابع عشر[١٤] . و مع ذلك، ففى النصف الثانى من القرن، كان يجب أن يكون التكتل المدنى ذا أهمية. يتحدث بعض شاهدى العيان عن ذلك. حُمِل أحد البرتغاليين أسيراً فى معركة القصر الكبير، إلى تطوان، و قد وصف المدينة هكذا :" ... هذه البلاد هى الأكثر قذارة فى البلاد الموجودة اليوم. لا توجد حظيرة مواشى مثلها، والمنازل عامة حقيرة جدا. إن جموع الناس كبيرة جدا لدرجة أنه لا يوجد ثقب دون حشد من الناس..."[١٥] .

مع ذلك لم تكن طرق الإنتاج تزيد بمعدل زيادة السكان.

يجب تذكر ما قلناه فى مناسبة أخرى عن " طريقة حياة " التطوانيين، التى كانت تدور حول القرصنة.

الآن نرى أنه يبدو أن قاعدة الهرم لملاّك الرقبة قد اتسعت، مقارنة بالافتدائين السابقين، لكن نعتقد أن هذا فقط كان اتساعًا خادعًا، لأن هذا الافتداء حدث بعد انتهاء الحرب الأهلية التالية لثورة البشرات العظيمة والتى سببت نزيفًا فى السكان الموريسكيين عند عبور عائلات كثيرة :"إلى الجانب الآخر" وأحيانًا أصبحت قرى بأكملها خاوية.

غذى سيل الهجرة الوافدة بالأخص ريف ومدن المغرب. كانت خطوات الهجرة عامة سرية، بقوارب ذات حمولة صغيرة، وبالتالى كان السفر للسواحل المواجهة محددًا حتميًا بمسافات صغيرة وهى تلك الموجودة بين المملكة الغرناطية القديمة وسواحل المغرب. مع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هروب الموريسكيين، و أغلبيتهم من الأندلسيين، إلى بلاد البربر كان مستمرًا إلى حدٍ ما ومتزايدًا بداية من تواريخ محددة فى القرن السادس عشر وأنه، قبل ثورة ١٥٦٨، زادت أحوال الاستبداد التى كانوا يعيشون فيها من رغبات الأقلية المهمشة فى تغيير البيئة، إلى بيئة أخرى أكثر توافقًا مع معتقداتهم الدينية.

ظهر فى أرشيفات الحمراء الغرناطية، فى عام ١٥٢٩، أول سند لماركيز مونديخارMondéjar يقضى بتخصيص الممتلكات المصادرة من موريسكيين هاجروا إلى بلاد البربر للاحتياجات العسكرية للدفاع عن مملكة غرناطة. كانت الهجرة إلى بلاد البربر تعتبر جريمة و لهذا فإن ملفات القضايا الخاصة بتلك الجرائم كانت تحفظ فى الأرشيف المذكور، و يلاحظ وجود حالات متفرقة من الهجرة فى النصف الأول من القرن السادس عشر، و قد تزيد الحالات فى العدد كلما مرت أعوام النصف الثانى من القرن، بحيث أنه، على سبيل المثال قبل ثورة ٦٨ بقليل، أى فى عام ١٥٦٠ والأعوام التى تليها، كثرت قضايا ومصادرات عابرى الحدود، بمجموع عدة عشرات فى ١٥٦٠، والتى يجب أن يضاف إليها الأشخاص الذين لم تُسجل تحركاتهم لعدم تركهم ممتلكات للمصادرة فى أى دعوى مكتوبة. هذا يعنى بوضوح زيادة السكان الموريسكيين فى المغرب القريب، وقد انعكس ذلك، بطبيعة الحال، فى الأنشطة التى مارسوها ومن بينها القرصنة فى تطوان.

لا يجب أن نتعجب، إذن، أنه من السبعة عشر مالكًا في عملية الافتداء الأولى، تجاوز العدد الآن إلى أكثر من ٦٥ مالك رقبة، بالرغم من تمركز غالبية نسبة الثراء في أيدي قليلة كالمعتاد.

في هذا الصدد يجب علينا أن نوضح أن عائلة المفضل، الأب والابن والابنة، قد نالت في هذا الافتداء نسبة ٢٣٪ من المجموع الكلي، و قد تجاوزوا بذلك القائد نفسه وأخاه، اللذين وصلا فقط إلى نسبة ١٤٪. قويت عائلة المفضل، بناءً عليه، كحكام أساسيين في تطوان، عند اختفاء قادة الأحزاب التي كانت تتنازع الحكم في المدينة، وهم أفراد أبوحسن وأفراد أبو علي، كما يدعوهم مارمول. من المسموح لنا أن نفترض أن مفضل هذا ليس هو نفسه، لكنه سليل لذلك الشخص الذي نجده في افتداء عام ١٥٢٣ . تابع مفضل نجمه الطالع خلال أعوام كثيرة. وقريبًا، في الثلث الأخير من القرن السادس عشر، سنسجل اقتناءه، في افتداءٍ واحد، لثروة حقيقة، تقدر بـ ١١,٥٤٥ أوقية أو ١,٥٧٠,٠٠٠ مرابطي، دون الاعتماد على الـ ٤,٠٠٠ أوقية تقريبًا والتي منحها لأولاده والتي يبلغ مجموعها أكثر من ٢ مليون مرابطي، أودعت في خزائن العائلة. إنها ثروة حقيقية، بالنظر لتكلفة الحياة آنذاك.

إن القائد التطواني ذاته لم يكن موريسكيًا في ذلك التاريخ، وقد عينه أحمد المنصور، الذي- على الأخص بعد انتصاره على البرتغاليين وتعزيز مكانته الأدبية أمام أقرانه – لم يتساهل إزاء أي رغبة استقلالية. هذا القائد، بجانب أخيه، كان له ١٤٪ من المجموع. و كان للحاكم ذاته إلى جانب ذلك مجموعة من ٣٦ أسيرًا مناصفةً مع مفضل.

نتفق، لذلك، أن مفضل كان الرجل الأكثر نفوذًا في المجتمع التطواني، ربما أكثر من الحاكم نفسه. لكن لما كان المجتمع التطواني يتميز بالنشاط الحربي سواء في البحر، أو في البر ضد البرتغاليين من سبتة، فيمكننا أن نفترض بحق أن عائلة مفضل هذه كان بها محاربون متميزون. سنؤكد فيما بعد هذا الافتراض .

يوجد موريسكي آخر، بوتايبو Botaibo، حصل على أكثر من ١٠٪ من مجموع الافتداءات. تجاوز الـ ٩٠٠,٠٠٠ مرابطي. استطاع كل من بوتايبو و مفضل، النجاة

بعد الصراعات الأهلية، التى أنهكت أفضل طاقات الموريسكيين الإسبان فى المنفى، والحفاظ على ثرواتهم وقدرتهم السياسية. سوف يكون لدينا أيضًا أخبار عن بوتايبو هذا فى أعوام متتالية.

كان لمفضل فى الافتداء الحالى فى عام ١٥٧٩ منصب محصل الضرائب الأكبر لملك فاس. لم يكن لبوتايبو أى منصب بالرغم من أنه يبدو أنه يتصرف كممثل حقيقى. ربما كان لدى هؤلاء الموريسكيين بمناصبهم سلطة تنفيذية أكثر من الحاكم المعين من قبل البلاط الذى كان يعتبر مشرفًا بحتًا ومراقبًا لرغبات الموريسكيين الاستقلالية.

طوال استمرار سلطة و مكانة المنصور ستخفى تطوان و الموريسكيون المقيمون بها رغباتهم فى الاستقلال.

ليس مفاجأة فى عام ١٥٧٩ أن نتقابل مع اليهود فى أعمال الافتداءات. حيث كانوا يشاركون بنسبة ١ إلى ٨ مع زملائهم فى المنفى. يوجد شخص يدعى بوكايتى Bocaite جمع ٢٧, ٤٪ من مجموع المبالغ التى دفعها المفتدون وهو ما يساوى ٣٩٦,٨٠٠ مرابطى. هناك يهودى آخر، واسمه بيمينتا Pimienta حصل على ٢١٧,٦٠٠ مرابطى، بالإضافة إلى العمولات التى كان يقبضها كسمسار، حيث كان يعمل فى بيع المسيحيين لحساب أسيادهم الموريسكيين.

يُظهر لنا خمسة يهود آخرين وخمسون من الموريسكيين كأقلية برجوازية تحارب من أجل التفوق.

بعض المؤشرات الاقتصادية تكفينا لكى نقدِّر حجم الثروات العظيمة التى كانت تُجمع من بيع العبيد والدخول الخالصة التى ليس عليها ضرائب.

تم إثبات ٣٦ ريالاً فى أحد كشوف الحساب أنفقهم كاتب الافتداء وأحد المغاربة، خلال اثنى عشر يومًا فى تطوان، أى ما يساوى ثلاث ريالات يوميًا للاثنين و ٥١ مرابطيًا يوميًا لكل منهم (١٦) .

يشرح كشف حساب آخر أن الأب لويس، أحد المفتدين، سقط مريضًا، وبسبب ذلك كان يتبع نظامًا غذائيًا خاصًا، بتكلفة ٥٢ مرابطى يوميًا. حصل الطبيب على ٢ ريال يوميًا، أى ٦٨ مرابطى(١٧) .

نتخيل القوة الشرائية لمحصل الضرائب مفضل، بالمليون ونصف مرابطى التى دخلت فى هذا الافتداء. من الحقيقى أن الفرصة غير العادية لكارثة القصر الكبير قد وقعت كهدية من السماء، و قدمت افتداءات كبيرة سواء من الجانب البرتغالى أو القشتالى. لكن هذا السيل توقف، ففى عام ١٥٨٣ هناك وثيقة افتداء أخرى يقل فيها عدد ملاّك الرقبة بدرجة محسوسة[١٨] . عشرون بالكاد: ثلاثة منهم من فاس وثلاثة آخرون من القصر الكبير. هذه البلدة التى حدثت فى ضواحيها المعركة المفجعة بالنسبة للبرتغاليين والتى سجلنا فيها مجموعة من المنفيين من الموريسكيين ومن اليهود[١٩] .

كان بعض ملاّك "البضاعة"، فى هذا العام ١٥٨٣، يعتبر نموذجًا للسوق الذى كانت عليه تطوان: رئيس مركب شراعى حصل على ٤٥٨ أوقية و هناك أتراك فى بعض السفن الشراعية وضعوا فى جيوبهم مجموع ١٤٢٨ أوقية.

حصل الحاكم الذى لم يُذكر لا جنسه ولا اسمه، كما هو مألوف، على شىء يسير. تلى الحاكم، الذى وصل إلى نسبة ٢٠٪ من الإجمالى، شخصيتان موريسكيتان معروفتان فى افتداءات سابقة. أحدهم هو بوتايبو، بنسبة ١١٪، والآخر هو مفضل الذى تجاوز قليلاً نسبة ٩٪.

حصل الحاكم على ٦,٩٥٨ أوقية كانت تعادل فى ذلك الوقت ٣,٥ ريال للأوقية فيكون المجموع ٢٤,٣٥٥ ريال. وحصل كذلك على هدية إضافية من سرير بلوازمه، اشتراه له رجال الدين فى سبتة، كلفهم ١٠٦ أوقية. هذه بادرة كان معتادًا أن تحدث.

حصل بوتايبو على ٣,٧٧٩ أوقية أو ١٣,٢٢٦ ريال، و هو مبلغ كاف لكى ينفق أكثر من ٣٦ ريال يوميًا خلال عام وكان بقدور محصل الضرائب مفضل أيضًا المعيشة اليومية بـ ٣,٢٠١ أوقية التى حصل عليها من البيع، فى هذا الافتداء لعام ١٥٨٣ ، حصل يهودان، أليبو Alillo وماماياس Mamias على أكثر من ١٠٪ من الإجمالى، أى ٤,٠٨٢ أوقية تقريبًا.

حصل يهودى آخر، وهو بيمينتا المعروف، على أكثر من ٣٪ ، ولكن كان يعمل، بالإضافة إلى ذلك، كسمسار للكثير من الافتداءات، و كان يحصل بذلك على عمولات كثيرة.

فى هذا العام ذهب إلى السوق أربعة أفراد فقط من الجالية العبرية، بالرغم من أن نسبة الثروة المقتنية هى، تقريباً، نفس الثروة فى الافتداء السابق. كان ماماياس (من القصر الكبير) إلى جانب بيمينتا هم تجار الجملة الذين قبلوا بكل سهولة البضاعة التى يحملها المفتدون، بدل العملات النقدية والتى كان يفضلها الموريسكيون. منطقيًا فإن الصناديق المملوءة بعشرات القلنسوات المتعددة التى كان يحصل عليها صمويل بيمينتا كثمن لافتداء الأسرى، لم تكن لاستخدامه الشخصى وكان يعرضها للبيع لاحقًا.

بين ملاّك الرقبة فى فاس، والذين كانوا يحملون عبيدهم إلى تطوان، ظهر أحد الموريسكيين، ويُدعى بينانى Benani، وقد حصل على ٧٪ من الإجمالى. من المحتمل أن المفتدين لم يكونوا يذهبون إلى فاس بنفس التكرار كما يذهبون إلى تطوان.

نتذكر أنه فى النصف الأول من ذلك القرن، نفذ الأب كونتريراس افتداءه الأول فى المغرب، فى فاس نفسها، ولكن عند عودته من العاصمة المغربية وبينما كان عابرًا من تطوان، اقتنع بأنه كان يجب أن يركز نشاطه فى تطوان، وقام بذلك فعليًا حتى موته.

لقد بحثنا إلى هنا المعلومات التى قدمتها لنا أربع وثائق افتداءات من القرن السادس عشر. سوف تكمل لنا وثائق أخرى غير منشورة الرؤية التى يمكن أن نستخرجها عن المجتمع الموريسكى فى المغرب، على الأخص، عن النواة، شبه المستقلة عبر وقت طويل، التى كونتها تطوان والشاون فى شمال المغرب.

إن البرتغاليين السبتيين الذين كان لديهم منذ غزو المدينة عام ١٤١٥، حرية كاملة تقريبًا لتحركاتهم تجاه جنوب وغرب البلد، حتى مع هدم تطوان القديمة فى عام ١٤٣٧، قد شاهدوا نهضة بعد ذلك بنصف قرن، على يد الموريسكيين الغرناطيين الذين أعادوا إنشاءها و بناء أسوارها وأبراجها. أعاد نفس هؤلاء الموريسكيين تجديد أنشطة القرصنة من نهر مارتين، على بعد ١١ كيلو مترًا من تطوان وكوّنوا مجموعة حربية

أرهقت حامية سبتة، و سببت لها خسائر قاسية وبالأخص، منعت البرتغاليين من غزو الأرض كما كان يحدث عبر عشرات السنين.

إن الأخبار البرتغالية للعصر مليئة بمآثر هؤلاء و هؤلاء: عائلة مينسيس Menses وعائلة المنداري و عائلة نورونيا Norona وعائلة حسن و عائلة نابو Nabos وعائلة مفضل. إن الحروب التطوانية فقط، والخيانات المأساوية بين الموريسكيين التي كانت تطيل من الانقسامات في غرناطة، قد خففت جزئيًا من الضغط الذي كانت تعاني منه سبتة، بسبب ظهور هؤلاء المنفيين في وادي مارتين.

تحت السيطرة السعدية، وأيضًا المنصور، لم يتحرك التطوانيون كثيرًا لا ضد السلطة المركزية ولا ضد بعضهم البعض، و استمروا عادةً، خلال ما تبقى من القرن السادس عشر، في العدوان ضد سبتة، لأن عدوان الأخيرة عليها أيضًا لم يتوقف. لذلك كانت هناك دائمًا نواة حربية، مجموعة أكبر أو أقل من محاربين مدربين، في تطوان، إما للدفاع وإما للهجوم، و كوّنوا فيما بينهم، داخل كل المجتمع الغرناطي التطواني، مجموعة اجتماعية، متماسكة كثيرًا، كانت لها تأثير حاسم أحيانًا في سير الأمور بالمدينة.

نرى ما يحكيه مؤرخ تطواني معاصر عن ميلاد قيادة وقائد، بالتحديد في أواخر القرن السادس عشر هذا، عندما لم يكن أحد يفكر في التحرك و تجاوز المغرب الذي يحكمه أحمد المنصور.

يقول محمد داوود إنه جاء زمن كان فيه سكان الجبال المحيطين يضايقون سكان تطوان، وأساسًا قبيلة واد- راس، و يهاجمون الطرق، ويسلبون الممتلكات و يسببون للمدينة أضرارًا جسيمة بوجه عام. كوّن طالب من المدينة، يُدعى محمد النقسيس، مجموعةً من المدنيين المستعدين لإنهاء هذا الموقف الشاذ. طلب محمد قوات كاملة وأعطوه إياها. حينئذ لجأ إلى المقدم أو القائد الذي كان يرسل القوات التطوانية ضد البرتغاليين من سبتة، والذي كان من عائلته، و هو أحمد بن عيسى النقسيس، وسريعًا ما أنهوا الثورات و سيطروا على البلد بأمن وهدوء.

احتفظ القائد محمد النقسيس بحكومة تطوان حتى موته من عام ١٥٩٧ حتى ١٦١٠ [٢٠]، أخذ داوود هذه المعلومات من اسكيرى وايرهونى، و هما مؤرخان تطوانيان آخران، ، تتناول هذه المعلومات توضيح أصل سلطة أفراد النقسيس. تتحدث، كما نرى، عن سيطرة مجموعة حربية، تستخدم قوتها، أولاً لفرض النظام، و ثانياً للحفاظ عليه.

الخبر ليس بعيداً جدا عن الواقع، بالنسبة للحكومة المركزية، والتى يرأسها "الذهبى" ، و كان هذا هو اسم السلطان الذى انتصر فى الموقعة.

يقدم لنا أحد المصادر المباشرة أصل شهرة و ربما سلطة أفراد النقسيس، ويصحح التسلسل الزمنى الذى قدمه داوود.

يقول لنا الغفرانى، الخطيب المداح وكاتب السيرة الحقيقى لأحمد المنصور، و هو يعلق على أحداث مملكته:" فى شهر ذى القعدة ٩١٦ (من ٢٢ سبتمبر إلى ٢٢ أكتوبر من ١٥٨٨) شرع المنصور فى القيام برحلة. أخبروه خلال الرحلة أن المسيحيين قد تم مفاجأتهم أمام سبتة.أعدّ أحمد النقسيس، رئيس الحملة الموجهة ضد المسيحيين، كميناً، و كان هو على رأس الفرسان. خرج سكان سبتة من الميدان مع أبنائهم وخدمهم. اتخذ المسلمون موقعاً بين المسيحيين وسبته، وبعد قليل استولوا على المدينة"[٢١] . من المحتمل أن هذه المأثرة المؤرخة فى خريف عام ١٥٨٨ هى التى استهلت عصر النقسيس فى تطوان. نسبت المصادر التطوانية نفسها أصل هذه العائلة لقبيلة ليست بعيدة: نقاقسة بنى عِدر [٢٢] .

مع ذلك، فليس لدينا مجال للشك فى أن عائلة النقسيس ما لبثت أن ارتبطت بعائلات موريسكية من المدينة، هذا إذا لم تكن عائلة النقسيس نفسها موريسكية فى الأصل.

على أى الأحوال فإن أفراد النقسيس أنفسهم يمثلون العبور من فترة غرناطية صافية فى المدينة التطوانية إلى فترة أخرى تتميز باختلاط العناصر، دون أن يؤدى ذلك إلى فقدان التقاليد الأندلسية القوية التى كانت تنطبع على مدى قرون فى المدينة.

يؤكد مؤرخ من الحزب المعارض- و هو كوربيا دى فرانكا- التاريخ والأحداث المروية فى كتاب الغفرانى حيث يقول عن الكارثة التى عاناها السبتيون فى ٩ من ديسمبر ١٥٨٨ إنه سقط ٢٠٣ شخصًا كأسرى فى سلسلة جبال معسكر سبتة، من بينهم ٣٥ طفلاً و١٢ خادمًا، واحدٌ منهم أسود.

أرسل حاكم سبتة أحد القادة إلى تطوان لكى يعالج موضوع الافتداء، "مع القائد مفضل"[٢٣] . لم يتحدد فى الخبر الوارد من سبتة إذا كان مفضل هو أعلى سلطة تطوانية أو كان هناك قادة آخرون، لأنه قبل شهور قليلة، فى أبريل ١٥٨٨، تحدث كوربيا عن شخص يدعى حامد بن بكر قائدًا لتطوان[٢٤] .

طلب المغاربة مبالغ خيالية لتحرير هؤلاء الأسرى. طلبوا ١٦٠,٠٠٠ أوقية. و فى نهاية الأمر، فى أكتوبر ١٥٩٤، افتدى اسقف سبتة مع "حامد بن عبدالله، قائد القصر وتطوان والعرائش و أرسيلة" ١٦٥ أسيرًا بثمن ٧٥٠ مرابطى من الفضة لكل واحد، وبقى ٥٠ أسيرًا دون افتداء و مات ٢٨ . هذا يعنى أن الأسرى كانوا مستمرين فى الوقوع. فى هذه العملية الأخيرة كان حامد بوتايبو هو الضامن [٢٥] .

ظهرت أسماء الشخصيات التى اشتغلت بالافتداءات كذلك فى أخبار كوربيا. سيتحدث فيها أيضًا عن أفراد النقسيس، حيث يؤكد لنا الكثير من الأحداث الواقعة فى المدينة المجاورة وكذلك سيحكى لنا أخبارًا غير موجودة فى أى وثيقة أخرى. استطعنا بفضلها وبفضل وثائق الافتداءات أن نوضح مظاهر غير مسبوقة للمجتمع الموريسكى خلال القرن السادس عشر.

سنستمر مع وثائق أكثر لكى ندخل فى القرن السابع عشر، و نتامل كيف تطور هذا المجتمع.

القرن السابع عشر

سيطر على القرن السابع عشر فى تاريخ الموريسكيين فى المغرب قرار الطرد الحاسم الذى أُتخذ فى شبه الجزيرة بداية من عام ١٦٠٩ .

انتشرت موجة جديدة من الأشخاص والعائلات الموريسكية عبر كل شمال إفريقيا، بوجه عام، وفى المغرب بصورة خاصة.

فقدت المغرب، عند موت المنصور فى عام ١٦٠٣، وحدتها وهدوءها، وعادت إلى حالة الفوضى الأبدية للعصور الوسطى. تنازع أولاد الذهبى العرش، ولذلك، تشكلت مملكتان؛ مملكة مراكش ومملكة فاس. تزايد نفوذ القادة الدينيين الذين كانوا، فى الواقع، سياسيين، والذين حاولوا أن يرتقوا لكى يصلوا إلى أعلى سلطة للسيطرة على البلد. إن زاوية ديلا Dilá، من جانب، و المرابط العياشى من جانب آخر، ، بالإضافة إلى السلاطين، سيساهمون جميعًا فى التشويش والفوضى التى عمت. هذا هو، فى الخلاصة، المنظر العام الذى سيجده الموريسكيون الذين وصلوا إلى المغرب للبحث عن الملجأ وعن الوطن الذى كان ينكرهم فى شبه الجزيرة.

كلما كانت تزيد الفوضى، فى القرن السابع عشر، كانت تتزايد احتمالات استرداد الاستقلالية الماضية التى كان ينميها كبار الحكام التطوانيين. سوف يجعل واحد منهم – و قد اعتمد على النخبة الحربية – من نفسه مالكًا مطلقًا للمدينة، و يطيل بقاء هذه السلطة بين أفراد عائلته و يجعل من تطوان بؤرة للمكائد الأوربية، البريطانية بشكلٍ أساسى، والتى تتدخل فى الشئون المغربية، فى نفس الوقت الذى زادت فيه القرصنة وتوافد الموريسكيين إلى هذا الجزء من البلد.

فى نفس الوقت تقريبًا تشكلت فى الجنوب نواة مستقلة أخرى ذات تركيز موريسكى: هورناتشيون وأندلسيون، و كونت مدينة الرباط وأقامت فيها جمهورية مستقلة، و هى ظاهرة سياسية درسناها فى مكان آخر.

ينقص فى الشمال المغربى دراسة التطور السياسى والاجتماعى، فنحن لدينا معلومات أقل لكى نستطيع أن نفعل ذلك. سنحاول حاليًا، باختصار، إلقاء نظرة على الوثائق الموجودة، و نؤجل فحص هذه الوثائق بإمعان.

قبل قرارات الطرد نلتقى مع حسابات الافتداءات لعام ١٦٠٧ . نجد فيها أنه فى نوفمبر لهذا العام كتب أحمد النقسيس إلى القائد العام لسبتة أنه إذا لم يتم افتداء

عبيده فإنه سوف يعطل الافتداء ولن يترك أى أسير إسبانى يخرج من المدينة[٢٦] . مازال يظهر كمقدم، أى رئيس حربى، ولكن هذه الرسالة هى دليل على السلطة الحاسمة التى لديه أمام أى شخص آخر موجود فى تطوان كممثل للحكومة المركزية. ظهر قائد فيها وهو على غودوير، مالك أيضًا للعبيد. نستمر فى مشاهدة بوتايبو ومفضل، أو ذريتهم، وفى حوزتهم عدد كبير من العبيد.

بعد ذلك بعامين، فى ١٦٠٩، عام قرارات الطرد الأولى، هناك وثيقة افتداء يظهر فيها مرة أخرى أسرى لحامد النقسيس مقدم تطوان، وآخرون لحامد مفضل Amete Monfadal، دون ذكر أى قائد [٢٧] . مع ذلك، فى عام ١٦١٥ ، شهد كاتب الافتداء على وجود شخص يدعى مؤمن عمار Mumen Amar، القائد الأكبر أو القائد مؤمن، دون أن ينسى النقسيس المقدم[٢٨] .

مازال أفراد النقسيس يحتلون السلطة التطوانية ومرت بعض الأعوام وهم يشاركون فى حكومة المدينة، على الأقل إسميًا، مع القائد المعين من فاس. تختلف أسماء "السادة". ربما يكون بعض الذين ظهروا فى الوثيقة من الموريسكيين الذين وصلوا حديثًا. مثل حامد كارديناس أو إيرنان شانييث Hamete Cárdenas o Hernan Xaniz ، والذى يوصف بوضوح أنه من "الأندلس".

من الغريب أن نلاحظ فى الوثيقة الأخيرة غياب عائلة مفضل القوية والموجودة فى كل مكان. يقدم لنا كوربيا دى فرانكا التفسير الممكن فى أخباره عن سبتة، و يصف لنا واحدًا من المشاهد التى كانت غير متكررة فى حياة الحدود التى حدثت بين تطوان وسبتة. يقول كوربيا إن رجلاً من سبتة قَدِم عدة مرات إلى تطوان لكى يتحدث مع حامد مفضل وأعاد عليه القول أن يذهب معه إلى سبتة مع عائلته وبعد ذلك نقله إلى مدريد حيث نال التعميد المقدس مع كل من كان يتبعه و قد أسموه رافائيل دى مينسيس Ra-fael de Menses... [٢٩]. يوضح الحدث، الواقع فى ١٦١١، غياب اسم المفضل من وثيقة افتداء مع أن الوثائق لا تخلو من اسمه منذ ١٥٢٣ . بالرغم من هذا الانشقاق المؤلم فإن أفراد المفضل لم يختفوا كليًا بل سوف تكتب أسماؤهم مرة أخرى، فى كتابات الافتداء وفى الأخبار السبتية حتى العقد السادس من القرن السابع عشر.

ننهى هذا الفصل بالحديث عن وثيقة أسرى أخرى لعام ١٦٢٥ .

من افتداء عام ١٦٢٥ يمكننا استخلاص بعض الملاحظات المهمة للدراسة الحالية. فى المقام الأول نلاحظ أنه كان الافتداء الوحيد الذى تحقق عن طريق طنجة، بدلاً من استخدام سبتة كما كان معتاداً، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأكثر سهولة من الناحية الإدارية.

لم يتوغل الآباء المفتدون أيضًا فى "دولة عدوة للدين" لكنهم بقوا فى مسكنهم فى طنجة، حيث كانوا يقابلون المفوضين المختلفين للإتفاق على بيع الأسرى.

إن اسم وتمثيل هؤلاء المفوضين لهو التعبير الحقيقى عن اللحظة التى تعيشها المغرب والأمة الموريسكية، والتى بقى بعض أفرادها أكثر من عشر سنين فى البلد. ننقل مرة أخرى واحدةً من الكشوف التمهيدية لكاتب الافتداء سالبادور دى سيثيليا Salvador de Sicilia، "من سكان مدينة لوخا Loja":

"فى مدينة طنجة، فى الأول من فبراير من عام ١٦٢٥، وصل إلى مكان الآباء المفتدين كاسيمى دى كارديناس Cacimi de Cárdenas، والذى كان يسمى هكذا وكان مغربيا أندلسيًا وسكرتيراً للمقدمين، أبناء النقسيس، حكام تطوان، ومعه مسلمون آخرون من تطوان، و يقال إن بعضهم من أصل تطوانى والآخر من أصل أندلسى"(٣٠) .

هناك وثائق لهذا العام ١٦٢٥ متعلقة بموقف تطوان وأفراد النقسيس. من أكثر هذه الوثائق أهميةً رسالة من هاريسون Harrison، و هو وكيل إنجليزى فى المغرب، كتب فى ٢٠ من يوليو من نفس العام، و تحدث عن وصوله إلى تطوان فى الثالث من يونيو بعد أن حصل على جواز مرور من المقدمين يعلموه فيه موت والده الذى حدث مؤخراً. كان ثلاثة قادة فى الخارج على رأس المشاة والفرسان ضد الحاميات العسكرية لطنجة وسبتة. كان يبقى واحد منهم دائمًا فى حراسة المدينة.

بعد يومين أو ثلاثة أيام اجتمع المقدمون الأربعة واستقبلوا هاريسون فى مظاهر كبيرة من التقدير والصداقة وبالأخص كانوا يتفاخرون بأن وصوله كان مرتبطًا بالأسطول البحرى والذى يجرى إعداده فى إنجلترا ضد إسبانيا. قال له القادة إنه كان

يوجد ثلاثة ملوك وراهبان كبار يتنافسون على البلد، وأهل البلد لم يكونوا يعترفون بأحد، و بأى ملك ما عدا الله، لأن مولاى زيدان كان يظهر قاسيًا وظالمًا فى حكومته وكانوا يفكرون فى البقاء أحرارًا: دولة حرة مثل فينيسيا و هولندا. عرض القادة تقديم عشرة آلاف محارب للملك الانجليزى لمهاجمة سبتة أو أى موقع قريب. كانوا يطلبون من الملك البريطانى شيئين: بارود وإعادة صهر المدافع التى لم تعد صالحة فى تطوان.

تستمر رسالة هاريسون الطويلة جدا بإيضاحات ونصائح متعددة، فمثلا كان يجب أن تحتل إنجلترا سبتة والتى تمدح مميزاتها، وأن يصبح الموريسكيون مسيحيين طوعًا و أنه إذا كان الملك يملك جبل طارق، فإن ذلك سيمكنه من السيطرة على المضايق وعلى قوات الساحل الموجودة الآن فى أيدٍ إسبانية. انتهى هاريسون بإدراج ورقة منفصلة، حيث كتب الموريسكيون جملة تظهر ميلهم إلى الإنجليز. تقول الجملة: " بفضل الرب فإن المغاربة والإنجليز سيستولون على إسبانيا ومع الرهبان والصلبان سيطهون الطعام ويدمرون إسبانيا وسيصبح الكل إخوانًا وسيساعدهم الرب الذين اتبعوا أوامره. والرب فوق كل شىء" (٣١) .

هذا دليل على الحقد لكن، فى نفس الوقت على الحب العميق لإسبانيا التى يرغبون فى عودتها كما هى.

أكد هاريسون فى رسالة أخرى كتبها بعد ذلك أن الموريسكيين كانوا مستعدين لتقديم من ٤٠ إلى ٥٠ ألف رجل، ما بين جنود مشاه وفرسان للحرب ضد إسبانيا. يقول فى بداية الرسالة: "كنت على علاقة بالموريسكيين والأندلسيين المنفيين من إسبانيا وقد اعترف وصرح لى الكثير منهم أنهم مسيحيون فى قرارة أنفسهم. كانوا يشكون بمرارة من عزلتهم القاسية ... و قد رغبوا بشدة فى العودة تحت الحكومة المسيحية"(٣٢) . مع الوصول الجديد للموريسكيين تجددت أيضًا بعض الأسماء من البرجوازية المحلية. نجد كارديناس آخر لا نعرف ما إذا كان هو نفسه الذى ظهر فى تجارة القرصنة فى عام ١٦١٥ أم لا .

يجب توضيح أن كارديناس هذا كان يعمل كسكرتير لعائلة النقسيس، الذين لم يكن يلقبهم فقط بالقادة كما كان يطلق عليهم، ولكن أيضًا بحكام تطوان. كانت المدينة فى أيديهم فعليًا. لقد بدأ فى تطوان عصر عائلة النقسيس، بعد عصر المنظرى، مؤسس تطوان، بفترات من الاضطرابات. يمكن تصور عصر أفراد النقسيس هذا داخل التاريخ التطوانى والسياق العام للبلد كمحاولات أخيرة للمجتمع الموريسكى ضد فقد هويته بالكامل.

يمكن أن نفكر بالمثل بالنسبة لهذا السيل من الأحداث التى استحثت أهل هورناتشوس والأندلسيين مع رغباتهم الاستقلالية فى الجنوب لكى يعلنوا أنفسهم "جمهورية أندلسية"[٣٣]. جاب الهورناتشيون، الأقوياء والخاضعون للظلم، البلد من الشمال إلى الجنوب وعادوا من الجنوب لكى يستقروا فى الرباط. كانت تطوان إحدى مراحلهم الأولى. هنا يمكن أن يبقى أحدهم، على الأقل هذا هو ما يمكن أن يستنتج من تعليقات بعض الافتداءات بداية من افتداء عام ١٦٢٥، يوجد فيها شخص يدعى حامد تاغارينو Hamed Tagarino، يقال إنه من أحد المسلمين الذين طردوا من هورناتشوس[٣٤].

وصل تاغارينو إلى المأوى الطنجى حيث كان يوجد الآباء المفتدون، لكى يسلم بعض الأسرى.

ولكن توجد أسماء أخرى ذُكرت بوضوح فى المخطوط من نفس هذه البلد، وهم بونيتو كاربينتيرو Bonito Carpintero موريسكى من هورناتشوس و بلانكو بولقاسم Blanco Volcacin موريسكى من هورناتشوس والحاكم باشيل Baxel وإبراهيم قاسم Abrahen Cacin، موريسكى من هورناتشوس و حامد ثيرون Hamete Ceron وعلى غالان Ali Galan وكلاهما موصوف أيضًا كموريسكى من هورناتشوس، بالإضافة إلى البعض الآخر الذين سجلهم الكاتب كموريسكيين من القصبة، أى أنه مقيم داخل القصر أو القلعة التى كانت تطل على شاطىء نهر بو ريغريغ Bu Regreg فى سلا رباط والذى كان تحت سلطة الهورناتشيين خلال فترة طويلة.

حصل على غالان والربان باشيل على النسبة الأعلى من الافتداءات لعام ١٦٢٥، حصل غالان على ٢٦,٦٦٨ ريال و حصل باشيل على١٤,٥٠٠ ريال حيث أنه بمجموع ١٤٤,٢٨٦ ريال تعطى نسبة ١٨,٥٪ و١٠٪ على التوالى، حيث يشير ذلك إلى أنه فى الجنوب كانت تتجمع ثروات كبيرة من نشاط القرصنة كما فى الشمال.

فى نفس الوقت الذى أنفق فيه الرهبان فى طنجة، فى العام السابق ذكره، مبلغ ٤,٩٠٥,٧٢٤ مرابطى كان أعضاء جمعية "الثالوث المقدس" يقومون بافتداء قيمته ٣,٩٨٥,٣٤٤ مرابطى[٣٥] .

كان خروج الموريسكيين من إسبانيا أمرًا مكلفًا جدا.

يجب أن نترك بحث المخطوطات الموجودة من القرن السابع عشر و نؤجل ذلك إلى دراسة لاحقة.

رأينا نشاط مجتمع موريسكى محصوراً جدا فى أعمال القرصنة، وكان ذلك يسهل سبل الحياة، على الأقل للزعماء الأساسيين والذين كانوا يصبحون أثرياءً. أيضاً كانت الرؤية للمراكز المدنية محدودة حيث كان يتركز المنفيون. إن الموريسكيين الذين حاولوا استئناف حياتهم فى الوسط الريفى المغربى قلما تركوا آثاراً.

إن الأخبار الواردة فى الوثائق – عن الموريسكيين المقبلين على الزراعة والذين يعيشون فى الريف أو فى ضياع صغيرة – نادرة جدا. يقول لنا مارمول إن المغاربة الأندلسيين الذين قدموا من أورخيبا و تابرناس ومن أماكن أخرى من البشرات الغرناطية، قد أنعم عليهم الشريف بقطع أراضى فى الجنوب المغربى[٣٦] .

بطبيعة الحال يشير إلى سيل المهاجرين من القرن السادس عشر. من القرن التالى، و على العكس من تونس حيث توجد أخبار عن نشاط زراعى موريسكى كثيف، فإننا فى المغرب لا نعرف ما إذا كان يوجد شيء مشابه.

نعرف، كمعلومة دلالية بحتة، الهجوم الذى قامت به حامية العرائش فى ١٦١٩ على قرية قريبة لهذه المدينة. كان الحاكم، رئيس الجيش، يرشده صبى موريسكى إسبانى، تربى فى هذه الأرض وعندما وصلوا إلى مضرب الخيام، فجراً، أشعلوا فيه

النيران و سمعوا من بيت إحدى المورسكيات التى كانت تقول باكية يا يسوع الوديع ويا مريم العذراء المقدسة أغيثونى فأنا أحترق(*) . سواء الطفل أو المرأة يؤكدان بوضوح وجود المورسكيين فى الوسط الريفى لوادى لوكوسLucus (٣٧) .

لن نقترب حاليًا من تاريخ هذه العائلات المتعددة التى اختارت مصائرها ومارست العمل الريفى الذى تدربت عليه فى شبه الجزيرة.

لا يزال أمامنا أن نوضح الكثير عن تاريخ المورسكيين فى المغرب.

(*) نؤكد مرة أخرى أنه لا يمكن الاعتداد بكتابات المؤرخين الإسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، فهى كتابات دعائية فى معظمها و الشيء المنطقى هو أن يبقى المسيحى المخلص فى إسبانيا الكاثوليكية، أما من بذل المال و النفس فى سبيل الهجرة إلى دار الإسلام فهو إنسان مسلم بكل تأكيد . (المراجع)

الهوامش

(1) Archivo Histórico Nacional. Osuna. Leg. 422-9

(2) ظهر افتداء عام ١٥٤٨ في دراسة:

FRÍAS, Duque de, " Una redención de cautivos en tiempos del Emperador" Revista de Archivos Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2-1958, Pag. 483 a 514.

(3) ARANDA, P. Gabriel de. Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692. Pp. 507 a 536.

(4) Véanse algunos de esos documentos en las Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) España 1.a I. Pp. 95 y ss. 199, 126, 135 y s.

(5) توجد أسعار المنازل و الفرس...إلخ في مملكة غرناطة في تلك الأعوام في:

Catálogo del Archivo de la Alhambra de M.a Angustias MORENO OLMEDO, Cuadernos de la Alhambra. 15-17m Págs. 303-323.

(6) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del :Descrpición General de Africa Libro Quarto. Granada 1573. Fols. 131 y 131v.

(7) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Cueta. Manuscrito N.* 9741 de la Biblioteca Nacional de Madrid. Fol. 55v.

(8) B.N. Manuscrito 9741. fol. 71.

(9) S.I.H.M. España 1.a III-18.

(10) S.I.H.M. Portugal 1.a V. 65.

(11) B.N. Mss. 9741. Fol. 75.

(12) Biblioteca Nacional. Mss. 9741. Fol.75.

(13) Biblioteca Nacional. Mss. 9741. Fol. 76 v.

(14) AZZUA HAKIM, Mohammad Ibn. " Apellidos tetuaníes de origin español" Awraq. Vol. IX. 1988, Págs., 101-123.

(15) MESA, Sebastián. Jornada de África por el rey D. Sebastian y unión del reino de Portugal a la Corona de Castilla. Barcelona 1630. fol. 113v.

(16) Biblioteca Nacional de Madrid. Manuscrito 6569 Fol. 49v.

(17) B.N. de Madrid. Mss. 6.569. Fol. 51.

(18) B.N. de Madrid. Mss. 3.588

(19) لقد تمكنت شخصيًا، فى الجبانة اليهودية فى القصر الكبير، من التأكد من وجود قبور غرناطية، مشابهة لتلك الموجودة في جبانات تطوان و شاون و أرسيلة و طنجة العبرية megorachim.

(20) DAWD, Muhammad. Tarij Titwan. (en árabe). Tetuán 1959, I-175-76.

(21) AL OUFRANI. Nozhat el Hadi... Trad. Francesa o. Houdas. París 1889, P.265.

(22) YEBBUR ODDI, Abderrahim. El gobierno de Tetuán por la familia al Naqsis. Tetuán. 1955. Pp 7 y 8.

(23) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fol. 84v.

(24) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fols. 86v y 87.

(25) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fol. 87.

(26) B.N. de Madrid. Mss. 2791. Fol. 48.

(27) B.N. de Madrid. Mss. 4.390. Fols. 16 y 16v..

(28) B.N. de Madrid. Mss. 3870. Fol. 22.

(29) B.N. de Madrid. Mss. 9741. Fol. 89v.

(30) B.N. de Madrid. Mss. 3.634. Fol. 9.

(31) S.I.H.M. Inglaterra. 1.a II, Págs., 573 a 582.

(32) S.I.H.M. Pays Bas. 1.a IV. P. 284.

(33) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "La República Andaluza de Rabat en el siglo XVII'. Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán" Núms., 9-10. Jun. Dicbre. 1974.

(34) B.N. Mss. 3.634. Fol. 11.

(35) BAUER Landauer, Ignacio. Relaciones de África (Marruecos) Tomo II. Madrid s/ f. Pág. 85.

(36) MÁRMOL. Op. cit. Libro 3.* Fol. 33.

(37) BAUER. Op. cit., Pp. 230 y 231.

الفصل الخامس

التعايش اليهودى - الموريسكى فى المنفى

ملاحظات أولية :

أعد سقوط مملكة غرناطة، الذى يتزامن تقريبًا مع قرار طرد اليهود، مصيرًا مشتركًا للأقليات المهمشة فى شبه الجزيرة: و هو المنفى.

تحدثت دراسات كثيرة عن الموريسكيين، فى فترة ما قبل خروجهم النهائى فى ١٦٠٩ .

مع ذلك، لا توجد أبحاث كافية تتناول تطور التجمعات الموريسكية أو اليهودية فى أماكن ملاجئهم، سواء فى ما أطلقتُ عليه الفترة الأولى لهجراتهم الإجبارية، فى الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر، أو فى الفترة الثانية عقب قرارات الطرد، من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٤، خلال القرن السابع عشر.

لا يؤثر هذا التقسيم الزمنى مطلقًا على الأقلية اليهودية التى حدثت هجرتها النهائية، بصورة مفاجئة، فى عام ١٤٩٢، كما هو معروف.

شكلت مملكة فاس واحدًا من أماكن المنفى للمسلمين و لليهود. و هذا شيء منطقى إذا فكرنا فى العامل الجغرافى المؤثر جدا عند وقوع أى حدث تاريخى.

استقرت فى المغرب موجات من الموريسكيين ومجموعات كبيرة من اليهود قلما نعرف شيئًا عن تاريخها اللاحق.

عن الفترة الأولى للمنفى الموريسكى واليهودى النهائى الذى حدث عقب سقوط العاصمة الغرناطية وبعد ذلك بقرن، قدمنا منذ سنوات دراسة حول تأسيس المنفيين الغرناطيين لمدينة تطوان[1] .

خصصنا فى هذه الدراسة فصلاً عن اليهود الغرناطيين الذين كونوا فى تطوان واحدةً من التجمعات اليهودية الأكثر أهمية فى المغرب.

تناولت أعمالى السابقة الأخرى مظاهر متعددة متعلقة باليهود الإسبان فى المغرب المجاور و مشاركتهم فى تأسيس مدينة الشاون أو البقايا الأثرية التى لا زالت باقية فى المقابر العبرية فى الشمال المغربى[٢] .

أحاول اليوم إلقاء الضوء على المعلومات الموجودة فى وثائق غير منشورة توضح ما أشرتُ إليه بالفعل فى مناسبات أخرى، وهو أنه لم يكن لليهود الغرناطيين أو اليهود المهاجرين بوجه عام أية مشاكل فى المغرب للتعايش مع رفقائهم فى المنفى، وعلى الأخص، فى تلك التجمعات التى تمتعت باستقلالية أكيدة، مثل تطوان على سبيل المثال.

فى باقى البلد عانى المنفيون، مثل كل المجتمع المغربى، من نتائج الفوضى الرهيبة المتفجرة مع تغير العائلات الملكية، من العائلة الوطاسية إلى العائلة السعدية، وبعد ذلك، من العائلة السعدية إلى الفيلالية. سنجد أحد الأمثلة أيضًا على الضرائب التى كان يدفعها المنفيون اليهود لعدم التنفيذ الحاسم للقانون و الأوامر.

يجب أن نقدم كذلك باختصار، فى هذه المقدمة القصيرة جدا، المجتمع الذى تكّون فى تطوان بعدما أعاد إنشاءها سيدى على المندارى، حاكم بينيار الغرناطى السابق، فى عام ١٤٨٤ .

كانت مصادر الثروة الوحيدة، القائمة على نواة أساسها المحاربون، هى تلك الناتجة من الحرب، سواء فى البر ضد الحدود البرتغالية، أو فى البحر حيث يتم الاستيلاء على كل غنيمة مسيحية تقع فى متناول السفن .

كانت القرصنة، أكثر من أى شىء، هى النشاط الذى يقدم مستوى معيشة خاصًا لتلك التجمعات التى برزت فى شمال وجنوب البلد بعدما كونت مدنًا مستقلةً: تطوان فى الشمال وحتى نهايات القرن الخامس عشر والرباط فى الجنوب، فى القرن السابع عشر. ازدهرت أسواق عبيد ناجحة فى هذه المدن، حيث لم تكن أى منها تستطيع بدون وجود هذه الأسواق أن تنتشر أو أن تستقبل مطلقًا هذا العدد الكبير من المنفيين الذين وصلوا اليها(٣) .

إن الغنائم البشرية التى كان يتم الاستيلاء عليها فى البحر أو الأشخاص الذين أُسروا أثناء الهجمات على سواحل شبه الجزيرة أو الذين كانوا يقعون أسرى أحيانًا فى الحروب المستمرة مع الحاميات البرتغالية، كانوا يُحملون إلى سوق تطوان و يباعون إلى شخص لديه رأس مال يستطيع أن يحتجز البضاعة خلال الوقت اللازم لكى يصل المفتدون. كان يجمع رؤوس الأموال الكبيرة هذه من كانت لديه السلطة السياسية أو أحد أتباعه، و قد شكلوا هكذا برجوازية ثرية بسبب القرصنة، ما لبثت أن تكوَّنت بجانبها برجوازية أخرى يهودية قليلة جدا إلى حدٍ ما، لكن نستطيع بسبب عدد السكان المسلمين و اليهود أن نقول إنها أيضًا أصبحت ثرية بفضل الأعمال المتعلقة بالقرصنة.

كان السجناء أو الأسرى يمكثون عادةً فى السجون التطوانية المظلمة تحت الأرض حتى يصل المفتدون مع أموالهم أو بضائعهم. و كانت البضائع أكثر من الأموال بسبب منع إخراج العملة من البلاد، و أيضًا لأنه كان من العادة شراء عملة مغربية. بعد ذلك كانت الضرائب تؤخذ على كل أسير، و كانت تتغير وفقًا لعوامل متعددة: العمر، الجنس، الحالة الصحية، إلى غير ذلك. كان يُحدد ثمن موحد أحيانًا عند شراء مجموعات كاملة من الأسرى.

و فى النهاية، كانت هذه الأسواق تعمل كأى أسواق بضائع أخرى، و لن نطيل أكثر من ذلك هنا عن هذه القضية التى تناولناها فى مكانٍ آخر.

يكفى ما قيل لكى ندرك أهمية كل وثيقة تتناول تجارة العبيد وظروفها ونتائجها بالنسبة لنا. والمخطوطات التى تقدم حسابات افتـداءات الأسـرى هـى خيـر مثـال على ذلك.

أغلب هذه النصوص غير منشور، أما النصوص المنشورة فهى أيضًا جديدة فيما يتعلق بالجانب الذى نحاول أن نبحثه.

و ستظهر عرضًا نصوص تاريخية، إما أنها غير منشورة ، وإما أنها منشورة فى سياق آخر غير الذى نتناوله.

سنبدأ بالوثائق الأكثر قدمًا، وهى من القرن السادس عشر، لأنه بالرغم من تأكدنا من وجود جماعة يهودية فى تطوان منذ الأعوام الأولى من تأسيس المديـنة، إلا أننـا لم نجد، حتى الآن، أى نصوص تتضمن ذلك.

اليهود فى الافتداءات:

إن الوثيقة الأكثر قدمًا من هذا النوع التى تتضمن أخبارًا عن يهود يتدخلون فى أعمال القرصنة ترجع إلى عام ١٥٤٨ .

عندما مات المنذارى فى عام ١٥٤١، خلفته أرملته ست الحرة، حتى حل محلها زوج ابنتها حسن، فى عام ١٥٤٢ .

سوف نجد "حسنًا" هذا، و هو من سلالة عائلة المنذارى، على رأس المصائر فى تطوان فى عـام ١٥٤٨، عندمـا وصل إلى المديـنة وفـد أرسـله السـيد دييغـو باتشيكو، ماركيز بيينا Villena لافتداء أسرى بمبلغ حددته وصية أبيه الماركيز السابق ذكره.

تم دفع مليون ونصف مرابطى فى الإجمال و تم تحرير ٧٤ أسيرًا، أى ما يعطى متوسط ٢٠,٢٧٠ مرابطى لكل أسير، بالرغم من أن الأسعار تأتى كقاعدة عامة بصورة فردية و تتغير بسبب السن والجنس وحالة الصحة.

يظهر اسحاق بن فيرمى أو بن إبراهيم من بين أسياد العبيد، و كان هو شيخ اليهود التطوانيين، و لهذا السبب ولأنه كان مبجلاً بين مواطنيه، سواء اليهود أو الموريسكيين، فقد ساعد فى تيسير الافتداء و قام بجهدٍ كبير فى كل يتعلق به و كان يتدخل دائماً فى عمليات الافتداء(٤) .

هناك ذكر خاص لاسحاق الطيب الذى، فى الواقع، كان يجب أن تكون له علاقات ممتازة مع الموريسكيين التطوانيين لأنه كان لديه أيضًا عبدين آخرين و كان يعمل كسمسار لبيع أحد الأسرى كان فى القصر الكبير تحت قبضة يهودى آخر، يدعى موسى روتيه Moisés Rote ، و هذا ما جعل مجموع مبيعاته يصل إلى ١٠٪ من إجمالى المبيعات.

كانت نسبة ابن فيرمى هى أكبر نسبة مبيعات فى هذا الافتداء بعد نسبة القائد حسن والقاضى مفضل.

فيما يتعلق بمنصبه كشيخ قبيلة أو شيخ لليهود، فمن المحتمل أن يصبح هذا المنصب خلال فترة منصبًا ذا اتجاهات سياسية أكثر منها دينية. و من المحتمل أنه كان مسئولاً عن تصرفات التجمع أمام السلطة البعيدة التى كانت تحكمه، بينما كان الحاخام الأكبر، مثل بيباسBibas فى الحالة التطوانية، الذى نعرف أنه كان يعمل فى هذا المنصب منذ عام١٥٣٠، يمكن أن يكون الموجه الروحى فقط، المحافظ على القوانين الدينية(٥) .

مازال أحد المسافرين من بدايات القرن الثامن عشر يذكر نفس المنصب فى حى فاس اليهودى الذى زاره(٦) .

قام كنعانى عبرى آخر، فى هذا الافتداء لعام ١٥٤٨، بإحضار خمسة عبيد من ملك بيليث كانوا فى هذا الحى .

نجد أيضًا فى القصر الكبير أحد العبريين من ملاّك العبيد و يدعى إسحاق أرباس Isaac Arbas . وبسبب هذا اليهودى أو يهود غيره ممن سوف نراهم فيما بعد،



شكل (ب)

فإننا نسجل وجود مستعمرة يهودية فى القصر الكبير، ويتضح ذلك أيضًا من البقايا الأثرية لمقابرهم الأكثر قدمًا، فى المدفن الاسرائيلى لتلك المدينة و لدينا عنها وثائق تخطيطية.

توجد هذه المقابر، التى ليس لها مثيل فى أى مدفن يهودى مغربى، فى شمال البلد فقط، و بالتحديد فى طنجة والقصر الكبير وتطوان وأرسيلة والشاون.



شكل (ج)

هى مقابر خاصة، وفقا لنظرية عرضتُها فى مكان آخر، باليهود القادمين من مملكة غرناطة والذين، بسبب معرفتهم باللغة العربية، تعايشوا بشكلٍ جيد و بصورة أكثر كثافة مع الموريسكيين المنفيين من هذه المملكة(٧) .

يبقى لنا أن نقدم مالك رقبة عبرى آخر فى الافتداء الذى نتناوله، و هو يوسف كوهين Yusef Cohen من فاس.

كانت الجماعة اليهودية، فى الإجمال، تتحكم فى أكثر من ٢١٪ من البضاعة الموجودة فى السوق التطوانى والتى كان يملكها مفتدون أرسلهم السيد دييغو باتشيكو.

يمكننا أن نؤكد، دون أى شك، أن الأقلية اليهودية الإسبانية، المنفية فى شمال المغرب كانت تتعرض لتقلبات المنفى دون أى تمييز فيما يتعلق بالمحن أو المنافع مع مواطنيهم الإسبان المسلمين، و كانوا يتحركون، بالإضافة إلى ذلك، فى حرية كاملة من مكان إلى آخر لكى يقوموا بمعاملاتهم التجارية بطريقة أفضل .

إذا نظرنا فى بؤرة القرصنة لمصب نهر مارتين، وهى إحدى النقاط الأكثر فاعلية لتجارة المغرب، الذى كان يختنق بسبب احتلال الحدود البرتغالية لأفضل موانئ البلد، فإن ذلك يمكنه أن يشرح لنا مستوى المعيشة المرتفع الذى وصلت إليه الجماعة اليهودية التطوانية، و على الأخص، إذا قارناه بمستوى باقى المجموعات اليهودية، الأكثر اضطهاداً فى هذه الفترة من القرن السادس عشر، وعلى الأخص، فى وسط بشرى مختلف تماماً.

كانت تطوان الموريسكية منذ عصر المنداري وخلفائه المباشرين لا يزال لديها الكثير من ملامح مدينة غرناطة، التى فقدت قبل نصف قرن.

لم يكن التعايش ممكنًا فحسب بل كان منطقيًا أيضًا. فقد مرت أعوام كثيرة وقرون ولا زال تجمع اليهود فى تطوان يحتفظ بشهرته كواحد من أكثر التجمعات ثراءً فى المغرب، بالرغم من تغير الظروف من الفترة الأولى إلى الفترة الثانية من المنفى الموريسكى.

من المؤكد أن اليهود التطوانيين قدموا، منذ العقود الأولى للقرن السادس عشر، دلائل كافية لتقدمهم عن الباقين: ضرائبهم المرتفعة و زيادة عددهم وهذه البقايا الأثرية نفسها التى ساعدتنا فى الكشف عن وجود يهود غرناطيين فى القصر الكبير.

إن شواهد القبور اليهودية فى مدفن كاستيليا Castilla de Tetuan فى تطوان تتفوق كثيراً إذا ما قورنت بلوحات أى مكان آخر بسبب ثروتها الزخرفية ونقوش بلاطها الدقيق. علاوة على ذلك، فإن بعضها عبارة عن كتابات منقوشة، و هذا الأمر غير موجود فى باقى المدافن العبرية، وتدل، فى رأينا، على ثقة كبرى فى مواطنيهم.

يحدثنا بعض الشهود المباشرين لذلك العصر سواء عن زيادة عدد السكان أو عن نشاطهم. من بينهم الكاهن الهولندى نيكولاس كلينارد Nicolas Clenard الذى مر عبر تطوان فى أبريل عام ١٥٤٠ و رأى العديد من السكان اليهود(٨) .

يقدم لنا الأب الجليل فرناندو دى كونتريراس شهادة مثيرة أخرى، تتعلق بافتداء الأسرى فى إفريقيا. أقام كونتريراس فترات طويلة فى تطوان، منذ عام ١٥٣٥، الذى دخل فيه للمرة الأولى مملكة فاس من أجل نشاطه الخيرى، و تعرف على القائد العجوز سيدى على المندارى، قبل وفاته بقليل. ناقش مع خلفائه، وعلى الأخص مع حسن، ليس فقط شئون متعلقة بأسر المسيحيين ولكن أيضًا جوانب من السياسة العليا جعلته تقريباً موضع ثقة القائد الذى كان بالتأكيد غرناطياً.

عرف الأب فرناندو الجالية العبرية، التى يمكن أن يكون قد سكن بين بيوتها فترات ممتدة من الزمن، حيث أنه كان مسموحًا للمسيحيين فقط بالحياة وسط اليهود. على ما يبدو لم يقض وقتًا سيئًا معهم، لأن كاتب سيرته أكد أنهم كانوا يقرضونه نقوداً عندما كان يحتاجها لدفع الافتداءات حينما كانت الفدية المطلوبة تتجاوز المبلغ الذى كان يحمله. كانوا يساعدون السجناء المساكين احتراماً لشخصه ولم يكونوا يرفضون أى شىء يطلبه منهم(٩) .



شكل (د)

يلمح كاتب السيرة نفسه، مشيراً إلى نشاطات كونتريراس كمفتدٍ، إلى تجارة بيع العبيد، التى كان ينفذها اليهود "الذين اعتادوا القيام بذلك، مع إلحاق أذى كبير للأسرى المساكين"(١٠) . نضيف أن ذلك الأذى كان يحدث بالأخص عندما كان الأسرى يُنقلون إلى سوق الجزائر، الأمر الذى كان يتكرر كثيراً، و كان يزيد من عقبات وإجراءات وتكاليف ووقت الافتداء.

الأسرى إلى سوق الجزائر، الأمر الذى كان يتكرر كثيراً، و كان يزيد من عقبات وإجراءات وتكاليف ووقت الافتداء.

فيما يتعلق بتجارة العبيد ربما كانت تشكل نشاطًا عاديًا لليهود، بالإضافة إلى إقتنائهم هم أنفسهم عبيداً و اشتغالهم بالسمسرة والوساطة فى السوق.

سوف تقدم لنا وثيقة أخرى من القرن السادس عشر، هذه المرة غير منشورة، معلومات وفيرة عن هذا الجانب من التعايش اليهودى الموريسكى فى مصادر الاقتصاد التطوانى. تقدم فى هذا المخطوط حسابات أحد افتداءات الأسرى نفذها، فى تطوان عام ١٥٧٩ ، رجال الدين من جمعية "لا ميرثيد"، و هم الراهب رودريغو دى أرثيى Rodrigo de Arce والراهب لويس دى ماتينثو Luis de Matienzo . وقد حملوا توصيات كثيرة ونقوداً كثيرة، أكثر من سبعة ملايين مرابطى، وأعطاهم الملك نفسه، فيليبى الثانى، تعليمات فيما يتعلق بأسرى محددين(١١) . سيجدون،علاوة على تعقد مهمتهم، باقى جيش الملك سبستيان المرزق، الذى مات فى أغسطس عام ١٥٧٨ فى معركة نهر مخازن Mejacen ، حيث سقط كذلك الجزء الأكبر من طبقة النبلاء البرتغاليين إما قتيلاً أو أسيراً(١٢) . مرّ ثلاثون عاماً منذ الافتداء السابق وحتى هذا الافتداء.

لقد اختفت كل الشخصيات السياسية وحتى الاقتصادية، بالرغم من أنه تتكرر فى المجموعة الموريسكية أسماء العائلات التى نُفيت منذ اللحظة الأولى.

إن ذكر اليهود وعملياتهم فى هذا المخطوط أكثر عدداً من كشف الحسابات السابق(١٣) .

عاد شيخ اليهود للظهور. إنه يدعى هذه المرة يعقوب تشيكوتييو Jacob Chicotillo وهو شيخ يهود فاس. لكى تكون افتراضاتنا أكيدة، كان يجب أن يكون لكل أمة شيخها أو ممثلها أمام السلطة الحاكمة، بالإضافة إلى حاخام أكبر أو رئيس دينى.

باع المفتدون لتشيكوتيو ٤٩ زرًا من الذهب بسعر ٥٣٩ أوقية من عملة إفريقيا، وهي العملة التى اقتناها مسبقًا الرهبان فى سبتة لكى يستطيعوا استكمال انتقالاتهم. كانوا يحملون بالإضافة إلى ذلك طرودًا كبيرة الحجم مع بضائع اشتروها فى شبه الجزيرة، و كانوا يذهبون بها وبالعملة المغربية إلى تطوان لكى يبدلوا كل ذلك بالأسرى التعساء.

ذهب إلى تطوان، سوق هذه التجارة الحزينة، أناس من مناطق أخرى، إما كانوا يحملون عبيدهم أو يشترون البضائع التى يحملها رجال الدين المفتدون. هكذا ظهرت أسماء يهودية أخرى وأصولها، مثل تشيكتييو، فى كشوف المدين والدائن التى تكّون كشف حسابات الافتداء: اليهودى إندا كونثوتيه Inda Conçote من فاس، موسى مايماران Moisés Maymaran ويهوذا كاستيل Juda Castel من مكناس ويعقوب أتشويلا Jacob Achuela من سلا .

كان أتشويلا تاجرًا نشيطًا، فبالرغم من وصوله من مكان بعيد جدا لم يهمه الانتقال إلى سبتة لكى يتفق على مبيعاته ومشترياته مع الآباء المفتدين، عندما خرجوا من تطوان. لم يبع عبيدًا فقط، بل كان يقايض، أحيانًا، عبيدًا ببضاعة، فعلى سبيل المثال، استبدل أسيرًا بكمية من القماش الثمين أو اشترى بضاعة كلفته ٣٠٠ أوقية.

لم يكن أتشويلا فقط هو الذى ذهب إلى سبتة لكى يدير أعماله، فقد كان لليهودى الفاسى كونكوتيه أيضًا إذن لكى يأخذ أسرى قشتاليين ويحملهم إلى سبتة حيث كانوا يشترونهم منه؛ نفترض أنه كان يعمل فى السمسرة.

عندما ذهب رجال الدين إلى تطوان قاموا بتأجير منزل، منذ ديسمبر عام ١٥٧٩ إلى ١١ يناير ١٥٨٠، و كان ابراهام طوبى Abraham Tubi هو مالك الرقبة، الذى باع لهم أيضًا ثلاثة عبيد و اشترى منهم ١٩ أوقية من اللؤلؤ الصغير.

قايض اليهودى انكايتى Encaite أسيرين بقطعة من القماش الغالى. و قد تقاضى يهودى آخر يدعى أوناكو Onaco كمية من الأقمشة بدل ثلاثة أسرى. وتسلم يهودى مجهول كمية أخرى من الأقمشة، كعمولة لبعض المبيعات.

كان يبيع العبيد كل من خاكوب كرودو Jacob Crudo وناسون Nason، (لم يكن لدى الأخير سوى ستة أسرى)، وخاجـون Jayón وموردافاى Mordafay وعليا Alia أو عليو Alillo و ابراهام ميناخى Abraham Menagí و بوكايتى Bucaite (كان لديه ١١ أسيرًا)، بالرغم من أن بعضهم كان يباع لحساب القائد، وقد اشترى سبع أوقيات من اللؤلؤ الصغير لنفسه.

لكن الذى يتميز بينهم هو صاموبل بيمينيتا Samuel Pimienta كمالك وتاجر وسمسار. باع عبيدًا يملكهم القائد ومحصل الضرائب الأكبر لملك فاس. و اشترى بضائع له وللشخصين المذكورين، اللذين كانا يمثلان السلطات العظمى لتطوان الموريسكية فى هذه الأثناء.

وجدنا منفضل أو مفضل، كما كانوا يسمونه أحيانًا، فى منصب محصل الضرائب الأكبر، فى وثائق سابقة فى عام ١٥٢٣ و عام ١٥٤٨ . كان قاضيًا لتطوان فى هذا العام الأخير.

بطبيعة الحال لم يكن هو نفس الشخص المذكور فى تواريخ متباعدة، ولكنها كانت عائلة أو نسل لمهاجرين غرناطيين قدماء، كانت تكّون طبقة الأرستقراطية الهاربة من عاصمة بنى نصر، قبل سقوطها و صاحبت المنداري، و أعادت إنشاء تطوان. من المحتمل أن "مفضلاً " الذى ظهر عام ١٥٧٩ هو حفيد مفضل الأول. ستواصل ذريته القيام بدور مهم فى تطوان الموريسكية فى القرن السابع عشر، حتى بدايات عائلة فيلالى الملكية، التى سوف تقضى بالتأكيد على عائلة النقسيس ، و ستقضى على عائلة مفضل أيضًا.

باع بيمينتا عبيد مفضل نظرًا لخبرته التجارية، و اشترى لحسابه قماشًا حريريًا مخملاً قرمزيًا و أنواعًا أخرى ثمينة من الأقمشة. لعب نفس الدور مع القائد حيث اشترى له قماشًا ثمينًا أزرق و أخضر بالإضافة إلى زينات من الذهب. اشترى له كذلك ست دستات من قلانسوات سوداء.

كان بيمينتا النشيط يتحكم فى آلاف من الأوقيات، سواءً لحسابه الخاص، أو لحساب آخرين ، وهو النموذج الأول للفينيقى اليقظ، حيث كان ينتفع من أصغر فرصة لتنمية تجارة مثمرة وسريعة. بالإضافة إلى ذلك، كان أيضًا النموذج الأول لليهودى الذى يضع نفسه فى خدمة القادر الذى يستخدمه كرسول ومترجم وأمين صندوق وسمسار.

ليست هذه هى المرة الأخيرة التى نجد فيها صامويل بيمينتا . على الأقل سنجد خمسة عشر اسمًا يهوديًا فى هذا الافتداء لعام ١٥٧٩ ومن بين ١٧٠ عبدًا محررين نجد ٤٣ تحرروا بوساطته المباشرة أو غير المباشرة. و تم عن طريقه الربع الأخير أو ٢٥٪ من الثروة التى سببها هذا الافتداء.

لم تكن الأمة اليهودية الإسبانية تستطيع أن تشكو من أن الموريسكيين رفقاؤهم فى المصيبة – لم يتركوا لها مكانًا تحت الشمس .

ليست هناك معلومة أكثر أهمية من اقتسام مكاسب القرصنة يمكن أن توضح بطريقة أفضل التعايش السعيد بين الأمتين.

هناك معلومة أخرى ذات أهمية أقل، وهى ابتهاج المسلمين و اليهود لهزيمة الملك سبستيان. كان فرح الموريسكيين كانتصار خاص لأنهم أسهموا بشكل قاطع بجيوشهم فى نجاح معركة وادى المخازن وأقام العبريون احتفالاً خاصا، وبرروا فرحتهم بتحررهم من احتمال مضايقتهم عبر محكمة التفتيش.

لا تزال لدينا وثيقة جديدة أخرى من القرن السادس عشر: حسابات افتداء لعام ١٥٨٣ (١٤) . قام بالافتداء نفس المفتدين. كان على واحدٍ منهم، وهو الراهب لويس دى ماتينثو، أن يبقى فى تطوان كرهينة. كان مكان إقامته هو المكان الذى أجَّره له أبراهام طوبى اليهودى.

ما إن بدأنا قراءة مديونية الأوقيات، عملة إفريقيا، التى تدفع من أجل الأسرى الذين يتم افتداؤهم، فى تطوان عام ١٥٨٣ ، حتى نجد فى الباب الثالث صمويل

بيميننا والياثار مامياس، وهما يهوديان من تطوان، و قد باعا عبداً، و حصلا مقابل بيعه على صندوقين من قلنسوات ملونة فى ٦٤ دستة، بسعر خمسين ريالاً للواحدة.

قام سادة الأسير بإرساله إلى سبتة قبل انتهاء العملية[١٥] . باع هؤلاء الأعضاء أنفسهم مجموعة من إثنى عشر عبداً، منهم ثمانية عبيد للقائد التطوانى، مقابل اللؤلؤ الصغير والأقمشة الثمينة الملونة. و قاموا أيضًا بعملية مبادلة لأربع نسوة وخادماتهن التابعات لهن. كان مفضل هو سيدهم، وقد باعهم مقابل أقمشة ثمينة قرمزية اللون وأزرار من الذهب.

تصرف الياثار مامياس باسم القائد، الذى كان يملك أسيرين من سبتة. قال قائد سبتة، بكثير من المضايقة، إن عليهم أن يحرروا هذين الجاسوسين، لكونهم لا غنى عنهم فى إدارة استراتيجية الدفاع عن الموقع، و وافق رجال الدين على ذلك، وهم مكرهون قليلاً فيما يبدو. حمل مامياس الجاسوسين إلى سبتة، بعد دفع ٦٢٥ أوقية.

باع مامياس عبداً لأحد المسلمين، مقابل نقود و ملابس.

سلم نفس التاجر أسيراً آخر بإذن من أحد اليهود و يدعى ميسياس Mexias السمين.

كان هذا اليهودى التطوانى الأخير مواظبًا أيضًا على الحضور إلى سوق سبتة، لذلك كان لديه بالتأكيد، كما رأينا، أذون يمكنه بمقتضاها التنقل فى الأراضى الإسبانية. و قد قام بدورٍ سوف نلخصه لأنه يعكس الكثير عن ذلك العالم الغريب الذى كان ينتشر فيه رجال الدين واليهود والموريسكيون والتجار من كل الطبقات وأيضًا المسيحيون.

قام موسى ميخياس السمين بالاتفاق مع رجال الدين فى سبتة، فى وجود الكاتب العام لهذا البلد، ويقضى الاتفاق بتسليم أسير حر فى هذه المدينة، فى مدة عشرة أيام، من خلال دفع ٥١٤ أوقية، و قد أعطى ملابس على سبيل الوديعة، بنفس القيمة، إلى يهودى تطوانى آخر يدعى موردافاى أليليو Mordafay Alillo، و بعد مرور عشرة أيام دون أن يصل الأسير، قام بسحب الوديعة من موردافاى وأعطاها لتاجر من سبتة

يدعى بدور دى إريرا Pedro de Herrera، على أساس أن يسلمها له عندما يصل الأسير إلى سبتة، وهذا هو ما حدث فى النهاية.

كان موردافاى يقوم، فى مناسبة أخرى، بدور ميخياس السمين لتغيير عبد تابع لميخياس مقابل قطعة كبيرة من القطيفة القرطبية و قطعة أخرى من القماش الثمين الأزرق.

باع موردافاى أليبو ثلاثة عبيد آخرين، و تبقت لديه كمية كبيرة من الملابس والنقود. وأخيراً باع مع رفيقٍ آخر، أسيراً بنقود وملابس أيضاً.

وأخيراً سننهى هذا الجانب من الدراسة كما بدأناه، بصمويل بيمينتا الذى باع عبيداً تابعين للقائد و لشخص يدعى حامد سردينا من القصر الكبير و حصل على المقابل فى شكل القلنسوات واللؤلؤ الصغير. باع أيضاً امراة وثلاثة أطفال وطفلة، ينتمون إلى قائد القصر الكبير. حصل على المقابل كله تقريباً فى شكل قطع من اللؤلؤ الصغير والقلنسوات و الأقمشة.

كان لصمويل أخ فى القصر الكبير، و هو يعقوب بيمينتا، قام بدور سمسار قائد مدينته فى هذا الافتداء، و قد قايض أسيراً باللؤلؤ الصغير.

لم تسجل العمولات، التى قبضها بيمينتا وأليبو ويهود آخرون عند بيعهم عبيد القائد مفضل مرة أخرى، فى السجلات، لأن هذا يكون شيئًا ثابتًا بين أصحاب الشأن وبعيداً عن الحسابات التى يقدمها الرهبان، لكننا نعرف أن ما تحصل عليه الجماعة اليهودية كليةً من بيع عبيدها يتجاوز ١٥٪ من الرصيد الكلى للافتداء. و إذا كانت هذه النسبة تعادل ما يقرب من ٣٥ ألف أوقية، فمن السهل استنتاج أن اليهود كانوا يشاركون بنسبة جيدة فى هذا المجال المزدهر.

كانت النقود تجرى فى أيدى الموريسكيين و اليهود، ربما بأكثر فائدة لليهود الذين كانوا يعرفون القيام بذلك بمفهوم مالى أكثر، وكانوا يفضلون الحصول على بضائع بدلاً من النقود، من بين كل ما كان يجلبه الرهبان المفتدون. بعد ذلك، وبانقضاء حمى الافتداءات، احتكر اليهود، ليس فقط فى تطوان، بيع القلنسوات السوداء والملونة

الواردة من طليطلة، التى كان يقدرها كل المسلمين ، أو قطيفة سيغوبيا والأقمشة الناعمة ذات الألوان المتعددة والحرير والمخمل الوارد من بايثا، غرناطة، واللؤلؤ الصغير وحلى أخرى، كأزرار الذهب، من مدريد وقرطبة وكل ما كان يحمله رجال الدين المفتدون، حيث أنه لم يكن مسموحًا خروج العملة من البلد وكان عليهم أن يحولوا كل هذه الملابس والخرز، إما إلى أسرى مباشرة، و إما بعملة إفريقيا، (الأوقية الموريسكية التى كانت، فى هذه الأعوام من ١٥٧٩ إلى ١٥٨٣ ، تقدر بـ ٣،٥ إلى ٤ ريالات للواحدة، وفقًا لما هو ثابت فى نفس المخطوطات).

وهكذا، لدينا يقين بأن الرجال والنساء فى كلٍ من البرجوازيتين الموريسكية واليهودية كانوا يلبسون ويتزينون بنسبة كبيرة بالأقمشة والجواهر التى كان يقدمها لهم، بكثرة وعلى فترات زمنية قصيرة، رجال الدين من الجمعيات الافتدائية المتعددة، كجمعية السيدة العذراء و جمعية الثالوث المقدس ... إلخ.

مظاهر من التعايش فى القرن السابع عشر:

ندخل فى القرن السابع عشر وتتغير كما هو طبيعى الشخصيات والظروف. فى إسبانيا لم يكن قد تم التوصل حتى ذلك الحين إلى حل نهائى للقضية الموريسكية. سوف يتخذ فيليبى الثالث الخطوة الحاسمة عند نهاية العقد الأول من القرن، حيث يكسر، هكذا بطريقة مفاجئة وحريصة، التوازن غير الثابت للتعايش مع عائلات هؤلاء الإسبان المسلمين المنهزمين. استمرت القرصنة فى اجتياح البحور والسواحل فى شبه الجزيرة، و كان ينميها، منذ سنوات، إسهامات أتراك الجزائر والسيل المستمر من المنفيين الذين اشتغلوا بها. إنها حرب صغرى وصامتة، ولكنها مستمرة، وكانت توقع ضحايا و أضرارًا أكثر، إذا جاز التعبير، من تلك الناتجة عن الحروب المعلنة. يسمى بعض الكتاب ذلك القرن بالعصر الذهبى للقراصنة من بلاد البربر. نعرف أن أولئك القراصنة كان منهم نسبة صغيرة جدا من بلاد البربر وأن الأغلبية كانت من الإسبان المسلمين.

فى المغرب، و بعد موت المنصور فى عام ١٦٠٣، (الذى تولى الحكم بعد معركة الملوك الثلاثة، فى عام ١٥٧٨)، تفككت البنية السياسية و الاجتماعية، وتفجرت مرة أخرى فوضى رهيبة أهلكت البلد. تنازع أبناؤه على السلطة، واحدٌ فى الجنوب وعاصمته فى مراكش، والآخر فى الشمال مع فاس كمركز. لن يتأخر القادة الدينيون السياسيون فى الظهور وسوف يحولون تأثيرهم الدينى إلى سيادة على الأراضى الموزعة هنا و هناك، و كان البعض منهم يخفى تطلعات قومية و رغبة فى الحرب ضد المسيحيين.

إنه قرن عائلة النقسيس فى تطوان، ومن جديد أصبحت المدينة مركزًا لاستقبال العديد من الموريسكيين، عندما طردوا بصفة نهائية من شبه الجزيرة. ملأ هؤلاء التعساء قرى المغرب المجاور.

بدأت ما يمكن أن يطلق عليها الفترة الثانية من الهجرة الموريسكية. لقد عاش اليهود أعوامًا كثيرة جدا، حوالى قرن كامل، من المنفى المستمر. كانوا فى تطوان مندمجين للغاية فى المجتمع الذى يعيشون فيه. لقد أثبتنا ذلك فى حديثنا عن القرن السابق، واستمر الوضع هكذا فى القرن الحالى، فقد بقى كل قسم من المجتمع التطوانى مع إحساسه الداخلى بحنينه إلى الوطن الذى فقدوه. حافظ اليهود الاسفرديم، ربما بكثافة أكثر، على لغتهم وعاداتهم. لذلك استطاع الكثير منهم أن يعملوا كمترجمين وكجسر بين الشعبين المتقابلين للشمال والجنوب(*). فى عام ١٦٠٧ تم القيام بافتداء فى سبتة (١٦) . إنه الافتداء الأول الذى نعرفه فى القرن السابع عشر.

كان حاكم سبتة هو ماركيز بياريال، و كان رجلاً ضليعًا فى التقلبات على الحدود. كانت هناك فى تطوان، فى تلك اللحظة، سلطتان عليتان: القائد على غودوبار،

(*) لا نستطيع أن نشارك المؤلف هذا الرأى، فمن المعلوم أن المسلمين الإسبان كانوا يتحدثون الإسبانية بطلاقة وأنهم – من الناحية اللغوية على الأقل– كانوا مؤهلين للقيام بأعمال الترجمة. لا زلنا نتساءل حول سبب الاستعانة باليهود فى الترجمة . (المراجع)

ممثل السلطان، بسلطة رسمية أكثر من كونها مؤثرة، و المقدم أحمد النقسيس، قائد أو رئيس المحاربين، الذين كانوا لا يدافعون فقط عن المدينة، ولكنهم كانوا أيضًا يطاردون حامية سبتة، و يسببون لها أحيانًا خسائر مؤلمة، مثل تلك التى سببها لهم النقسيس نفسه فى عام ١٥٨٨ .

لم يُرد الماركيز أن يمر الآباء المفتدون إلى أرض بلاد البربر، بسبب الحروب الموجودة بين ملوك فاس و مراكش. إنها الصراعات الأهلية التى تفجرت بين أبناء أحمد المنصور.

بدأ الافتداء حينئذ بصورة غير عادية دوّنها كاتب الافتداء بدقة.

فى مدينة سبتة الموجودة فى أنحاء إفريقيا، عند المدخل الذى يُؤدى إلى الريف وإلى الطريق الذى يذهب إلى تطوان، فى ١٢ من سبتمبر عام ١٦٠٧، وبحضورى أنا – توربيو دى بالاثيوس Torbio de Palacios، كاتب الملكة و كاتب هذا الافتداء – افتدى الآباء المفتدون إثنين و عشرين أسيرًا من الحاج خوسيبى Jusepe، و هو مسلم، من تطوان، و كان خوسيف ميخياس مترجمًا يهوديًا، ...

كان هناك يهودى مشارك منذ بداية العملية، سوف يكون له دورٌ مهمٌ أيضًا فى تطور هذه العملية، جنبًا إلى جنب مع آخرين من جنسه. نتذكر ميخياس السمين فى افتداء عام ١٥٨٣ الذى افتتح وجود تلك العائلة فى شئون القرصنة، حتى اختفائهم بعد عام ١٦٦٤ . إنها مسيرة طويلة يساويها فقط الموريسكيون ذوو الأصل العتيق، مثل عائلة مفضل وبوتايبو وبوعلى والمندارى، الذين وصلوا معهم سويًا هناك لكى يعيدوا إنشاء تطوان التى دمرها البرتغاليون فى عام ١٤٣٧ .

لم يكن خوسيه ميخياس هذا، الذى ظهر فى عام ١٦٠٧، راعٍ أو مترجمٍ فقط، لكنه أيضًا استمر فى القيام بدور السمسار أو الوسيط، وهو يفعل ذلك هنا باسم القائد التطوانى، على غودبار. من كان يستطيع أفضل من اليهودى أن ينفّذ بنجاح أى عملية بين المسيحيين والمسلمين؟ فى هذه الحالة لم تكن الوساطة صعبة، نظرًا لوجود اتفاقيات سابقة عن عمليات أسر الجواسيس هذه. بالإضافة إلى ذلك، فقد تحدد أن ميخياس كان يقيم فى سبتة. نعرف الاهتمام الذى كان يظهره حكام سبتة نحو التحرير

العاجل لهؤلاء الاشخاص الذين كانوا يقومون بعمل صعب ومؤثر فى حامية الموقع. كان ثمنهم معروفًا بالفعل.

فى هذه المناسبة، و بعد مرور عشرين يومًا على وقوع ميخياس فى أيدى الاعداء، اتفق رجال الدين معه على أن يحضروه إلى سبتة مقابل دفع ١,٦٦٠ ريال، و قد قام اليهودى بذلك بسرعة.

لم يكن الراهب ماتياس دى كوييار **Matías de Cuéllar** ولا زميله الراهب خوان غوتييرث ديل تيخو **Juan Gutiérrez del Tejo** مقتنعين كثيرًا بعمليات الشراء والبيع على أبواب المدينة. لم يكن الأسرى يوفون بالغرض ولم تكن الأسعار ملائمة، حيث كانت أكثر ارتفاعًا من الأسعار العادية. قرروا الذهاب إلى تطوان لكى يفحصوا، على الأقل، الأسرى الموجودين، و قد أنشأوا هكذا قاعدة أكثر ثباتًا للافتداء.

خرجوا من سبته فى الحادى والعشرين من سبتمبر عام ١٦٠٧ ، يرافقهم بعض المسلمين الأساسيين من وجهاء تطوان ومن المجموعة أو القافلة التى كانت تنقل دوريًا بضائع من داخل سبتة. ناموا فى قلعة، على بعد فرسخ من الميدان، و هى كاستييخوس **Castillejos** الحالية ووصلوا إلى تطوان فى اليوم التالى.

كان الرهبان والكتّاب يتوقفون عادة فى حى اليهود و يسكنون فى منزل اليهودى خوسيه خيبرى **José Gibre** .

ظهرت علاقات إنسانية فى الافتداء، بين المفتدين والموريسكيين، وأيضًا، مع اليهود. و كانت علاقات إجبارية لأنه كمبدأ لم يكن يُسمح لأى مسيحى أن يعيش بين المسلمين وكان على أى مسافر غير مسلم فى المدينة،أن يسكن بين اليهود.

مكث رجال الدين فى تطوان أربعًا و عشرين ساعة فقط. فى الواقع، يبدو و أن الأحداث كانت متلاحقة، عندما تقرر خروجهم فى يوم ٢٤ , قدم لهم القائد أحمد النقسيس فارسًا تطوانيًا يذهب فى رفقتهم لكى يؤمّن لهم الطريق. تركوا المدينة فى السابعة صباحًا وقاموا بقطع مسافة أربعين كيلو مترًا تفصلهم عن سبتة و وصلوا إلى هذا الموقع مساءً[١٧] .

بعد مرور بضعة أيام طلبوا إذن ماركيز بياريال لكى يعودوا إلى تطوان، لأنهم لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاقيات معقولة، وبعد بعض المناقشات، اقترح القائد العام أن يذهب فارس من جمعية يسوع بدلاً من الآباء المفتدين ويحضر قائمة وأسعار الأسرى.

فى غضون ذلك، كان رجال الدين يحوِّلون البضائع التى يحضرونها إلى عملة البلد، وذلك كقيمة لتبديل العبيد. باعوا بعض صناديق من القلنسوات المصنوعة فى طليطلة و أثوابًا قيمة جدا فى المغرب وكل شمال إفريقيا، وكان المفتدون يحصلون منها عامةً على مكاسب قيمة. حينئذ ظهر بعض اليهود بدافع التجارة. كانوا هم أكثر من يقبل ثمن الافتداءات فى صورة بضائع. فى هذه المناسبة لم يكن خوسيه ميخياس هو الوحيد الذى اشترى القلنسوات، ولكن تدخل أيضًا واحد آخر من عائلته يدعى حاييم ميخياس Haim Mejías فى الشراء، إلى جانب كوهين Cohen وخاكوب كوفريه Jacob Cofre .

حصل خيبرى Gibre نفسه، مقابل الضيافة، على جزءٍ نقديٍ (٢٤ ريالاً) وجزء عينى، (صندوق محفوظات)[١٨] . تم ذلك عندما سلم الحاج خوسيبى أول إثنين وعشرين أسيراً فى سبتة، بعد دفع الفدية، فى حضور محمد بوتايبو وخوسيبى ميخياس، المترجم اليهودى[١٩] .

كان بوتايبو، إذن، يقوم بعمل الملاحظ. استطاع كلٌ من بوتايبو و ميخياس أن يرمزوا بصورة جيدة جدا للتعايش اليهودى الموريسكى. نجد بوتايبو فى الإفتداءات الأولى للقرن السادس عشر. ربما كان ينتمى إلى العائلات المنفية الغرناطية التى هاجرت قبل سقوط غرناطة. و قد شكل جزءًا من النواة التطوانية الحاكمة عندما اتجه مبكرًا جدا إلى تجارة القرصنة. لم يكن الناس يجهلون اسمه فى سبتة. يذكره كوريا دى فرانكا على سبيل المثال فى أخباره عن سبتة فى إحدى المناسبات.

يمثل ميخياس إحدى العائلات اليهودية الأخرى من تطوان التى تكوِّن نوعًا من البرجوازية المحلية، المتعايشة مع البرجوازية الموريسكية فى كل المظاهر الاجتماعية

الاقتصادية. سيتكرر- وقد تكرر بالفعل- لقب وآخر في وثائق موجودة منذ القرن السادس عشر.

ظهر فرد آخر من عائلة ميسياس أو ميكسياس، كما يصفه الكتاب بغموض، في المخطوطات بداية من عام ١٦٠٩ ، يُدعى مويسيس مكسيا Moisés Mexia، و يحتمل أن يكون سليلاً لخوسيه السابق. لم تتضح عوامل الاضطراب السياسي المغربي الذي لم يسمح بسببه ماركيز بياريال أن يدخل الرهبان في أراضٍ معادية. كتب إلى المقدم أحمد النقسيس و إلى مويسيس مكسيا، بأسماء هؤلاء الأسرى الذين يريد المفتدون افتداءهم. أحضر اليهودي إلى ضواحي سبتة سادة العبيد مع عبيدهم، و قاموا هناك تحت أسوار القلعة بعمليات التبديلات والشراء والبيع والعقود، وفي النهاية قاموا بعملية افتداء الأسرى(٢٠) .

في عام ١٦١٢ باع مويسيس، مع يهودي آخر يدعى ناعوري Naorí، عبيداً لراهبين من جمعية السيدة العذراء، هما الراهب بدرو دي مدينا Pedro de Medina والراهب غاسبار نونييث Gaspar Nú´nez (٢١) .

إنها لحظة صعبة بالنسبة لحكم الأقلية التطواني، لأنه كان يجب على المدينة أن تخضع للسلطان مولاي الشيخ أو المأمون، الذي تحميه إسبانيا، والذي طرد الحكام الأصليين من الموقع، ومن بينهم الشخصية المهمة جدا أحمد النقسيس، الذي هرب إلى الجبال المجاورة. عين الشيخ صديقه المفضل لديه، أحمد بوديبيرا ، حاكمًا على تطوان. حصل بوديبيرا على الجزء الأكثر أهمية في افتداءات عام ١٦١٢ . مع ذلك حصل اليهود على نسبة ١٠٪، و هي نسبة غير قليلة بالمرة، في هذا الوضع غير العادي الذي كانت تمر به المدينة.

كانت الظروف مختلفة جدا في عام ١٦١٤ ، مع وجود النقسيس الذي أُعيد مرة أخرى إلى مكانه بين أتباعه، و بعد أن كان كل من الشيخ وبوديبيرا قد قُتلا في العام السابق، بالتحديد في تطوان أو في أماكن مجاورة لها. بالرغم من استمرار جو الصراعات الأهلية في كل المغرب .

لم يعـانى مـويسـيس مكسـيـاس فـقط من التـغـير، ولكنه با ع، عن طريق العـمـولة، بالإضافة إلى عبيده، عبيد المقدم أحمد النقسيس الذى كان يوليه ثقته الكبيرة.

تجاوزت مبيعاته ١٥٪ فقط من الإجمـالى، بالنسبـة لحجم المبيعـات مع السـادة الأكثر ثراءً، مثل النقسيس نفسه أو حامد بوردان.

تمت العـمليـات فى ريف تطوان، أرض المسلمـين، وهناك كان أحـمـد النقسـيس، مقدم مـدينة تطوان، يرسـل أسراه و كان يحضرهـم مويسـيس ميكسيا، اليـهودى، لكى يتـم الاتفـاق على افـتـدائهم، وبـعـد تجـاوز بعض الاختـلافـات بين الطرفـين اتفـقـوا وعقدوا ...[٢٢] .

حدد الكُتاب أكثر من مرة فى كشوفهم، مكان إقامة مويسيس ميخياس فى سبتة. سـجل ذلك واحـد منهم يدعى خوان دى لاكيتيـغى Juan de Laquitegul فى ١٦١٥ بكل وضـوح. من المهم أن نعـرض باخـتـصـار ظروف الحـالة، التى تـوضح كل مـا يتـعلق بالافتداءات والدور الذى يلعبه اليهود. فى هذا التاريخ كانت حملات الجمعيات الدينية إلى الجزائر متوقفة، بسبب واقعة افتداء أدت إلى مشاكل . حينئذ كان رجال الدين، الذين يذهبون إلى تطوان، يحاولون من هنا، إرسـال سـفن إلى الجـزائر لتحـرير ما يسـتطيعون. هذا هو ما تناقش فيه الرهبان مع آمى بن عمارAmi Benamar، القائد التطوانى الأكبر، لكى تذهب سفينته لحساب حامد بوردان، أحد تجار العبيد الأثرياء وذوى النفوذ، إلى الجزائر، مع بقاء مويسيس مـخياس كضـامن. رد القائد بأنه لذلك من الضـرورى الانتظـار حتـى يوم الاثنين عندمـا يصـل مـيسـيـاس مـن سبـتـة، حـيث كـان يقيم[٢٣] .

لم يتم التوصل إلى تنفيذ العملية، بسبب خلاف بين الأطراف، و لكنهم، بدلاً من ذلك، فى ١٥ من مـايو عـام ١٦١٥، قاموا بتحـرير ٧٠ أسيراً ملك لسـادة تطوانيين، من بينهم ١٠أسـرى لمويسـيس مـخيـاس و٣ ملك سـالومـون بارينتى Salomon Pariente ، حيث حصل اليهوديان على نسبة ٤٠٪ من المجموع. يجب الإشارة إلى أن العبيد الذين باعهم أحمد النقسيس كانوا أيضًا عشرة . المقارنه لها مدلول أكبر من كلمات كثيرة. لا نجد افتداءات أخرى حتى عام ١٦٢١، ولكن وجدنا روايات عن وساطات للأب أورتيث

Ortiz ، فى أعـوام ١٦١٧ و ١٦١٨، بهـا بعض المعلومـات الغـريبـة جـدا ليس هـذا هو الوقت المناسب لإبرازها. مع ذلك، فقد كـانت لديه بعض الملحـوظات عن اليـهـود حـيث أبرز، دون تحديد أسمـاء، دور الوسـاطة الذى كانوا يقومـون به فى عـمليات الافـتداء. حتى لو كان الناس لا يحبون أورتيث، كان يجب الاعتراف بقيمة نصائحه.

عندما كان الأب أورتيث دى لويانده يحكى أحداث رحلته الأولى فى ١٦١٧ ، روى كيف وصلوا إلى تطوان، و كيف زاروا على الفور المقدم الأكبر ... المسمى النقسيس، الذى أثنى عليه رجل الدين الطيب. فى اليـوم التالى، فـتحنا باب مـسكننا الموجـود فى حى اليهـود، فى منزل شـخص يدعى جاكوب تابيرو... تقابل مـع بعض الحراس الذين عينهم المقدم. تناقشوا مع النقسيس وقال الراهب وهو مـتضـايق إنه سـوف يرحل إلى سبتة دون أن يقوم باى افتداء. لكن " كان اليهود ينصحوننا بأن نتوصل إلى التعامل فى قـضـية الأسـرى مع كل حـالة على حدة، ومـعـرفـة كم عـدد الأسـرى الذين يريد أن يبيعهم الحاكم و المقدمون، و قالوا لنا إننا لو عقدنا هذا الاتفاق بشكل جيد فمن السـهل الوصـول إلى اتفـاقـيات سـهلة بالنسـبـة للعـبـيد المملوكين لمواطنين من تطوان. كـانت نصيحة جيدة" [٢٤] .

كتب بعد ذلك:

كنت أتمنى فى الحديث عن هذا الافـتداء، قول الكثـير من المجابهات الجدلية التى قامت بينى و بين اليهود عن حقيقة ديننا و زيف دينهم، لكننى لم أفعل ذلك لكى لا أطيل فى حديثى [٢٥] (*).

كان يبدو أن التطوانيين يشعرون برغبة خاصة فى حفز رجـال الدين المسيحيين الذين كانوا يأتون، لكى يذهبوا إلى معابد الحى اليهودى لكى يتناقشوا مع الحاخامات.

(*) تجدر الإشـارة إلى أنه فى تلك الفـترة كانت هـناك مـجابهـات جدلية بين المسلمين و المسيـحيين واليهود، وكانت تلك المناظرات تتم فى أى مكان، حتى فى سجـون مـحاكم التفـتيش. أنظر على سبيل المثال المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية . (المراجع)

حدثنا بالفعل كاتب سيرة الأب كونتربيراس فى العقد الرابع من القرن السادس عشر عن هذه الأحداث.

يتحدث الأخ بدرو أورتيث دى لويالندو عما حدث له فى عام ١٦١٨، وعن اليهود بهذه الكلمات:

كان اليهود، الذين هم رجال معروفون بالتدخل فيما لا يعنيهم والقيام بالتجارة فى كل شىء، يقولون إنهم بذهابهم وحضورهم إلى سبتة يمكنهم أن يحضروا لنا الأسرى الذين نريدهم، ولهذا قدموا لنا بعض القوائم، التى يسمونها هناك كشوفات، للأسرى الموجودين فى تطوان. ليس ملائمًا، ولن يكون أبدًا أن ينفذ الافتداءات سماسرة أو يهود (٢٦) .

إن قراءة أورتيث واعية ومفيدة لأنها تكشف لنا المواهب الخاصة التى كان يملكها هؤلاء اليهود السفارديم(*) لكى يجعلوا أنفسهم لا غنى عنهم بالنسبة للطرفين، للرهبان وللموريسكين، على السواء.

تخدمنا مذكرات هذا الراهب أيضًا لكى نتعرف على وجود إحدى العائلات العبرية الأكثر قدمًا من بين العائلات megorachin المغاربة، فى تطوان، منذ هذا التاريخ ١٦١٧، وهى، عائلة طابيرو Tapiero التى سوف تكون المرة الوحيدة التى تظهر فيها فى الوثائق المستخدمة.

يوجد فى الدراسات الحديثة شخص واحد فقط يدعى ميير طابيرو Mier Tapiero، وهو حاخام فى الرباط فى القرن السابع عشر، لكن لا يوجد أحد من هذه العائلة فى تطوان (٢٧) .

فى هذا الصدد يجب أن نضيف أن كلاً من المخطوطات التى نستخدمها، بالإضافة إلى الدراسة التى تشغلنا، مهمة لبحث قِدم وجود العائلات أو ببساطة

(*) السفارديم هم يهود الشرق أو يهود الأندلس . (المراجع)

لبحث وجود عائلات يهودية محددة فى تطوان، فى الفترات التى نتحدث عنها. وهى معلومات متسلسلة زمنيًا لن نجدها بالتأكيد فى أى مكان آخر بمثل هذه الكمية.

لم يظهر أيضًا فى الدراسة السابق ذكرها أى يهودى من عائلة بارينتى Parlente فى تطوان [٢٨] . مع ذلك فقد رأينا بيع عبيد هناك فى عام ١٦١٥ لشخص يُدعى سالمون بارينتى. لم تكتشف هذه المصادر الحديثة أفراد عائلة بيمنيتا المهرة، الذين تم تسجيلهم فى مخطوطات عامى ١٥٧٩ و ١٥٨٣، سواء فى تطوان أو فى القصر الكبير، حتى عثر على هذه المخطوطات فى عام ١٧٧٥ فى تطوان [٢٩] .

و حتى ميخياس نفسه، الذى نستطيع أن نرجعه وثائقيًا إلى عام ١٥٨٣، فى تطوان وسبتة[٣٠]، لم يتم ذكره فى تلك المصادر حتى القرن السابع عشر، التى ذكرت فقط حاخامًا يدعى خوسيف ميخياس [٣١] ، يحتمل أن يكون آخر من ظهر فى مخطوطاتنا.

من الممكن عمل دراسة موازية، و الاستمرار فى مقارنة المعلومات التى يوفرها البعض، لكننا نعتقد أن هذا ليس هو المكان المناسب.

تستحق المصادر الجديدة التى نقدمها الآن، ليس دراسة واحدة ولكن دراسات عديدة مشابهة للدراسة المعروضة، لاحتوائها على مجموعة من المعلومات الجديرة بالاهتمام.

فى عام ١٦٢١ نجد مويسيس ميخياس المعروف، يقوم بعمله المعتاد لمصاحبة الأسرى المسيحين المتفق على سعرهم إلى سبتة، أى هؤلاء العبيد الذين تم الاتفاق على سعرهم وفعليًا هم أحرار. يتبقى فقط الحصول على النقود أو البضاعة المودعة فى سبته والتى اعتادت أن تمر بأيدى ميخياس نفسه من أجل ملاّك العبيد.

كان اليهودى خوسيه ألييو José Aililo مالكًا لأحد العبيد المباعين، و ربما يكون سليل موردافاى ألييو الذى ظهر فى افتداءات عامى ١٥٧٩ و ١٥٨٣، الأمر الذى يشير إلى وجود مجموعات اقتصاديه متخصصه، داخل الأمة اليهودية التطوانية، مثل التى كانت موجودة فى قلب المجتمع الموريسكى.

يوجد فى عائلة ميخياس اسم آخر، إسحاق، رافق أفراد النقسيس فى هذا العام ١٦٢١، عندما ذهب هؤلاء إلى المسكن حيث كان يقيم الرهبان، و ذلك بالتأكيد بصفته مترجمًا وموفدًا. نتذكر أن الآباء المفتدين كانوا يسكنون فى حى اليهود (٣٢) .

إنه العام الأخير من حياة و حكومة أحمد النقسيس، ذلك الحاكم العجوز، الذى ازدهر تحت حمايته اليهود التطوانيون، و كونوا عنصرًا لا يمكن الاستغناء عنه فى حركة المدينة، جنبًا إلى جنب مع الموريسكيين.

عندما توفى، فى أكتوبر ١٦٢٢، هذا "العجوز الأعور والأصلع " الذى كان أكبر أفراد عائلة النقسيس و واحدًا من أبرز الشخصيات الإنسانية العظيمة فى وقته، كنا متأكدين من أن المجتمع اليهودى بالكامل كان من بين آلاف التطوانين الذين بكوه، وفقًا لما يقوله ضريحه.

كانت المخطوطات الأولى التى لدينا، بعد موته، عبارة عن افتدائين لنفس العام، ١٦٢٥ . قام رهبان جمعية "الثالوث المقدس" بالافتداء الأول فى تطوان، و قام رهبان جمعية "مريم العذراء" بالافتداء الآخر فى طنجة.

يعكس الافتداء الأول فترة حكم جيل عائلة النقسيس الجديد، إخوان النقسيس، الذين حكموا شئون البلاد بموافقة الجميع.

فى تأمين تم إعطائه إلى الراهب غابريل دى لا اسونثيون Gabriel de la Asunción والراهب سبستيان دى لامادرى دى ديوس Sebastián de la madre de Dios من جمعية "الثالوث المقدس"، وجدت توقيعات، باللغة العربية، خاصة بإخوان النقسيس. إنها الوثيقة الوحيدة التى وجدناها بمثل هذا الأثر الكبير لكيان تلك العائلة التاريخية (٣٣) .

فى ١١ يونيه ١٦٢٥ زار الراهبان السابق ذكرهما، واحدًا من الحكام، عيسى النقسيس، الذى كان يساعده سكرتير ومترجم. الأول هو الموريسكى الإشبيلى قاسم دى كارديناس Casimi de Cárdenas، والثانى هو اليهودى إسحاق ميخياس (٣٤) .

فى نفس العام ظهر رهبان جمعية العذراء فى طنجة، أى فى الموقع القوى الآخر للمضيق الذى كان فى أيدى السلطة الملكية الإسبانية.

من النادر وجود افتداءات فى طنجة، لعدة أسباب. كانت طنجة أبعد من سبتة بالنسبة للسوق الأساسى للعبيد فى تطوان، وكان من الأسهل الذهاب من المضيق من جبل طارق إلى سبتة. و كان يمكن القيام برحلة من سبتة إلى تطوان و كان من الأسهل الاقتراب عبر البحر الى أليناكار Alminacar، وهى رنكون المضيق Rincón الحالية، ومن هنا يتبقى فقط خمسة عشر كيلو متراً على المدينة الموريسكية. كان الطريق من طنجة إلى تطوان مجهداً بصورة أكبر و طويلاً إلى حد ما. على كل حال، فقد نُفذ افتداء عام ١٦٢٥ فى طنجة من المدينة نفسها أى يعنى، أن رجال الدين لم يدخلوا بلاد البربر، بل مكثوا فى مسكنهم فى طنجة. جاء إليها الموريسكيون التطوانيون مع عبيدهم ومطالبهم الاقتصادية. و كان موظف من طنجة، يُدعى مارتين دومنيغيث Martín Domínguez، مسئولاً عن المفاوضات لافتداء عدة أسرى من سلا، التى كانت سوق العبيد الكبير فى الجنوب المغربى، و هذا هو الذى حدد موقع هذا الافتداء فى طنجة.

حمل سكرتير عائلة النقسيس، قاسم دى كارديناس وحامد تاغارينو الهورناتشى عبء المحادثات لافتداء العبيد التطوانيين.

مع ذلك نجد كشف حساب يجذب اهتمامنا بشدة: تم افتداء فرانثيسكو دى خيسوس Francisco de Jesús، و أصله من فاس، يهودى المنشأ، و تحول إلى عقيدتنا المقدسة. قضى خمسة عشر عاماً وهو يعيش متزوجاً فى قادش، وظل أسيراً أكثر من ثلاثة أعوام،كان فى سلا تحت قبضة القائد عبد العزيز Audalacis . وافتداه الراهب مارتين دومينغيث بـ ٢٠٠٠ ألفين ريال(٣٥) .

حتى الآن ظهرت لنا،فى نصوص ووثائق مختلفة،حالات من اليهود الذين عادوا من أراضى إفريقيا إلى شبه الجزيرة و طلبوا التعميد،بعد أن أزعجتهم أوضاع المنفى.

على سبيل المثال قال المؤرخ بيرناليث Bernáldez الراهب، إنه تم تعميد مائه منهم.

لكن هذا كان فى العصر القريب للمنفى و قد تنصّر اليهود الذين كانوا يحافظون على ذكرى الوطن حية بداخلهم.

هذه الحالة، التى تنصّر فيها يهودى مولود من فاس، بعد قرن، هى الأكثر غرابة من كل الحالات التى استطعنا العثور عليها. و قد زاد أسره وافتداؤه اللاحق من دهشتنا.

الحقيقة هى أننا لم نشبع رغبتنا فى معرفة بعض التفاصيل التكميليه عن الظروف الحياتية للشخصية.

فى هذا الافتداء الطنجى ظهر أيضًا ميخياس، و دُفع له ثمن افتداء أمة كان يمتلكها منذ سبع أعوام وكان عمرها ٢٠ عامًا. قُبض عليها عندما كان عمرها ١٣ عامًا فى السلب الذى قام به القراصنة الأتراك والموريسكيون فى جزيرة لانثاروتى Lanzarote وحُملت إلى تطوان، حيث وقعت فى أيدى ميخياس.

حدث فى تطوان، بين عامى ١٦٢٥ و١٦٢٧، اغتيال العديد من إخوان النقسيس، وكان من بينهم واحد من أكثرهم مكانة لكنه، فى نفس الوقت، أكثرهم استبداداً وقسوة، وقد أفقده تنافر الأمة الموريسيكية صوابه،على الأخص،تنافر العائلات القديمة من أصل غرناطى مباشر.

حاك أعداؤه السياسيون،الذين كان يوجد من بينهم بوعلى، مؤامرة حيث انقضوا عليه فجأة،عندما كان يشرب الخمر مع اثنين من إخوانه، الأمر الذى اعتادوا فعله نهاراً وليلاً فى بيت إحدى اليهوديات، وذبحوا الثلاثة ...[٣٦].

و كان هذا مظهراً من اللهو فى الحى اليهودى التطوانى، والذى نوضحه لأنه لم يكن، أبدًا، غير مألوف.

و لأن النبيذ محرمٌ بين المسلمين،فكان العبيد المسيحيون واليهود هم الذين يملكون الحانات المسموح بها،حيث كان المسلمون يذهبون إلى هناك سرًا.

فى ١٦٣٢ نفذ رهبان جمعية الثالوث المقدس افتداءً فى تطوان و ذهبوا أولاً إلى سلا حيث اشتروا عبيدًا لملاك رقبة كثيرين،وعند الرجوع،افتدوا اثنى عشر عبدًا من سادة تطوانيين. لن نجد أى يهودى متدخلاً ،تحت أى مفهوم، فى رحلة المفتدين هذه.

فى هذا الصدد،يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن الرباط، سواء القصبة kasabah أو القلعة،أو المدينة المحيطة قد أسسها و سكنها الموريسكيون المطردون عام ١٦١٠ ، دون أى إسهام من أشخاص أو جماعات من اليهود.

على عكس ما حدث فى تطوان،حيث توافدت مجموعات من الموريسكيين واليهود عند سقوط المملكة الغرناطية و اتحدت مع أوائل الإسبان المسلمين،الذين أسسوا المدينة. من هنا فإن السفارديم التطوانيين كانوا يتمتعون بوضعٍ اقتصاديٍ واجتماعيٍ ذى امتيازات، إذا ما قورنوا بالوضع الذى كانوا يتمتع به الباقون فى أجزاء أخرى من المغرب.

مرة أخرى يقوم رهبان جمعيتى العذراء و الثالوث المقدس بعمليات افتداء فى تطوان فى عام ١٦٣٣ وعندما نؤكد ذلك فلأننا ببساطة وجدنا المخطوطات الخاصة بهذا العام.

كان هؤلاء الرهبان أول من وصل، فى شهر أغسطس، حيث قاموا بالرحلة فى مركب صغير من سبتة الى ألمونييكار Almunécar، ورينكون Rincón، ومنها إلى تطوان، مع موكب من ١٠٠ جندى من حملة البنادق و٣٠ فارسًا أرسلهم الحاكم، الحاج بوعلى (٣٧) .

حدث غياب جزئى لسلطة عائلة النقسيس،عندما ثار السكان ضدهم بعد وصول قوات من واحد من الطامعين فى السلطة يدعى العياشى Ayasi أو المرابطى Morabito .

وصل رهبان جمعية الثالوث المقدس فى نوفمبر، واشتروا عبيداً، من بين أشياءٍ أخرى، من مسعود بيناتاس Maçod Benatas وخوسيه ميخياس José Mejías وماركوس بناتار Marcos Benatar . من المحتمل أن يكون مسعود وماركوس من نفس العائلة،بالرغم من أن الكاتب يبدو أنه سجل أثنين مختلفين (٣٨) .

فيما يتعلق بالأسماء، كانت هناك واقعة جديرة بالتأمل، و هى التسمية المتشابهة لأحد رهبان جمعية العذراء وأحد اليهود، و هما الراهب غابرييل ميسيا وخوسيه مكسيا. كم من المرات تشابهت فيها ألقاب موريسكية بأخرى تخص أتباعهم الأسرى، فى هذا العالم الغريب الذى يكونه سوق العبيد فى تطوان !

فى ١٦٣٥، كان أفراد النقسيس لم يستعيدوا بعد نفوذهم فى المدينة. لُقب بوعلى بنائب قائد رباط تطوان و لُقب سليمان قاديمى، القائد السابق لخاروب Jarrub" بالقائد العام "(٣٩) . كان الموريسكى على سوريا "سكرتير حكومة تلك البلاد". أقام الآباء المفتدون كعادتهم فى حى اليهود، وفقًا لما تم تقييده فى كشف حساب لمائتين و تسعة ريال دُفعت لليهود ملاّك المنزل الذى سكنوا فيه(٤٠) .

اتفقوا على أسعار العبيد، مع عدة ملاّك رقبة، نجد من بينهم العبريون، ابن ثاميراBen Zamirra و موسى بيناتارMoisés Benatar وأبراهام ميخياس Abraham Mejías .

كان لدى بن ثاميرا، الذى كان يملك أكثر الأسرى، غنيمة قيمة :السيد بدرو خيرون Pedro Girón وزوجته وابنة لكلاهما مولودة فى الأسر فى تطوان.

حرر كلٌ من بيناتار و ميخياس عبداً واحداً فقط.

باع اليهود التطوانيون هذه المرة عبيداً أقل. وصلت مطالبات الكثير من الأسياد، الذين ظلوا دون بيع غنائمهم، إلى الذروة فى هذه المناسبة.

كانت الأغلبية، كما نعرف، تعيش على القرصنة و قد أدى تقييد وسائل حياتهم إلى حدوث الخيانات والاستياءات غير الظاهرة تقريبًا.

شهد الكُتّاب والمفتدون بطريقة غير منتظرة، فى شهر ديسمبر ١٦٣٥، ثورةً نشبت فى المدينة و دونوها فى ملاحظتهم، لأن التكاليف قد زادت عند منعهم من الخروج من الموقع.

دخل الموريسكيون الجدد، الذين وصلوا بعد عام ١٦١٠ ، و عرّفهم الكاتب بأنهم أندلسيون، فى منزل الحاكم وطعنوه.

إنها أيضًا فتنة ضد المرابطى الذى كانت تكرهه غالبية الموريسكيين، وبخاصة الذين وصلوا مؤخراً.

لم يعانى اليهود، على هامش التنازع على السلطة، من أى مكروه. كان الافتداء على وشك أن يُلغى، لأن المتآمر الأساسى، القاتل الأساسى، أحمد ديل مورال Ahmed del Mural كان يطلب أن يفتدوا له أسراه، لكن فى النهاية استطاع الرهبان الذهاب إلى سبتة مع الأسرى المتفق عليهم.

تكوّن فى المدينة مجلس من ٢٤ حاكمًا سمح بتحرك رجال الدين والمحررين. حكم هذا المجلس، المسمى ديوان، تطوان على مدى بعض الأعوام، دون أن يتبع أى ملك أو ولى، وكان من أهدافه المحددة جدا الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم فقط، وفقًا لما أُعلن فى خبر من شهر نوفمبر ١٦٣٧ [٤١] .

لا يبدو أن الاشياء تغيرت كثيراً بالنسبة لليهود التطوانيين، إلا فى نقص أنشطتهم المرتبطة بالقرصنة.

وقّع واحدٌ من حكام الديوان، يدعى براهيم مارين الزبان Brahim Marin az Zaban تأمينًا فى ٢٥ من يناير عام ١٦٣٦، لرهبان جمعية الثالوث المقدس الذين ذهبوا إلى تطوان لافتداء الأسرى، و أقاموا كالعادة فى مسكن يهودى فى حى اليهود[٤٢] .

سيحتكر "الأندلسيون" المبيعات فى هذه المناسبة. و فى العام التالى باع سليمان ميخياس عبداً واحداً فقط، كما حدث من قبل[٤٣] .

استعاد المرابطى السيطرة على البلاد مؤقتًا، ويبدو أن هذا سبَّب إنتعاشًا وسط الضغط الاقتصادى الذى كانت تعانى منه الأمة اليهودية، وفى ١٦٣٩ كان هناك العديد من اليهود الذين استطاعوا بيع عبيدهم.

فى هذا العام قام كلٌ من ماثود بيناتار وابن ثاميرو وثلاثة من عائلة ميخياس: أثايا وسالمون وخوسيه، ببيع عبيدهم[٤٤] .

مع ذلك يُلاحظ انخفاض فى المبيعات التى قام بها اليهود فى الافتداءات المتتالية، مع استثناء بعض الحالات الخاصة. و الحقيقى أن المنافسات كانت كثيرة ولو كانت قليلة لانحدرت القرصنة.

ربما شكّلت الآثار المعمارية التى لا زلنا نستطيع تأملها إحدى علامات الفقر التصاعدى لهذه الأمة. فمدافنهم أخذت فى التبسط على طول القرن السابع عشر، وفقدت هذه الزخرفة الغنية التى كان يتميز بها القبر اليهودى للقرن السادس عشر فى جبانات قشتالة.

تواجد ٦٦ سيداً مع عبيدهم فى الافتداء الذى قام به رهبان جمعية العذراء فى عام ١٦٤٠ . كانوا كثيرين أولئك الذين يرغبون فى العيش مباشرة من هذه التجارة.

حضر كثير منهم مع أسير واحد فقط . تكرر ذكر أسماء آخرين فى أعوامٍ متتالية، بغنائم ذات قيمة فى الكم والكيف، و جمعوا ثروات حقيقية.

انتفع الحكام بالطبع من مناصبهم، و جمعوا عبيداً وبالتالى كانوا يحصلون دائمًا على أكبر نصيب من الأملاك التى يحضرها المفتدون.

باع براهيم بن على، الحاكم، ١٤ أسيراً و استفاد بربع الفوائد التى تجلبها عملية الافتداء.



شكل (هـ)

هنا نجد مسعود بيناتار الذى باع أسيرًا واحدًا فقط، لكن بمكافأة جيدة جدا. الأمر يتعلق، إذن، بالراهب كليمنيتى **Clemente** من الرهبان الفرنثيسكان الذى ثمَّن السعر بثلاثة عبيد عاديين. و كذلك قام اليهودى بن ثاميرو ببيع عبيد. لكن الذى استمر فى كونه متخصصًا وجمع عبيداً وثروات هو خوسيه ميخياس الذى باع ١٣ أسيراً وحصل على مكاسب قيّمة(٤٥) .

حصل تقريبًا على ثلث المكاسب التى فاز بها الحاكم، و هذا ما يشير إلى جو التسامح الذى عاشت فيه الأقلية اليهودية فى تطوان.

عندما ثارت البرتغال فى ذلك العام و بدأت حربها من أجل الاستقلال عن سلطة قشتالة الملكية، كان لكل من طنجة وسبتة، ظروف مختلفة.

ثارت طنجة، لكن بعد مرور ثلاثة أعوام خضعت لسلطة السيد خوان دى براغانثا **Juan de Braganza**، بينما بقت سبتة مخلصة لفيليبى الرابع، الذى عين لها حاكمًا قشتاليًا للموقع يدعى خوان فرنانديث **Juan Fernández** من قرطبة. استمرت إذن الافتداءات فى المغرب، و اتُخذت مدينة سبتة كقاعدة انطلاق.

يشير لنا أحد أخبار هذه المدينة إلى أنه كان من بين الاستعدادات الأولى للماركيز عقد بعض التأمينات أو الاتفاقيات، باسم صاحب الجلالة، مع سيدى محمد بن عيسى النقسيس، حاكم تطوان، و كانت تشمل بعض النقاط المعينة المتعلقة باليهود، وهو ما يعتبر إثبات واضح للأهمية التى كان يعطيها كلا الجانبين لتصرفات هذه الأقلية.

كانت تلك النقاط هى التالية:

كل شخص مسيحى أو مسلم أو يهودى لديه دعوى على أى دَين، و حصل على حكم من قضاة هذه المدن، سبتة أو تطوان، فإن الحكم يُنفذ دون استئناف لتفادى التأخير.

أن القافلة يمكن أن تأتى من مدينة تطوان إلى سبتة دون تأمين خاص وتصل نهارًا أو ليلاً وتُفرَّغ وتُؤمَّن عند الدخول دون الإصابة بأذى أو أى مضايقة لأن هذا التأمين يشمل الذين يأتون فيها من المسلمين واليهود.

أن اليهود الذين يذهبون ويجيئون فى هذه القوافل أو فى خارجها إذا كانوا سكانًا لمدينة تطوان أو حضروا مع ممتلكاتهم فيها، يدخلون فى هذه المدينة.

أى يهودى أو يهود يكونون فى هذه المدينة أو فى مدينة تطوان وعليه أى دين إلى تاجر أو أى شخص آخر و يستدعيه لسداد الدين، فإنه يُرسل إلى حاكم تطوان دون تأخير.

إذا كانت دابتان هما اللتان تأتيان إلى هذا المكان مع مسلمين أو يهود فسوف تتمتعان بما ينطبق على القافلة.

أن كل التجار، مسلمون أو يهود، الذين يأتون فى قافلة، لا تُحتجز ممتلكاتهم بسبب ديون ليست عليهم شخصياً[٤٦] .

القراءة الوحيدة لنقاط الاتفاق المتعلقة باليهود تدلنا على أن الجزء الأكبر من المعاملات التجارية يتعلق بهم بطريقة مباشرة، وكان يجب ذكرهم بوضوح لكى تكون مقبولة على أساس صحيح.

نستنتج أيضاً من إحدى فقرات هذا العقد أنه كان هناك يهود يقيمون فى سبتة، وهذا كان وضع بعض أفراد عائلة ميسياس[٤٧] .

بعد خمسة أعوام، ومع محمد النقسيس فى منصبه كحاكم تطوان، استمر كلٌ من ثاميرو أو خوسيه ميسياس فى بيع العبيد.

فى الوثيقة التالية، فى العام التالى، اجتمع الكاتب غريغوريو أباركا، فى وجود رجال الدين، مع اليهودى خوسيه ميسياس فى سبتة وكونت توريس بدراس-Torres Ve dras ، حاكم الموقع وخليفة ماركيز ميراندا.

حضر ميسياس كمترجم، بالرغم من أنه كان يمكن أن يحضر بصفته خبيراً فى الموضوعات التى كان يحملها الرهبان بين أيديهم. كان مستمراً فى الإقامة فى سبتة، بالرغم من أن فترات إقامته فى تطوان كانت متعددة وممتدة. كان لديه، فى تطوان، وديعة من العبيد التى كانت تتحول إلى بضائع ونقود فى كل رحلة للمفتدين.

لم يبع الكثير هذه المرة بالرغم من كونه اليهودى الوحيد الذى يفعل ذلك[٤٨] .

مر عامان، وفى ١٦٤٨ ، استمر خوسيه ميخياس فى كونه الوحيد الذى يبيع الأسرى بين خمسين من المنافسين الموريسكيين[٤٩] .

كان لخوسيه ميخياس منافسٌ آخر، فى عامى ١٦٥٤ [٥٠] و ١٦٥٦ [٥١] يُدعى إسحاق بارينتى، عاد إسحاق ثاميرو للظهور مرة أخرى فى عام ١٦٥٦ .

لن يختفى عن أنظارنا خوسيه ميخياس فى عام ١٦٦١ [٥٢]، بالرغم من أن حسابات رهبان جمعية الثالوث المقدس لم تسجل أسماء سادة موريسكيين أو من أى طبقة، ولكن وقّع الشخص الاسفرديمى العجوز تأميناً معطى إلى رجال الدين بتفويض من الحاكم، حامد بن عبد الكريم النقسيس.

كانت مسئولية سكرتير الحاكم من أسمى المناصب التى يمكن أن يصل إليها يهودى تطوانى. أما الدرجة التالية، وهى الحاكم، كان لا يمكن الوصول إليها حتى بالنسبة لأغلبية الموريسكيين.

كان حسن الفهم المتبادل والتسامح ومستوى الحياة الجيد عامة بين الأقليتين المنفيتين على أفضل وجه.

فى ٢٥ يناير عام ١٦٦٤ حصل رهبان جمعية الثالوث المقدس على تأمين من عبد الكريم النقسيس نفسه و من أخيه أحمد، اللذين حكما تطوان باسم خضير غايلان Ja-dir Gailán . و هو أندلسى آخر له تطلعات فى السلطة. وقع سكرتيره خوسيه ميخياس بتوكيل منهم.

قبل ذلك بيومين أرسل الرهبان، من سبتة، اليهودى المسمى بوتيمير Botimer كرسول إلى غايلان الذى كان يقيم فى أرسيلة[٥٣] .

إنها الوثيقة الأخيرة التى بها استشهادات عن عائلة ميسياس هذه، وبالتحديد، عن خوسيه ميسياس الذى رأيناه فى مخطوطات كثيرة و الذى لن يكون موجوداً فى هذه الفترة من العقد السادس للقرن. فقدنا أثر اللقب الذى بدأ بميخياس السمين هذا فى مخطوط عام ١٥٨٣ .

إنها أكثر من ٨٠ عامًا متصلة من الوجود الوثائقى. نفس الأعوام التى ظهرت فيها العائلات الموريسكية التطوانية القديمة، مثل عائلة النقسيس نفسها.

كان خوسيف ميسياس حاخامًا فى تطوان فى القرن السابع عشر، وفقًا لدراسة حديثة عن الأسماء اليهودية فى المغرب، و هو الأمر الذى يكمل قليلاً صورة تلك الشخصية التى حصلت على ثروة كبيرة ووضع سياسى، فقد تولى المنصب الدينى الأكثر علوًا داخل أمته(٥٤).

عندما أصبح مولاى راشد حاكمًا لتطوان، اختفى بالتأكيد ميخياس العجوز الذى تولى المنصب منذ أعوام، دون أن تستمر سلالته فى القيام بالوظائف التى قام هو بها لخدمة الجميع: الاسفرديم والموريسكيين، و أيضًا المسيحيين.

كان يجب على السلالة الفلالية الجديدة أن تعتمد على خدم آخرين، بين اليهود الذين استمروا فى الظهور كتجار للعبيد.

يوجد فى عام ١٦٦٩ شخص يدعى يعقوب بينيمى Jacob Benemi، باع بمفرده أسيرين(٥٥)، لكن فى عام ١٦٧٤، عندما كان مولاى اسماعيل حاكمًا، كان هناك كثيرون يفعلون ذلك مثل اسحاق بوداران Isaac Budaran و خودا أمبران Juda Ambran وصافى بنساتين Safi Bensaten وحسن بيناتار Hasen Benatar وخوسيف مايماران Joseph Maimaran وإسحاق سانانيس Isaac Sananes .

زار يهودى آخر، يدعى هارون Aron، الآباء المفتدين فى مسكنهم كمترجم(٥٦) .

إن تغير السلالة الملكية، وبالتالى، الموقف السياسى فى تطوان لم يؤثر بصورة مرئية فى حركة تجارة العبيد، ولا فى الوضع الاجتماعى لليهود. ستتغير الأمور شيئًا فشيئًا، لكن اليهود استمروا فى افتداء مسيحيين مقبوض عليهم فى حركات القرصنة.

لم تفتقر آخر وثيقة نعرفها من القرن السابع عشر إلى أسماء يهودية، بالرغم من أن كاتب الوثيقة لم يصفهم بطريقة مشابهة لما هو ثابت فى مخطوطات سابقة، ولكن ليس هناك مجال للشك أن اسحاق بن ثاميرو وابراهام ماركيث وصامويل ماراتشيه هم من أصل يهودى(٥٧) .

فى ٢٧ مايو عام ١٦٧٧ ، وعندما أنهى رجال الدين هذا الافتداء وطلبوا الإذن لكى يرحلوا إلى سبتة مع الأسرى، منحوهم الإذن و أخطروهم بأن يرسلوا اثنين من اليهود وثلاثة مسلمين على أبواب الموقع القوى لكى يحصلوا على النقود المتفق عليها كثمن لهؤلاء الأسرى.

كان اليهود يعرفون أن يجعلوا أنفسهم لا غنى عنهم فى المعاملات التى تميزوا فيها بسبب مرونتهم وفطنتهم المالية. مع ذلك فإن تكدس السكان من الموريسكيين قد أثر كثيراً فى هبوط أنشطتهم التجارية، وبالأخص الناتجة من القرصنة. إن مجرد قراءة قوائم سادة العبيد بداية من عام ١٦١٠ تجعلنا ندرك أن سكان تطوان الجدد، أفراد عائلة كاستيبيو و بيرالتا وكانتيانا وليون وموراليس وأرغوان و كابريرا وبلانكو وميندوثا وكاريون وغيرهم، قد اتجهوا أيضًا إلى تجارة الرقيق، وقللوا هكذا من إمكانيات الذين كانوا يفعلون ذلك منذ القرن السادس عشر، سواء الغرناطيون القدماء أو الموريسكيون اللاحقون.

على الجانب الآخر بدأ نشاط القرصنة فى التلاشى تدريجيًا كلما دخلنا فى القرن السابع عشر، و أصبح نادراً جدا فى فترة حكم مولاى إسماعيل، الملك الذى كان يعتبر العبيد المسيحيين كغنائم للدولة وبالتالى، ملك خاص للامبراطور.

عانت القرصنة من تقهقر اقتصادى ملحوظ، عند اختفاء أحد أسباب أهميتها الكبرى، وعلى الأخص فى النصف الثانى من فترة حكم مولاى اسماعيل، لأنه فى الأعوام الأولى من حكمه استمر فى التسامح فى بيع الأفراد أسراهم كما كان يحدث فى السابق.

يجب إضافة شيء أكثر حسمًا يتعلق بالنسبة لانحطاط أسواق العبيد وهو أنه مع مولاى راشد وحتى مع أخيه وخليفته مولاى اسماعيل اختفت استقلالية المدن الموريسكية سواء فى الجنوب، (الرباط و قصبة الهورناتشيين)، أو فى الشمال، فى تطوان، حيث أباد مولاى إسماعيل أفراد النقسيس. عانى اليهود، مثل الجميع، من تغير الاتجاه الاقتصادى المركزى الناتج عن قرارات الأسرة الملكية الجديدة، ولكنهم لم يفقدوا تأثيرهم كليةً فى دوائر السلطة.

تذكر رواية غير منشورة، تشير بالتحديد إلى تطوان، أن مولاى راشد، قبل أن يذهب إلى المدينة لكى يضمها إلى أملاكه، أرسل إليها سكرتيرين عبريين من أتباعه، الأول هو يعقوب غاباى والآخر من عائلة معروفة جدا لنا، يعقوب ميسياس.

من الواضح أن الطامع الجديد فى العرش كان محاطًا بمستشارين من كل طبقة ومن كل مدينة، واختار من تطوان يهوديين كان واحدٌ منهم على الأقل معروفاً بانتمائه إلى الطبقة الراقية فى المجتمع، و كان ذا وزن خاص بين طبقات المجتمع التطوانى المختلفة.

كانت رسالة هذين اليهوديين اللذين أرسلهما مولاى راشد هى التفاوض مع الشعب واستمالة البعض والبعض الآخر للاعتراف بالسيادة.

كان هذا العمل إجباريًا بالنسبة لهما لأن الشخص الذى كان يقوم بدور الحاكم، ويدعى بيناروس، والذى عينه غايلان، قام بالقبض على اليهوديين وأعدمهما دون تسامح.

عندما نجح مولاى راشد فى الدخول إلى تطوان، كان أول ما فعله هو شنق الحاكم، كانتقام وإشارة إلى القيمة والمكانة التى وضعها فى هذين الخادمين الاسفرديم(٥٨) .

استمر اليهود بوجه عام كالمعتاد فى كونهم مستشارين ممتازين ودبلوماسيين عظماء.

ولكن هذا موضوع مختلف عن الذى يشغلنا. تركنا هنا برهانًا واضحًا جدا على التعايش اليهودى – الموريسكى على مدى القرنين السادس عشر و السابع عشر بعد الوصول إلى المنفى.

ليس هناك أى دليل أكثر قيمة من دليل المخطوطات المتعلقة بتكاليف افتداءات الأسرى، لأنها تشير إلى عصب الحياة عامةً، أى إلى تقسيم الثروات، التى هى دائمًا

أصل المشاكل والعداءات و الصعوبات من كل نوع. يكفى مجرد ملاحظة الاضطرابات والثروات التى تسببت فيها.

لم يحوِّل اليهود والموريسكيون، حنينهم أبدًا إلى مواجهات ولم يقوموا بأى نوع من الاضطهاد فيما بينهم(*).

تشاركوا دائمًا فى المنفى القاسى، فى القليل الجيد والسيئ الكثير الذى قدمه لهم هذا المنفى.

ملاحظات نهائية :

التقطنا معلومات عن اليهود فى تطوان من عشرين افتداء ومن وثائق أخرى. كان للرواية، بسبب هذه الظروف، خصائص مشابهة لدراسة إحصائية أكثر من كونها خبرًا تاريخيًا.

إن ما كتبناه ينطلق من مجموع الدراسات التى بدأناها عن حياة الأمة الموريسكية فى شمال المغرب.

داخل هذه الأمة، وخاصة فى تطوان، لا يمكن ولا يجب نسيان وجود الأقلية اليهودية التى تقاسمت المنفى مع الإسبان – المسلمين أولاً، ومع الموريسكيين بعد ذلك.

لكن بالإضافة إلى ذلك نعتقد أنه يجب القيام بملاحظات أخرى ذات أهمية.

الملحوظة الأولى، الصحيحة و المؤكدة فى الموريسكيين، تشير إلى شخصيات وعدد أولئك الذين كانوا يتجهون لتجارة العبيد.

(*) الطرف الذى كان يستطيع ممارسة الاضطهاد لو شاء هو الطرف المسلم، ومن ثم فينبغى الإشادة بتسامح المسلمين الذى عُرف عنهم فى الأندلس وفى المغرب . (المراجع)

من الواضح أن المسألة تحوى لنا اليوم أصداءً أخلاقية يصعب إبعادها عن مجموع الدراسة التى قمنا بها.

مع ذلك يجب على المؤرخ أن يضع نفسه دائمًا فى ظروف اللحظة التى يتأملها.

إن العبودية، لأنها كانت تمارس فى تلك القرون، فإن اليهود لم يخترعوها ولم يخترعها المسلمون.

إن من قرأ قليلاً عن التاريخ سيتذكر أمثلة فرناندو الكاثوليكى الذى أعلن كل سكان مالقة عبيداً، بمن فيهم اليهود، عندما احتل المدينة، و الحالات العديدة لتحويل الموريسكيين إلى عبيد طوال القرن السادس عشر، و بالأخص بعد ثورات هذه الأقلية اليائسة أو الغزوات التى حدثت فى السواحل الإفريقية للبحث عن العبيد والغنيمة.

إن المنفيين الغرناطيين والموريسكيين، الذين طردوا إجبارياً و تسلحوا بالقرصنة، لم يفعلوا أكثر من إطالة الحرب على طريقتهم وردّ الضربة إلى مسيحيى شبه الجزيرة(*) .

بعد ما قيل يجب أن نؤكد أن اليهود، الذين كانوا يشترون ويبيعون عبيداً مسيحيين، والذين كانوا يشتغلون بتجارة الرقيق، قد كانوا داخل أمتهم أقلية ضئيلة وكانت حالات الثراء بينهم استثنائية إلى حدٍ ما.

هنا يجب أن نقوم بتخيل أكبر مما حدث بالنسبة للأمة الموريسكية التى تعمقنا فيها قليلاً ووجدنا أكثر من ألف اسم موريسكى فى المغرب، كقاعدة للدراسة و حسبنا نسبة تقريبية للذين كانوا يشتغلون بمثابرة فى عمليات شراء وبيع العبيد.

و فى المخطوطات والوثائق التى تشير إلى القرن السابع عشر نجد ٢٣ اسمًا مختلفًا لاسفرديم تخص ٢٣ عائلة مختلفة، منهم ٧ لم يحضروا أسرى و لكنهم ذُكروا

(*) لا نستطيع إلا أن نشيد بموضوعية غوثالبيس بوستو حين يعترف بالأخطاء التى ارتكبها حكام إسبانيا فى الماضى. (المراجع)

كملاّك للمنازل التى أقام فيها الرهبان أو الرسل أو المترجمون أو التجار البسطاء. من ١٦ عائلة الباقية، و باستثناء مكسياس أو ميخياس التى بدت عائلتهم متخصصة فى عمليات الشراء والبيع للعبيد وفى التجارة التى تنتج عنها، كانت توجد ثلاثة ألقاب فقط عادت إلى تجارة العبيد على طول السنين: بارينتيى الذى قام بذلك فى ثلاث مناسبات من عام ١٦١٥ إلى ١٦٥٦ وبيناتار فى خمس مناسبات وثاميرو فى خمسة أخريات. ظهر الأثنا عشر مالكًا الآخرون مرة، و باع كل واحد من الغالبية العظمى أسيراً واحداً.

لا يمكن التأكد مطلقًا من أن أى أحد من هؤلاء الأفراد أو العائلات الاثنى عشر كان تاجراً للعبيد. يمكننا قول ذلك تقريبًا عن بارينتى الذى لم يعد منذ ١٦١٥ إلى الظهور فى السوق حتى ١٦٥٤ مع أسير واحد وفى ١٦٥٦ مع أسيرآخر. يتبقى، إذن، ثلاثة أشخاص أو عائلات فقط، اتجهت إلى عمل ثروة مع التجارة المذكورة آنفًا. بالرغم من أنه كان موجوداً فقط ١٥٠ عائلة قاطنة فى تطوان(٥٩)، فإن النسبة تمثل ٢٪ ، و هى نسبة ضعيفة و مازالت أقل من نسبة الموريسكيين المشتغلين بتجارة الرقيق، الأمر الذى يبدو لنا منطقيًا إذا فكرنا أن الأمة اليهودية لم تكن أقلية ذات امتيازات.

هذه المعلومات تؤكد رأينا أن عمليات شراء وبيع العبيد المسيحيين كانت فى أيدى أقلية صغيرة، قريبة بوجه عام إلى قمة السلطة السياسية التى كانت تشكل حكم أقلية محلى و كانت متوارثة أيضًا فى العائلات الأكثر قدرة. حدث هذا مع أفراد مفضل وبوعلى وبوتايبو وبوردان وآخرين قلائل من الأمة الموريسكية، ومع مكسياس، على الأخص بين اليهود(٦٠).

مكث الباقون ، سواء موريسكيون أو يهود ممن تاجروا فى العبيد، أعوامًا قليلة فى التجارة.

من الطبيعى أن يحدث هذا بسبب رأس المال الكبير الذى كان يُحتاج إليه لإعالة الأسير حتى يأتون لافتدائه، و نضيف إلى ذلك أنهم لم يكونوا دائمًا يستطيعون بيعه فى الفرصة الأولى التى كانت تُمنح للسلطات الحاكمة.

حينئذ، فإن العبد الذى يقع فى أيدى من لا يملكون وسائل كافية لإعالته كان يباع مرة أخرى، وذلك بمكسب صغير، إلى تجار التجزئة الكبار فى " البضاعة ". إنها الحالة الموريسكية لبوردان والحالة اليهودية لميسياس.

أمام الاعتراضات و الثورات الدموية بسبب عدم المساواة هذه وجب على الحكام أن يتنازلوا أحيانًا عن رغباتهم فى الثروة. نرى بعض الافتداءات حيث يلاحظ أن عدداً كبيراً من البائعين كانوا يملكون عبداً واحداً فقط. لكن بالإضافة إلى اعتبار أن الخلفية أو القاعدة الاقتصادية للمدينة كانت تكمن فى أنشطة القرصنة والأنشطة الناتجة عنها، فقد كانت هناك أغلبية من السكان الموريسكيين واليهود لم يكونوا يعيشون من التجارة المباشرة للعبيد، إما لأنهم لم يكونوا يستطيعون وإما لأنهم لم يكونوا يريدون. كانت الغالبية العظمى بالتأكيد من اليهود أكثر من الموريسكيين، نظراً لأن الموريسكيين كان يمكنهم الاعتراض و اليهود لم يكونوا يستطيعون ذلك. مع ذلك كان العبريون أكثر ميلاً إلى استغلال التجارة الصغيرة التى تنتج من البضائع التى كان يحضرها الرهبان. كان هؤلاء الرهبان ملزمين بأن يحملوا ثلثى ممتلكاتهم فى صورة منتجات والثلث فى شكل عملة. كان يتم مبادلة الأسرى المسيحيين أحيانًا مقابل قلنسوات من طليطلة أو مقابل اللؤلؤ الصغير.

ما هو واضح بالفعل أن صعوبات المنفى كانت مقسومة على كلتا الأقليتين وأن المعاملة التى كانت تقدم لليهود فى تطوان كانت مختلفة عن المقدمة فى غرناطة بنى نصر.

لقد اغتنوا وافتقروا بنفس القدر الذى فعله زملاؤهم فى المنفى، وما نعرفه نحن، أنه لم يوجد أى تمرد أو ثورة ضدهم فى هذين القرنين من المنفى المشترك.

فى تلك القرون التى أعقبت المنفى ربما جعلتهم المصائب المشتركة(*) يواصلون التعايش الذى مارسوه فى وطنهم الإسبانى.

(*) صحيح أن المصائب المشتركة تجمع بين الناس، لكن تسامح المسلمين مع الأقليات غير المسلمة أمر ثابت تاريخيًا. إن التسامح مع اليهود فى المغرب لا يشكل حالة فريدة و لا أمرًا جديدًا . (المراجع)

الهوامش

(1) GOZALBES BUSTO,Guillermo: Al Mandari,el granadino,fundador de Tetuán. Granada 1988.

(2) GOZALBES BUSTO,Guillermo: "Datos sobre los hispano-judíos en el Norte de África". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. Núms. 13-14. Junio-Dicbre. 1976. Pp.139 a 160. GOZALBES BUSTO,Guillermo: "Los judíos en la fundación de Xauen". Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos. Universidad de Granada. Vol. XXVI-XXVIII. 1977-79. Fasc. 2. Pp. 319 a 325.

(3) GOZALBES BUSTO,Guillermo: "La sociedad granadina- nasrí en el exilio". Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su reino. N.* 3,2.a época. Granada 1989.

(4) FRIAS,Duque de: "Una redención de cautivos en tiempos del Emperador". Revista de Archivos,Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2-1958. Pp. 509.

(5) LAREDO,Abraham I: Les noms des juifs de Maroc. Madrid 1978. P.418.

(6) BRAITHWAITE,Cap. Histoire des revolutions de l'Enpire de Maroc... Amsterdam. MDCCXXXI. P. 250.

(7) GOZALBES BUSTO,Guillermo: Al Mandari... Pp. 121 a 125.

(8) CLENARD,N.: Epistolarum... Amberes. 1565. P. 40.

(9) ARANDA,P. Gabriel de: Vida del V.P. Fernando de Contreras...Sevilla 1692. P. 600.

(10) ARANDA: Vida... P. 580.

(11) يتعلق الأمر بالقضاء على حرية الذين كانوا لا يزالون أحياءً من الأشخاص المأسورين فى لاس كويباس ديل منصورة، خلال سبعة أعوام، وقد تناولت هذا الموضوع فى دراسة أخرى بعنوان: Cautiverios y redenciones en el Marruecos de la Edad Moderna: el caso de Cuevas de Almanzora". N.o 4 de la Revista del Centro de estudios Históricos de Granada y su Reino. Pp. 213 a 229.

(12) يقدم لنا هيرونيمو دى ميندوثا Hieronymo de MENDOZA فى عمله "Jornada de África" تفاصيل مهمة جدا عن هذا الموضوع و عن علاقاته بالإسبان اليهود خلال فترة أسرهم، و نُشرت هذه الدراسة فى لشبونة عام ١٦٠٧ .

تكفى الإشارة إلى أن الشريف المنتصر أمر أن يتم نقل كل النبلاء المأسورين فى المعركة و الذين كانوا يوجدون متفرقين فى القصر الكبير و تطوان وسلا وأماكن أخرى، و ذلك إلى مراكش و يتم تسكينهم فى حى اليهود.أنظر صفحة رقم ٢٠٢ فى الدراسة المذكورة.

كان الاتصال، إذن، مباشرًا وثابتًا خلال الوقت الذى استمر أسرهم فيه، لأنهم كانوا، وفقًا لما يذكره الكاتب، يتحدثون كلهم القشتالية، و يقصد بذلك من هم من فاس. أنظر صفحة رقم ١٩١ فى الدراسة المذكورة.

(13) Biblioteca Nacional (B.N.) Manuscrito (Mss.) n.o 6.569.

(14) B.N. Mss. 3.588.

(15) B.N. Mss. 3.588. Fol. 50.

(16) B.N. Mss. 2.791.

(17) Mss. 2.791. Fol. 17.

(18) Mss. 2.791. Fol. 38 V.

(19) Mss. 2.791. Fol. 46.

(20) B.N. Mss. 4.390.

(21) B.N. Mss. 3.862.

(22) Archivo Histórico Nacional (A.H.N.) Códices. Libro 124/B. Fol. 8.

(23) B.N. Mss. 3.870.

(24) GARI y SIUMELL,Fr. José Antonio: Historia de las redenciones de cautivos cristianos...por los frailes de la Orden de la Merced. Barcelona 1873. Pp. 282 y 283.

(25) GARI y SIUMELL,Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... P. 286.

(26) GARI: : Historia de las redenciones... Pp.287 y 288.

(27) LAREDO,Abraham I. Les noms de Juifs du Maroc. Madrid 1978. P. 603.

(28) LAREDO: Les noms de Juifs... P. 980.

(29) LAREDO: Les noms de Juifs... P. 993.

(30) B.N. Mss. 3.586.

(31) LAREDO: Les noms de Juifs... P. 850.

(32) A.H.N. Cod. Lib. 126 B. Fol. 20.

(33) A.H.N. Cod. Lib. 127 B. Fol. 34.

(34) A.H.N. Cod. Lib. 127 B. Fol. 11 Vt.

(35) B.N. Mss. 3.634. Fols. 20 y 21.

(36) Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) England. 1.a Serie. Tomo III. Relation de John Harrison.

(37) B.N. Mss. 3.819.

(38) A.H.N. Cod. Lib. 129 B.

(39) B.N. 3.628. Fol. 102.

(40) B.N. Mss. 3.628. Fol.60.

(41) S.I.H.M. England. 1.a Ser. Tom. III.

(42) A.H.N. Cod. Lib. 129 B.

(43) A.H.N. Cod. Lib. 130 B.

(44) A.H.N. Cod. Lib. 131 B.

(45) B.N. Mss. 6.160.

(46) CORREA DE FRANCA.Alejandro: Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9.741. Fols. 116 a 117 vt.*

(47) B.N. Mss. 4.365.

(48) A.H.N. Cod. Lib. 134 B.

(49) B.N. Mss. 3.631.

(50) A.H.N. Cod. Lib. 137 B.

(51) A.H.N. Cod. Lib. 136 B.

(52) A.H.N. Cod. Lib. 138 B.

(53) A.H.N. Cod. Lib. 140 B.

(54) LAREDO.Abraham I. Les noms de Juifs du Maroc. Madrid 1978. P. 850.

(55) A.H.N. Cod. Lib. 142 B.

(56) A.H.N. Cod. Lib. 143 B.

(57) A.H.N. Cod. Lib. 144 B.

(58) CORREA DE FRANCA.Alejandro: Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9.741. Fols. 140.

(59) فى الربع الأول من القرن التالى أحصى الإنجليزى برايثوايت، الذى زار حى اليهود، عدد السكان بخمسة الآف نسمة و هو ما يعنى تقريبًا ألف عائلة. ليس من المبالغة، إذن، وجود أكثر من ١٥٠ عائلة فى القرن السابع عشر. انظر:

BRAITHWAITE: Histoire des revolutions de l'Empire de Maroc... Amsterdam MDCCXXXI. P. 82.

(60) فيما يتعلق بوجود طبقات اجتماعية بين اليهود التطوانيين، ربما كانت غير ملحوظة فى المجتمع، فلدينا أخبار من إحدى المخطوطات التى تحتفظ بها عائلة بارينتيى و التى أكدت فيها على كونها من أصل أحد اليهود العظام، الذى كان شجاعًا و باسلاً، و حكم فى المغرب، فى عصور سالفة، وكان يدعى ريبى إياكوب بارينتيوى الذى اشتُق إسمه من إسم بلدة "ريف" التى كانت مركز سلطته .

(R de Ribbi، I de Iacob، y F de Phariente)

نشر نيمات داهدا صورة و ترجمة للوثيقة فى العدد التاسع من مجلة إفريقيا، لعام ١٩٢٥ .

يقول لاريدو الذى يعرف وجود هذا المخطوط إنه يظهر الذكرى التاريخية لدولة يهودية قوية فى المغرب، و التى تتحدث عنها مصادر أخرى. يعتقد من جانبه أن اللقب لديه أصل بعيد و أنه ينحدر من اسم باريتينا، و هى مدينة سميت فيما بعد باديس، قريبة من الهوثيماس شمال المغرب.

(LAREDO: Les noms de Juifs du Maroc. Pp. 980 y 981).

من المؤكد أن لاريدو فى دراسته لم يسجل وجود عائلة بارينتى فى تطوان فى القرن السابع عشر، كما هو مثبت فى المخطوطات التى استخدمناها.

الفصل السادس

سجون تطوان

بين آثار المجتمع الموريسكى التطوانى الموروثة هناك آثار لم يشر إليها أحد إلا مرات قليلة جدا، و كانت تلك الآثار مختفية دائمًا، وهى اليوم أكثر خفاءً، إزاء الرغبة فى محو آثار الماضى الفظيع. إننا نشير إلى السجون المظلمة تحت الأرض، التى كانت تحوى الغنائم البشرية، نتاج أنشطة القرصنة القائمة فى مياه مضيق جبل طارق وما يحيطه.

لا أعتقد أن هناك مجالاً للشك فيما يتعلق بالتأكيد الذى قمنا به فى عدة دراسات حول الاعتماد الحيوى لمدينة تطوان الموريسكية على غزوات القرصنة التى يقوم بها السكان، وعلى سوق العبيد الذى استقر فى المدينة.

شكلت السجون المظلمة أحد المرافق العامة المهمة الأخرى، التى بناها الحكام، ربما فى الأعوام الأولى، منذ أن أعاد الغرناطيون المنفيون إنشاء تطوان بنى مرين. نحن نفكر فى الأمر بهذه الطريقة بناءً على النزعة الحربية التى كانت لدى مجموعة المحاربين الأولى، و على رأسهم على المنذارى الذى أسس المدينة، وعند التحدث عن المحاربين لا ننسى أبدًا أن المواجهة لم تكن فقط فى البر، ضد الحاميات البرتغالية فى طنجة والقصر الصغير وسبتة، ولكنها أيضًا كانت حربًا فى البحر، نفذها أسطولٌ مشكّل من قوارب كانت تهرب فى إحدى منعطفات نهر مارتين الذى يروى أرض تطوان. لم تكن المراكب تستطيع الوصول إلى هذا المنعطف الذى حددنا موقعه فى قرية بنى مدن ولا حتى الصغيرة منها، فهناك كانت تذهب مراكب القرصنة الخفيفة مع الغنائم، و هى سالمة من كل خطر، حتى خطر مدفعية السفن الثقيلة لذلك العصر.

أدت هذه النزعة الحربية ونتائجها المباشرة - السجناء والأسرى - إلى إضفاء طابع خاص على المدينة، كان ينتج عنه الاحتياج إلى السجون.

كتبنا، منذ أعوام، دراسةً عن هذه السجون المظلمة سوف تُدرج تباعًا(*).

"ليست لدينا معلومات عن شكل سجون تطوان المظلمة، في بداياتها. مع ذلك، فإن أصلها نفسه معروف جدا، نظرًا لأن ليون الإفريقي ذاته حدثنا عنه، في القرن السادس عشر، عندما وصف إعادة إنشاء المدينة بواسطة المنداري، و أكد أنه رأى، في زيارة قام بها إلى المدينة، ثلاثة آلاف عبد مسيحي، يرتدون كلهم قمصانًا من حرير، و ينامون في المساء مكبلين بالسلاسل في خنادق تحت الأرض"(١) .

كانت السجون، لذلك، مرفقًا من المرافق العامة، أنشأها و بناها القائد، الذي أعاد إنشاء تلك المدينة - القلعة.

كانت مرفقًا مهمًا جدا حيث كان الأمر يتعلق بمجموعة حربية، كان هدفها الأساسي هو الحرب ضد حدود سبتة والقصر الكبير وطنجة وأرسيلة، بالإضافة إلى الحرب في البحر التي انتعشت بقدر ما كان المنفيون الأندلسيون يصلون إلى تطوان الناهضة. تبدو لنا دائمًا كمية العبيد التي حددها الإفريقي مبالغًا فيها. هناك سلسلة من الاعتبارات تجعلنا نفكر هكذا: عدد السكان البرتغاليين القليل، مع حاميات الحدود القليلة؛ عدد السكان القليل في تطوان، والذي كان يحول دون حراسة وحيازة عدد من الأسرى أكثر من السكان؛ وأخيرًا المقارنة مع الفترات ذات التجمع الأكبر للأسرى في كل المغرب الذي لم يصل أبدًا إلى هذا الحد.

مع ذلك، يمكننا إعطاء دلائل لصالحها. فالأمر لا يتعلق فقط بسجناء برتغاليين، ولكن كان من الممكن أن يكون هناك مسيحيون من أندلوثيا ومن أماكن أخرى، تم أسرهم في حرب القرصنة.

(*) نُشرت في:

Págs.،Cádiz 1984،Estudios de Historia y de Arqueología Medievales III y Iv 247 a 264.

بالإضـافـة إلى ذلك، يمكن أن نضـيف هؤلاء الذين كـانوا يحـملون إلى تطوان قراصنة من أماكن أخرى، جزائريين بالأخص، فقد تحولت المدينة، إذن، إلى سوق كبير من العبيد.

يقدِّر ليون الإفريقى عدد الأسرى بثـلاثة آلاف. وفى الزيارة التى قام بها إلى المدينة التى كان يحكمها خليفة المنذرى فى هذا الوقت كان يمكن أن يكون قد تجاوز، جدا، عدد السكان.

لقد اكتظت تطوان بالسكان، على الأخص من الغرناطيين، فى العقود الأولى من القرن السادس عشر.

تحدث الأب كونتريراس، فى مذكراته عن عام ١٥٤٥، خلال إقامته فى تطوان لافتداء الأسرى، عن ما لا يقل عن خمسة آلاف عبد، ربما لرغبته فى المبالغة فى المعلومات من أجل التمويل الذى كان يطلبه[٢] . مع ذلك، و بعد ثلاثة أعوام، فى نوفمبر عام ١٥٤٨ أكدت بعثة برتغالية، لافتداء الأسرى أيضًا، وجود أكثر من ثلاثمائة أسير فقط[٣] .

توجد، إذن، أسبابٌ تؤيد أو تعارض العدد الذى أعلنه ليون الإفريقى، دون أن يمكن تحديد العدد بحساب السعة الحالية للسجون، أولاً بسبب سعتها الكبيرة غير المعروفة فى أجزاء كثيرة، وثانيًا لعدم احتواء كل الأسرى فى السراديب. على الأقل توجد دلائل على أن الكثير منهم، فى لحظة محددة، كانوا يمكثون خارجها، مثل عبيد القائد التطوانى، الذين كانوا يتجمعون للعمل فى الطواحين[٤] .

نقل مارمول كارباخال، فى نفس القرن السادس عشر، أرقامًا ومعلومات من ليون الإفريقى: كان لدى /المنذرى/ ثلاثة آلاف أسير مسيحى يعملون طوال اليوم فى إقامة الأسوار، وفى المساء كان يسجنهم فى سجون مظلمة و عميقة بسلاسل وأغلال شديدة فى الأيدى[٥] .

بالإضافة إلى ما قاله ليون الإفريقى، لا نعلم شيئًا عما يتعلق بالسجون، حتى ما إذا كانت الأطلال المحفوظة اليوم تخص السراديب الأولى.

بالطبع لم تكن مذابح ومحاريب الديانة الكاثوليكية، التى تم اكتشافها فى السجون الحالية من عصر المندارى، لأن الأب المفتدى كونتريراس لم ينزل إليها، فى زيارته الثانية إلى تطوان فى ١٥٤٠ ، لكى يلقى الوعظ والقداس لمن فيها.

كان سيُعتبر حدثًا منطقيًا إذا وجدت مذابح وصور وخاصة بالديانة فى داخلها. على العكس، فقد طلب الراهب من القائد التطوانى وحصل على إذن للقيام بالقداس فى المنزل حيث كان يسكن والذى اجتمع الأسرى فيه لكى يتناولوا الأسرار الكنسية(٦) .

يمكن أن نقول نفس الشيء عن البعثة اليسوعية التى ذُكرت مسبقًا.

لم يقلع القساوسة، بسبب ذلك، عن النزول لزيارة المسجونين فى سجونهم المظلمة. كان ذلك يدخل كليةً فى صميم أعمالهم، وهذا ما فهمه المندارى فيما يتعلق بالأب كونتريراس:

عندما علم أنه يجب أن يقوم بافتداء فى تطوان وأنه كان يلزمه لذلك التعرف على الأسرى الموجودين فى السجون، أعطى أمرًا لحراسها أن يفتحوا للأب كونتريراس المدخل فى كل المرات التى يريد فيها زيارة الأسرى(٧) .

كان الأب كونتريراس، بسبب ذلك، يعرف السراديب و ما إذا كانت جاهزة لأداء الطقوس.

وبمناسبة زيارة الأب كونتريراس لتطوان، فى عام ١٥٣٩، فقد وصف كاتب سيرته، الأب أراندا **Aranda**، السجون التى زارها المفتدى:

"كانت السجون على مساحة ٤٤٧ قدمًا مربعًا تحت الأرض، و كانت على شكل صوامع، وكانت هناك بنايات **segulles** حولها وفى الأعلى توجد كوة بقضبان حديدية. تتصل بعض هذه الصوامع أو الزنزانات ببعضها بواسطة بعض الممرات الضيقة. لا يدخل فيها هواء ولا شمس، و لا يمكن رؤية السماء وبالكاد يُرى الضوء. كانت آخر هذه السجون تستخدم كسجن للمجرمين من المسلمين . وكانت القذارة ملحوظة بسبب الوجود المستمر للكثير من الرجال. كانت الرائحة السيئة والكريهة لا تُحتمل. أكد لى ذلك أحد الآباء المفتدين، الذى خرج فاقدًا الوعى لوجوده لحظة مع الأسرى. هذه هى

غرفة هؤلاء المسيحيين المساكين، كانت تلك البنايات seguiles عبارة عن حجرات، وكان السريرعبارة عن حصيرة صغيرة. كانوا عرايا، مكبلين بالسلاسل والأصفاد، داخل حلقات وسجون قاسية أخرى، يوجد من بينها بعض القضبان السميكة والطويلة من الحديد، ويسمونها مجاثم مربوطة أطرافها بسلسلتين. كانوا يرغمونهم على وضع أرجلهم فيها، وتبعد العصا بين الرجل الأولى والثانية. كانوا يحترقون من الحرارة فى الصيف، بسبب الأرض الحارة جدا ووجود أُناس كثيرين فى مكان ضيق جدا. فى هذا المكان ... كان الأسرى موجودين نهاراً وليلاً، إذا لم يخرجوا إلى العمل، حينئذ كانوا يخرجونهم متأخراً ويرجعونهم مبكراً وأثناء الوقت الذى يسيرون فيه فى الخارج كانوا يضعون سلاسل فى أرجلهم. و حتى إن كانوا مرضى، لا تتحسن معيشتهم ولا يكون لهم وضع مختلف، فقد كانوا يقضون فترات مرضهم فى تلك السجون شديدة القسوة" (٨) .

وقد عرف اليسوعيون البرتغاليون السجون: الراهب إغنيثيو فوغادو Igncio Voga-do والآباء المفتدون جوان نونييث باريتو Juan Nunez Barreto ولويس غونثالبيس دى كامارا Luis Gonçalves de Cámara ، الذين وصلوا الى تطوان كرسل ومفتدين فى ١٢ من نوفمبر عام ١٥٤٨ .

كتب الأب غونثالبيس: عن حجرة النوم التى كان يدخل إليها من خلال حفرة، أى باب صغير خفى ذو شبك سلكى لا زلنا نعرفه فى أيامنا هذه.

سوف يصف لنا ما يلى المكان:

بعد أن انطفأ المصباح رحتُ أتأمل كيف أن المكان شبيه بالجحيم تحت الأرض هكذا فى ظلام دامس ، أجساد يرتمى بعضها فوق بعض، كانت القيود تُحدِث أصواتًا كئيبة تعم المكان(٩).

ذكرها الأب نونييث باريتو عدة مرات دون أن يتحدث فى أى من هذه المرات عن أى شىء يتعلق بكنيسة أو مذابح داخل السراديب.

ورد ذلك فى رسائل مختلفة إلى اليسوعيين فى كويمبرا Coimbra يخبرهم فيها بنشاطه التبشيرى. فى كل الأيام كانوا يعلّمون العقيدة للأسرى فى أحد المنازل أو فى السجون حيث يتجمع الكثيرون، من حين إلى آخر.

confessei em hua masmorra des pola menha ate o meio dia،escribe،Oje ou pouvo menos(١٠).

لم ينس الأب نونييث التحدث عن السجون فى كل رسالة من رسائله. يؤكد فى رسالة كتبها فى ١٠ ديسمبر عام ١٥٤٨ زيارته للسجون فى كل الأيام، ستة أيام، وكان يشاهد المرضى، و يجعلهم يعترفون بذنوبهم و كان يصطحبهم لتناول الطعام عند قضبان السجن(١١) .

و قد حددنا فترة الثلث الأخير من القرن السادس عشر كتاريخ إنشاء الكنائس الصغيرة وأماكن العبادة الموجودة فى السجون الحالية.

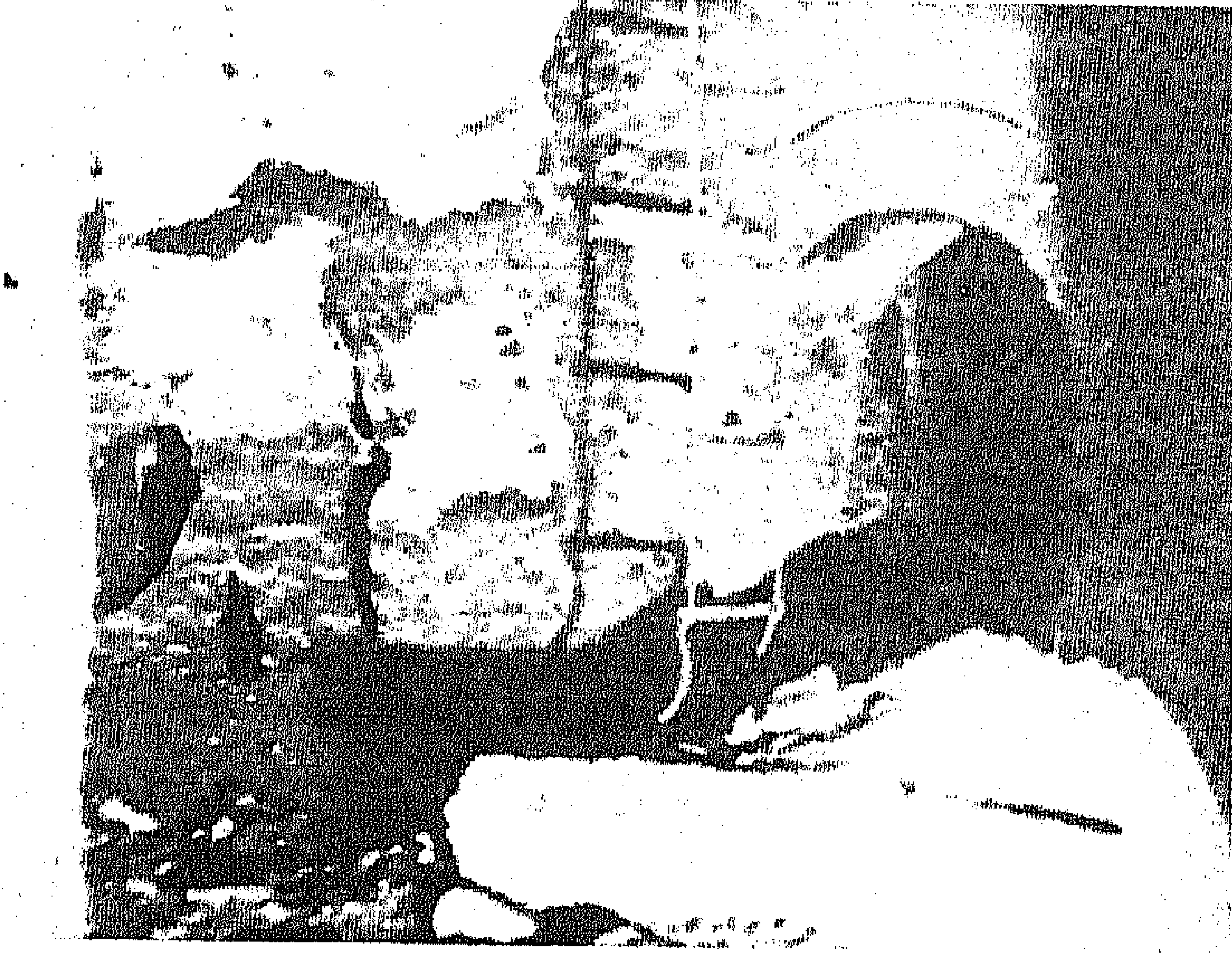
عرفنا القليل جدا عن تلك السجون بواسطة أعمال النظافة والاستكشاف التى نفذها فى أسوارها ثيسار لويس دى مونتالبان César Luis de Montalbán، بالإضافة إلى خريطة نفس هذه الأماكن المسوّرة، التى رسمها المهندس كارلوس أوبيلو دى مونتالبان، جنبًا الى جنب مع خريطة نفس الأماكن المسورة التى قام بها المهندس كارلوس أوبيلو إى كاستييو Carlos Ovilo y Castelló ، فى نفس التاريخ ، مع رسومات وقّعها يورنيتو A.Llorento ، أيضًا فى يناير عام ١٩٢٣ وصورة محفوظة فى مكتبة تطوان العامة.

بالتأكيد سبق أعمال مونتالبان معلومات معروفة قليلاً جدا، قدّمها مانويل غوميث مورينو Manuel Gómez Moreno و نشرها كتكملة لعدد ١٠ نوفمبر ١٩٢٢ من الجريدة الرسمية لمنطقة المحمية الإسبانية فى المغرب.

بعد ذلك، ومع الاستقلال المغربى، نزل صحفيان إلى السراديب، مع المهندس ألفونسو دى سييرا أوتشوا Alfonso de Sierra Ochoa . لم يضف المقال الذى نشره هذان الصحفيان، فرانثيسكو بارثيلو موغا Francisco Barcelo Moga وإميليو فرنانديث رومان Emilio Fernández Román ، شيئًا جديدًا إلى معلومات غوميث

موريتو ومونتاليان، بالرغم من أن مقالهما معزز ببعض الصور، يمكن أن تستخدم كمكملات لنفس المعلومات. على سبيل المثال، توضح لنا إحدى هذه الصور سلمًا من الحبال وضعوه للنزول من أرضية الشارع إلى أرض السجون و إحدى قناطر الممرات بين المقصورات. كان مقاس السلم، وفقًا لما يذكره الصحفيان، ستة أمتار، وهو عمق السجون.

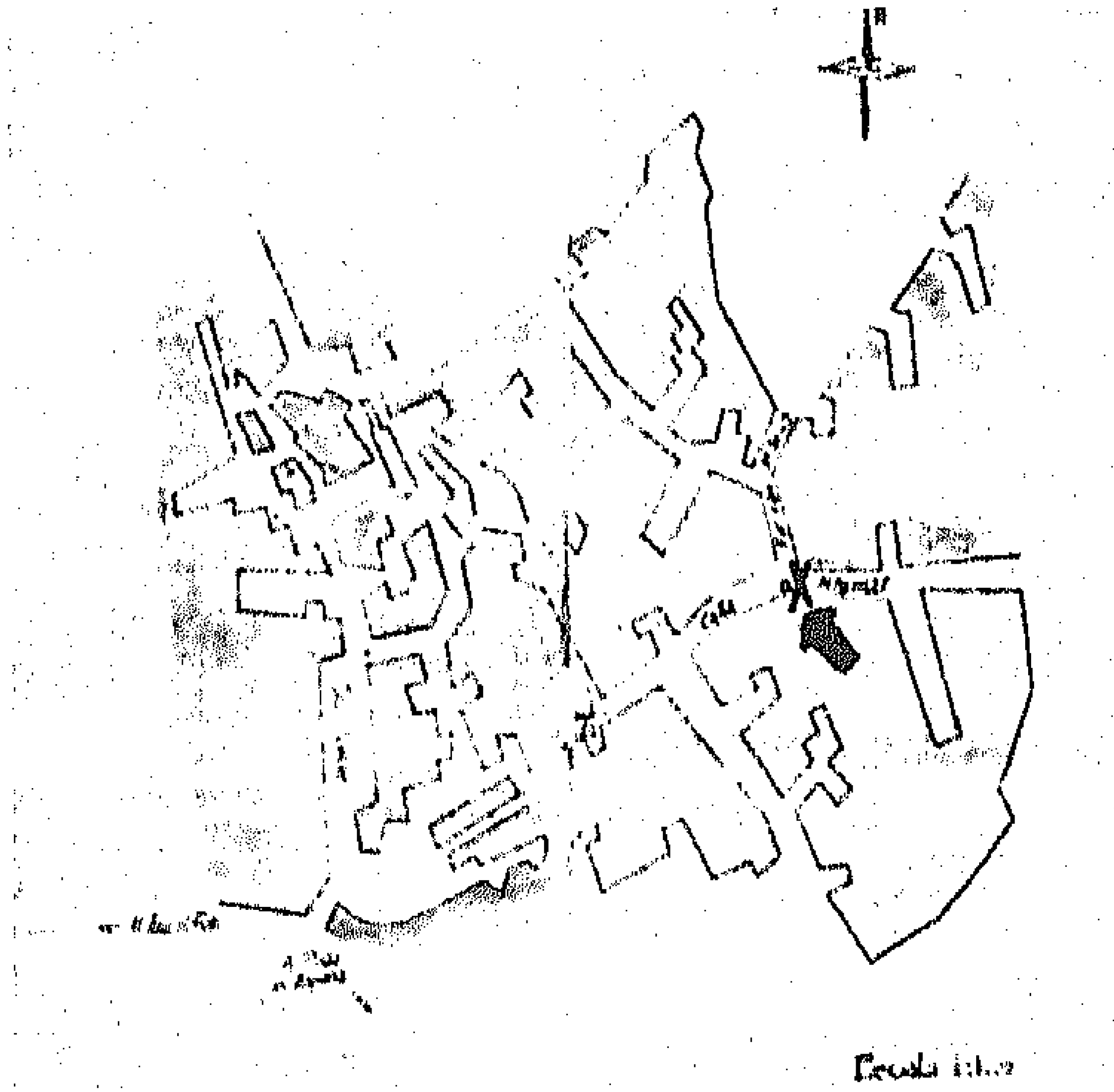
تشبه قنطرة الممر فكرة المجرى أكثر من كونها باب مرور. إن هذه الصورة هى رؤية مظلمة للمكان المسور، مطابقة لوصف من زاروا أو كانوا موجودين فى هذه السجون تحت الأرضية. تشير صورة أخرى إلى صحفيٍ يقف منحنيًا لكى يعبر إحدى هذه الفتحات، و تؤكد أن السجون التطوانية كانت لها صفة القبور أكثر من صفة مسكن بشرى.



شكل (و)



شكل (و)



شكل (ح)

نزل مونتالبو للمرة الأولى إلى السجون فى مارس عام ١٩٢١، وليس من المستبعد أن يكون قد طلب معلومات من غوميث مورينو قبل الشروع فى أى عمل ترميم.

كتب لهم غوميث مورينو مجرد صفحة فى العدد الرابع من الجريدة الرسمية السابق ذكرها وانتهى مؤكداً:إن هذه السراديب تفتقر ،أثريا، إلى القيمة، لكن تاريخ ماضينا فى بلاد البربر، حيث عانى الأسرى الإسبان كثيراً، يستحق أن يُنظر إليه باحترام وأن يُحافظ عليه. كان من اللازم إصلاح واحدة من الحفرات العلوية والتى تتسرب المياه من خلالها اليوم من أحد المنازل و استخراج الأتربة، وإذا كان ممكنًا، ترميم المدخل آنف الذكر.

لن يتكرر الحديث عند هذا المدخل فى أى مكان آخر.

نزل غوميث مورينو إلى السراديب من خلال كوة السقف المفتوحة فى أرضية شارع ميتامار، المغلقة الآن بالأسمنت.

كانت /السجون/ موجودة داخل المدينة المسوَّرة؛ البعض منها موجود تحت الشارع، الذى يمكن الدخول من خلاله حاليًا باستخدام سلم يد، والبعض الآخر موجود تحت المنازل.

مع ذلك، فقد رأى غوميث مورينو باب هذا المدخل.

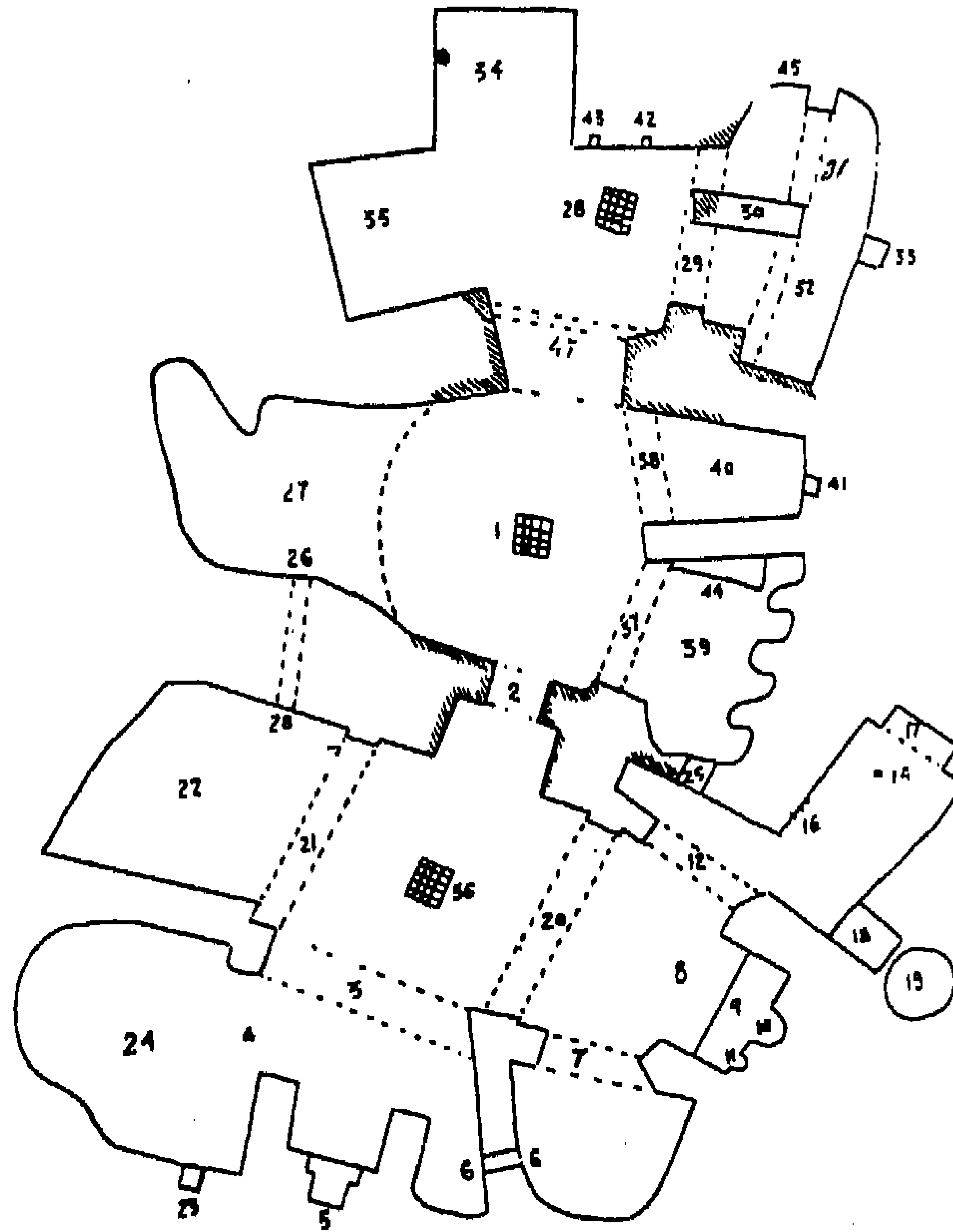
اليوم يمكن التعرف على ثلاثة سجون متتالية وفى النهاية يوجد باب كان يمكن الوصول إليه، منذ سنوات قليلة، عبر أحد المنازل، فليس مستبعدًا اعتقاد أن هذه السراديب كانت أكثر اتساعًا.

لا يحدثنا مونتالبو عن هذا الباب، ولا عن المدخل عبر أحد المنازل. ربما لأنه تم سدها بعد زيارة غوميث مورينو. نحن فعلاً سمعنا حديثًا عن هذا المدخل من سكان الشارع.

يعرض غوميث مورينو نظريته المختصـرة عن الزيارة القصـيرة التى قام بها إلى السجون.

ربما كانت فى الأصل حفريات مستديرة بسيطة، مصنوعة فى صخرة ولها فتحة من أعلى للدخول، كما كان معتادًا فى غرناطة، و كانت تستخدم إما كمخازن، وإما لسجن الأسرى خلال الليل. بعد إعداد الحفرة، كان يمكن وضع الحفرات فى اتصال بعضها بالبعض الآخر من أسفل، كما هى موجودة اليوم، وتم دعم الحفرات وتوسيعها بأقواس شبه دائرية من الطوب، بحيث تشكل مشكاوات جانبية كبيرة تعطى مظهرًا رباعى الزوايا، تقريبًا لكل حفرية.

يجب الأخذ فى الاعتبار، بالإضافة إلى ذلك، أن غوميث مورينو لم يستطع رؤية مجموعة من المقصورات، لأنها مسدودة، كالمقصورات أرقام ٩، ١٠، ١٣، ١٤، ٣٩ ،



شكل (ط)

٤٠ ، ٣١، ٣٢، التى قام مونتالبان بنزع أغطيتها بعد ذلك، هكذا مثل المذبح الأكبر، (رقم ٥)، و يشكل ٢٥٪ من اتساع السجون وربما الجزء الأكثر أهمية من وجه النظر الأثرية.

... توجد قبة مقوسة على باب الوصل من القسم الأول إلى الثانى؛ يبدو أنها كانت تستخدم ككنيسة للأسرى. إنها قبة مقوسة وصفها مونتالبان بأنها مكان الكورس فى الكنيسة.

لكن و نحن ننهى هذا الجزء بمعلومات غوميث مورينو، نجد أنه من المهم الإشارة إلى ملاحظة، غفل عنها الزوار اللاحقون.

تعطى أسوارها، التى تم طلاؤها عدة مرات، انطباعًا بأنها كانت أماكن مسكونة باستمرار. هذا يؤيد المعلومات الشفهية التى جمعناها عن هذه السراديب من أنها قد أستخدمت كمخزن للعبيد حتى تاريخ حديث جدا، و أيضًا فى القرن التاسع عشر. لم يكن للعبيد حينئذ أى علاقة بأعمال القرصنة أو الحروب ولكن كانت لهم علاقة بتجارة الرجال و النساء السود التى امتدت فى المغرب حتى وقت قريب جدا.

عندما لم تعد السجون معاقل للأسرى المسيحيين، حاول السكان، بكل السبل، سد أماكن العبادة، و قاموا بذلك بإتقان حيث سدوها، فى بعض الحالات، بأسوار سمكها متران، وفقًا لمونتالبان. لكن ظل المكان، كما هو طبيعى، يعرفه و يستخدمه سكان تطوان، حتى إذا اختفت منفعته المباشرة كمخزن بشرى، تم استخدامه فى وظائف أخرى أقل أهمية، بالأخص كبالوعة للمساكن الموجودة فوقه، و كمقلب للنفايات.

كان ثيسار لويس دى مونتالبان مسئولاً – من قبل الوفد العام لمفوضية إسبانيا العليا فى المغرب – عن نظافة وفحص السجون. و مر أكثر من عام ونصف منذ أول زيارة له فى مارس عام ١٩٢١ و حتى توليه هذا المنصب الرسمى فى ديسمبر عام ١٩٢٢ ، و خلال هذه الفترة قام غوميث مورينو بالزيارة التى كانت مصدراً لمعلوماته، ولم يتحدث مونتالبان عن هذه الزيارة و عن تلك المعلومات.

لم يخبرنا شيئًا عن الأيام التى قضاها فى نظافة و فحص السجون. و قد حاول وصف هذه العمليات بالتفصيل، فى كتيب نُشر فى مدريد عام ١٩٢٩ ، و قد نشره،

فيما بعد، المجلس الأعلى للآثار التاريخية والفنية لمفوضية جمهورية إسبانيا فى المغرب.

فى هذا الكتيب المكون من ٣٦ صفحة، فى العدد الرابع، تم شرح العمل وشمل مخططًا أو تصميمًا للسجون قام به مهندس المجلس الأعلى للآثار، كارلوس أوبيلو إيكاستيو، وصورتين وقعهما يورينتى Llorente، فى ٩ يناير عام ١٩٢٣ .

نشر مونتالبان نفسه مقالاً، على شكل موجز للكتيب فى المجلة الإسبانية الإفريقية، و وقعه فى العرائش فى ديسمبر عام ١٩٢٤ .

افتقر الخبر إلى الكثير من المعلومات، بالرغم من أن مؤلفه اعتقد أنه اتبع، خطوة بخطوة، الأعمال التى قام بها وما رآه فى السراديب، التى يحتمل أن يكون قد نزلها مرات كثيرة.

يخلو الكتيب من بعض القياسات التى، فيما يبدو، أنه لم يأخذها، ونأسف لعدم دقتها، ولعدم وضوح فكرة أنه احتاج إلى سلم يد من أربع درجات للنزول، وقد تركنا دون توضيح المسافة التى تفصل بين الدرجات، وبالتالى، دون معرفة عمق مستوى الشارع إلى أرض السجون. و قد أثقل كاهلنا، على العكس، بتفاصيل غير مفيدة، مثل استخراج الأنقاض التى قاموا بها باستخدام قاعدة من حديد مع بكرة، وترك الأتربة فى الشارع الذى كانوا يجمعونها منه على دواب لحملها إلى مقلب قمامة البلدة. كانت التفاصيل ستكون أكثر أهمية لو أنه أخبرنا عن نوعية الأنقاض التى وجدها .

على كل حال فإن عمل مونتالبان يُعتبر أساسيًا لرؤية السجون، بينما لم يتمكن أحد من النزول مرة أخرى والقيام بدراسة أكثر استفاضة عنها .

على الجانب الآخر فإن لدينا تصميم قام به أحد المتخصصين، و يمكنه، بجانب الرسومات والصور، أن يكمل العرض الذى سنقوم به على الفور.

كان موقع السجون، في جزءٍ منه، تحت أرضية شارع ميتامارMetamar . في الواقع، إن ذلك الحي هو حي السجون أو مطمورMatmur .

و هناك تفصيلة دقيقة أخرى نفتقدها، و هي اتجاه السراديب، الذي من خلاله يمكن أن نعرف أي أجزاء من الشارع وأي البناءات التي كانت فوق هذه السجون.

من المحتمل أنها كانت، في البداية، موجودة في الفضاء دون بناءات فوقها، قريبًا من أسوار المدينة ومن قصر أو محل إقامة المنداري.

لن يكون غريبًا الانتفاع من الخنادق التي أمر القائد الغرناطي بحفرها، حول الأسوار، كواحدة من سبل الدفاعات الأولى عن المدنية، وفقًا لما يرويه عدة مؤرخين مغاربة، من بينهم الفاسي Al Fasi، الذي قال إن تطوان كانت قرية محاطة بسور أول وسور ثان آخر. كان يحيط بها خنادق وكان يدعمها مخزن القلعة[١٢] .

فيما بعد اختفت الخنادق، و تم البناء فوقها. اختفى أيضًا جزءٌ كبيرٌ من السجون وأقيمت منازل على سطحها.

عند الدخول إلى شارع ميتامار، عبر الميدان الصغير المسمى واسع Wasaa، كان يوجد، في أرضية الشارع، و على بعد ٥٠ خطوة، نوعٌ من شبكات المجاري، كانت تمرر إلى إحدى مقصورات السجون. كانت تخص منور أو فتحة كان ينزل منها الأسرى إلى سجنهم.

دخلوا عبر هذا المدخل في كل المرات التي قام فيها غوميث مورينو أو مونتالبان أو سييرا أوتشوا بزيارة السجون. تم إلغاء الباب الصغير الخفي منذ أعوام، و تغطية فتحته بالأسمنت، دون ترك أي أثر له.

المكان المشار إليه في الخريطة برقم ١، هو المكان الأول الذي كان يُدخل إليه من خلال الفتحة القديمة لشارع ميتامار. كانت سعة هذا المكان حوالي خمسة أمتار، وفقًا لتقدير الصحفيين الذين زاروه، و لدينا هنا عدم وضوح آخر في أخبار مونتالبان، لأنه عرض خريطة أوبيلو، دون أن يقول لنا مقياس الرسم الخاص بها، و لذلك

لم نستطع تطبيق المقياس ١/١٠٠ الذى حسبه المهندس المعمارى فى عمله بصورة صحيحة.

عرفنا أيضًا بواسطة الصحفيين أن سقفها كان على شكل قبو.

يمثل رقم ١ من الخريطة المقصورة الوسطى من السجون الثلاثة المتتالية التى تحدث عنها غوميث مورينو و التى أرقامها ٢٨ ، ٣٦ فى الخريطة، و قد اتصلوا بها بواسطة عَقد منحنى لكل واحد منهم ٢ ، ٤٦ .

يوجد ممر، رقم ٢٦ ، من الممر الجانبى رقم ٢٧ وحتى الممر رقم ٢٢ و لم يُقال شيئًا عن نوعية هذه الممرات و طريقة بنائها.

صنعت العقود المنحنية من الحجر، ربما من نفس الصخرة التى تكوّن أرضيات وجدران السراديب، و هى أسقف منخفضة، بين متر وثلاثين سنتيمترًا ومتر وخمسين سنتيمترًا، و هناك واحد من الصحفيين تم تصويره، وهو يمر منحنيًا تحت أحد العقود.

تصل عقود منحنية أخرى المقصورة رقم ١ مع ثلاث مقصورات جانبية أخرى، أثنتان منهم إلى جانب وواحدة إلى جانب آخر. تؤدى العقود أرقام ٣٧ و ٣٨ إلى الأماكن أرقام ٣٩ ، ٤٠ على التوالى.

يمرر العقد رقم ٤٧ إلى المكان رقم ٢٧ .

يجب أن يكون المهندس المعمارى أوبيلو قد رمَّم هذه العقود أرقام ٣٧ ، ٣٨ لوجودها فى حالة سيئة جدا، وفقًا لما يذكره مونتالبان، الذى نتبع استشهاداته، بالرغم من أنه لم يذكر بعض الأشخاص.

المقصورة رقم ٣٩، لها مظهر كنيسة صغيرة.

بعد فحص طبقة الأرض وجد فيها، بجوار الجانب الشمالى رقم ٤٤، نوع من الفسقيات المصنوعة فى الأرض نفسها، يفترض أنها كانت للتعميد وبعض المحاريب الخاصة بالديانة المسيحية و التى تحتفظ واحدة منها بأثر باب.

يوجد إلى جانبها مقصورة أخرى، (رقم ٤٠) ، و أيضًا كنيسة صغيرة ذات محراب مغطى يحتمل أن يكون هو المذبح، (رقم ٤١).

لا يزال يوجد هنا محراب آخر، أعتقد أنه كان يستخدم لأجل قنينات الماء المقدس. لم يُسجل المحراب الأخير هذا فى الخريطة.



شكل (ى)

يبدو المكان رقم ٢٧ كتوسيع، حفره الأسرى أنفسهم، من أرضية غير عادية، بنتوءات كبيرة فى الصخر.

بالإضافة إلى ذلك، يوجد فى هذا المكان تجويف فى الصخر يبدو لى طبيعيًا ويحتمل أن يمر من خلاله الضوء عندما كان المكان، الذى تشغله الآن السجون، ميدانًا أو على الأقل شارعًا أوسع من الحالى بثلاثة أضعاف.

ومن خلال القوس ٤٦ يتم المرور إلى السجن رقم ٢٨، الذى كان به منور، وربما كان يوجد المدخل من خلاله.

تم توسعة المقصورة رقم ٢٨ بمقصورات رباعية الزوايا من جانب، تحمل رقمى ٣٤ ، ٣٥ .

بعد عمل فحص للجدار المصنوع من الحجر تم التحقق من أن البناء كان راجعًا إلى عملية ترميم.

يرجع إلى نفس السبب بناء سور تدعيم، رقم ٣٠، والذى يدعم قمة قوس مهدمة، وهى التى سببت الانهيار.

وجِدت كل هذا الجزء مسدودًا، لكن لشكنا أن العقد لم يكن معدًا للبناء فوقه ولكن للمرور، قمت باستكشاف سمح لى برؤية أن العقد موضوع النقاش كان يستخدم للمرور إلى مقصورات أخرى حدثت فيها انهيارات كبيرة.

تشير النقاط ٣١ ، ٣٢ إلى تجويفات على مستوى ارتفاع الأرض تقريبًا ولا يفترض أنها كانت تستخدم فى أداء شعائر الديانة المسيحية.

يشير رقم ٤٥، إلى ممر يؤدى إلى مقصورات أخرى وقد وُجد مسدودًا بأتربة يوجد فوقها أساس لأحد المنازل.

هكذا، إذن، كان هذا السجن، رقم ٢٨ ، فيما يبدو، ممرا بسيطًا يؤدى إلى مقصورات أخرى و يمتد فى اتجاه أرقام ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ و كان رقما ٤٢ ، ٤٣ يمثلان قاعدتين مستقيمتين يحتمل أن يكونا قد تم وضعهما عندما حدث الهدم.

لا نعرف كم من الوقت ظلت السجون التطوانية موجودة، ولا حتى المكان الذى كانوا يقيمونها فيه، و ذلك لافتقاد الاتجاه المناسب. إن ما يقال، حتى الآن، هى مجرد افتراضات، كافتراض اتصال السجون بالكهوف الطبيعية الموجودة أمام محطة السكة الحديد القديمة وضواحيها، فى منحدر صخرى يكوّن شرفة كبيرة وطويلة تطل على ما يسمى متنزه الكرانيش.

إن سعة السجون الحالية ليست أكثر من جزء قليل جدا من سعتها فى خريطتها الأصلية. من المحتمل أنه كانت تغلق بعض الغرف كلما كان يقل عدد العبيد، بحيث تبقّى فقط، فى القرنين الأخيرين، تلك الغرف المدعمة لتفادى الانهيار.

كذلك لا نعرف ما إذا كانت السجون الستة التى ذكرها القسيس نونييث باريتو، هى ستة مساكن فقط، أم ست مجموعات منها، كالموجودة حاليًا. نميل إلى هذا الفرض الأخير برغم إمكانية أن تكون متصلة بعضها ببعض كما وضّح القسيس نونييث فى إحدى رسائله.

Esta Coresma pregue masmorras onde por a bondade de Deus se fazia tres preguaçoes diversas em cada, fruto, e noyte se fazia que preguava duas porque se andao por dentro, hua sua masmorra(١٣).

يمكن من المكان رقم ١ المرور إلى رقم ٣٦ عبر الممر رقم ٢، و هو النقطة الأكثر أهمية فى السجون لاحتوائه على المكان المخصص للعبادة المسيحية.

و إذا بدأنا بالممر الذى يوجد له رسم مأخوذ من داخل المكان المسور رقم ٣٦ ، فنجد أنه يتكون من عقد منحنى صغير يسمح بالمرور إلى عقد آخر أكبر يوجد فوقه مكان صغير بعقد صغير أخر، هذا المكان له ممر عبر المقصورة رقم ١، أى على يمين المدخل الذى تم وصفه مسبقًا.

عرّف مونتالبان هذه المقصورة الصغيرة، فوق سقف المدخل، كمكان للكورس فى الكنيسة.

يشكل المكان المسور (رقم ٣٦) مربعًا كاملاً فى خريطة أوبيلو. تخيل مونتالبان رؤية شكل صليب لاتينى، مع أربعةعقود، واحدًا فى كل جانب من جوانب المربع.

يوضح لنا رسمٌ ما العقد (رقم ٢). ينتمى رسم آخر وصورة إلى العقد رقم ٣ الذى يطل على المذبح الأكبر، مع محرابه، (رقم ٥).

تُؤدى العقود الجانبية الأخرى (٢٠ ، ٢١) إلى مقصورات أخرى؛ يؤدى العقد (رقم ٢١) إلى المقصورة (رقم ٢٢) التى لا يُقال عنها شىء خاص. فى مقال المجلة الإسبانية الإفريقية يؤكد لنا كاتب المقال أنها كانت اتصال مع مقصورة المدخل الذى ظل مسدودًا.



شكل (ك)

يؤدى الممر رقم ٢٦ إلى هذا المكان رقم ٢٢، الذى يصله مع ممر رقم ٢٧ .

كان العقد رقم ٢٠ يدخل فى سلسلة من الأماكن المسورة ذات استخدام للعبادة. وكان للعقد المجاور له، فى الواجهة، مذبح محفور فى الصخر، مع عقد منحنى، رقم ٨ ، كان مغلقًا بسور من الطوب والجير.

بعد انهيار هذا السور ظهر المذبح المبنى بالطوب، رقم ٩ ، وكان يوجد قبو تحته. كان للمذبح محراب،(رقم ١٠)، لكى توضع صورة، ومحراب آخر،(رقم ١١)، لوضع القنينات.

يشير رقم ٧ فى الخريطة إلى عقد آخر، يؤدى إلى حجرة دون إشارات إلى عبادة دينية و يحتمل استخدامها كحجرة القسيس أو الراهب الفرنثيسكانى الذى يقيم مع الأسرى.

على شمال المذبح (رقم ٩) كان هناك عقد مسدود بشكل مضاعف، رقم ١٢ ، فيه رف مزين ببلاط قيشانى وعدة محاريب. كان العقد يطل على مجرى ضيق يتصل بالكنيسة الصغيرة، رقم ٣٩، و يوجد رف مزين ببلاط قيشانى فوق هذا الممر.

يوجد بالقرب من العقد رقم ١٢ عقدٌ آخر، رقم ١٣، منحوت فى الصخر مثل كنيسة صغيرة يؤدى إليها. كان يغطى العقد سور سمكه متران كان ينتهى بمحراب كان، بدوره، مسدودًا، (رقم ١٨).

بعد أن تم كشفه نرى أنه كان حلقة الوصل مع بالوعة مسدودة، (رقم ١٩).

كان للبالوعة، على ما يبدو ، حافة خارج السجون، وكان الأسرى يخرجون منها.

كانت كل المقصورة رقم ١٤ مسدودة بسور وعندما انهدم هذا السور تم الوصول إلى الطبقة الصخرية واكتُشفت ثلاث قباب صغيرة، (رقم ١٦ فى جانب، وفى الآخر رقم ١٧)، ومحراب بإطار خاص بباب مركب فى السور و يبلغ سمكه ١,٩٠ متر.

يبدو لى هذا المحراب أو المذبح الأكبر المكتشف هو الأكثر أهمية من الجميع، وقد وجدته مزينًا بصورة أفضل من كل الباقين، ببلاط قيشانى أفضل.

مع ذلك، يبدو أن الأهمية بالنسبة للعبادة كانت توجد فى مواجهة المحراب، بعد المرور بالعقد رقم ٣ الخاص بما يطلق عليه المذبح الأكبر لكنيسة السجون، والذى يُرى مطبوعًا ومصوراً.

يمكن المرور عبر ممر آخر إلى ما يسمى غرفة المقدسات، (رقم٢٤) ، مع محراب، (رقم ٢٣) ، ربما كان من أجل الماء لغسل الأيدى.

رقم ٥ هو عقد منحنى مزخرف بالبلاط القيشانى، يُرى من عمقه المذبح المزين بالقيشانى.

يظهر فى الصورة بوضوح المحراب، (رقم ٥) ، و هو مزدوج، أى أنه مكون من محرابين: محراب كبير مزخرف من الداخل بنسق من القيشانى الأبيض والأسود، يرجع إلى القرنين الخامس عشر و السادس عشر، و محراب آخر أصغر بسلم، ربما كان مكان القربان المقدس. كان قاع هذا المحراب مزخرفًا بقيشانى مع زهور ملونة مشابهة جدا لتلك لموجودة فى غرفة المقدسات، فى تالابيرا دى لاريينا، التى ترجع إلى القرنين الخامس عشر و السادس عشر.

توضح لنا صورة أرشيف مكتبة تطوان العامة بصورة جيدة المذبح الأكبر، رقم ٥، بمحرابيه الداخل أحدهما فى الآخر.

تظهر بوضوح الفسيفساء ذات اللونين فى شبكات عقد المذبح.

تظهر غرفة المقدسات بوضوح على اليمين، مع عقد المدخل والطبقة الصخرية فى العمق.

رُسمت بإتقان فى خريطة أولية قطعة كبيرة من عقد منحنى.

تظهر فى الصورة، فى الزاوية الداخلية اليسرى، الشبكة التى كانت تسد المنور الموجود فى المقصورة، التى كانت مسدودة عند البناء عليها.

كان المنور فى وسط سقف السور رقم ٣٦ .

هذا السقف له شكل قبة غير مكتملة، مبنية فى الصخر وبها بعض التجويفات المسدودة بالجير والطوب.

يمثل رقم ٦ تجويفًا فى الحائط، يتصل مع المكان المسوَّر الصغير، والذى كان يُفترض أنه خارج حجرة رجل الدين: يحتمل استخدامه ككرسى الاعتراف.

إن كل واجهة السجون هذه التى تتبع الأقسام ٢٤و ٥و ٦ ليس لها ولم يكن لها امتداد، كما يحدث مع الأطراف، فى الأماكن المسورة ٣٤ ، ٣٥، يُرى فى هذين المكانين بوضوح أنهما كانا ممرين يؤديان إلى أماكن أخرى، مسدودة اليوم أو مهدومة. لا نعرف إلى أين تمتد السجون تحت الأرضية عبر هذا الجزء.

إذا كان ما أكده الإفريقى حقيقيًا فإن السجون يحتمل أن تكون أكثر اتساعًا لكى تستطيع أن تحوى ثلثى العبيد الذين ذكرهم.

غير أننا لا نعتقد أن السراديب، التى كان الأسرى يبيتون خارجها، لها علاقة بالنفق الذى ذكره القسيس كونتريراس فى مذكراته لعام ١٥٤٥ .

" لكن تعرفون سموكم أننى لدى اتفاق آخر مع أسيرٍ صنع نفقًا، أرسلته مرسومًا لسيادتكم يمكن أن يدخل منه ألف رجل ولا يشعر بهم أحدٌ و السكان نائمين، وهكذا يمكن أخذ الكنوز التى حدثتكم عنها فى رسالة أخرى".

يتصل هذا النفق ببعض الكنوز التى دفنها ثلاثة قادة وملك و اعتبرها كونتريراس كافية على الأقل لتغطية نفقات حملة بأكملها.

أخبره أحد الأسرى، الذين يعرفهم، بوجود صومعة يُحتفظ فيها بعلمٍ مسيحى جميل، مع كنوز أخرى و رايات ومجوهرات ... و الخزائن المسلسلة حيث توجد الكنوز(١٤) .

بعد ذلك، كانت هذه السراديب مختلفة، تُحفظ فيها الثروات، و كانت تستخدم كزنزانات لبعض الأسرى المساكين.

كان الأب كونتريراس واضحًا، حيث تحدث عن كنوز وليس عن عبيد. كان يمكن لمعلوماته أن تتجه إلى مفهوم آخر، إذا كان النفق الذى تحدث عنه متصلاً بالخمسة آلاف أسير الذين يقول إنهم كانوا موجودين حينئذ فى تطوان.

ربما كانت هذه الكنوز موجودة فى خيال الأب أكثر مما هى موجودة فى الواقع، تمامًا مثل مشاريعه، التى كانت تتحدث عن غزو مملكة فاس، وبيليث ومابعدهم، "ويباركنا الرب، حتى مراكش وغزو الصحراء، التى يأتى منها ذهب، يأخذونه كالرمل بدون حفر" .

كتب كردينال طليطلة بهذا الصدد يقول:

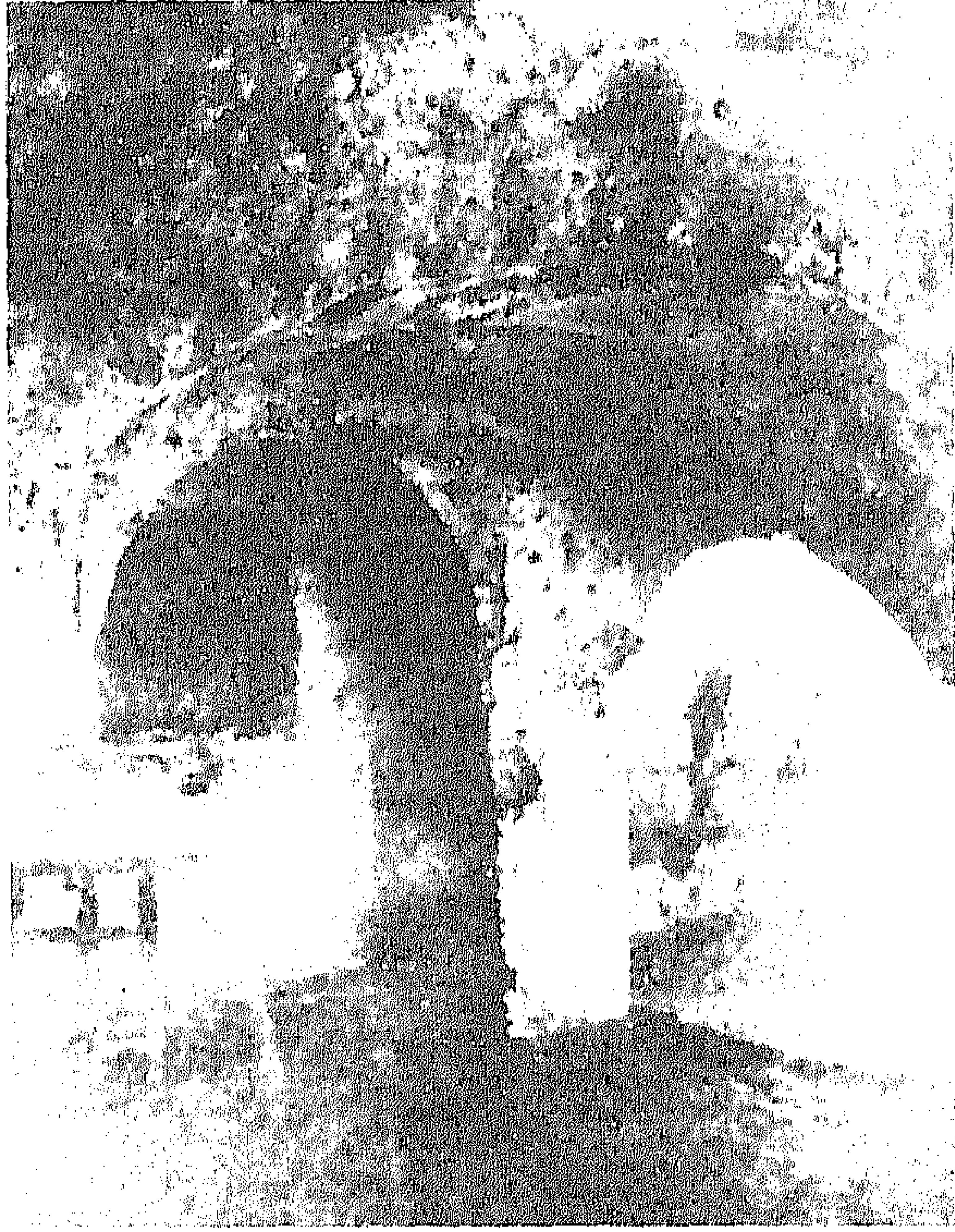
... الأشياء التى يقولها فى وجهة نظرى تستند إلى أساس ضعيف[١٥] .

يكفى ما قيل لقطع صلة الأب كونتريراس و"نفقه" مع السجون التطوانية.

نعتقد أن مناقشات مونتالبان غير كافية لكى نربط بين الأب وهذه السجون. نزل الأب كونتريراس إلى السراديب، وفقًا لروايته فى سيرته الذاتية، لكى يتعرف على الأسرى الذين كان يجب عليه افتداءهم، لكن لا نستطيع استنتاج أى شىء من خلال هذه الزيارات على الإطلاق. نستنتج، على أكثر تقدير، و كما قلنا، قلة الأشياء وأماكن العبادة فى السجون خلال فترات إقامته فى تطوان.

تشير المذابح والمحاريب الموجودة، بالإضافة إلى ذلك، إلى أنه اعتبارًا من لحظة محددة كان هناك رجال دين يقيمون مع الأسرى فى سجنهم.

يتحدث غوميث مورينو عن كسوات من البلاط القيشانى من نوع إيطالى للقرن ١٧ ... ويعتقد مونتالبان أن هذه الأشياء يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.



شكل (ل)

يبدو لنا أن العبادة في السجون لم تكن تقام قبل النصف الثاني من القرن السادس عشر، و ذلك للأسباب المعروضة.

الأمر الأكثر احتمالية هو أن هذه العبادة قد بدأت مع إعادة إرسال البعثات الفرنثيسكانية فى المغرب، التى حصلت عليها الحكومة الإسبانية من السلطان مولاى عبد الملك فى عام ١٦٣٠ .

فى عام ١٧٩٥ حرر السلطان مولاى سليمان الأسرى، و يفترض أنه، منذ ذلك الحين، بقيت السجون دون استخدام ثابت و تم سد المذابح والمحاريب.

لقد حاولنا جمع كل الدراسات والأخبار الموجودة عن السجون. و قد حاولنا، نظرًا لقلتها، أن ننزل إلى السجون ، فى مناسبات متعددة، لكى نكمل، كلما أمكن، المعلومات التى قدمها زوارها السابقون. لكن لم نستطع الحصول عليها.

تحدث بعض دارسيها – على سبيل المثال المهندس المعمارى سييرا أوتشوا– عن صور مؤرخة ومهمة جدا، لكن دون إعطاء أى معلومات عنها.

إن هذه الآثار – و آثار قيام الرئيس الغرناطى، المندارى، بإعادة إنشاء تطوان – تستحق عمليات الترميم والحفظ، كشهود على تاريخ المدينة.

تنتهى إلى هنا الدراسة المنشورة عن سجون تطوان. يجب إضافة شىء قليل من جديد، من وجهة النظر الأثرية، لأنه لم يعاد فتحها أو فحصها، ولذلك لم يتم القيام بدراستها بعد.

وصلت إلى أيدينا بعض النصوص القليلة، الكثير منها غير منشور، مع إشارات قليلة عن السجون المذكورة، منذ أن نُشرت الدراسة السابقة.

تؤكد أخبار محددة بعض وجهات النظر المعروضة حينئذ. لم يكن كل العبيد المسيحيين يبيتون ليلاً فى السجون، لكن كانت هناك أماكن أخرى، وأيضًا بيوت خاصة، حيث كان الأسرى يقضون حياتهم.

من الممكن أن يكون الأسرى الأكثر حظًا هم الذين كان ملاّكهم يسخرونهم فى نوع من الأعمال المنزلية. أما الأكثر شقاءً فهم الذين كانوا يوظفون نهارًا فى خدمات وأعمال عامة و يقيمون ليلاً فى السراديب.

هل كانوا يذهبون جميعهم مثقلين بالسلاسل؟ نفترض أن ذلك كان يعتمد على كونهم عبيداً لجماعة أو لفرد و على نوعية المالك، و على ظروف أخرى.

الانطباع العام هو وجود استخدام معمم للسلاسل فى الأقدام لكل الأسرى تقريبًا، مع الأخذ فى الاعتبار، كما يقول أحد النصوص فى ذلك العصر، أن قرب المواقع المسيحية كان يجعل الهرب أكثر سهولة لهؤلاء المساجين الذين يتوقون إلى القيام بمغامرة (١٦) .

نجد الاستشهاد الأول، بترتيب زمنى، لعبدٍ فى تطوان بسلاسل فى قدميه، فى افتداء عام ١٥٢٣ . و يتعلق بصبى عمره عشرة أعوام، لا يؤخذ منه قسم، بسبب عمره، بل يقوم ثلاثة شهود بذلك بدلاً منه، كانوا رفقاءً له فى المحنة. شهد هؤلاء الشهود أنهم رأوا الصبى فى تطوان بقيدٍ فى قدمه. لم يتحدد شىء آخر، ولا من كان مالكه ولا حتى من أين أتى.

يقال عن عبد آخر، تم افتداؤه فى نفس هذا العام، كان أسيرًا فى تطوان فى منزل فلان، على عكس الأغلبية حيث يُحدد، "تحت قبضة فلان". لا نعرف ما إذا كانت هناك رغبة بالفعل فى تمييز هؤلاء الذين كانوا موجودين فى منزل أسيادهم، عن هؤلاء الذين كانوا يذهبون إلى السجون، ولا من كان يحمل سلاسل ومن لم يكن يحملها(١٧) . أكد أحد الكتّاب بصورة قطعية أنهم كانوا يلزمون كل أسير بأن يجر فى قدميه سلسلة ثقيلة من الحديد، ولا يتحرر منها أسير بسبب العمل الشاق ولا الطفل ولا الشيخ ولا المريض (١٨) .

نحن نتساءل عما إذا كانوا يضعون القيود أيضًا للنساء الأسيرات. هذه المعلومة لم تظهر فى أى من الوثائق التى دُرست، ربما لأن الأسيرة كانت تعمل بالأعمال المنزلية وكان يُعتقد أنها غير قادرة على القيام بمغامرة الهروب.

بهذه الطريقة لم نستطع التأكد من وجود أسيرات فى السجون.

يشهد كاتب معاصر على الاستخدام المتسع للسلاسل فى الجزائر(العاصمة)، مع السماح باستشفاف بعض الاستثناءات مع ذلك.

كان يوجد فى الجزائر العاصمة أسرى يجدفون، فى السفن ذات المحرك الكبير التى كانت تحت تصرف الأتراك، الشيء الذى لم يكن يحدث فى تطوان أو نادراً جدا ما كان يحدث.

لكن، لا يضعونهم جميعهم للتجديف، كان الباقون يُتركون لخدمة المدينة وبيوتها وحدائقها وكانوا يُحضرون الكثيرين منهم بالسلاسل والحديد ... وينامون فى السجون ... و كان الكثيرون يحملون على ظهورهم حطباً و هم مكبلون بالسلاسل، ويحملون العجين لخبزه فى الأفران، و يكنسون ويغسلون بطريقة مستمرة جدا صحون الدار(١٩) .

هناك مظهر مشترك فى الجزائر وتطوان يقدمه راهب من جمعية السيدة العذراء، كانت جمعيته تعرف الكثير عن الحياة العادية للمسيحيين فى الأسر و عن السجون والسلاسل.

ربما لم يكن أحد الصبية الذى كان عمره ١٢ عاماً يحمل هذه السلاسل ويوضع فى السراديب، حيث أنه أُسر فى سن السادسة، وكان فى سلطة أحد فقهاء تطوان، ولم يكن الفقيه يريد بيع الصبى، ولا حتى يريده أن يتحدث مع المسيحيين. و نظراً لتعلم الصبى عقيدة الإسلام، كان الفقيه يوجهه، فيما يبدو، لكى يخلفه فى عمله وتكبد انتزاع الصبى من الفقيه واعطائه الحرية مجهوداً كبيراً(٢٠) .

حدث هذا فى عام ١٥٤٨، بالمصادفة فى نفس العام الذى مات فيه الأب فرناندو دى كونتريراس فى إشبيلية، و كان ذلك الراهب واحداً من المفتدين الأكثر مهارة وعالماً بالسجون وبعالم الأسرى. إن أخباره لم تأت إلينا مباشرةً و إنما عن طريق كاتب سيرته، بعد ثلاثين عاماً من وفاته.

حدثت، بعد ذلك فى عام ١٥٧٨، معركة القصر الكبير حيث وقع كل الجيش المسيحى أسيراً، ونُفذت فى العام التالى ١٥٧٩ واحدة من عمليات الافتداء الأكثر ثراءً فى ذلك العصر.

حدث فى هذا الافتداء أن أحداً ما، دُفع ثمن افتدائه بالفعل، وكان عائداً من فاس إلى الساحل، ماراً بتطوان، واحتجزه قائد هذه المدينة، بحجة كونه نبيلاً، لكى يُدفع بدل افتداء. لم يكن القائد يحتفظ بهؤلاء الأسرى اليائسين، فى السجون ولكن فى القصبة، ربما كدليل على الملكية الخاصة(٢١) .

يحتمل أن السجون كانت عبارة عن نوع من المستودعات العامة حيث يمكن لأى فرد لديه "بضاعة" كهذه، أن يودعها هناك، بمصاريف أقل، و كان إيداع مجموعات العبيد أكثر توفيراً .

كان المال يتحكم فى تصرفات مالك العبد، أكثر بكثير من الرحمة والإنسانية، وهذا ما يمكن استنتاجه من التسجيلات التى قام بها كتّاب أى افتداء. تم الاتفاق، فى عام ١٥٨٣ على توفير طعام للأسرى و أحذية وأشياء أخرى كان لها احتياج، بسبب خروج بعضهم عرايا(٢٢) .

لم يكن يبالغ ذلك الراهب الذى كتب فى القرن السابع عشر السطور التالية:

لم يكونوا يفرغون أبداً من العمل، لأنه إذا لم يكن لدى المالك شىء يشغلهم فيه، كان يلزمهم بالذهاب لكسب قوتهم ... أو أن يعملوا فى أعمال أصدقائه أو جيرانه وكانوا يقولون لهم فى كثير من المرات أن يبحثوا عن القوت الضرورى لهم، وهكذا عاشوا كالحرباء التى تقتات من الرياح ولهذا كانوا جميعًا ضعفاء مستهلكين ومشوهين ... كانت الأرض هى فراشهم وأحيانًا كثيرة كانت أعضاؤهم المكروبة تستريح على قطع من الحصير، ولم يكن هناك مالك رقبة يقول للعبد المريض ماذا يؤلمك؟ أو كيف حالك ؟ أو أتريد شيئًا ؟ ... كانوا يجعلونهم يشتغلون إذا كانوا أصحاء ... وإذا تعبوا وأُنهكوا و طرحوا أنفسهم على الأرض كانوا ينهضونهم بعصا غليظة (٢٣) .

نتخيل الحرارة أو البرودة التى يمكن أن يشعر بها العبيد فى السجون واستعدادهم للعدوى و للمرض. كان الكثيرون، كما تشهد الكتابات، يموتون قبل أو أثناء أو بعد الافتداء.

أهتم الأب كونتريراس بالذين كانوا يموتون قبل ذلك وكان يدفنهم فى قبور تليق بهم، وقد نجح الأب فى شراء قطعة أرض من السلطات، وخصصها فقط لدفن العبيد الذين كانوا يموتون فى الأسر.

عُرف هذا المكان باسم ثيبوليينو Cebollino وكان موجوداً بجوار المدفن الإسلامى، وفقًا لما يذكره كاتب سيرة الأب الجليل.

ذُكر هذا المدفن المسيحى "ثيبوليينو" فى إحدى وثائق الافتداء، وعلى سبيل المثال فى مخطوط عام ١٦٤٥ يمكن ملاحظة: وجد ثلاثة أسرى أمواتًا ورأوهم يُدفنون فى المدفن حيث يتم دفن الأسرى المسيحيين فى مدينة تطوان، و كان يسمى الثيبوليينو(٢٤) .

كان بعض التعساء يموتون فى تطوان، بعد دفع ثمن افتدائهم، أى عندما يكونون بالفعل أحراراً. توجد فى عام ١٥٧٩ بعض حالات سوء الحظ هذه (٢٥) .

كانت حالة هرنادرو دى أتينثا هى الأكثر إيلامًا، حيث مات فى جبل طارق، بعدما عبر المضيق والأرض الإفريقية، عندما لم يتبق له سوى السير إلى بلده (٢٦) .

كان رهبان جمعية الثالوث المقدس يعرفون أيضًا ما يخصهم فيما يتعلق بهذه الموضوعات. ففى افتداء نفذه رهبان هذه الجمعية فى تطوان أدلى كاتب الافتداء بشهادة فى ٨ يونيو ١٩٢٥، قال فيها "فى هذا اليوم، نزل الأخ سيبستيان دى لا مادرى دى ديوس مع الكاتب نفسه إلى السجون، حيث زارا الكثير من الأسرى والعديد من الذين كانوا يوجدون فيهاوهم مقيدون بسلاسل من حديد، وعانقهم كلهم وقبّل أقدامهم. و كان القائد أندريس أرانا من سبتة شاهداً على ذلك (٢٧) .

لم يكن رجال الدين ينزلون دائمًا إلى السجون، التى كانت تستخدم حينئذ كمخزن خفى لهؤلاء العبيد الذين كان يتأجل بيعهم. هذه هى الحالة التى حدثت فى ١٦١٧ فى عملية افتداء فرانثيسكو أورتادو Francisco Hurtado (من مدريد)، التى قام بها الأب أورثيت، و كانت روايته للحدث كالتالى:

كان هذا الأسير من القائمة التى أحملها، ولم أستطع اكتشافه فى أى مكان، عندما دخل إلىّ صبى من الباب فى صباح ما، و كان منهكًا من الجوع، و يرتدى صدرة و أتى معه مسلم عجوز، كان- كما نرى - هو السجان الذى كان يملكه لحسابه، والذى أعطاه من نصيبه اليومى الضعيف بعض النقود، من العملة المرابطية، لكى يتركه يأتى ليرانى. قال لى إنه يُدعى فرانثيسكو أورتادو، وإنهم لم يكونوا يتركوه يخرج من السجن طوال الوقت الذى كانوا فيه فى تطوان، لأن مالكه، بوردان، كان يقول إنه لا يريد أن يفتدى أى أحد على وجه الخصوص، لأنهم لم يفتدوا له اثنى عشر أسيرًا كان يملكهم. تم تحديد سعر هذا الشخص المخصوص بمائة دوقية، خارج صدقة الافتداء. طلبت من السجان أن يقدم لى خدمة و أن يتركه لى فى ذلك اليوم لكى يأكل معى. خرج مسرورًا جدا بعدما أعطيته ريالين[٢٨] .

ظهر ابن عائلة بوردان هذا، واسمه حامد، فى تجارة شراء وبيع العبيد المسيحيين، منذ الأعوام الأولى للقرن السابع عشر ويحتمل أن يكون متخصصًا فى هذا المجال، كما ينعكس ذلك فى رواية الأب أورتيث، و كان يستخدم السجون كثيراً. لقد رأيناه فى أعوام مختلفة ١٦٠٧ [٢٩] ، ١٦٠٩ [٣٠]. و ١٦١٤ [٣١] . فى هذه الوثيقة الأخيرة باع ٢٣ عبدًا، الأمر الذى يجعله فى زمرة الملاّك الكبار، الذين كانوا قادة وحكام المدينة. لجأ رجل الدين إلى واحدٍ منهم، بالتحديد إلى ابن على، لكى يصحح الخطأ الذى ارتكبه هذا الأسير.

حكى الأب أورتيث ذاته واقعة أخرى حدثت فى عام ١٦١٧ ، توضح يأس وغضب الذين كانوا يبقون دون افتداء.

...كنا عائدين من توديع القائد النقسيس، وذاهبين من شارع كان فيه أحد السجون[٣٢]، التى خرج منها بعض الأسرى، كانوا يبدون كالشياطين ، وكانوا يسموننا لصوصًا و خونة لأننا لا نفتدى إلا الملحدين و ذوى النفوذ[٣٣] . رمونا بالحجارة و قد دفعوا ثمن فعلتهم غاليًا فقد علم المقدم بما حدث فأمر بضربهم و طرد السجان من عمله ... [٣٤] .

كـان هذا الغـضب ورد فـعل هؤلاء التـعـسـاء مـسـتـمـراً طوال تاريخ الأسـر والافتداءات، وهو الشيء الذى يمكن فهمه إلى حدٍ ما على كل حال .

بعد نصف قرن من هذه الأحداث التى رواها أحد رهبان جمعية السيدة العذراء، كتب راهب آخر من نفس الجمعية:

أنا لا أعـرف أن أبالغ فى تصـوير الألم العظيم الذى بقى فـيـه هؤلاء الأسـرى المكروبين الذين لم يشملهم الافتداء. الأسف و المشاعر التى أظهروها، كم من الحسرات والدمـوع التى سكبـوهـا! هذا هو ألم وعـذاب الأسـرى الذين بقـوا، وهـم يرون خـروج الآخرين ... كان ألمًا و عذابًا فى غاية القسوة حتى أنهم انفجروا فيما بعد فى الشكاوى ضد العقل و المنطق و ارتد الكثيرون منهم، وهناك آخرون ما إن ولى المفتدون ظهورهم، حتى كتبوا شكاوى ضدهم لأنهم لم يريدوا افتداءهم ... (٣٥) .

هناك فترات كان أول ما يفعله المفتدون فيها، عند الوصول إلى تطوان، وبعد تحية السلطات، هو النزول إلى السجون، للتعرف على الأسرى، والاتصال بهم وأخذ معلومات عن الحالات الأكثر إلحاحًا، لافتدائهم المباشر. هكذا نرى الأب كونتريراس و هو يفعل ذلك، وهكذا يبدو أن هذا كان يحدث أيضًا خلال القرن السادس عشر.

فيمـا بعد قام حكام المدينة، بالتحديد القادة والمقدمين وعائلاتهم، بإلزام رجال الدين بافتداء عبيدهم فى المقام الأول وبعد ذلك عبـيـد الأفـراد، وبذلك فإن الغـرباء أو الشيوخ أو المرضى كانوا يباعون بسعر منخفض لهذه السلطات، حيث كانت تعيد بيعهم بسعرهم العادى إلى المفتدين. كانت صفقة ممتازة، كما نرى، و كان يحارب ضدها المفتدون الذين كانوا يحملون تعليمات صارمة من المجلس الملكى وأيضًا من رؤساء الأقاليم فى الرهبانية. توصلوا إلى اتفاقيات، يشترون بمقتضـاهـا من المـقدم أو الحاكم عددًا محدودًا من العبيد، لأنه كان يمكن أن تحدث حالة نفاذ نقود وبضائع الافتداء فى الشراء من المقدم فقط. و يبقى مـلاّك العبـيـد من الأفراد دون تسويق "بضائعهم" و تقوم باعتراضات غاضبة و بثورات، كتلك التى حدثت فى ٨ من ديسمبر ١٦٣٥ و كـان مـن شـهـودهـا الراهـب دييـغـو دى بيـلاسـكو **Diego de Velasco** والراهب بالتاسار دى فيغيروا **Baltasar de Figueroa**، إلى جانب الكاتب بيلتران دى

نانكلاريس Beltrán de Nanclares الذين أنهوا عملهم واستطاعوا بمشقة الخروج إلى سبتة (٣٦) .

حدثت، بالتالى، المساومات والاتفاقيات الأولية، عندما استطاع الرهبان الاتصال بالسلطة التطوانية العليا. وكان يجب أن يحارب المفتدون كثيراً لكى يحرروا العدد الأكبر المتاح من الأسرى ذوى الشأن، داخل حدود النقود التى كانوا يحملوها.

من هنا فإن التعساء الذين كانوا موجودين فى السجون و لم يعرفوا شيئًا عن هذه المناقشات و نتائجها، التى كانت تخصهم مباشرة، قد عاشوا لحظات من التوتر البالغ عندما كانوا يرون افتداء أناس يرون أنهم أقل حقا منهم فى الافتداء.

كان النظام فى تلك السجون تحت الأرضية متعدداً، وكان يعتمد على النظام السياسى الاجتماعى السائد، لكن بالأخص، على الأشخاص الذين كانوا يشغلون مناصب مسئولة، و كان للسجان، المسمى أحيانًا بقائد السجون، تأثير كبير فى معاملة هؤلاء التعساء.

ربما كان لديه مكان للمراقبة بجانب أو قريبًا جدا من قضبان مدخل الخنادق، وربما كان لديه مفتاحٌ وسلم لكى ينزل إلى تلك الخنادق. من المحتمل جدا أن شارع ميتامار الحالى، حيث كانت توجد قضبان فتحة المدخل فى أرضيته، كان عرضه فى القرون الماضية أكبر من الموجود فى أيامنا، وربما كان هذا المكان ميدانًا صغيراً، وكان لحارس السجون سكنٌ دائم فيه.

بطبيعة الحال فإن التحسن الأكثر أو الأقل فى نظام السجون التعسفى للمسجونين هناك كان يعتمد، فى أغلب الأحيان، على شخصية واستعدادات السجان.

ليس نادراً أن نجد فى الوثائق، سجل نفقات يشير إلى إكراميات يعطيها البعض إلى الحارس، لكى يحسن من معاملته.

فى عام ١٦٣٣ ، أُعطى للسجان ١٦ ريالاً لكى يترك المسيحيين يخرجون. يسجل قيد آخر لنفس الوثيقة ٣٠ ريالاً أخرى تم إعطاؤها إلى حراس أبواب تطوان لكى يسمحوا بخروج الأسرى الذين يذهبون إلى الحقل أو النهر للاغتسال و هم أحراراً.

يسجل قيد أخر أيضًا، لنفس العام ١٦٣٣ ، مبلغ ٤٨ ريالاً أعطاها الأب المفتدى، قبل رحيله، إلى المساكين الذين بقوا فى السجون لكى يعالجوا ضيق حياتهم. هذا المبلغ كان يشتمل على جزء غير محدد للإنفاق على الزيت والشمع للمذابح التى كانت موجودة فى السجن [٣٧] . كانت المذابح تستخدم بشكل دائم، بتماثيلها وكل شىء، كما سنرى فيما بعد. فى إحدى المناسبات، تسبب سهو أو تهاون الحارس فى أذى للقسيس الذى يقوم بالخدمة الدينية ولأحد الأسرى. حدث ذلك للأب المبجل الراهب ماتيو روبليدو Mateo Robledo، فى عام ١٦٦١، وهو يقيم قداسًا للأسرى، داخل السجن، (كان كل يوم يذهب ليلقى الموعظة و يعطى ريالين من الفضة للسجان حتى يتركه يدخل) من قضبان السجن. كانت هناك فتحة تضئ الكنيسة الصغيرة الموجودة، (والتى كان المسيحيون يحافظون على جمالها من حيث الإضاءة والزينات ، وكانوا يحتفلون بكل أعياد العام، وأعياد المسيح وأمه، والقديسين الآخرين، حتى أنهم انفقوا خمسة و سبعون بيزو على الزينة)، كانت الأحجار التى ألقوها على القسيس كثيرة، فاضطر للهروب و نادى على السجان، وطلب منه أن يلقى المفتاح على الباب الثانى للقضبان . وقد أساءوا جدا معاملة أحد الأسرى فى هذه المناسبة [٣٨] .

تسببت حوادث مثل هذه فى تحذيرات و تهديدات من قائد سبتة العام، و كان فى هذه الأعوام هو ماركيز لوس أركوس إى تينوريو los Arcos y Tenorio الذى كتب إلى الحاكم التطوانى، حيث تحداه و أشار إلى أنه يمكنه الذهاب حتى أبواب تطوان وإشعال النار فيها.

فى ديسمبر ١٦٣٥، يُسجل فى نفس المخطوط الذى يشهد على ثورة فى تطوان، بسبب الافتداءات، قيدان للنفقات المتعلقة بالخنادق تحت الأرضية.

كان الأول يحتوى على ١٨٠ ريالاً، تم منحها كمساعدة لبعض الأسرى من الوجهاء، كالقادة والملازمين، الذين بقوا فى السجون فى حاجة ماسة.

كان القيد الثانى من ٦٤ ريالاً، كوفئ بها قائد السجن لأنه ترك الأسرى يخرجون فى كل المرات التى طلب منه ذلك [٣٩] .

لم تكن هذه الهبات متكررة، ومن الأكيد أنها كانت تتعلق دائمًا بوجود رجال الدين كانت فى تطوان، وكانت زيارات الرهبان سنوية، وربما كان يمكن أن تتأخر حتى أربعة أو خمسة أعوام. لم يكن وصول المفتدين يشجع آمال التحرير الممكن فحسب، ولكنه كان يحسّن إلى حدٍ ما المعاملة التى يتلقاها العبيد البائسين، الخاضعين لهوى أسيادهم أو لهوى الحارس، أو عندما يكونون هدفًا لشباب المنطقة الذين كانوا يرمون مشاعل موقدة وقشًا و يحرقون ما بين قضبان المدخل فى الخنادق، و يتسببون فى اختناقات ويصعبون بشكل أكثر من الظروف الصحية السيئة التى كانوا يوجدون فيها.

كان الرهبان يشدون من أزر الأسرى كلما كانوا يستطيعون، وإذا تزامن أحد الأعياد الدينية مع وجودهم كانوا يحاولون الاحتفال به علنًا، حتى فى السجون نفسها.

فى اليوم الخامس من إبريل ١٦٤٥، ذهب الراهب ماتياس تريبينيو Matías Treviño والراهب خوسيه دى توليدو José de Toledo ، الذى وصل المدينة فى اليوم السابق، إلى السجن لرؤية الأسرى. نزلوا وأعطوا حسنة من ريالين إلى السجان لكى يتركهم يدخلون.

عندما دخلوا السجن نفترض اضطراب وسعادة هؤلاء التعساء، الذين وزع الآباء المفتدون عشر ريالات على من هم أكثر احتياجًا بينهم . فى تلك الأيام كان يُحتفل بالأسبوع المقدس وأراد رجال الدين أن يتذكر الأسرى هذه التواريخ المحددة. أرسلوا طعامًا إلى السجون لكل الأسرى فى الخميس المقدس، و فى أحد الشعانين وثلاثة أيام عيد القيامة. استهلكوا ثلاثمائة رغيف عيش يوميًا، و٢٠ رطلاً من السمك فى أول يومين، و١١٥ كيلو جرام من لحم الأبقار فى الأيام الثلاثة للحوم، و أنفقوا، فى الإجمال، ١٣٦ ريالاً من الفضة، دونت فى سجل كاتب الافتداء، ألونسو دى كاريون Alonso de Carrión [٤٠]. وقبل رحيلهم منحوا السجان مرة أخرى ٤ ريالات مكافأة للمعاملة الحسنة التى يعامل بها العبيد.

بالإضافة إلى ذلك، كانوا طوال الوقت الذى أقام فيه رجال الدين فى المدينة يلبون احتياجات هؤلاء الأسرى الذين كانوا مرضى، الأمر الذى ألزمهم بمصاريف إضافية من ٢٨ ريالاً . كان كل هذا مدونًا بطبيعة الحال فى قيد النفقات، مع كشوف الحسابات التابعة له.

فى العام التالى، ١٦٤٦ ، زار أحد الرهبان الفرنسيسكان – و يُدعى الراهب فرانثيسكو دى لا كونثيبثيون -Francisco de la Concepción – مراكش كسفير لفيليبى الرابع، و زار هذه السجون، و تلا القداس فيها فى ٢٥ يوليو. أكد مؤرخ هذه السفارة أنه لم يجد أكثر من ١٤ أسيرًا إسبانيًا فى كل المملكة المغربية (٤١) .

يحتمل أن يكون مخبروه قد خدعوه، لأنه فى نفس هذا العام، أُفتدى فى تطوان ليس أقل من ١٠٣ أسيرًا مسيحيًا إسبانيًا (٤٢) . قام بهذا الافتداء الأخير رهبان من جمعية الثالوث المقدس: الراهب مارتين غاليندو Martín Galindo ، والراهب دييغو باتشيكو Diego Pacheco والراهب خوسيه إينريكيث José Enríquez . سيكون هؤلاء أبطالاً لأحد الاحتفالات غير العادية من ناحية الحدث والظروف.

بعد وفاة ولى العهد، الأمير بالتاسار كارلوس، فى التاسع من أكتوبر من ذلك العام ١٦٤٦، رأى الراهب مارتين أن الوقت مناسبٌ، حيث أنه موجود فى تطوان، للاحتفال بالمأتم الجنائزى لابن فيليبى الرابع الوحيد، وهكذا فعل ذلك فى السجون، بكل الوقار الممكن الذى دوّنه كاتب الافتداء.

أشهد، على الطريقة التى تمت بها جنازة الأمير سيدنا الموجود فى السماء ... فى السجن وفى اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر من عام ١٦٤٦ ، أؤكد أنا، غريغوريو أباركا، كاتب الملك المبجل، وأشهد أنه فى هذا اليوم قامت جنازة الأمير سيدنا بالتاسار كارلوس وأقام القداس الأب الراهب مارتين غاليندو، وساعده فى ذلك الآباء الراهب فرانثيسكو ماردونييوس Francisco mardonellos من جمعية سان فرانثيسكو والأب خوان دى بورغوس Juan de Burgos من نفس الجمعية والراهب أنطونيو بانيغاس Antonio Vanegas والراهب بدرو دى أغيلار Pedro de Aguilar، والراهب

ألونسو مورينو Alonso Moreno من نفس جمعية سان فرانثيسكو والأب الراهب بلاس دى بينيا Blas de Pina من جمعية سان فرانثيسكو دى باولا، الذى ألقى مواعظ فى السجون، فى وجود الكثير من الأسرى، الذين كانوا موجودين مثل السيد خيرونيمو ألباريث دى فيغيروا إى كوردوبا Jerónimo Alavarez de Figueroa y Córdoba، فارس جمعية سانتياغو وكثير من الأسرى الآخرين الذين كانوا موجودين فى السجن ولإثبات ذلك أوقع.

غريغوريو أباركا - توقيع (٤٣) .

تقابل خوان دى فونسيكا Juan de Fonseca والراهب ماتيو تريبينيو والراهب خوسيه دل إسبيريتو سانتو José del Espiritu Santo ، مفتدون، فى تطوان، فى صيف عام ١٦٤٨، عندما نزلوا إلى السجن، إلى جانب كاتب الملك، خوان ألونسو دى مولينا، الذى أكد بالسطور التالية الأفعال التى نُفذت هناك:

فى يوم السبت ١٦٤٨/٦/٢٠ فى الصباح ، ذهب الآباء المفتدون إلى السجن للزيارة وللتفريج عن الأسرى واستحثوهم لكى يواظبوا على العقيدة ويؤدوا أعمالهم بصبر. أقام هؤلاء الآباء القداس فى السجن. أذاعوا وعداً بالغفران للأب المقدس إينوثينثيو العاشر وأخطروا الأسرى بأن يستعدوا للفوز بذلك، عن طريق الاعتراف وتناول القربان، و أن يدركوا الشعور بأنه لا يجب افتداء أى منهم حتى يقوموا بالأفعال الواجبة للفوز بهذا الوعد، وبالتالى، اعترفوا كلهم وتناولوا القربان، رجالاً ونساءً (٤٤) .

بالرغم من هذا الاستشهاد فإننا لا نعرف بالتأكيد ما إذا كانت النساء قد ذهبن إلى العبادة فى السجون مصادفة أو أنهن كن كأسيرات فيها أيضاً.

بالتأكيد، فى هذا العام ١٦٤٨، قيد الكاتب بعض النقود المصروفة فى إنشاء ما كان يعرف بالمذبح الأكبر لكنيسة السجون التطوانية.

ليس صحيحًا أنه لم تُقم صلوات فيها مسبقًا، لأننا رأيناها مسجلة فى عدة مخطوطات، مثل مخطوط عام ١٦٣٣، أو فى مخطوط عام ١٦٤٦، أو فى الجنازة الاحتفالية، التى أقيمت فى السابع عشر من ديسمبر من نفس هذا العام، ولكننا كنا

نجهل تاريخ إنشاء هذا المذبح الأكبر الذى اكتشفه مونتالبان باستخدام معوله، ولا زلنا نستطيع تذكره فى الصورة المحفوظة فى مكتب وأرشيف تطوان.

يقول النص الذى يكشف لنا ذلك فى عام ١٦٤٨، ما يلى:

بُنى فى السجن مذبحٌ لإقامة قداس، وبه صندوق كبير لحفظ الزينات، وبه أبوابٌ تُغلق.

أُنشئ المذبح فى مشكاة بها صورة سيدتنا مريم العذراء. وفى الأبواب، التى صنعت لغلق المشكاة، رُسمت فى الجزء الداخلى بها، صورة القديس بدرو نولاسكو والقديس رامون San Pedro Pedro Nolasco Y San Ramón . تكلف كل ذلك ٣٦٨ ريالاً .

توجد كشوف أخرى لبعض الحسنات التى وُزعت على الأسرى الذين بقوا دون تحرير، من بينهم بعض رجال الدين، وبهذا بقت العبادة مؤَّمنة، على الأقل مؤقتًا (٤٥).

لا شك أنه، قبل سد الأماكن المقدسة، عمل آخر المسيحيين المقيمين فى السجون على سحب الصور التى تركها الرهبان، بجانب الزينات ولوازم الطقوس الأخرى. حينئذ كانت صور السيدة مريم العذراء والقديس بدرو نولاسكو والقديس رامون تختفى من السراديب، التى تركها هناك الرهبان باعتناء كبير فى ١٦٤٨ .

ربما مرت أعوام كثيرة، منذ ذلك العام ١٦٤٨، دون أن يتم أى افتداء أو زيارات لرجال الدين إلى أسرى السجون، لأنه فى الصوم الكبير لعام ١٦٥٤ حدثت واقعة كشف عنها مخطوط آخر جديد من القرن الثامن عشر، كان بالإضافة إلى ذلك، هو الاستشهاد الوحيد عن السجون التطوانية.

كان يحكم سبتة حينئذ السيد خوان فرنانديث دى سوتومايورJuan Fernandez de Sotomayor وليما ماركيس دى تينوريوLima Marqués de Tenorio وكان يحكم تطوان أحد أفراد عائلة النقسيس، نفترض وجود علاقة طيبة بينهما، و لا يفترض العكس نظرًا للحدث الذى يرويه المؤرخ كما يلى:

علاوة على عناء الأسر، كان العبيد المساكين فى تطوان يتألمون من عدم وجود قسيس يكشفون له عن خبايا قلوبهم المظلومة، وخاصة فى وقت الصوم الكبير المقدس الذى كان يمر فى عام ١٦٥٤ . كتبوا إلى سبتة، بتوسلات موقرة، و طلبوا رجل دين، يخفف عنهم هذا الألم العظيم. كان دييغو كاييرو Diego Caeiro، رئيس شمامسة هذه الكاتدرائية هو من تقدم، بحماس رسولى لأداء هذه العملية الخيرة طواعيةً. بعد أن جمع بعض الحسنات وإلى جانبها ما استطاع من منزله و حصل على الأمان، ذهب إلى تطوان ودخل إلى سجنها، و فرَّج عنهم وعلَّمهم وجعلهم يعترفون ويتناولون القربان، ووجد من بين الأسرى - بالإضافة إلى آخرين- الراهب بلاس دى بينيا Blas de Pina، عضو فى جمعية سان فرانثيسكو دى باولا والقائد مانويل دى ميدينا Manuel de Medina وأنطونيو باثان Antonio Bazán ومانويل دى ليديسما Manuel de Ledesma وبابلو دى أغيلار نغريتى Pablo de Aguilar Negrete وماتيو ريبيرو Mateo Ribeiro وميغيل كارلوس Miguel Carlos، الذين كتبوا الالتماس(٤٦) .

نرى الراهب بلاس دى بينيا أيضًا فى السجون و هو يلقى مواعظ فى المآتم الجنائزية للأمير بالتاسار كارلوس. قضى الراهب المسكين ستة أعوام فى هذه السجون، و لا نعرف ما إذا كان هذا إراديًا أم إجباريًا، لأن الجمعية التى كان ينتمى إليها قد أُنشئت بهدف وحيد و هو الاهتمام بالأسرى، حيث تتبع روح مؤسسها الذى وضع نفسه فى الأسر مكان عبد لتحريره. لم تمر هذه الفترة دون افتداءات، ففى نفس العام ١٦٥٤ أُفتدى فى تطوان ١٢٣ أسيرًا وبعد ذلك بعامين تم افتداء ١٢٨ آخرين، وتمت العمليتان عن طريق جمعية الثالوث المقدس(٤٧) .

بداية من عام ١٦٦٠ فإن الشروط التى كانت تنفذ بها الافتداءات قد بدأت فى التغير بطريقة ملموسة. لم تعد تطوان هى السوق الشمالى الوحيد تقريبًا للعبيد لأن السيد الحاكم فى الشمال المغربى، خضير غايلان، فرض قواعده وجعل المفتدين يذهبون إلى أرسيلة لشراء من كانوا فى سلطته (٤٨) .

هكذا حدث أيضًا فى عام ١٦٤٤ (٤٩) ، ولكن فى عام ١٦٦٨ ظهرت سلطة جديدة أخرى فى الوثائق. هى سلطة مولاى رشيد Arci، ملك فاس وتطوان(٥٠) .

ألزم مولاى راشد، مؤسس مملكة العلويين أو فيلالى، والذى كان يتولى الحكم آنذاك، رجال الدين أن يذهبوا إلى فاس، بالرغم من استمرار ملاك العبيد التطوانيين، وكلهم تقريبًا موريسكيون، فى بيع عبيدهم. ولكن الملك الجديد هو الذى كان يعطى جواز المرور و يفرض ما يجب فعله فضلاً عن بيع عبيده عن طريق سماسرة.

انتهت للأبد أجواء الاستقلال أو حكم الأقلية الكامل تقريبًا .

فى وثيقة عام ١٦٤٧ ظهر خليفة مولاى راشد - أخوه مولاى اسماعيل - الذى أعلن نفسه سلطانًا فى مكناس، حيث كان حاكمًا، عندما مات الحاكم السابق فى ١٦٧٢ . تأخر الملك الجديد أكثر من ستة أعوام فى هزيمة منافسيه، و لكن ليس بشكل نهائى، لأن فترة حكمه كانت عبارة عن صراع صريح من البداية للنهاية.

خلال مرحلة أولى استمرت الأمور فى الانفلات كما سبق. كانت الافتداءات تُنفذ فى تطوان وفى سلا، و كانت السلطات والأشخاص يبيعون عبيدهم كالمعتاد. وبالتالى، استمر استخدام السجون التطوانية كمستودع أو مخزن للأسرى.

فى مخطوط لعام ١٦٧٧، حمل رهبان جمعية الثالوث المقدس؛ الراهب ميغيل دى لوس رييس Miguel de los Reyes والراهب خوان دى لابيسيتاثيون Juan de la Visitación بين بضائعهم وممتلكاتهم، ثلاثة صناديق من قطع الفضة المنقوشة وفيها وعاء للقربان المقدس ولبات وكؤوس وصحون للقربان وشمعدانات وصوانى وحليات مختلفة لخدمة العبادة وإنشاء المستشفيات للأسرى المسيحيين من تطوان وفاس(٥١) .

لكن سريعًا ما طلب مولاى اسماعيل لنفسه ملكية كل عبيد المملكة وتمركز الأسرى "التعساء" فى مكناس.

نقول تعساء لأنهم كانوا قبل ذلك يخضعون لهوى أسيادهم ودائمًا كانوا يشكلون عملة مبادلة لنقود أو بضائع، الأمر الذى كان يؤدى فى آخر الأمر إلى رعاية أسيادهم لهم حتى لا تلحق بهم أضرار، أما عندما أصبحوا فى أيدى مولاى اسماعيل، فقد أقلع هو عن الاهتمام بهم، الأمر الذى أدى، بالإضافة إلى شخصية السلطان التى نسميها مختلة، إلى تدهور حالة الأسرى المسيحيين.

يُوجد أحد النصوص المؤرخة فى ١٦٩٣ يتضح فيها أن السجون التطوانية لم تكن حينئذ مخزنًا للعبيد.

فى هذا التاريخ كان رجال الدين الفرنسيسكان الموجودين فى المغرب مضطهدين دون مبرر.

قد عانى الذين كانوا فى تطوان، وهم الأب الراهب خوان دى كريستو و الأب الراهب خوان دى سان ماتيو أكثر من الآخرين لأنهم كانوا أكثر انعزالاً، كانوا تحت سيطرة القائد الأكثر عظمة وقدرة لدى الملك ... أمر بوضعهم فى السجن، حيث يوجد المساجين الأكثر سوءًا وإجرامًا وأن يعطوهم فى هذا الموقع المكان الأكثر قذارة واحتقاراً. وضعوهم فى المكان الأسوأ ... حيث كان قريبًا جدا من المراحيض، فوق مستنقع قمامة، حيث لا يدخل النور وكانت هذه هى البيئة الفاسدة المظلمة التى يعيشون فيها.

ظلوا هكذا عدة أيام حتى رأوا أن الحبس قد طال فالتمسوا بواسطة التجار الكاثوليك وقنصل فرنسا، أن يتركوهم خفية ينظفون هذا المكان، و يرفعون القمامة ويحددون بالألواح وببعض الطوب مساحة صغيرة تكون لهم زنزانة، على أن يكون كل هذا الاستعداد المبتكر فقط من أجل الاحتفال بالقربان المقدس ... استيقظوا بعد منتصف الليل بقليل، عندما كانت كل هذه الجماعة المجرمة غارقة فى النوم، و كوَّنوا من نفس هذه الألواح التى كانوا يستخدموها كسرائر، مذبحًا صغيرًا ، و أحضر التجارلهم كل المؤن اليومية، و كانوا يقيمون القداس ... هكذا كان يفعل رجلا الدين طوال أربعة أشهر(٥٢) .

أصبحت السجون الآن، فى الواقع، زنزانات عامة. لم يعد فيها أسرى.

يؤكد نص آخر لنفس الكاتب هذا الافتراض، فعندما أُسر، حوالى عام ١٧٠١ بعض جنود من المضيق، وضعهم قائد تطوان، فى السجن، مؤقتًا فقط، استعدادًا لنقلهم إلى مكناس [٥٣] .

لم نعد نجد أى نص يشير إلى السجون. إن الطريق من خلال المخطوطات، المتعلقة بالافتداءات بالأخص، قد وضعنا فى رؤية أليمة لماضينا الذى لا يجب أن نهمله. إنه يشكل جزءًا من تجربة تاريخية موجودة سواء شئنا أم أبينا. إنها موجودة بشكل ظاهر أحيانًا، و فى أحيانٍ أخرى تختفى تحت الأرض كسجون تطوان.

الهوامش

(1) LEÓN L'AFRICAIN: Descripction de l'Afrique. París 1956. I; 268.

(2) Sources Inedites pour l'Histoire du Marox (S.I.H.M.) Espagne 1.a. 1: 115.

(3) S.I.H.M. Portugal. IV; 300.

(4) S.I.H.M. Portugal. IV; 302.

(5) MÁRMOL CARVAJAL، Luis del: Descrpición General de África . Libro IV. Fol. 130v.

(6) ARANDA، Gabriel de. Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692; 481.

(7) S.I.H.M. Portugal. IV; 307-380.

(8) ARANDA; 480.

(9) S.I.H.M. Portugal. IV; 300.

(10) S.I.H.M. Portugal. IV; 300. Carta desde Tetuán el 30-11-1548.

(11) S.I.H.M. Portugal. IV; 307.

(12) DAWD، Muhammad. Tarij Titwan. Tetuán 1957; 91.

(13) S.I.H.M. Portugal. IV; 377.

(14) S.I.H.M. Espagne 1.a. 1: 111.

(15) S.I.H.M. Espagne 1.a. 1: 119.

(16) كان يُحتفظ بالأسرى الموجودين في القصر أو تطوان أو العرائش أو سلا في السجون المظلمة لكونها موجودة بالقرب من الحدود.أنظر:

MENDOZA، HYERONIMO DE، Jornada de África. Lisboa 1607. Fol. 71.

(17) Archivo Histórico Nacional (A.H.N.) Secc. Consejos. Osuna Legajo 422. n.* 9.

(18) CASTELLANO، Fr. Manuel. Apostolado Seráfico en Marruecos. Madrid- Santiago. 1896. Pág. 259.

(19) GÓMEZ DE LOSADA، FR. Gabriel. Escuela de trabajos... Madrid 1670. Págs. 91-92.

(20) FRÍAS,Duque de: "Una redención de cautivos en tiempos del Emperador". Revista de Archivos,Bibliotecas y Museos. Tomo LXIV-2-1958. Pag. 506.

(21) Biblioteca Nacional de Madrid (B.N.) Manuscrito (Mss) núm. 6.569. Fol. 104 v.

(22) B.N. Mss. 3.588. Fol. 32.

(23) GÓMEZ DE LOSADA،FR. Gabriel. Escuela de trabajos... Pag. 96.

(24) B.N. Mss. 4365. Fol. 72v.

(25) B.N. Mss. 6569. Fols. 107،110،110v،111،112،114v. 117.

(26) B.N. Mss. 6569. Fols. 136v.

(27) A.H.N. Códices. Lib. 127 B. Fol. 10v.

(28) GARI y SIUMELL،Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... Barcelona 1873. Pag. 284.

(29) B.N. Mss. 2791.

(30) B.N. Mss. 4390.

(31) A.H.N. Cod. L. 124 B.

(32) شارع ميتامار الحالي

(33) الهاربون من المواقع القوية، مثل سبتة أو طنجة ،كان يتم افتداؤهم كأسرى لكي يعودوا إلى وطنهم، منع المجلس الملكي تحريرهم.

(34). GARI y SIUMELL،Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... Pág. 292.

(35) GÓMEZ DE LOSADA،FR. Gabriel. Escuela de trabajos... Págs. 119-120.

(36) B.N. Mss. 3628. Fol. 105 y s.

(37) B.N. Mss. 3819. Fol. 44v.

(38) BAUER LANDAUER،Ignaálo. Papeles de mi Archivo. Relaciones de África (Marruecos). Madrid s/f. Tomo II. Págs. 258-259.

(39) B.N. Mss. 3628. Fol. 57v y fol. 60.

(40) B.N. Mss. 4365. Fol. 74.

(41) CASTELLANO،Fr.Manuel. Apostoládo Seráfico...Pág. 385.

(42) A.H.N. Códices. L. 134 B.

(43) A.H.N. Códices. L. 134 B. Fol. 78v.

(44) B.N. Mss. 3631. Fol. 28.

(45) B.N. Mss. 3631. Fol. 116v.

(46) B.N. Mss. 9741. Fols. 131v y 132.

(47) A.H.N. Cod. L. 137 B y 136 B.

(48) A.H.N. Cod. L. 138 B.

(49) A.H.N. Cod. L. 140 B.

(50) A.H.N. Cod. L. 142 B.

(51) A.H.N. Cod. L. 144 B.

(52) SAN JUAN DEL PUERTO. Fr. Francisco de. Misión historial de Marruecos. Sevilla. 1708. Págs. 760-761.

(53) Id. Id. Pág. 812.

الفصل السابع

تطوان الموريسكية خلال القرن السابع عشر
عائلة النقسيس

لا نستطيع قراءة تاريخ الشمال المغربى، فى القرن السابع عشر، دون أن نصادف اسم عائلة النقسيس، التى سيطرت عليه، عندما حكمت مدينة تطوان فى هذا الوقت، ولن نستطيع دون دراسة الموريسكيين فى المغرب، أن نعرف تلك المنطقة التى تمركز جزء كبير منهم فيها.

كانت هذه ثلاثية: تطوان، موريسكيون، نقسيس . العنصر الأول من المعادلة، وتشكِّل جزءًا مهمًا من تاريخ المغرب ذاته، جنبًا إلى جنب مع تاريخ إسبانيا فى هذه الفترة.

إن تطوان، المدينة التى أنشأها الغرناطيون المهاجرون، والتى استقبلت جزءًا ضخمًا من المنفيين الموريسكيين فى القرن السادس عشر، سوف تستمر فى كونها أرض الميعاد بالنسبة للمطرودين بداية من عام ١٦٠٩ .

لذلك فإن معرفة تاريخ المدينة سوف يعطينا تصورًا لمصير الموريسكيين فى المغرب. هذا التصور، حتى الآن، لا يمكن أن يكون كاملاً، ولكنه قريبٌ إلى الواقع الذى عاشته تلك الأقلية المهمشة فى الأراضى الإفريقية.

ولذلك درسنا أولاً، منذ عدة أعوام، عملية الإنشاء ومؤسس أو معيد تأسيس بناء تطوان، منذ نهايات القرن الخامس عشر و حتى العقد الرابع من القرن السادس عشر، الذى تتزامن بداياته تقريبًا مع موت هذا القائد الأول[1] .

استمرت عائلته أو ذريته على رأس الحكم فى المدينة حتى قرب العقد السابع من القرن السادس عشر، و حدثت مجموعة من الأحداث الخاصة جدا فى تلك الفترة التى أسميتُها فى بعض المناسبات "عصر أو قرن المنداري".

بعد ذلك، وحتى نهايات القرن السادس عشر، هناك مرحلة معروفة قليلاً فى التاريخ التطوانى. فى تلك الفترة – وعندما فقدت عائلة المنداري وحسن، وهم الحكام الذين كانوا يأتون مباشرة من المملكة الغرناطية، حكم الأقلية الذى حققته – بقت الأحداث التى تعيشها المدينة مدرجةً فى التاريخ العام للبلد، و لم يجعلها تستحق بعض السطور فى أخبار البلاد إلا كونها منطقة حدودية. يبدو أن المدينة سوف تدخل نهائيًا فى المسار السياسى والاجتماعى المغربى، لكن سريعًا وعندما بدأ القرن السابع عشر، جددت ظروف البلد والموجات الجديدة من المهاجرين الإجباريين الروح التى كانت تبدو منسيةً، ومرة أخرى تنفست المدينة هواء الاستقلال الخادع، مثل مركز استقبال الموريسكيين الآخر الذى تكون فى الجنوب، الواقع فى نطاق مدينة رباط الفتح، وهى سلا الجديدة أو الرباط.

بحثنا هذا التجمع الرباطى من الهورناتشيين(*) والأندلسيين، الذين كونوا جمهورية مستقلة فى عام ١٦٢٧، فى دراسة سابقة. يبقى لنا، إذن، دراسة تطور المجتمع الموريسكى التطوانى، فى القرن السابع عشر التى سنكمل بها النظرة الشاملة للموريسكيين فى المغرب، خلال القرن المذكور[٢].

السوابق :

مرت فى تطوان بعض الأحداث، منذ عصر المنداري إلى عصر النقسيس، ولكن بقيت كلها مبهمة بسبب حدث جوهرى لكلا ضفتى مضيق جبل طارق. فعندما دخل الربع الأخير من القرن السادس عشر حدث انقلاب فى علاقة القوات المغربية وشبه

(*) كان مسلمو هورناتشوس هم آخر الموريسكيين الذين طردوا من إسبانيا ، وقد عُرف عنهم تمسكهم الشديد بالإسلام وقوة شكيمتهم . (المراجع)

جزيرة إيبريا ، و حدث ما هو أسوأ، نعنى التغير فى شخصيات الحكام، مما سيترتب عليه تغيير كل المستقبل القريب للبحر الأبيض المتوسط الغربى.

نوفر على أنفسنا الوصف والتعقيبات التى ليس هنا مجالها، و نقول باختصار إن الملك البرتغالى سبستيان قد انهزم بصورة مدوية فى معركة نهر مخازن Mejacen ، قريبًا من القصر الكبير، فى اغسطس عام ١٥٧٨ .

هيأ النصر للسلطان المنتصر، أحمد المنصور، مكانة واعتبارًا عالميًا كان، فى الواقع، يفتقر إلى أساسات ذاتية. تترجم هذا فى داخل البلاد فى فترة حكم بها قليلٌ من المعارضة، و قام مبدأ سلطة استمر، على الأقل ظاهريًا، حتى موت المنصور فى عام ١٦٠٣ .

إن هزيمة الملك البرتغالى دمرت، جذريًا وإلى الأبد، أحلام غزو فاس وبيّنت صواب الملك الإسبانى الذى حكمها طويلاً.

اعتبر الموريسكيون، وعلى الأخص المنفيون منهم، أن الانتصار المغربى هو نصرهم. فى الحقيقة أسهم الجيش الأندلسى أو المغربى، الذى استخدمه السلطان فى نجاح الحملة العسكرية. حل المنصور مشكلة مصيره اللاحق، حيث استخدم الموريسكيين فى غزو السودان(*).

كان موريسكيو تطوان يعيشون مغامراتهم الحربية الذاتية، و يتصادمون باستمرار مع حامية سبتة البرتغالية. لم تكن العُدة العسكرية الموريسكية صغيرة، وقد حددها مارمول، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر، بأربعمائة فارس والف وخمسمائة جندى مشاة وحملة بنادق ورماة، و أضاف المؤرخ، أنه يوجد أكثر منهم بكثير بعد أن ثار مسلمو مملكة غرناطة[٣] .

(*) لاحظ أن "السودان" هنا معناه الجزء الجنوبى من القارة الإفريقية وليس دولة السودان المعروفة اليوم . (المراجع)

تلاشى استقلال تطوان أمام توطيد السلطة المركزية، على الأخص بعدما يسرت المنافسات والصراعات الداخلية تدخل السلطان وتعيينه لقائد يراقبهم، معتمداً في ذلك على حامية عسكرية أجنبية (٤) .

مع ذلك كان يوجد، في حالة تطوان، عاملان سهلا وجود جنس محارب انتهى بفرض زعيمهم. كان هذان العاملان هما:

- عدوانية الريفيين وسكان الجبال في الجوار.

- وجود موقع للأعداء قوى وقريب.

وحتى لو أن سكان تطوان لم يكونوا كلهم موريسكيين، فإن العالم الريفي المحيط بهم لم يكن يتعاطف معهم لأن ساكن جبل جبالة Yebala البائس كان يرى في هؤلاء المدنيين دخلاء لا يتشابهون مع الريفيين. امتدت المبارزة بين المدينة و الريف في هذه المدينة ومدن مغربية أخرى حتى دخل العصر الحديث.

كانت حامية وسكان سبتة، التي كان يتم تموينها بشكل غير منتظم، تشعر بالاحتياج للخروج من أسوارها، عندما كانت تعتقد أن هذا ممكن لها و للهجوم على المناطق المحيطة بها للبحث عن الغذاء و المواد اللازمة للحياة. كانت المصادمات متكررة، و كانت دموية في كثير من الأحيان. وصل البرتغاليون، في القرن السادس عشر، حتى الأسوار التطوانية نفسها وإلى الملجأ الذي كان يصعب أن تصل إليه قوارب القرصنة، الموجودة في بني مدن، في إحدى تعرجات نهر مارتين.

لم يتحقق الكثير في القرن السابع عشر. كان السبتيون، و هم محبوسون داخل الأسوار، يضطرون للخروج من حين إلى آخر إلى الحقول القريبة و هم متأكدون أن العدو بعيد، لكي يجمعوا حطبًا وعلفًا وللصيد. في بعض المناسبات كان هذا الخروج، الذي يترقبه دائمًا التطوانيون، يكلف الكثير جدا في الحياة والافتداءات، ولكن لم يمكن أبداً تحقيق الهدف الأساسي للهجمات، و كان هو الهجوم على قلعة سبتة، بسبب نقص الوسائل المناسبة و تحصين دفاعات الموقع.

إن العاملين المذكورين اللذين يمكن اختصارهما فى واحد - هو الاحتياج إلى البقاء - قد جعلا من موريسكيى تطوان مجموعة تحكمها نخبة عسكرية. إن هذا الذى يجب إسناده إليهم، منذ تأسيس المدنية نفسه، سوف يكون له نتائجه المرئية فى القرن السابع عشر، عندما ظهر قائد جعل نفسه شيئًا فشيئًا مالكًا لكل سبل الحكم حتى وصل، فى فترة ما، إلى الاستقلال الفعلى عن بلاط فاس، و لكنه على الجانب الآخر كان لا يكاد يستطيع السيطرة على فوضى متزايدة وممزقة.

سوف نتمهل فى الأحداث ونركز انتباهنا على بدايات عائلة حاكمة.

حدثت السابقة الأولى المسجلة فى الأخبار فى العقد التالى لمعركة القصر الكبير وقد قيدها المؤرخون المغاربة، سواء من تطوان، أو عامة المؤرخين فى المملكة، كانتصار كبير ضد الحامية السبتية. كتب الغفرانى، و هو واحدٌ من هؤلاء المؤرخين العامة والخطيب المدّاح للسلطان، يقول:

فى شهر ذى القعدة من عام ٩٩٦ الهجرى (أكتوبر عام ١٥٨٨) انطلق المنصور. خلال هذه الرحلة ذهبوا لكى يخبروه بالخبر السار أن المسيحيين كانوا يقفون مندهشين أمام سبتة. و قام رئيس الحملة الموجهة ضد أعداء الدين، أحمد النقسيس، بعمل كمين و كان على رأس الفرسان. خرج سكان الموقع مع أبنائهم وأسيادهم. وتواجد المسلمون بين المسيحيين وسبتة وبعد قليل استولوا على المدينة [٥] .

كرر نفس هذه الرواية التقريبية مؤرخون آخرون مثل ناصرى سلاوى-Nasiri Sa-lawi فى كتابه "الاستقصاء" أو الأكثر حداثة بين المؤرخين التطوانين، محمد داوود[٦]، الذى اختلف بعض الشىء فى التاريخ. مع ذلك فإن التسلسل الزمنى الصحيح للأحداث يمكن أن نحدده بالرواية غير المنشورة حتى الآن، لمؤرخ مسيحى.

وقع الحدث فى ٩ من ديسمبر عام ١٥٨٨، واستطاع الكاتب، الذى سجّل ذلك فى منتصف القرن الثامن عشر أن يجمع، فى أرشيف آباء جمعية الثالوث المقدس فى سبتة، أسماء العسكريين والمدنيين الذين وقعوا أسرى وعددهم ٢٠٣، وجمع أسماء الموتى الذين بلغ عددهم ٤٥ .

لم يظهر اسم النقسيس كبطل للنجاح، لكن تحدث المؤرخون عن كمين أعده قائد تطوان، ونعرف من المؤرخين المغاربة أن ذلك لم يحدث وأن بطل الحملة العسكرية كان هو المقدم أو القائد أحمد النقسيس، مع ذلك، فقد أعلن لنا المؤرخ المسيحى ذاته، عند التحدث عن مساعى الافتداء،عن اسم القائد التطوانى و هو مفضل. نعرف من وثائق أخرى أن مفضل هذا كان موريسكيًا، الأفضل أن نقول إنه كان سليلاً لطبقة النبلاء الغرناطيين التى أعادت تأسيس تطوان فى نهايات القرن الخامس عشر[٧] .

نجد اسمه يظهر دائمًا فى مخطوطات من القرنين السادس عشر والسابع عشر، كشخصية ذات نفوذ فى حكم تطوان [٨] .

أحيانا يُغفل اسمه بحيث تخفى عنا الشخصية الحقيقية، كما حدث فى وثيقة منشورة فى المجموعة المشهورة، المتعلقة برسالة كتبها السلطان عبد الملك إلى قائد تطوان، الذى لم يحدد اسمه وإلى جابى الضرائب فى المدينة الذى لجأ إليه مولاى الفضول el fedhol، وفقًا للناقل، وفى الحقيقة هو مفضل [٩] .

لن نترك هذا التقويم دون إضافة اقتراح أن الملك فى هذه الرسالة توجه إلى السلطات العليا التى كانت تحكم تطوان، و كانت هى القائد ومفضل. ظل أفراد عائلة منفضل، أو مفضل مسجلين فى الكتابات المحفوظة، وهم يشغلون مناصب مرموقة دائمًا كجابى الضرائب و القاضى و القائد و هذا كان يمكنهم من تحقيق ثروات كبيرة.

تشير بعض الألقاب الأخرى التى تتكرر فى القرنين المذكورين، على سبيل المثال أفراد عائلة بوعلى، إلى وجود حكم ذى سلطة ومال داخل المجتمع الموريسكى التطوانى. كانوا يرثون ألقابًا وثروات رغم كل أنواع التغييرات السياسية والاجتماعية.

هذا يقودنا إلى أصل لفظ النقسيس وإلى مسألة صعبة التوضيح، فى هذا الوقت، و يمكن أن تؤدى إلى نتائج صحيحة إلى حد ما.

فيما يبدو لم يكن أفراد النقسيس موريسكيين. على الأقل لم يكونوا كذلك فى أسلافهم، لو كان أسلافهم كذلك، فهم لم يشكلوا جزءًا من المنفيين الموجودين فى تطوان. تنبثق هذه النتيجة من آراء الباحثين المغاربة الذين جعلوهم من أصل قبيلة بنى

حوسمار Husmar بالرغم من أن الرأى الأكثر صحة هو كونهم من بلدة نقاقسة Na-qaqsa فى قبيلة بنى عيدر Ider ، و هى ليست بعيدة عن تطوان بالتأكيد (١٠) .

بيد أنه لا يمكن أن نستبعد افتراض أن أفراد عائلة النقسيس الموجودين فى بلدة نقاقسة، كانوا موريسكيين منفيين هناك، لأننا نعرف أنهم انتشروا، فى العصر الأول للخروج والهجرات الموريسكية فى المغرب، ليس فقط فى المدن، لكن أيضًا فى حقول البلد (١١) .

نعرف شيئًا فى القرن السابع عشر عن تمركز المنفيين الموريسكيين فى المدن المغربية، لكن الذين اختبأوا فى الوسط الريفى كانوا أكثر بكثير.

قلما نجد معلومات عن هذا المنفى الريفى، و مع ذلك فقد كانت المناطق الريفية متعددة، حيث أن الغالبية العظمى من المطرودين فى القرن السابع عشر كانوا ريفيين يعيشون فى تجمعات صغيرة.

يحدثنا أحد مؤرخى ذلك العصر عن مصير الموريسكيين الأندلسيين الذين نزلوا فى الحسيمة Alhucemas .

يقول إن بعض الموريسكيين الذين وصلوا هناك قد توغلوا إلى الداخل، مع الأعراب إلى مضارب خيامهم وأحيائهم و أن الشيخ عمر دى بوتويا Omar de Botoya قد اصطحب البعض الآخر و علمهم الدين الإسلامى بكثير من الرحمة وأعال الأكثر احتياجًا على نفقته(*) وجعلهم يتعلمون مذهبه، ووضع أسماءً للرجال والنساء وختَّن، طوعًا أو كرهًا بالقوة، كل الصبية والكبار الذكور. لكن لأن الموريسكيين الذين تربوا فى أماكن كبيرة مثل بايثا Baeza وخاين Jaen وغيرهم لم يكونوا يستطيعون العيش فى الجبال، حيث لا يوجد غير الحديد وحيث لا تصل قيمة الأجرة اليومية إلى ريال واحد، ولا يوجد معاملة ولا بضائع، فلم يستطيعوا التوقف هناك، وهكذا، فى أقل من شهرين،

(*) لاحظ أن ذلك هو ما فعله أبو الغيث القشاش فى تونس، راجع كتاب لوثى لوبيث بارالت "نص حول الجنس لموريسكى من تونس" ترجمة د. جمال عبد الرحمن، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات (سلسلة اليونسكو للأعمال الممثلة) زغوان (تونس)، ١٩٩٥ .(المراجع)

وبعد أن مات ثلثهم وبعد أن سمعوا عن وصول مولاى الشيخ، وبإذن من الشيخ عمرو، لم يبق غير الذين أرادوا البقاء معه، وهكذا جاء إلى قلعة بيليث أكثر من ألف وخمسمائة شخص، و اشتروا أمنهم الشخصي بالتخلي عن ملابسهم ونقودهم (١٢) .

لهذا فإن الذين وصلوا إلى الوسط الريفى لم يكونوا قليلين. الذى حدث هو أن المصادر التى نستطيع أن نلتقط منها المعلومات التى تحملنا إلى معرفة هذا المنفى الريفى كانت نادرة للغاية.

نجد فقرة عن أقليم تطوان فى رسالة، مؤرخة فى ٢٨ ديسمبر عام ١٦٢١ كتبها مترجم الأسطول الانجليزى، جون دوبا Jhon Duppa إلى سفير إنجلترا فى إسبانيا، والتر أستون Walter Aston ، حيث أشار إلى بعض الموريسكيين الذين قبض عليهم هذا الأسطول .

... كانوا كلهم أناس يعيشون فى أعلى الجبال، قريبًا من تطوان، حتى وصل أخ لأحدهم من الجزائر ورأى أن الأغلبية كانت من نفس العائلة ومن قرابتها وقد أقنعهم بأن يبيعوا منازلهم وماشيتهم و ممتلكاتهم الأخرى ويحملون معهم النقود والبضائع الأخرى إلى الجزائر. تبع هؤلاء الناس المساكين هذه النصيحة وبالصدفة وصلوا إلى مرسى تطوان، حيث كان يوجد مركب للأتراك ذاهبًا إلى الجزائر و ركبوا فيه كمسافرين وهكذا، وأثناء وجودهم فى البحر، قبض عليهم أسطولنا، وسلب كل البضائع والنقود التى كانت معهم، دون ترك أى قريب فى تطوان يستطيع أن يفتديهم (١٣) .

فى هذه الحالة الأخيرة كان للموريسكيين مساكنهم وماشيتهم، مثل الريفيين الآخرين من البلد. يجب افتراض أنهم لم يكونوا الحالة الوحيدة والاستثنائية من المنفيين الذين توجهوا إلى الوسط الريفى، بالرغم من أن هذا الوسط فى المغرب ربما كان أشد قسوة من شبه الجزيرة.

نعود إلى أفراد عائلة النقسيس، الذين كانوا يفتخرون بكونهم من أصل إسبانى. على كل الأحوال فسريعًا ما تصاهروا فى تطوان مع عائلات موريسكية من الطبقات الأكثر علوًا فى المجتمع وواصلوا الارتباط بسلالات إسبانية (١٤) .

النتيجة التى نستطيع استخلاصها - إذا كان أفراد عائلة النقسيس موريسكيى الأصل أم لا - هى أن مدينة تطوان، التى عاشت مدة قرنٍ تقريبًا منغلقة فى غرناطيتها الصافية، قد انتهى بها الأمر فى القرن السادس عشر بفقد الانغلاق المحافظ والانفتاح على عناصر جديدة، و توسيع مجالها العنصرى البشرى.

ومع ذلك، فإن الحشود المهاجرة الجديدة التى ستصل من إسبانيا، بداية من عام ١٦٠٩، سوف تقوى سمة المنفى الإسبانى هذه التى سوف تميز المدينة خلال قرون.

جمع المؤرخ التطوانى داوود هكذا معلومات من مؤرخين آخرين عن ظهور المؤسس الأول لسلالة النقسيس فى حكومة تطوان:

كان سكان القبائل المجاورة لتطوان، بصورة أساسية وادى راس، سريعى الانقلاب فى ذلك العصر. كانوا يهاجمون الطرق، ويسلبون الممتلكات ويؤذون الناس ويسببون لهم أضرارًا كبيرة.

كان محمد النقسيس، وهو من قبيلة بنى حوسمار Husmar القريبة من تطوان، حينئذ طالبًا يقوم بدراساته فى المدينة. عندما رأى غطرسة ساكنى الجبال جمع رؤساء تطوان وطلب منهم مساندتهم لكى يقضى، بمساعدة قبيلته، على سلب ونهب ساكنى الجبال. لم يروا أن قبول رغبته شىء سيئ فمنحوه سلطات كاملة لتحقيق ذلك. حينئذ طلب مساعدة قريب له هو المقدم أحمد بن عيسى النقسيس، رئيس المحاربين المميزين فى مواجهة سبتة. أجاب المقدم طلبه، وفى وقت قليل، قضى على الثورة الجبلية، وسيطر بأمان وهدوء على المدينة. أظهر القائد محمد النقسيس سلطته وجدارته وصلابته واستطاع أن يحافظ على السلطة مستقرة فى تطوان حتى موته، أى ما يقرب من ١٤ عامًا، منذ عام ١٥٩٧ وحتى عام ١٦١٠ (١٥) .

يستحق النص بعض تعليقات ولو صغيرة.

من الواضح أنه، فى أوج فترة حكم المنصور، لم تكن البلد هادئة جدا وأنه بالرغم من تحاشى الحروب الأهلية بدرجة كبيرة، فإن الملك لم يكن يهتم بما يمكن أن نصفه بالنظام الداخلى للمملكة. على الأقل يُلاحظ أن السلطات المحلية كانت يجب أن تبادر

إلى إصلاح نفسها بنفسها. إن هذا الاستياء أو المعارضة "مدينة - ريف"، يعنى، على الجانب الآخر، أنه لم يكن يصل إلى الريف ولا حتى جزء ضئيل من الثروات التى كانت تبقى فى المدن. وهناك ملحوظة أخرى مهمة هى السمة الثقافية التى يُفترض أنها كانت موجودة فى المدينة والتى ربما تكون قد نجمت من المثقفين الغرناطيين اللاجئين فيها منذ القرون الأولى لإنشائها وحتى قبل ذلك إذا تذكرنا عصور مصباح Mesbah وفخار Fajjar و تبين Tabbin .

على الأقل نعتقد أن العلماء المهاجرين كانوا يشرحون قليلاً من العلوم القرآنية فى المدارس المعاونة للمساجد التى أقامها الإسبان المسلمون: جامع قصبة Kasbah الذى أنشأه المندارى، جامع فريجة la de la - la Friya الذى أنشأه تبين و حرم سيدى مصباح وبعض المساجد الأخرى التى اختفت اليوم حتى من الذكرى.

كانت الطبيعة ذات البعد الثقافي والمدنى تجلب ضغينة الريفيين، وكان الريفيون ذوى مستوى اقتصادى وثقافى واجتماعى ودينى مختلف جدا وأدنى فى كل المظاهر. هذه الفروق يمكن أن تزداد إذا كانت سلطات المركز المدنى تفرض- كما هو منطقى افتراض أنهم فعلوا ذلك - ضرائب على المنتجات التى ينوى الوسط الريفى التجارة فيها مع الوسط المدنى.

وأخيراً تجدر ملاحظة أن سلطة عائلة النقسيس قد تعضدت، منذ البداية، بقبول الرؤساء والحكام الأساسيين للمجتمع الموريسكى، والذين بدونهم لم يكن فى المستطاع القيام بأى خطوة.

ما نظنه هو أنه، بالرغم من أنهم جميعًا كانوا من أصل إسبانى، كانت هناك فى تطوان مجموعتان اجتماعيتان مختلفتان إلى حد ما. كانت الأولى مكونة من النخبة العسكرية والعائلية، الموروثة من المجموعات الغرناطية الأولى ومن عنصرٍ نادرٍ انضم بعد ذلك. كانت الأخرى مكونة من مجموعة مهمة جدا من الموريسكيين، الذين وصلوا مؤخراً، والتى كانت تحارب من أجل فتح طريق، بعضهم من أجل لقمة العيش على الأقل، وكانت تلك المجموعة مستعدة دائمًا أن تضع نفسها إلى جانب أى مرشح لكى يحكم الشئون العامة، و لاستبدال أو تغيير السلالة الحاكمة.

كان العداء المستتر أو الظاهر بين كلا القسمين من المجتمع الموريسكى التطوانى يتفجر، أحيانًا، فى صراعات مفتوحة، سجلناها فى بعض الوثائق.

ألقى مارمول الضوء على الحروب الأهلية التى تفجرت عند اختفاء حسن، القائد الثانى بعد المندارى. فى هذا القرن توجد أيضًا دلائل على ثورات وانتفاضات وخيانات سوف نراها تظهر على سطح الأحداث، و رُويت فى بعض الكتابات.

نكتفى بالمعلومات الزمنية التى يقدمها داوود، فقد بقت حكومة تطوان فى يد محمد النقسيس، منذ عام ١٥٩٧ وحتى عام ١٦١٠ . نفترض أن ذلك قد تم استنادًا إلى الدعم العسكرى لابن أخيه، أحمد النقسيس الذى حقق انتصارًا لامعًا جدا ضد سبتة فى ١٥٨٨ . تشمل فترة حكم محمد النقسيس، لذلك، الأعوام الأخيرة من فترة حكم أحمد المنصور والأعوام الأولى من الفوضى التى بدأت عند موته. أيضًا إذا كان تاريخ موته فى عام ١٦١٠ مؤكدًا، فسوف يكون النقسيس الأول شاهدًا على حشد الموريسكيين الذين نزلوا فى المغرب، مع قرارات الطرد الأولى. كانت تطوان من جديد مكان تمركز المنفيين. لكن، لدينا أسبابًا لكى نعتقد- مع افتراض كون محمد النقسيس حيًا و ذا حكم مؤثر فى الحكومة التطوانية- أن ابن أخيه، أحمد المقدم، المحارب، كان يمارس سلطة وتأثيرًا قاطعًا فى الشئون ذات الأهمية الكبرى.

نعتبر أن تلك الشئون التى كانت تؤثر فى سبل الحياة، و كانت مقتصرة تقريبًا على الطبقة الحاكمة، هى القرصنة وحصادها الأكثر إنتاجًا، و هو بيع العبيد. يُلاحظ فى الوثائق المتعلقة بهذه المبيعات أن نسبة قليلة جدا من الأشخاص من مجموع السكان، هم الذين احتكروا العدد الأكبر من الأسرى، و برز من بينهم كلهم القائد، الذى كان يملك أفضل العبيد، كما أنه كان يملك أكبر عدد من المسيحيين.

كان القائد عادةً هو الذى يتفاهم مع المفتدين فى بداية عمليات الافتداء، فكان يعطيهم الأمان، وكان يحدد، فعليًا، شروط العملية. مع ذلك، ففى الخبر الذى سنورده تباعًا، لم يكن القائد، ولكن المقدم، بالتحديد أحمد النقسيس المعروف لدينا، هو الذى يرتب ويعد.

ولكــى نفـهــم وندرك هــذا الخـبـر بصــورة أكـبـر، يجـب أن نعــرف أن رجــال الدين المفتدين كانوا يحملون تعليمات من المجلس الملكى الأعلى لافتداء الإسبان قبل أى أحد.

فى ١٥ نوفمبر من عام ١٦٠٧ استلم حاكم سبته، ماركيز بياريال، رسالة من النقسيس، المقدم والقائد العام لجيش تطوان، بأنه إذا لم يقم بافتداء خمسة فرنسيين وصقلى وبرتغالى، كانوا أسرى، فلن يتم السماح له بالقيام بأى افتداء، ولا بخروج أى أسيـر من تطوان، ولن يُفرج عن الإسـبـان .... [١٦] . لم تكن شـخـصـيـة الذى يدير كل شىء فى المدينة واضحة.

بعد شـهر، وفى ١٤ ديسمبر، فى نفس الافتداء، يذكر لنا كشف كاتب الافتداء، أحد الموريسكيين، حـامـد إيرادور Hamete Herrador، الذى وصل إلى سبـتـة حـامـلاً أسرى قائد تطوان. لم يتحدد اسم هذا القائد ولكن يُفترض أن الكاتب قد حدد تماماً، من هو المقدم، النقسيس، المختلف عن هذا الآخر، وهو القائد [١٧] .

نتخيل، وفقاً لما يذكره داوود، أن القائد المذكور يمكن أن يكون قريباً آخر للمقدم، محمد النقسيس، الذى كان يحكم المصائر التطوانية منذ عام ١٥٩٧ . هذا يمكن أن يفسر حرية المقدم فى تصريف الأمور.

مع بداية القرن الجديد، يبدأ عصـر عائلة النقسيس، ولكن لم تكن ديكتـاتورية شخص واحد أو أفراد متتابعين من نفس العائلة، ولكنها كانت السيطرة السياسية الاجتماعية لهذه العائلة. سوف يملأ اسمها كل القـرن السـابع عشـر التطوانى، ومعه قرن موريسكيى الشمال المغربى، مع ما يتـرتب على ذلك مـن أصـداء فى تاريـخ البلـد كله. يجدر تتبع خطـوات سـلالة النقسيـس التى ثبتـت خطـواتها على التاريخ، فى الأخبار والوثائق. سوف نجد المنفيين الموريسكيين واليهود تحت رعايتها دائماً.

لكن قبل أن نستمر مع عائلة النقسيس يجب أن نلقى نظرة سريعة على الأحداث المغربية، وبالأخص بعد موت المنصور، فى عام ١٦٠٣، والذى أثّر وجوده كثيراً، كما هو

معتاد، فى حياة التجمعات الموريسكية، سواء فى الشمال أو فى جنوب البلد. كانت هذه الأحداث مـؤلمة جدا. وقد وصف أحد كتّاب ذلك العصر تاريخ تلك الفترة بأنه مزعج ومعقد ودموى (١٨) .

بعد موت المنصور مباشرةً، أعلن اثنان من أبنائه أنفسهم كورثة شرعيين، كانا هما مولاى زيدان فى فاس وأبو فارس في مراكش. أرسل أبو فارس أحد أبنائه وأخيه، المأمون أو مولاى الشيخ، لكى يخلعوا مولاى زيدان. حققوا هدفهم، ولكن أعلن المأمون نفسه بدوره سلطانًا فى فاس. هرب زيدان مع الأتراك الذين ساندوه فى الجزائر، واستطاع غزو فاس ومراكش.

هرب المأمون إلى إسبانيا، وطلب من فيليبى الثالث عُدة ومالاً لكى يحارب أخاه. قدم له الملك الإسبانى ما كان يبحث عنه مقابل موقع العرائش الذى سلمه المأمون إلى إسبانيا فى عام ١٦١٠ . ملجأً آخر للقراصنة أصبح تحت حكم قوات شبه الجزيرة. وميناءٌ آخر أصبح فى أيدى "أعداء الدين" وهو ما أضعف اقتصاد المغرب، الذى لم يكن مالكًا بالفعل، لاستيراداته وتصديراته و لتجارته، فى الإجمال لأن أغلبية موانيه كانت فى أيدى الأعداء. يُضاف سبب آخر إلى استياء الجماهير التى لم تكن تشاهد فقط فشل المحاولات لاسترداد "دار الإسلام" التى احتلها الغزاة، ولكنها كانت ترى أن الحاكم يهديهم موقعًا إسلاميًا.

و كان ذلك سبب آخر للثورات السياسية المتنكرة فى نيات دينية.

سبَّب احتلال العرائش مشاعر غضب عنيفة فى القلوب الإسلامية وأثار استنكاراً شاملاً، كتب ذلك المؤرخ المغربى من عائلة السعدى.

جعل مولاى الشيخ علماء مسلمين أو حكماء، يعطونه آراءً أو فتاوى مؤيدة، كانت تبرر له تحقيق هذا التسليم(*) . بالرغم من هذا فقد أُصيب كل الشعب تقريبًا وأغلبية الموريسكيين بالذهول.

(*) اللجوء إلى الفقهاء لتبرير تصرفات سياسية بحتة هو أمر فعله حكام الأندلس حين رضوا بدفع الجزية إلى مسيحيى الشمال، و فعله بنو الأحمر قبيل سقوط دولتهم فى غرناطة ونراه هنا فى المغرب . (المراجع)

ألقى نفس المؤرخ المذكور مسبقًا، مسئولية مقتل الشيخ فى ٢١ أغسطس عام ١٦١٣، بشكلٍ ما، على العداوة التى سببها له تنازله عن العرائش للمسيحيين [١٩] .

وبعد خلع الشيخ فى فاس، حافظ أخيه، زيدان، على مراكش كعاصمة و حاول، طوال حياته كلها، إصلاح الوحدة المغربية المكسورة عند وفاة والده.

سوف يكون لمولاى زيدان ولمولاى الشيخ علاقات مع الموريسكيين، سواء من هم من تطوان أو من الرباط، فى هذه الفترة التالية المباشرة لموت أحمد المنصور . فيما يبدو، فإن عائلة النقسيس قد اعترفت بمولاى زيدان كملك. بعد ذلك رأوا أنه لا أحد من ورثة المرحوم المنصور كان يستحق أن يكون مطاعًا، لا الشيخ لأنه سكير وفاسق، ولا زيدان لأنه طاغية ومستبد، وفقًا للتصريحات التى أعلنتها عائلة النقسيس، كما سنرى.

كان الموريسكيون، وأفراد النقسيس على رأسهم، يعيشون فى الواقع حياة مستقلة. أعلنوا استقلالهم فى العقد الثانى من القرن، تقريبًا فى نفس الوقت الذى فعل فيه ذلك موريسكيو الجنوب فى جمهورية الرباط الأندلسية.

عندما بدأت حشود جديدة من المنفيين تصل إلى تطوان، اعتبارًا من عام ١٦٠٩، كانت الحرب الأهلية فى البلد كلها حامية الوطيس منذ أعوام، فى الفترة التى مات فيها المنصور. إن الوثيقة الأولى، بعد عام ١٦٠٣، و هو تاريخ هذه الوفاة، التى ذُكر فيها اسم النقسيس المقدم، هى الوثيقة المذكورة مسبقًا فى عام ١٦٠٧، والتى تقول إن رجال الدين المفتدين لم يجرؤوا على الخروج من سبتة، بغير الحصول على تأمين الحروب الموجود بين ملوك فاس ومراكش. حينئذ حدث الافتداء، و لكن ليس بالشكل المعتاد وهو سفر الآباء المفتدين إلى تطوان والبقاء هناك شهرين أو ثلاثة للمفاوضة فى الافتداءات، لكن نُفذت هذه الافتداءات فى سبتة، عند مدخل البوابة التى تؤدى إلى الريف والطريق الذى يذهب إلى تطوان، حيث يحمل مسلمٌ ويهودى مترجم ٢٢ أسيرًا ... [٢٠] .

أى أنهم كانوا يتفاوضون عند نفس مدخل الموقع القوى تقريبًا ويحررون الأسرى المنقولين من السجون.

ذُكر في هذا المخطوط قائدٌ ليس من عائلة النقسيس، ربما كان واحداً من الذين قام مولاى زيدان بتعيينهم و كان يظهر رسمياً كممثل له وكسلطه عليا. في الواقع كان أحد أفراد النقسيس هو الذي يفرض المقاييس والشروط بطبيعة الحال.

تذكر وثيقة أخرى من عام ١٦٠٩، النقسيس، مقدم تطوان، دون أن يظهر فيها أي قائد (٢١) . ثار أحمد النقسيس في عام ١٦٠٨ ضد الشيخ، و جعل من نفسه نصيراً لمولاى زيدان. من الناحية العملية لم يحكم أحد أو آخر المدينة، حتى سار الشيخ في عام ١٦١٠ إلى تطوان، و طرد منها النقسيس (٢٢) . احتضرت السلالة السعدية، بعد تألق سريع الزوال، في الشكل أكثر من المضمون، مع سلالات المنصور.

حررتهم معركة القصر الكبير أو الملوك الثلاثة من أعدائهم الخارجيين، لكن لم تسهم في تحرير المغرب من أعدائه الداخليين، كان صراع الكل ضد الكل-الفوضى والتفكك.

ظهر في وسط كل هذا حاكم استثنائي في مدينة مارتين Martín .

العمارة الموريسكية في تطوان

وصلت مجموعات المهاجرين الموريسكيين الأولى، الناتجة من قرار الطرد لعام ١٦٠٩، إلى المغرب الذي كان يدمى بسبب الصراعات الأهلية.

توقف الكثيرون جدا منهم في الشمال المغربي، واستقرت الأغلبية في قطب الجذب الإسباني الذي كانت تمثله تطوان والشاون. يدل على ذلك، في تطوان، الاتساع الكبير للمدينة تجاه الغرب والجنوب، من مساجد جديدة وأسواق وحمامات، وأسوار وأبراج دفاعية وأبواب ونافورات والعديد من المباني، التي شكلت شوارع، بعضها ذات طول غير مألوف. كان كل هذا خارج المنطقة القديمة المسوَّرة، على شكل مستطيل، يشكل خلال عقود قليلة "المدينة – القلعة"، غرناطة المنداري وأتباعه النبلاء من عائلة ابن سراج من غرناطة.

فى إحدى الصور التى قدمناها لأول مرة منذ عدة أعوام، فى مؤتمر عُقد فى تونس عن الموريسكيين والتى نعيد تقديمها، كان يمكن ملاحظة حدود مدينة المندارى على أحد الخرائط لتطوان عام ١٨٦٠ .

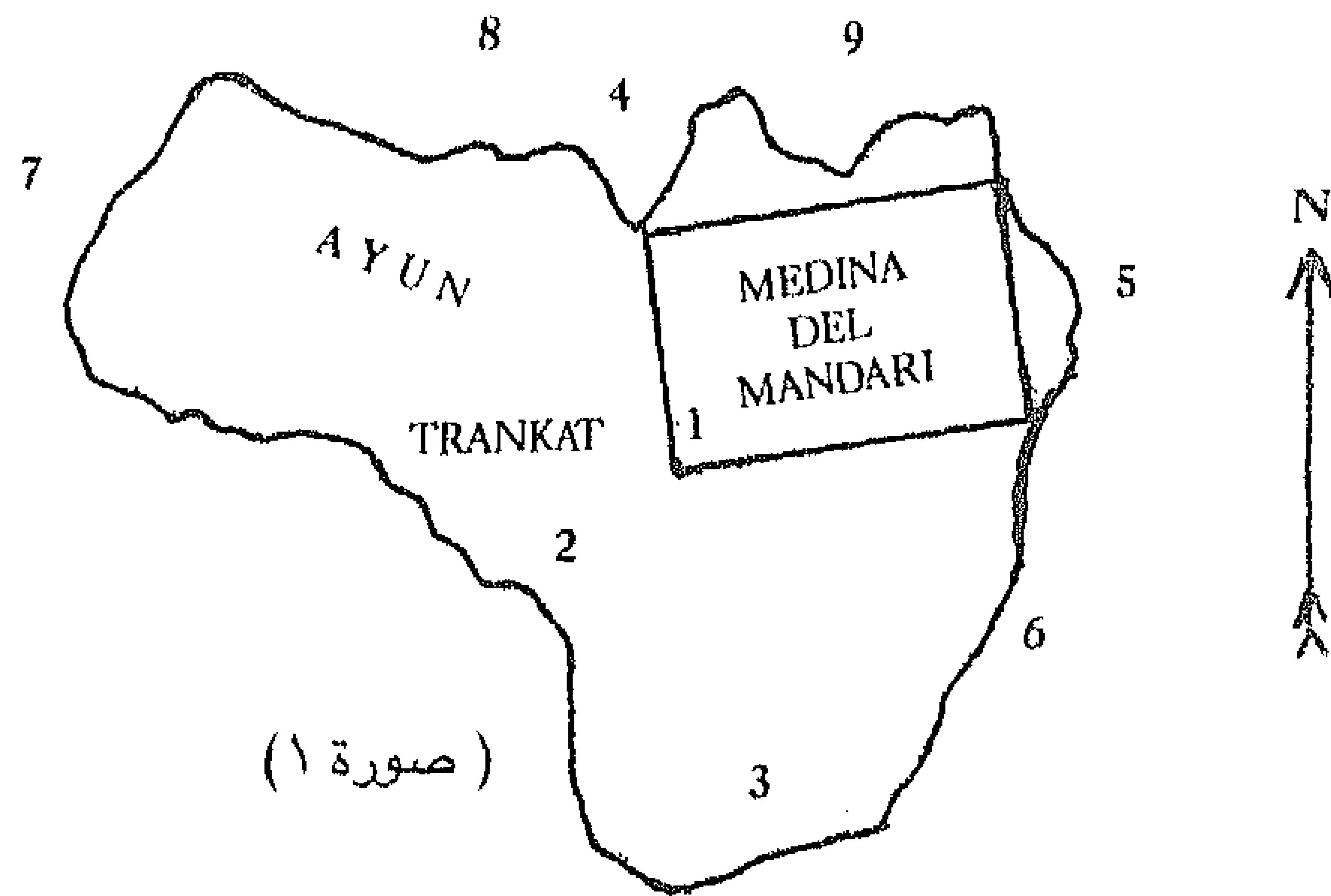


شكل (ل)

يجب الأخذ فى الاعتبار أن هذه الخريطة يمكن أن تكون أنعكاسًا واضحًا للحدود القصوى لأحياء المدينة فى أوجها السكانى، والذى نظن أن سببه كان التوافد الكبير من الموريسكيين من القرن السابع عشر. لذلك فإن خريطة عام ١٨٦٠ هذه تقول لنا، بدرجة قريبة من الدِّقة، إلى أين وصلت البنايات الموريسكية. لو قارناها بالسور الأول للمندارى والغرناطيين نرى أنها تمثل أكثر من ثلث السعة. وهذا يعطينا فكرة عن النمو البشرى، الذى يعلل الاحتياج إلى المبانى المختلفة.

لم تكن المدينة تستطيع النمو تجاه الشمال بسبب الجبل أو جبل درسة وقلعته. كان الخطر يصل من الشرق ومن الممكن أنه بسبب ذلك قد امتد تجاه الغرب والجنوب. وقد حدد اختلاف مستويات الأرض - في هذا الاتجاه الأخير- البناءات حتى الدرع الصخرى الذى كان يطل على الوادى. امتدت المدينة، إذن، فى شارع طويل جدا، فى اتجاه الغرب، وهو شارع النافورات، العُيون Uyun أو عَيون Ayun، كما عُرف بالعامية، إلى جانب الحي المتسع المتاخم. فى الشاون كان اتساع أحياء ريف الأندلس rif al Andalus وحومة السوق hauma del Suk والصبانين as Sabanin، شاهداً على النمو السكانى والعمرانى الذى سببه الموريسكيون المنفيون عقب الطرد الجماعى من شبه الجزيرة: كان ينبغى إقامة مسجد، ونافورة وسوق وأسوار وباب لكل حى.

تجمعت عائلة النقسيس فى أحد الأحياء، مع أحد المحاور فى شارع المقدم Muqaddam الطويل، الذى سمى هكذا تخليداً له. أنشأوا مساكنهم فى الشمال الغربى من قصبة المندارى فى الفراغ الكبير المستوى، أمام التحصينات، و تركوا الفدان Fed-dan الذى سوف يكون بعد ذلك، موقعًا كبيراً. فى عام ١٨٦٠ كانت أسوار وتحصينات المندارى خالية، كما يمكن رؤية ذلك فى الصورة القديمة التى نقدمها، الصادرة من المكتبة العامة وأرشيف تطوان.



(صورة ١)



(صورة ٢)

كان كل ما هو مبنى على الشمال، أى، فى اتجاه غرب هذه التحصينات، ينتمى إلى ما بعد عصر المندارى، و كان فى معظمه موريسكيًا. تظهر خلف البرج الثانى، الذى يبدأ من اليمين، و هو برجٌ مضلع، مئذنة جامع القصبة، وهى المئذنة الأولى التى أنشأها القائد مؤسس المدينة. تظهر فى وسط الصورة، إلى الشمال قليلاً، مئذنة جامع ابن عيسى. و يظهر على الشمال قصر الباشا ريفى **baja Rifi** وعلى الشمال بقليل مئذنة جامع عيون، فى شارع باسمه.

الوجه الشمالى لفدان، بالبناءات الحالية.



(صور٣)



صورة (٤)

تُرى فى العمق بناءات من بداية التوسع الأوروبى الحديث، بشارع من الشرق إلى الغرب. يوجد على شمال النخلة الأخيرة من خط النخيل عقد مدخل يؤدى إلى قطعة مغطاة من شارع المقدم. تقول الرواية عن شارع جانبى صغير منه، يسمى شُرَفا وزَّان los surfa de wazan، إنه كانت توجد فيه بعض قواعد البناء حيث كان يجلس أفراد النقسيس لكى يقضوا بين الناس. كانت توجد حول هذا الشارع الصغير أماكن إقامة أفراد النقسيس ، فعندما ساء حظهم و تم إعدامهم مُنحت أملاكهم لأشراف وزان -sur fa de wazan السابق ذكرهم. كان كل هذا الوجه الشمالى للفدان عبارة عن حدائق ومساكن لعائلة النقسيس. بُنيت المئذنة التى ترى فى أوقات متأخرة، كتقليد للمآذن الموريسكية. تنتمى إلى زاوية الحاج بن عبد الله Hayy Ben Abd Allah .

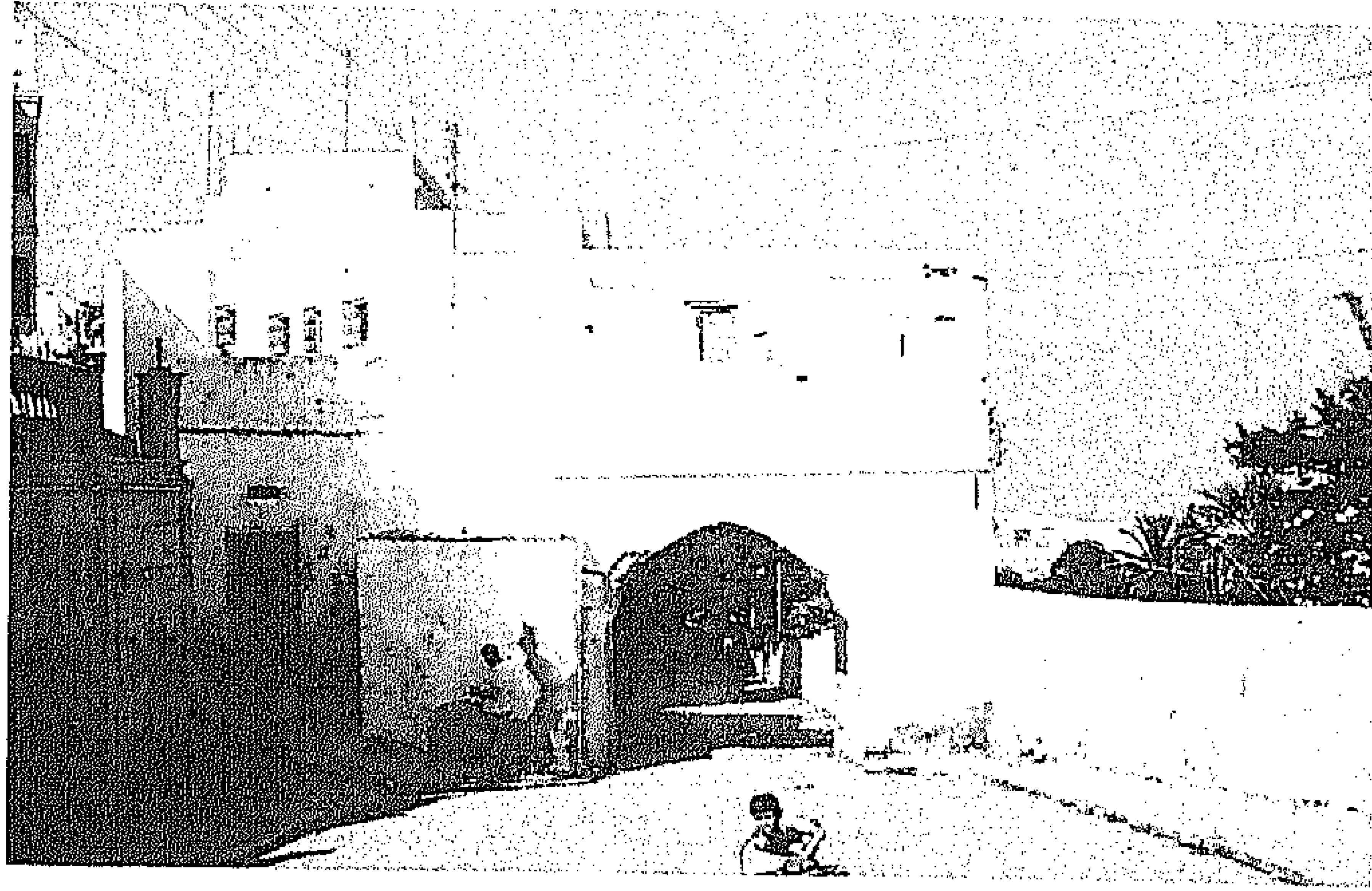
أنشأ النقسيس و الموريسكيون حى العيون أو عيون الواسع هذا متصلاً ببناءات وأقاموا أسواراً جديدة، و باباً أخذ هذا الاسم، لأنه يُخرج إلى الطريق فى اتجاه فاس، أخذ أيضًا اسم باب النوادر Nuader أو باب العصورPuerta de las Eras، و هو اسم يعبر عن الشكل الذى كان موجوداً فى البداية.(شكل ٤). يُرى فى الصورة منظر من داخل باب النوادر an Nuader حيث يشمل شارع العيون الطويل جدا. أُخذ بوضوح جزء من الباب وجزء من السور. الباب يبدو أنه تم إعادة إنشائه، لكن لم يحدث ذلك مع جزء السور، الذى سيتجه فيما بعد إلى الشمال صاعداً أحد منحدرات جبل درسة. وبالإضافة إلى باب النوادر، فقد فُتحت أبوابٌ أخرى فى الأسوار الجديدة: باب التوت Bab et Tut وباب العقلة Bab al Uqla وباب الرموز Bab er Ramuz، وقد تغير شكل هذه الأبواب كثيراً حتى أنه أُعيد بناؤها، فى أيامنا هذه، و كانت مدمرة بالكامل، ولذلك فإن الصور التى تنشر هى فقط ذكرى.

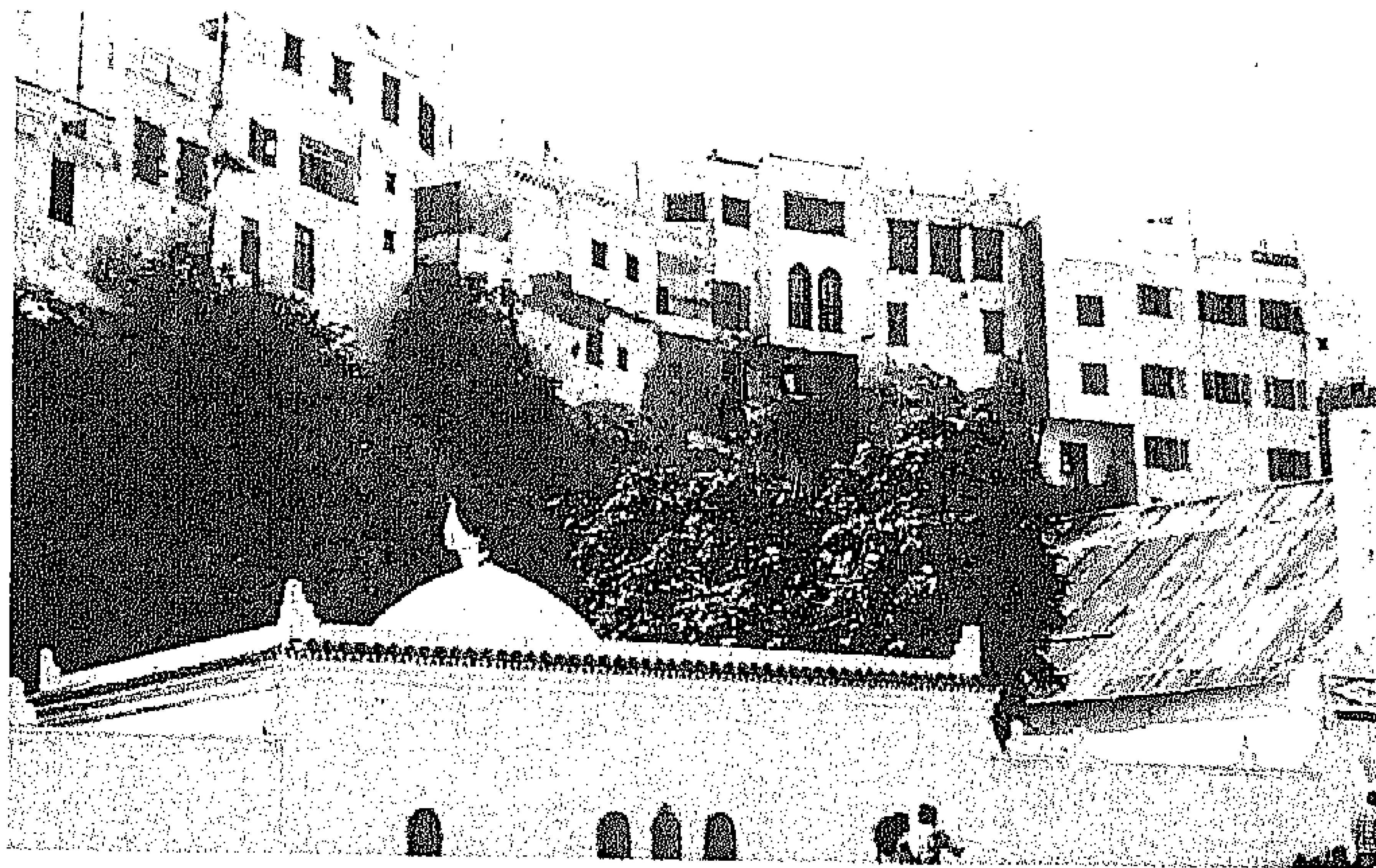
يمكن لبعض الأبواب، مثل باب الرموز الجنوبى، الذى نرى من خلاله منظراً عامًا لسلاسل جبال هاوس Haus الرائعة، أن تكون قد أُنقذت بسبب عدم أهميتها.(شكل ٥). المنظر مأخوذ من الداخل، عند نهاية شارع لونيتا Luneta الذى كان اسمه معروفًا أيضًا.

نتوقف أمام مدفن ولىٍ غرناطى من القرن السابع عشر، وهو سيدى عبد القادر تبين Abd el Qadir Tabbin، و نتأمل البيوت، المعلقة تقريبًا فى الانحدار الصخرى، الذى يُنهى التوسع الجنوبى لمدينة المندارى.(شكل ٦). و قد استفاد الموريسكيون من هذا الانحدار وأقاموا أسوارهم، التى يمكن تبين وجود قطع منها فى المبانى. مازال بالإمكان تمييز الأسوار والأبراج، التى بناها الموريسكيون، إما فى الفترة الأولى من المنفى، بعد سقوط مملكة غرناطة، وإما فى فترة الهجرة النهائية، فى القرن السابع عشر. كانت هناك إنشاءات كثيرة مختبأة أو شبه مختفية بسبب المساكن المقامة فى القرون التالية، مثل هذا القصر أو البرج الذى بُنى فى عصر المندارى.(شكل٧).

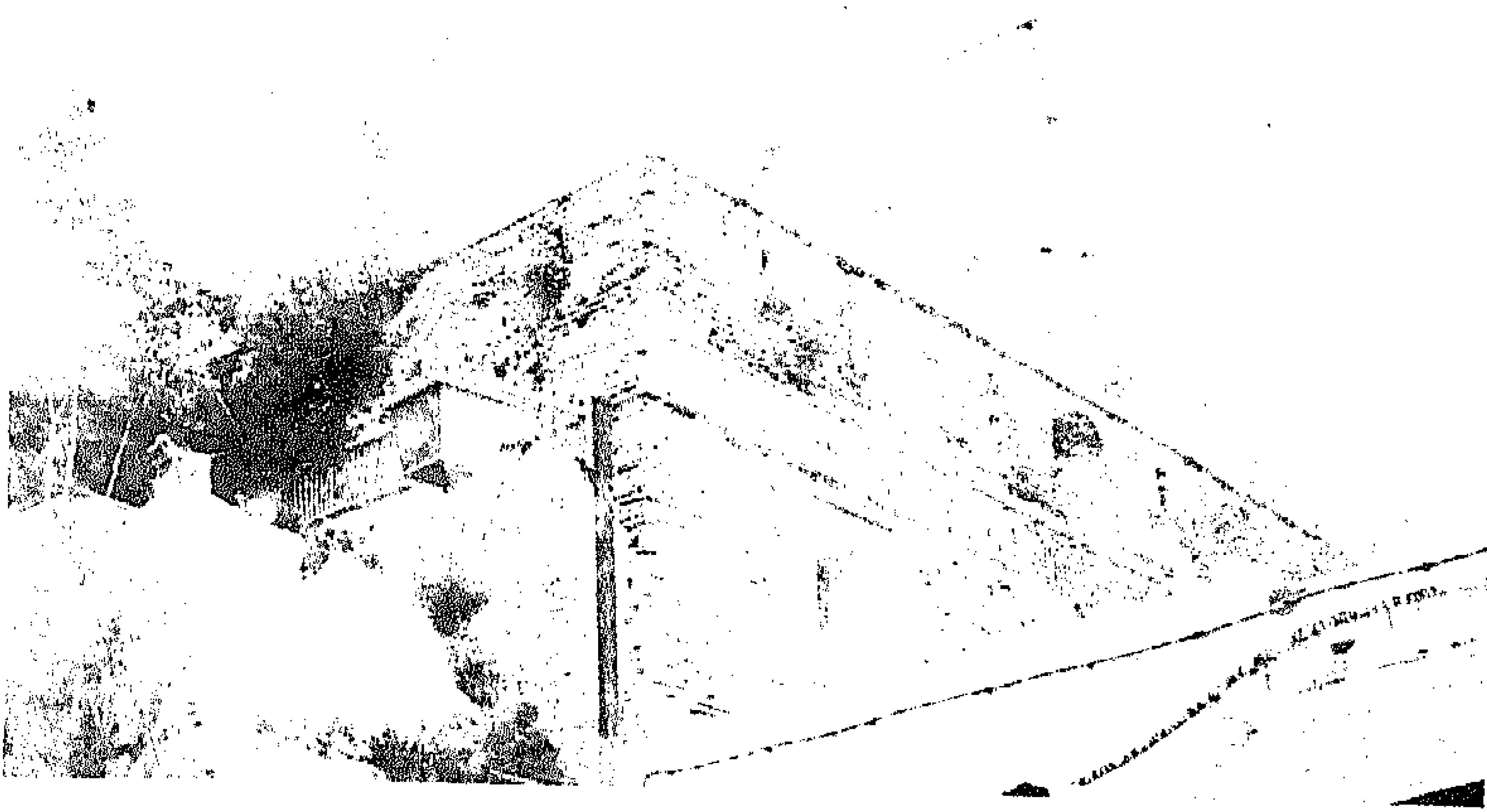
فى هذه الصورة الجميلة، جمعٌ و تلخيص لكل الجمال الذى كان الموريسكيون المنفيون فى تطوان قادرين على طبعه، حتى فى الأسوار الدفاعية[٢٣] . يمكن أن

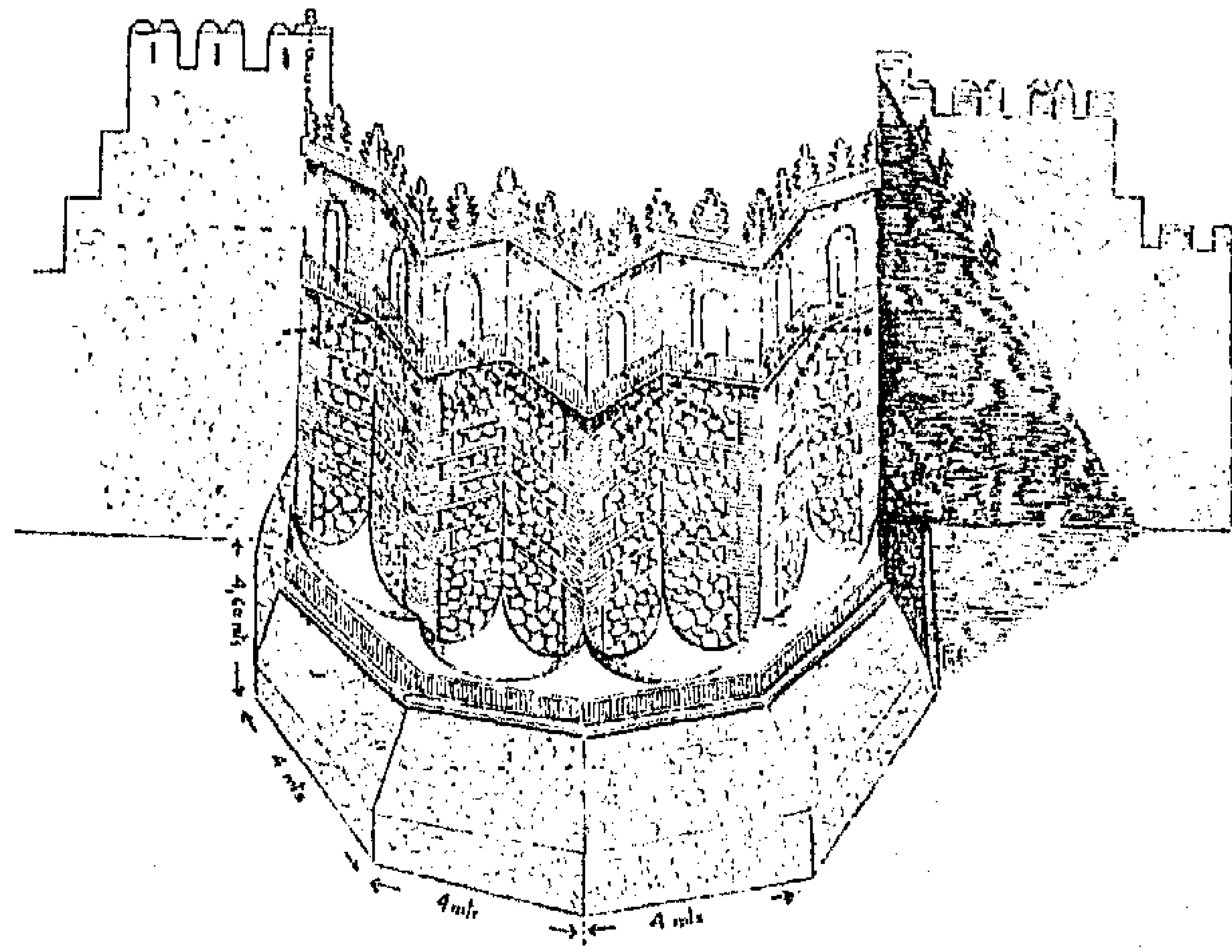
نفترض أن الأساتذة الذين أخرجوا هذه الأعمال ذات الحماية المدنية البسيطة كانوا يستمدون أسلوبهم وذوقهم مما كان يجب أن يحققوه فى شبه الجزيرة، لخدمة المسيحيين فى هذه الحالة.(شكل ٨). لا يجب نسيان أن العبيد البرتغاليين العديدين، كانت لهم علاقة بهذه البناءات كما أكدت لنا ذلك نصوص من ذلك العصر .





صور (٥ - ٦)





صور (٧-٨)

إن شارع العيون، و هو شارع نموذجى من النماذج التى أنشأها الموريسكيون فى الفترة الثانية من المنفى- والذى رأينا أنه ينتهى فى باب النوادر- يبدأ قريبًا من بستان قديم، (الغرسة الكبيرة **Garsa al quibira**)، الذى تم البناء حوله أيضًا.

هكذا امتدت المدينة فى اتجاه الجنوب، بأحياء سويقة Suika والمنيرة al Manyara، و اشتملت على الأحياء الغرناطية الأكثر قدماً و هى سيدى عبد القادر تبين، بما فى ذلك مسجد السيد فريحة La-la Friya، ووصلت البناءات حتى الحافة الصخرية، التى رأيناها من فوق مقبرة الولى المذكور.

قام حى آخر بمد المدينة إلى الجنوب الغربى، و كان به حرم سيدى مصباح، وهو ولى أندلسى مثل تبين فى القرن الثانى عشر، كان هناك حى داخل الأسوار الجديدة، ولكنه اختفى فيما بعد.

تسبب تكدس الناس، الهاربة أو المطرودة، فى الاحتياج العاجل لأماكن صلاة جديدة.

إن القرن السابع عشر هو عصر الإنشاءات الدينية الأكثر أهمية وربما الأكثر جمالاً فى تطوان.

وقد أنشأها، على نمط التراث الأندلسى الكبير، المهندسون المعماريون، الذين تركوا أسماءهم وآثارهم فى تطور الفن الإسبانى الموريسكى. عانى الكثير منها تغييرات فى تصميمه وأيضًا فى تكوينه، ونظن أن الجزء الذى تغير بصورة أقل ربما يكون هو المئذنة.

لقد جمعنا صور بعضها، إلى جانب بعض العناصر الأخرى التى نعتبرها أكثر خصوصية للعصر. سوف تساعدنا هذه المجموعة على أن نتعرف على أحد مجالات النشاط الموريسكى فى المغرب، على الجانب المزدوج، الدينى والمعمارى، و هما مظهران من حياة أمة حاولت مد جذورها الإسبانية فى أراضٍ إفريقية، دون فقد تقاليدها ومعتقداتها.

نقدم على رأس الآثار الدينية مئذنة جامع سيدتنا فريحة لأنه بالرغم من أنه ليس موريسكيًا، ربما يقدم لنا نموذجًا على ما كان عليه هذا النوع من المبانى فى الأندلس، حتى قبل إنشاء المملكة الغرناطية.

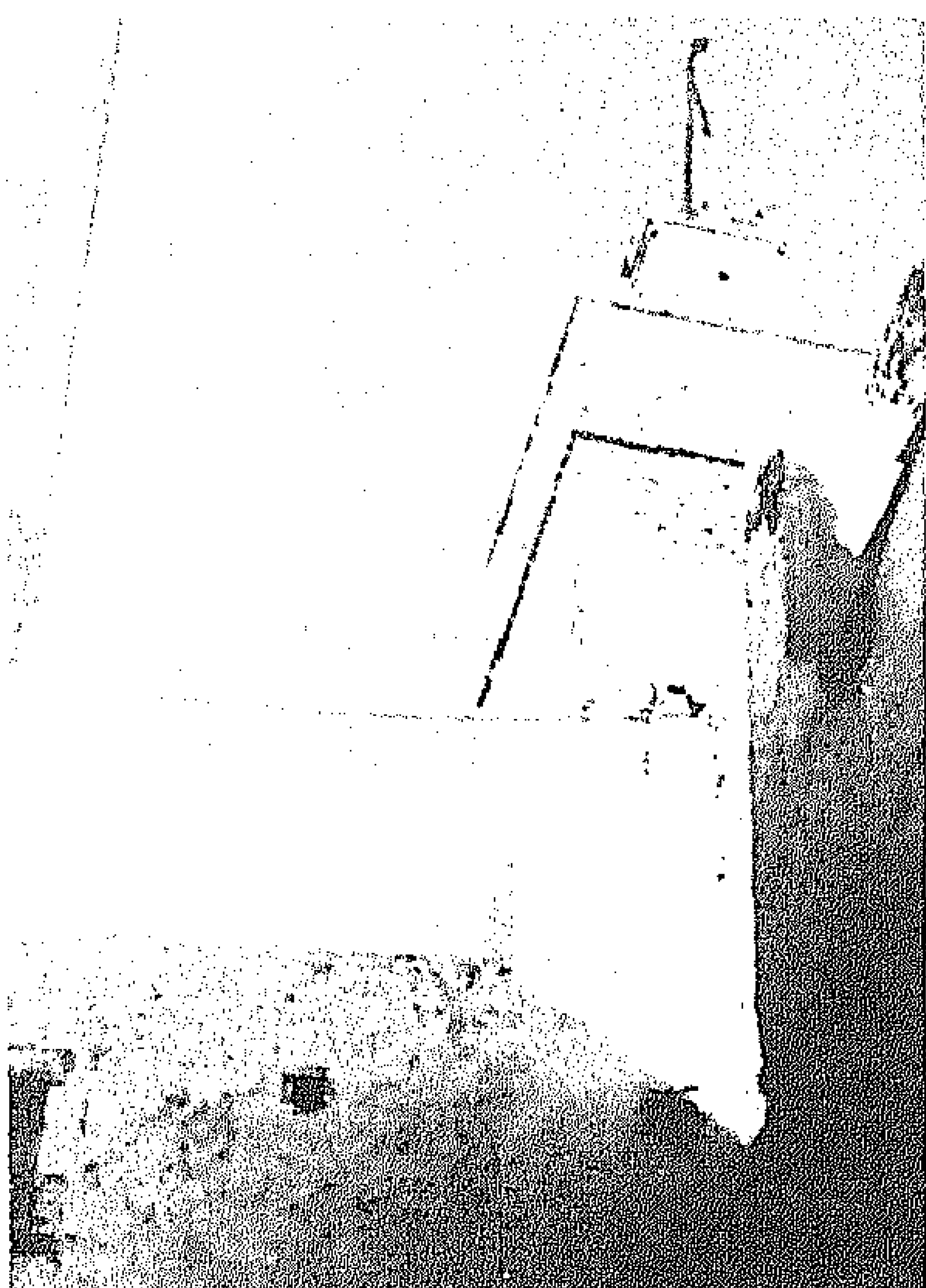
يبدو لنا أن المسجد الذى بناه تبين ، مع بنائيين وحتى مع مواد بناء من سبتة، يعكس وجود أنواع من المبانى من نوعه فى سبتة الموحدة، وفى شبه الجزيرة بوجه عام. ربما يكون هو الأكثر جلالاً وقدمًا فى المساجد التطوانية، بالرغم من أن داخله قد عانى من تغييرات كثيرة، ولسوء الحظ، حدث ذلك أيضًا مع خارجه، وبالتحديد، عند تبديل غلافه القديم ذى السقف الأندلسى المصنوع من القرميد وبناء شرفة مكانه.

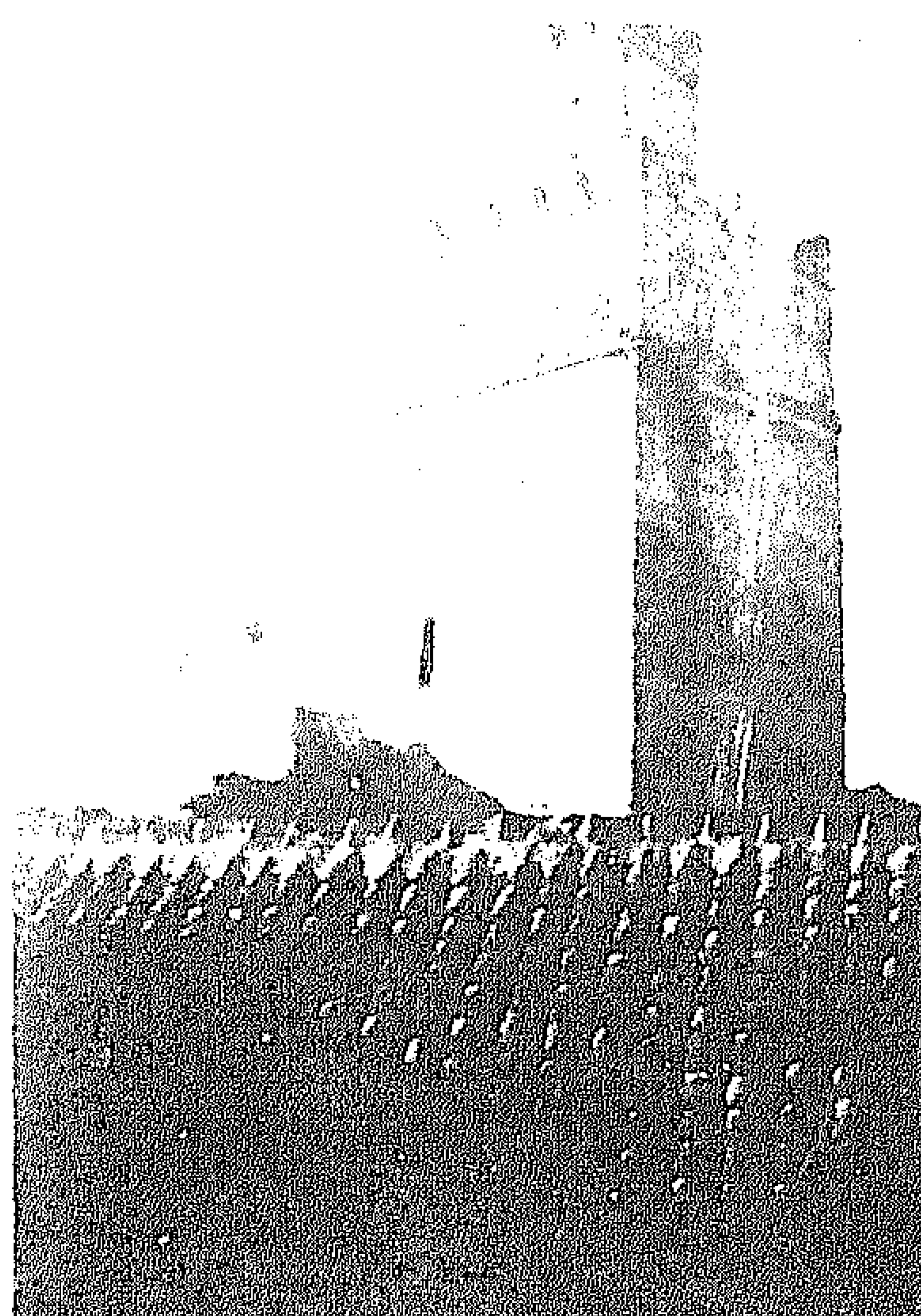
لا زلنا فى صورنا نستطيع أن نميز سقف أحد الأجنحة الجانبية، الذى اختفى. تم التقاط هذه الصور منذ أكثر من ٤٠ عامًا، وبسبب الظروف التى قيلت، كان لها قيمة ما لا يمكن تكرارها .(شكل ٩ - أ و ٩- ب).

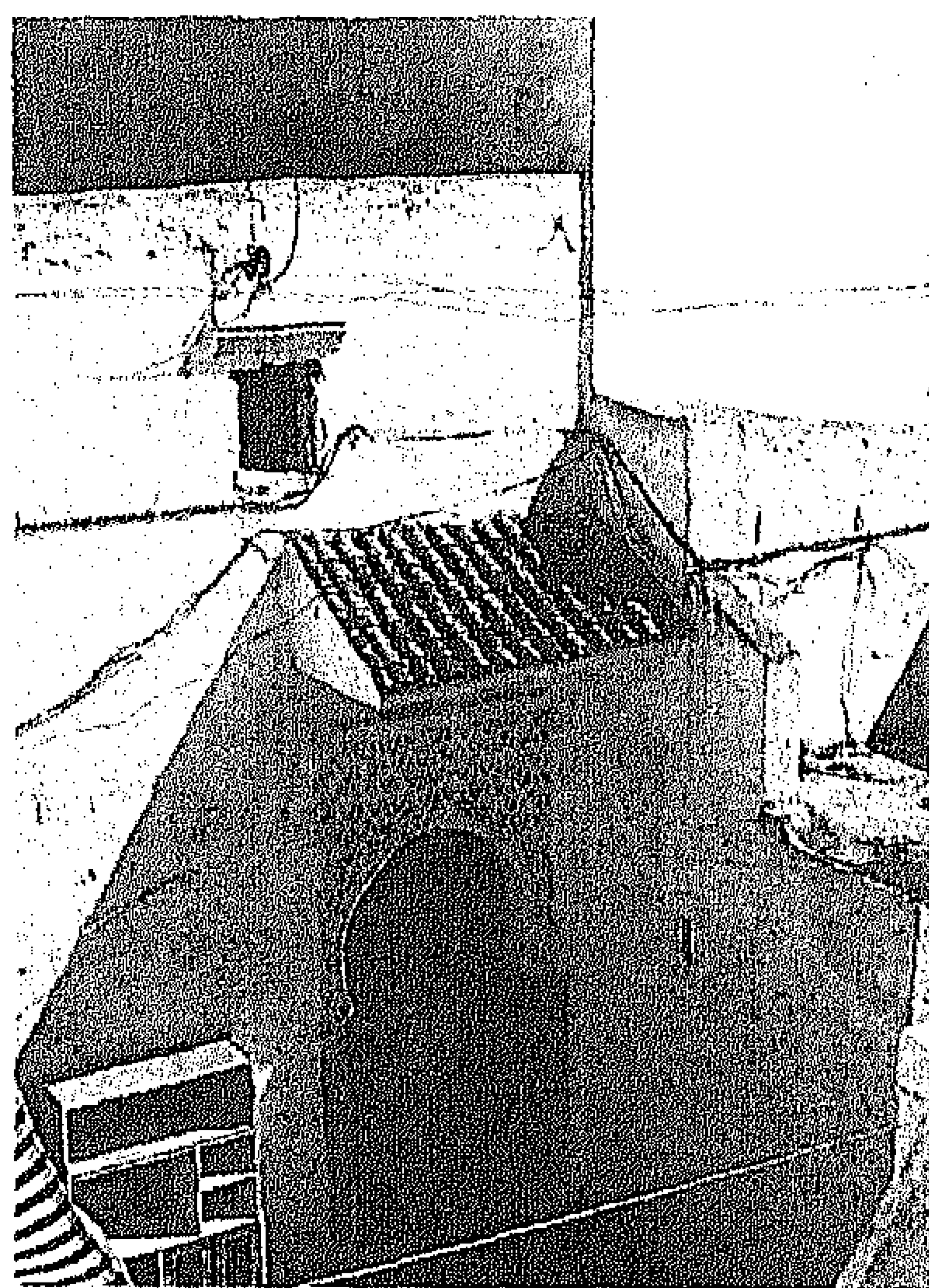
من الصعب جدا أن نجد مسجداً منعزلاً. كان مسجد السيدة فريحة "مُلتهمًا" إلى حدٍ ما بسبب الأبنية المجاورة التى، تمنع اليوم تمييز المئذنة. كانت المئذنة ذات قاعدة مربعة، مثل أبراج الكنائس الغرناطية التى كانت مآذن وأيضًا كان البرج الصغير الذى يعلوها ذا قاعدة مربعة و يعطيها أناقة أكيدة، مثلهم كلهم. يبدو أن ارتفاعه يتبع قاعدة أن يكون الإرتفاع أربعة أمثال طول ضلع القاعدة ويوجد على ارتفاع أكثر من ثلثها بقليل افريز خفيف من الطوب يكسر رتابة الأسوار الناعمة، التى تنتهى بشرفات مسننة. كان جانب قاعدة البريج الأعلى أقل بقليل من نصف المربع الأكبر، وينتهى البريج بنفس نوع الشرفات المسننة للبرج الأصلى.

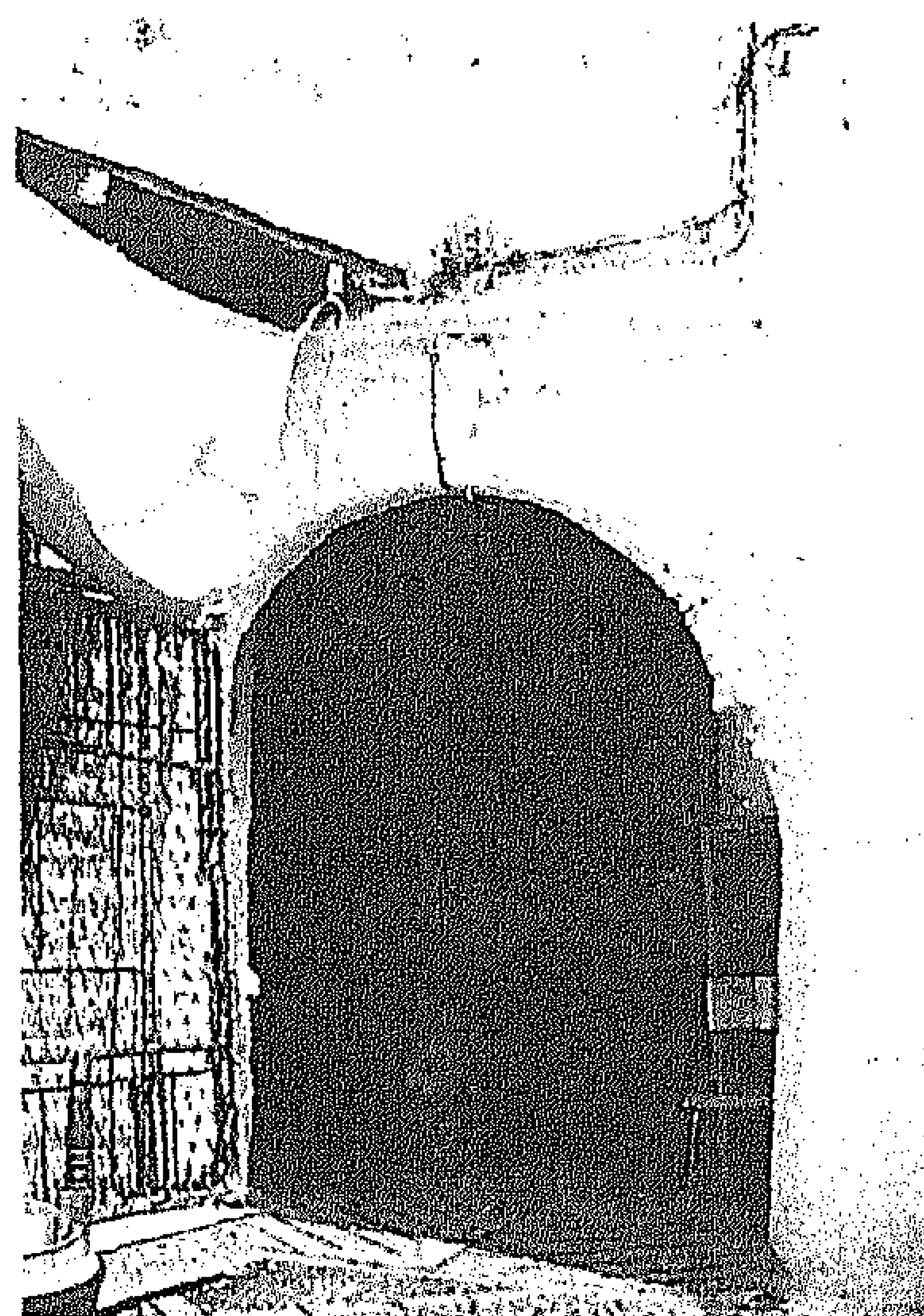
نعتقد، بعد مسجد السيدة فريحة، أنه يحتمل أن يظهر المسجد الذى يُسند إنشاؤه إلى مؤسس المدينة ذاته، سيدى على المنداري، ذلك الحاكم الغرناطى والمحارب الذى لا يكل فى الأراضى الإفريقية: جامع قصبة أو جامع القصر.

حذفت فى إحدى الصور المئذنة لتصوير باب الدخول، وهو على شكل حدوة الفرس وسقف صغير بارز إلى حدٍ ما .(شكل ١٠).









صور (٩أ، ٩ب، ١٠، ١١)

يوجد على شمال هذا الباب، وبالقرب منه، عقد منحنى يؤدى إلى شارع صغير مغطى وبدون مخرج (شكل ١١). مازال يوجد مكان قصر المنداري عند الدخول عبر هذا الفراغ على اليد اليسرى. حُفظت على الأقل آثار وجوده ولا يزال بعض أحفاده يعيشون هناك.

كان لجامع قصبة الموجود فى المكان مئذنة ذات جدران ناعمة، بحافة من الطوب على بعد متر من قمة تنسجها شرفات ذات حدود مزدوجة وبرج صغير: متوج بالشرفات المزدوجة للبرج الأساسى.

تبدو مئذنة الجامع هذه أقل تسطيحاً من المئذنة السابقة، ربما لعدم اتباعها قاعدة الارتفاع الرباعى الأضعاف. لا نعرف ما إذا كان فى إحدى مرات إعادة البناء التى عانت منها هذه المئذنة قد تغير تركيبها، ربما يكونوا قد رفعوها، على سبيل المثال. كان لجامع الرابطة Rabta نفس الأسلوب وكان من عصر المندارى أيضًا، و قد أنشأته ، وفقًا للمؤرخ التطوانى إسكيرى، إحدى الأندلسيات فى الفترة الأولى من الهجرة الموريسكية. كان لمئذنة هذا الجامع ميزة، و هى عدم التصاقها بشىء من الواجهتين، الأمر الذى جعل لها جمالاً حتى مع بساطتها وصرامتها، مثل المآذن السابقة.(شكل ١٤و١٥).

يوجد إفريز، على بعد مترين من الأرض تقريبًا، يعمل كإطار لقاعدة من أربع تصفيحات ملساء تصل حتى ثلاثة أرباع طول البرج، حيث يبدو أن إفريزًا آخر يمرر إلى جسم آخر. تزين شرفات مسننة كلاً من البرج والبريج، و توجد شرفة مسننة أخرى فى جامع قصبة.

وعند انتهاء القرن السادس عشر لدينا زاوية سيدى يوسف الفاسي، المبنية فى عام ١٥٩٢، التى لم تُدخِل مئذنتها أى تجديد على المآذن الأولية، التى دُرست حتى الآن، بالأخص فيما يتعلق بحجمها .(شكل ١٥).

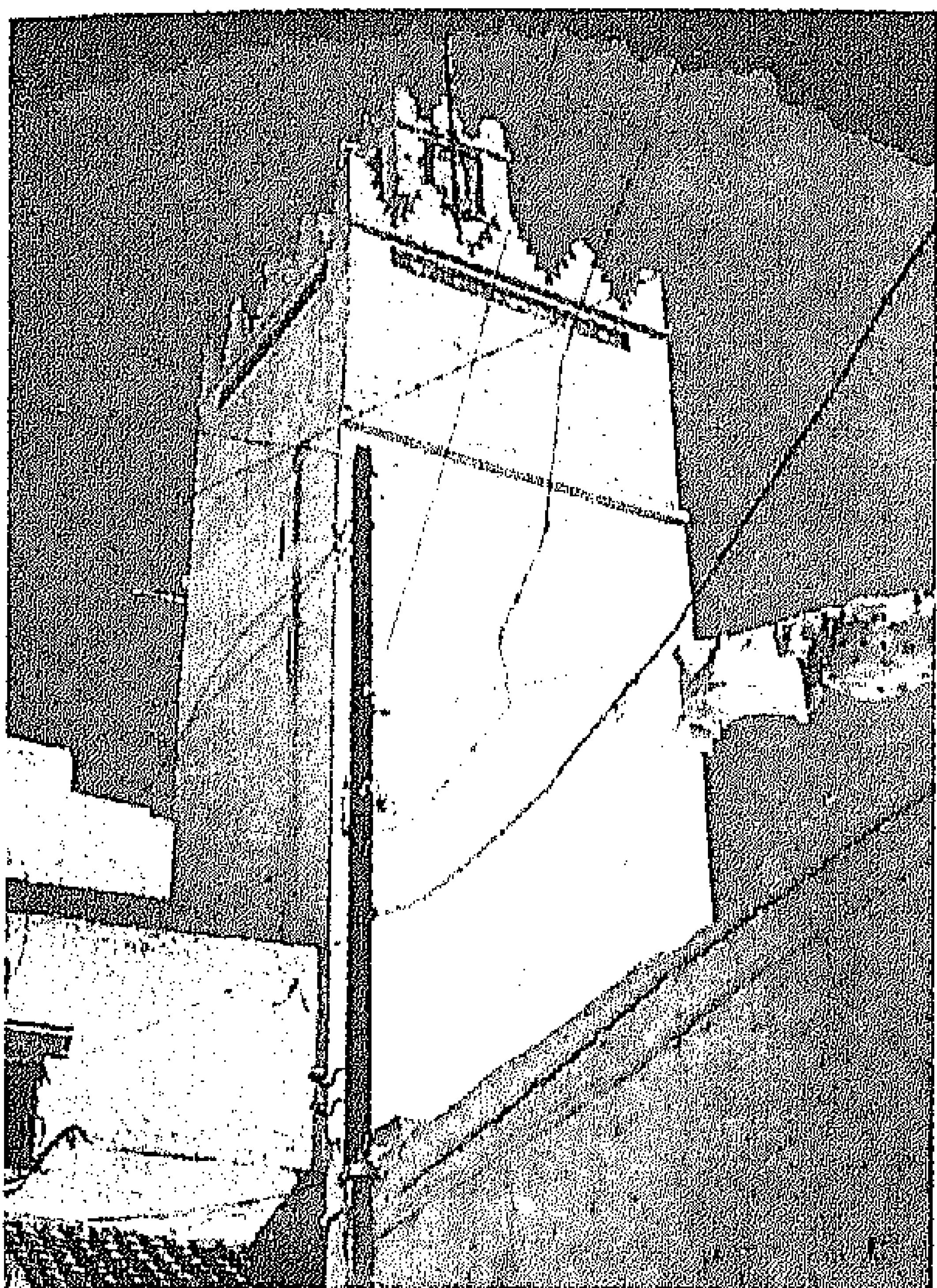
ربما يكون البريج، الأكثر صغراً من العادى، قد أسهم، بدرجة كبيرة، فى إعطائها مظهراً مسطحًا. يقع هذا الحرم فى شارع آخر ذى طابع موريسكى واضح، و هو شارع الترنكات el Trankat .

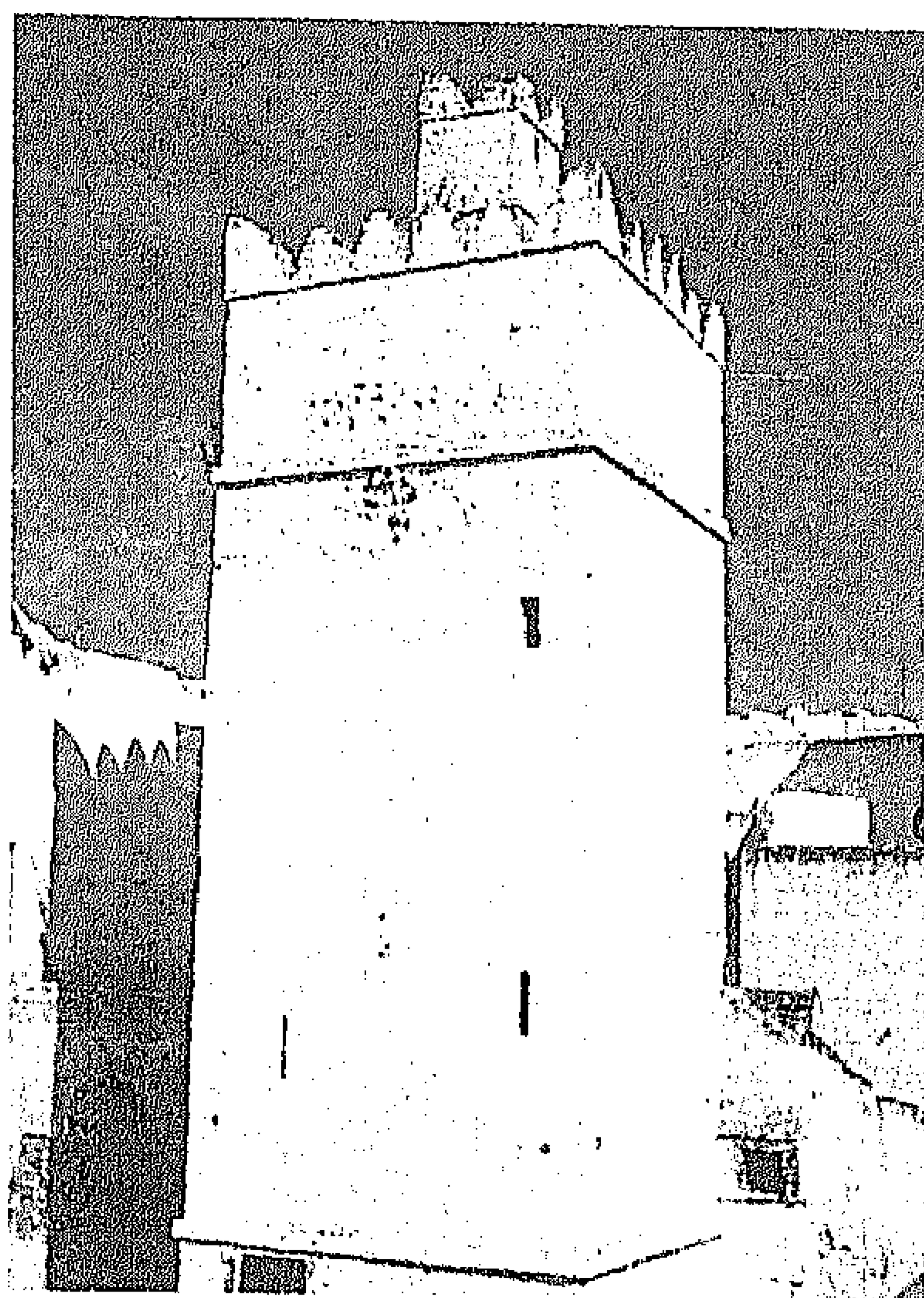
ربما يمثل تاريخ بناء هذه الزاوية إشارة واضحة إلى أن شـارع الترنـكات قد بُنى قبـل شـارع عيـسون. تم نفى الموريسكيـين الذين أقـامـوا منازل فى التـرنكات عـقب حرب البشرات الأهلية والتحركات "إلى الجانب الآخر" التى نُفذت عند نهاية القرن.

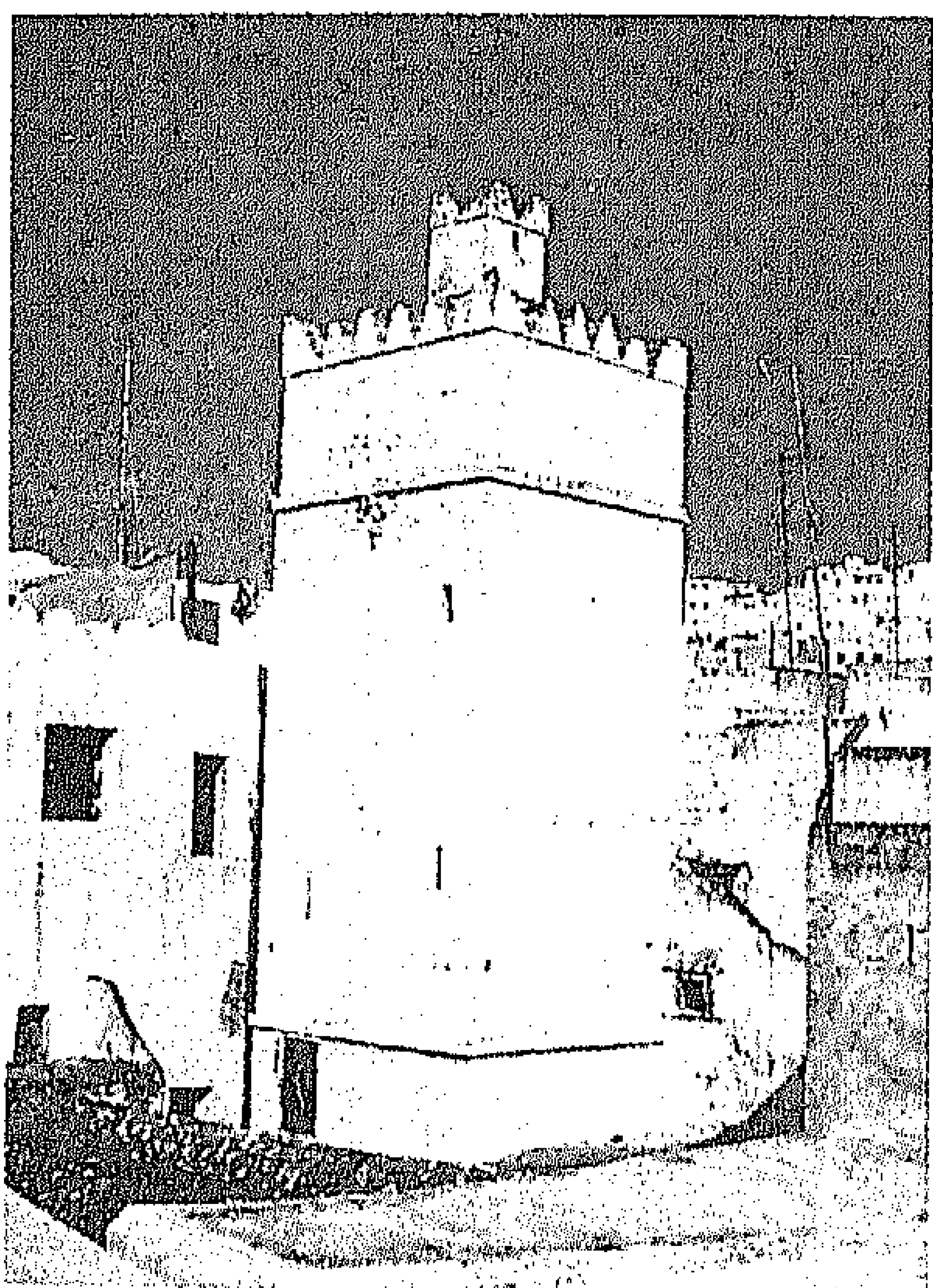
نصل إلى القرن السابع عشر وفى عام ١٦٠٩ شيَّد سيـدى قاسـم الحاج مسجد سيدى السعيدى as Saidi [٢٤]. كان يقع قريبًا جدا من أحد أبواب المدينـة، باب سعيدة Saida . إن المئذنة كلهـا التى توجـد فى أسفـلها نافورة بعـقد على شكل حدوة فرس ذى فصـوص وكُنة، ويوجد على يسـاره مباشرةً عقـد على شـكل حدوة فرس، ذو فصوص أيضًا، ولكن أكثر حجـمًا، مع هيـاكل مغطاة بالزُلّيج – تؤدى إلى شـارع مـغطى و برج ذى نوافـذ أُطرها مـغطاه بالخـزف، وفى العمق قبتين بثمانية أعمدة، تعطى طابعًا جماليًا من الصعب أن يُنسـى.(شكل ١٧). فهـو أكثر ارتفـاعًا عنه فى مآذن أخرى، و كل حوافـه العليا بها شرفات، على طريقـة الأسلوب الكلاسيكى.

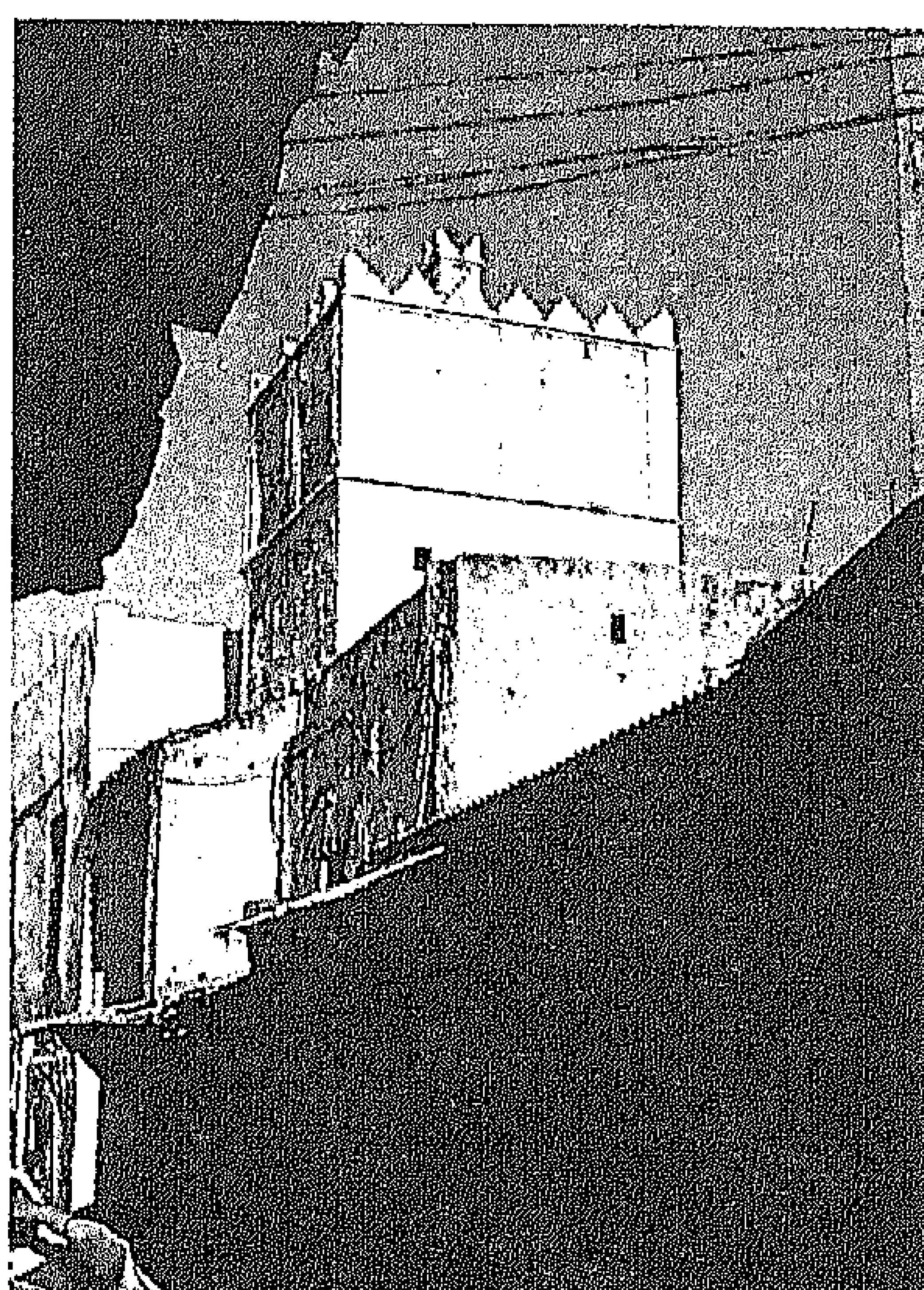
عند النزول بانحدار فى هذا الشارع الذى يصب فى حرم سيدى السعيدى Saidi فإنك لا تستطيع التخلص من العاطفة التى يوقظها الأثر، و تتقد العاطفة أكثر كلما اقـتربنا وأحطناه، سـواء من اليـمين أو من اليسـار. نحن، فى الاتجـاه الأول، نضع أنفسنا تقريبًا فى اتصـال طبيـعى مع الجـو الصـوفى لداخله، عندما نمر بالشـارع الصغير المغطى.(شكل ١٨). و نتجول فى الشارع الثانى بجانب المسجد حيث يوجد المحراب، الذى يبدو كصدر لإحدى الكنائس البدائية. تصب النهاية القريبة لهذا الشارع فى باب السيدة، الذى ربما أُعيد إنشاؤه، ويقدم لنا منظره مثـالاً على الأسـوار التى كانت تحيط المدينة فى القسم الشرقى.(شكل ١٩).

فى عام ١٦١١، أنشأ سيدى على ماسيميدى Alí Masimdi الجامع الذى يحمل اسمه[٢٥] . تتبع المئذنة الاتجاه الفنى لما سبقها، و الاختـلاف الصغير هو أن الجدران الناعمة تُرى جميلة المنظر فى منتصف ارتفاعها بسبب تصفيحتين محفورتين، تشبهان الإطارات المرصعة. كانت إحدى هذه التصفيحات طويلة والأخرى مستطيلة وتلمس الإفريز العلوى.(شكل ٢٠).

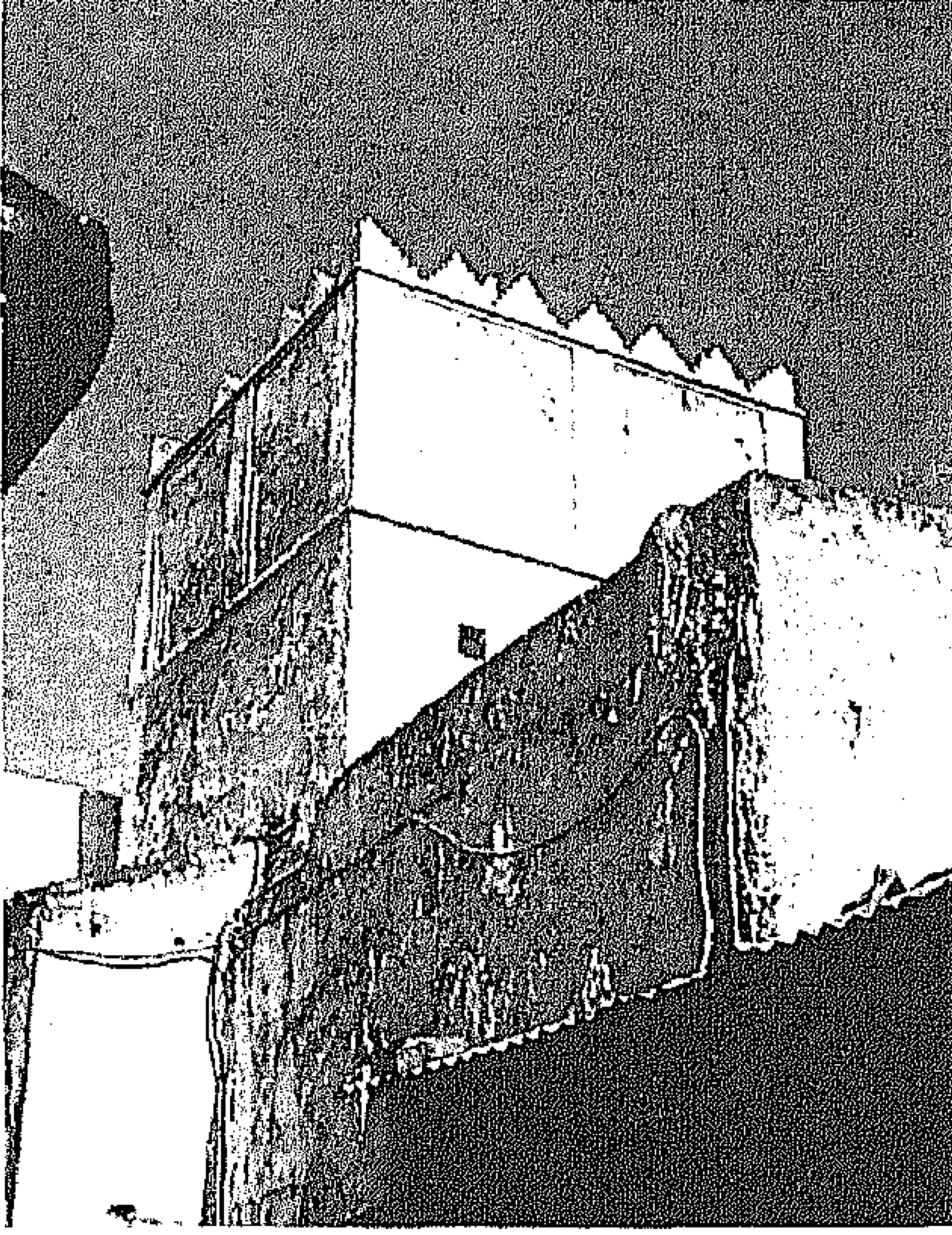
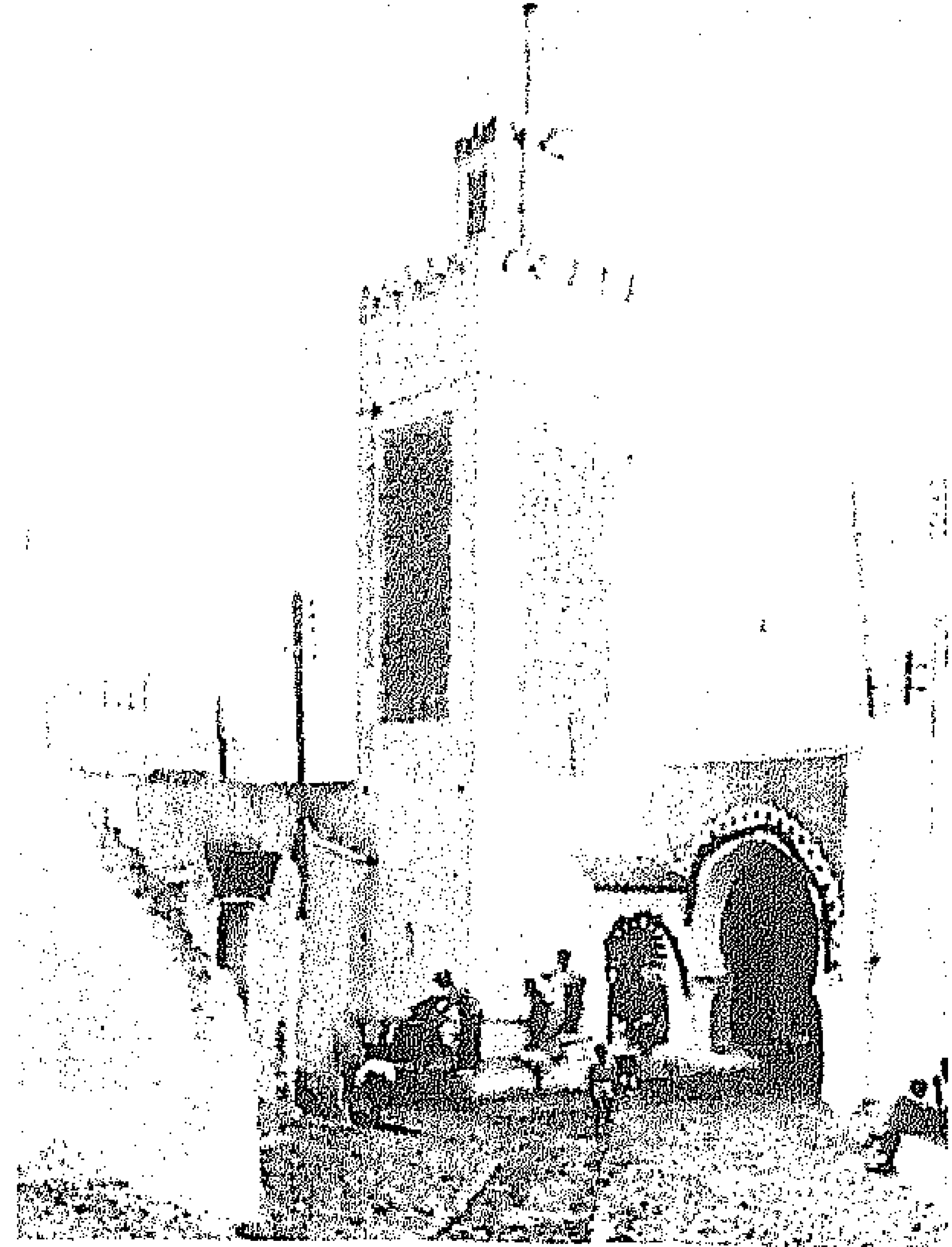








صور (١٢-١٣-١٤- ١٥)

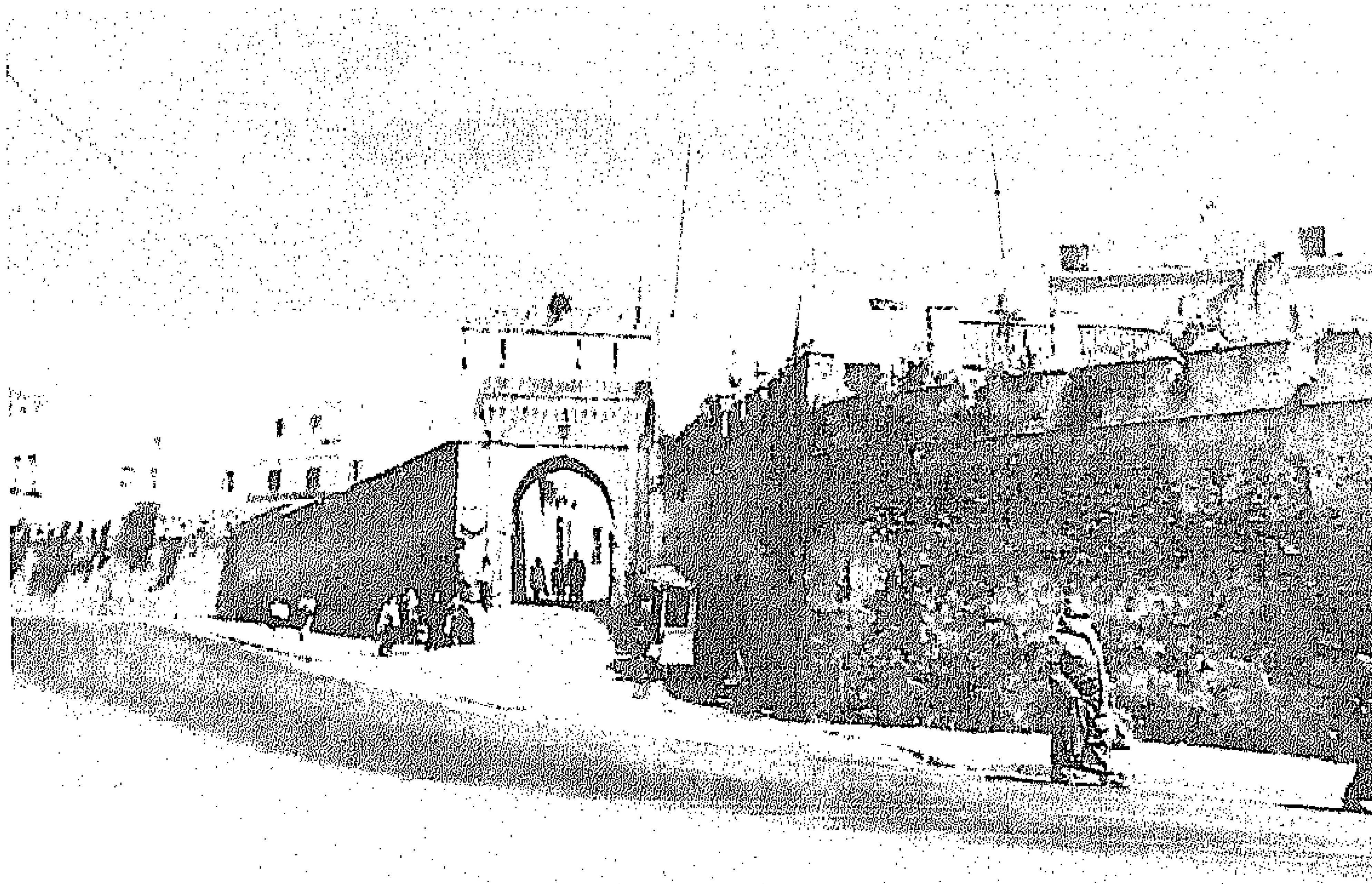
صور (١٦-١٧)

تعطى التصفيحات تأثير إطالة شكل البرج الأساسى الذى يبدو، على الجانب الآخر، أنه يكمل قاعدة الارتفاع الرباعى الأضعاف للقاعدة. كانت الشرفات المسننة، مشابهة للنماذج القديمة، بالرغم من أن عددها كان أكبر. كان البريج أيضًا مزينًا بتصفيحة صغيرة محفورة.(شكل ٢١).

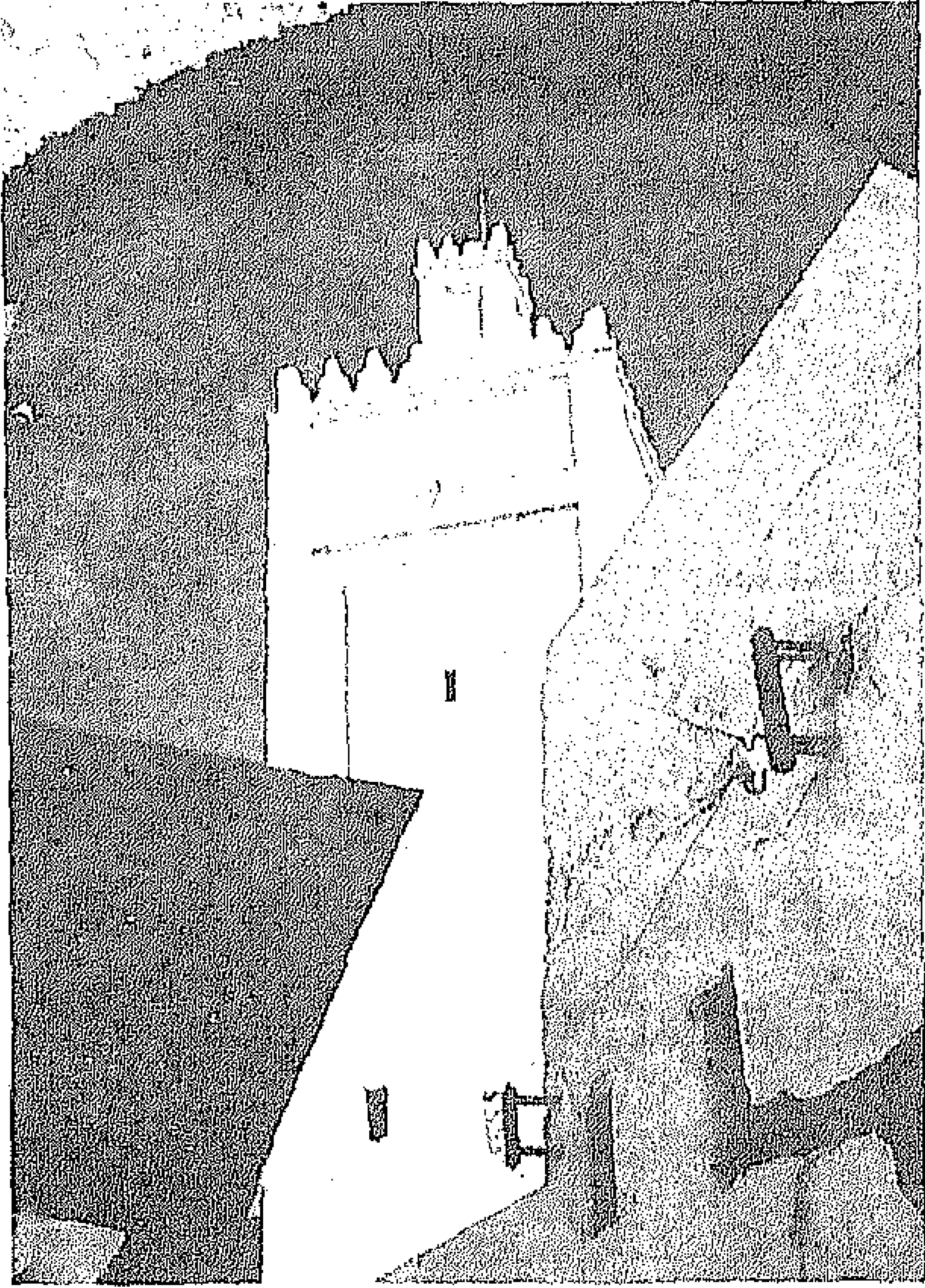
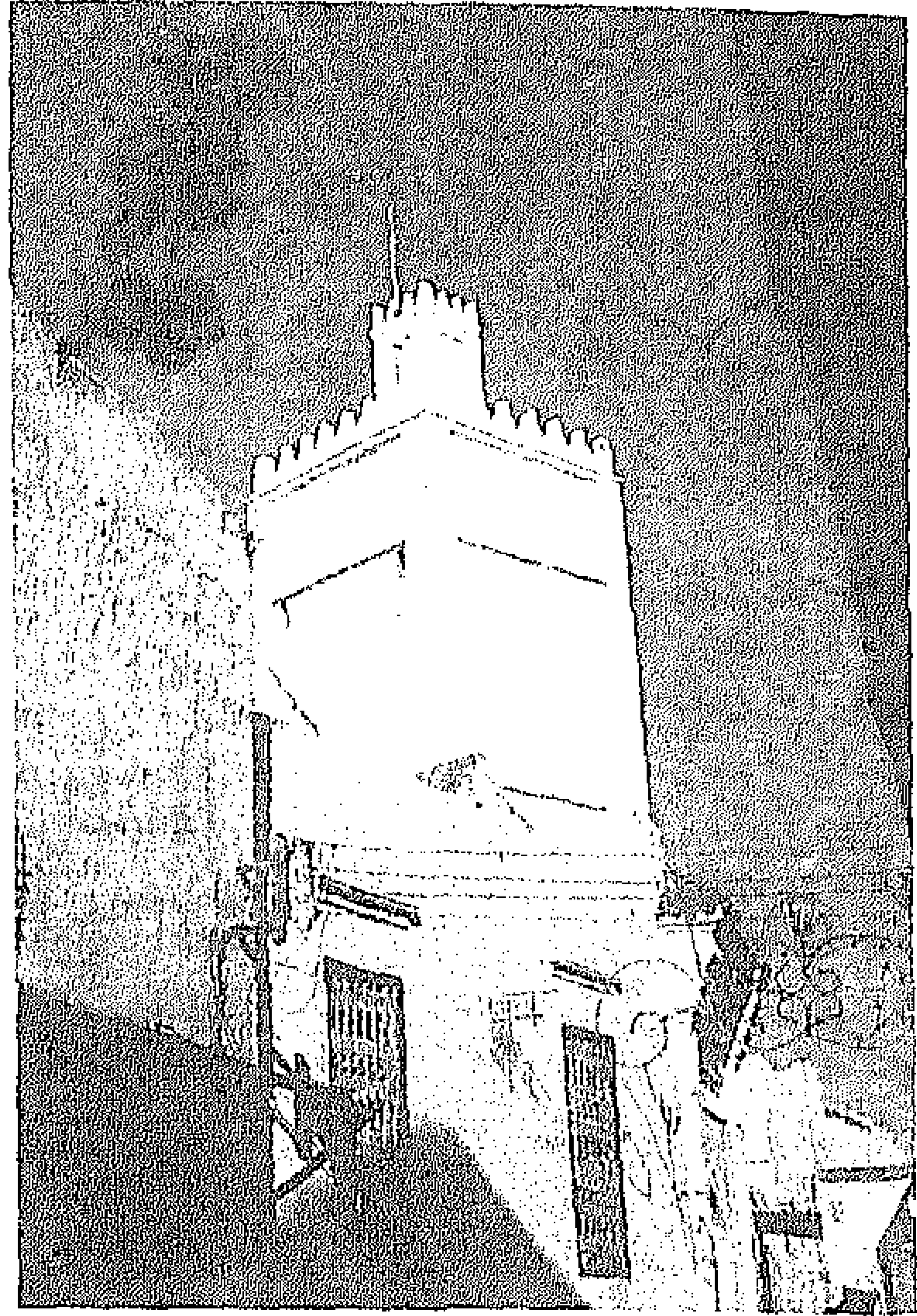
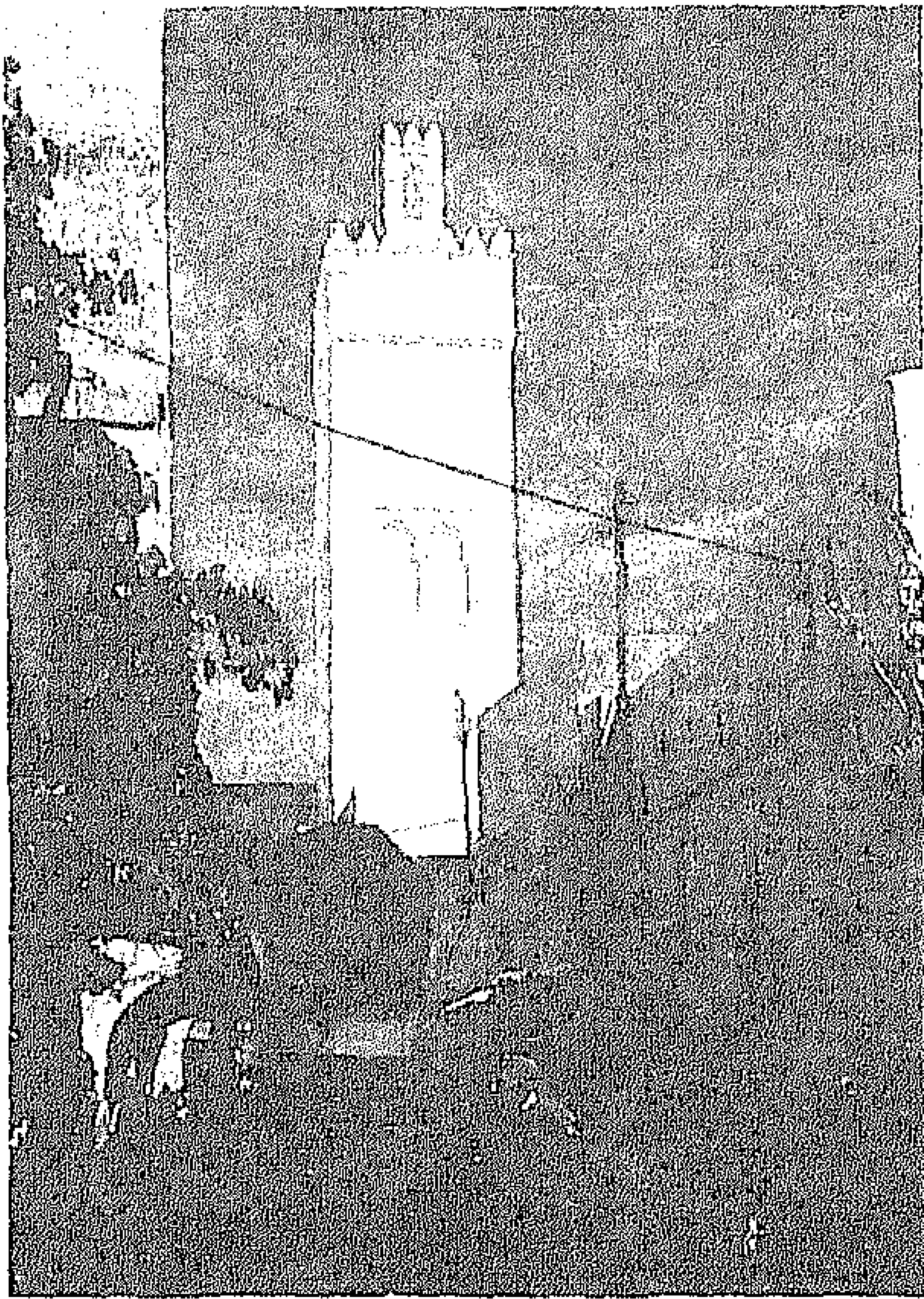
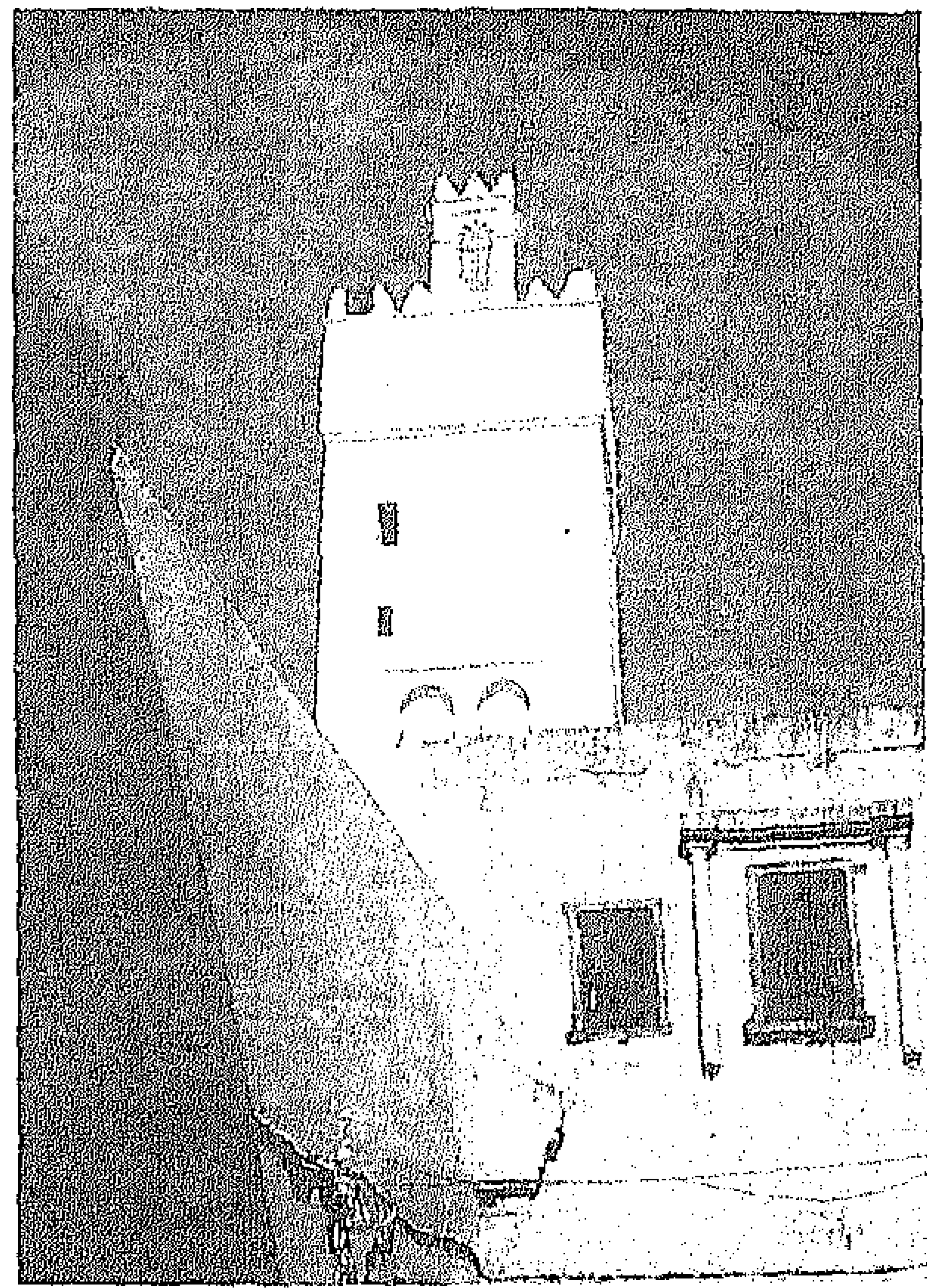
كان بنَّاء القرن السابع عشر هو المعلم العظيم سيدى على بن مسعود العويدى **Alí Ben Mesaud al Yu'aidi** . الذى نفَّذ البناء الذى كان بالتأكيد المسجد الأكبر الذى بناه الموريسكيون التطوانيون، و هو جامع عيون. يتكون هذا الجامع من خمسة صحون، أى ما يشكل اتساعًا ضروريًا للحشود التى كانت تتمركز فى المدينة. كانت مئذنة جامع عيون من المآذن الأكثر رشاقة فى المدينة الموريسكية، دون اكتمال قواعد النسبة القديمة بين جانب من القاعدة والارتفاع، التى كانت سائدة حتى غرناطة بنى نصر.(شكل ٢٢).



صورة (١٨)



صورة (١٩)

صور (٢٠-٢١- ٢٢-٢٣)

في المنظورين اللذين نعرضهما يمكن ملاحظة الفرق بين تأمله من الشارع (مع السماء كخلفية وتقريبًا من القاعدة)، عن رؤيتها مُدرجًا من بين المباني. يوجد في وسط جسمه الأساسي نافذتان مسدودتان، يفصلهما عمود حجري أو عمود صغير ملحق.(شكل ٢٣).

يقوم على بعد متر من مصده العلوي إفريز خفيف، يعطي، مع خط ظله، نفس التأثير الزخرفي الموجود في الجوامع الأولى من القرون السابقة. وله شرفات مسننة كما في كل الأبراج التي درسناها حتى الآن. يشكل البريج – وارتفاعه يزيد عن ضعف عرضه، بشرفاته الصغيرة، الموجودة في الذروة – واحداً من الأمثلة الأكثر تميزًا في المباني الدينية التطوانية الخاصة بتلك الفترة، بل وعلى مدى كل الأزمنة[٢٦] .

كان الجامع الجديد Nueva Mezquita أو جامع جديدة Yam'a Yadida أقل حجمًا من جامع العيون، حيث كانت له ثلاث صحون فقط، و بُني في عام ١٦٤٠، لتلبية الاحتياجات الاجتماعية لتلك الفترة. استمر الموريسكيون في التدفق، بالرغم من أن ذلك كان بنسبة أقل عن الأعوام التالية للهجرة الجماعية الكبيرة. ربما ذهب الكثيرون، من الذين كانوا قد بحثوا عن ملجأ في الحقول والمدن الصغيرة، إلى المدينة الكبيرة وهي تطوان حينئذ، لكي يحسنوا أحوال حياتهم أو لتفادي الاستقبال الريفي العدائي المستمر تقريبًا. تطلب الأمر إنشاء مبانٍ دينية أكثر مثل جامع جديدة هذا.(شكل ٢٤).

تحاول مئذنة هذا الجامع، دون شك، أن تقلد سابقاتها بإفريزاتها وأقواسها، ولكن لم تكن هذه الأقواس تقع على نفس الارتفاع ولا كانت المآذن بنفس الارتفاع و لا بنفس الجمال. كانت الشرفات مشابهة لكل سابقاتها. يحوى السوق الفوقى Zuq al Fuki الحالي، أو السوق العالي mercado de arriba، مبنيين، تم إقامتهما بفارق زمني طفيف، و في الأعوام الأولى من القرن التالي، و هما جامع الساقية الفوقية Sakia al fukia وزاوية سيدي على بركة Ali Baraca، و كان كلاهما متميزًا، على الأخص بسبب مداخله.(شكل ٢٥).

كانت مئذنة الحرم الأخير من النوع الكلاسيكى رباعى الزوايا ذى الشرفات، برفوف ببلاط قيشانى جميل وحاشية عليا بشبابيك مسدودة.

نغلق هذا الملخص، عن التجليات الهندسية لشعور الموريسكيين الدينى، بصورٍ لآثار أخرى تتبع هذا الخط الروحى. وهى المسماة بالقبور الأندلسية.

تقع هذه القبور فى رابية، فى منحدرات جبل درسة، فى شمال المدينة. هى نوع من السرادقات ذات تصميم مربع، بقبة شبه كروية على منحنيات pechinas . الكثير منها متدهور والآخر مدمر تقريبًا والقليل الذى بقى موجودًا دون حماية، ويعانى من أضرار الزمن والبشر.(شكل ٢٦). كان للمقابر الأكثر قدمًا نفس أسلوب قباب جبانة فاس من عصر بنى مرين، والتى نعرف أنها خاصة بأفراد العائلة الملكية، لذلك نفترض أن مقابر تطوان كانت خاصة بعائلة بنى نصر المهاجرة.

تظهر المقابر الأخرى ببوابة من قوس مزدوج أو قوس بسيط ذى فصوص كما لو كانت تؤدى إلى الجنة، و تختفى صفات القباب المميزة فى هذه الحالة. تلك القباب التى ظهرت، بدون شك، فى فترة أكثر تأخرًا[٢٧] . لدينا منظر جميل لتطوان، من الجبانة الإسلامية، حيث تظهر فى المرتبة الأولى واحدة من القباب التى حُفظت بشكل أفضل.(شكل ٢٧).

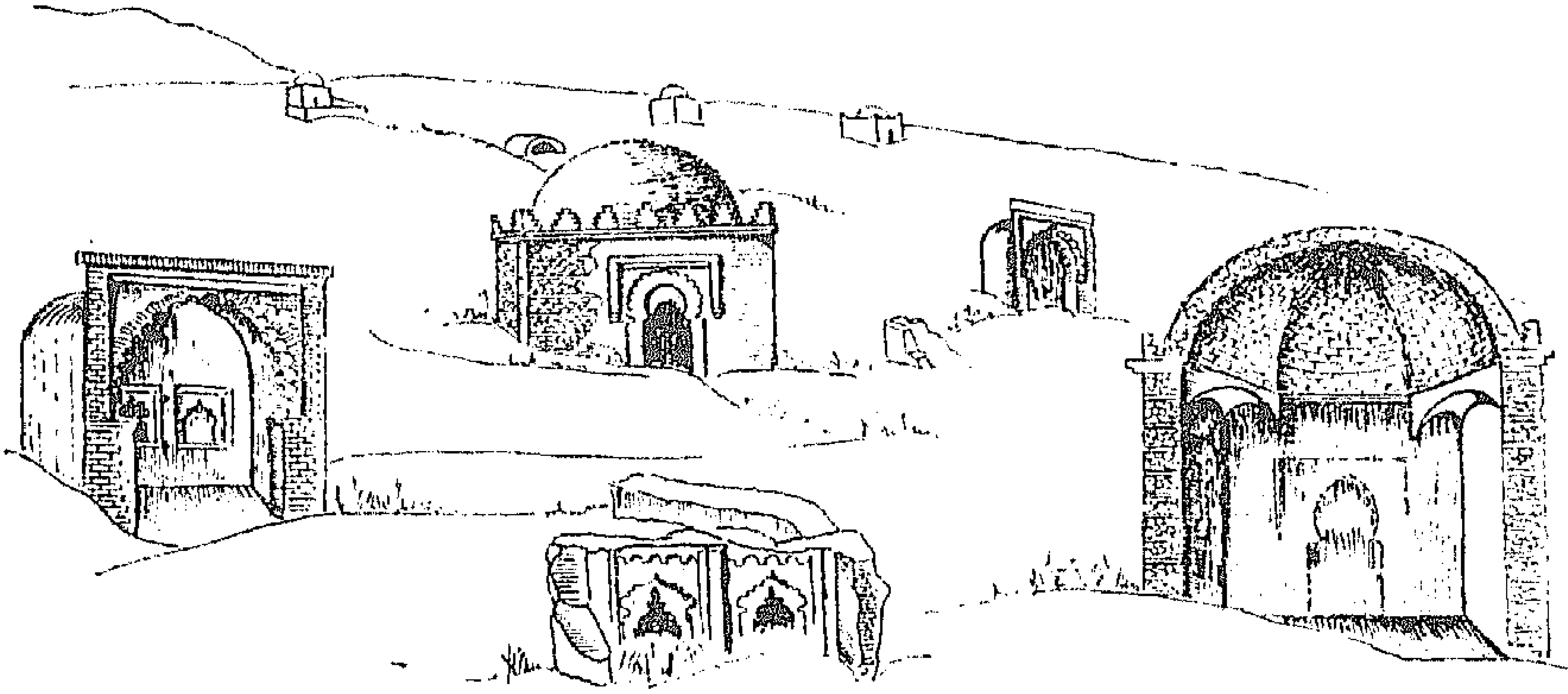
تمتد المدينة عبر وادى مارتين فى اتجاه الشرق باحثة عن البحر، على بعد ١٠ كيلو متر، من حدود المدينة. تدلنا الصور الجانبية لقبة أخرى على بعض تفاصيل التلف الذى كان يستشرى مع الوقت. كانت كلها آثار من القرن السادس عشر تستوجب الحفاظ عليها .(شكل ٢٨).

توجد، بالإضافة إلى المآذن والزوايا والمساجد، بعض الأطلال التاريخية التى يمكن اعتبارها من الموروث الموريسكى، كالأبواب والأسوار. يجب الأخذ فى الاعتبار حدثين أساسيين:





صور (٢٤– ٢٥)

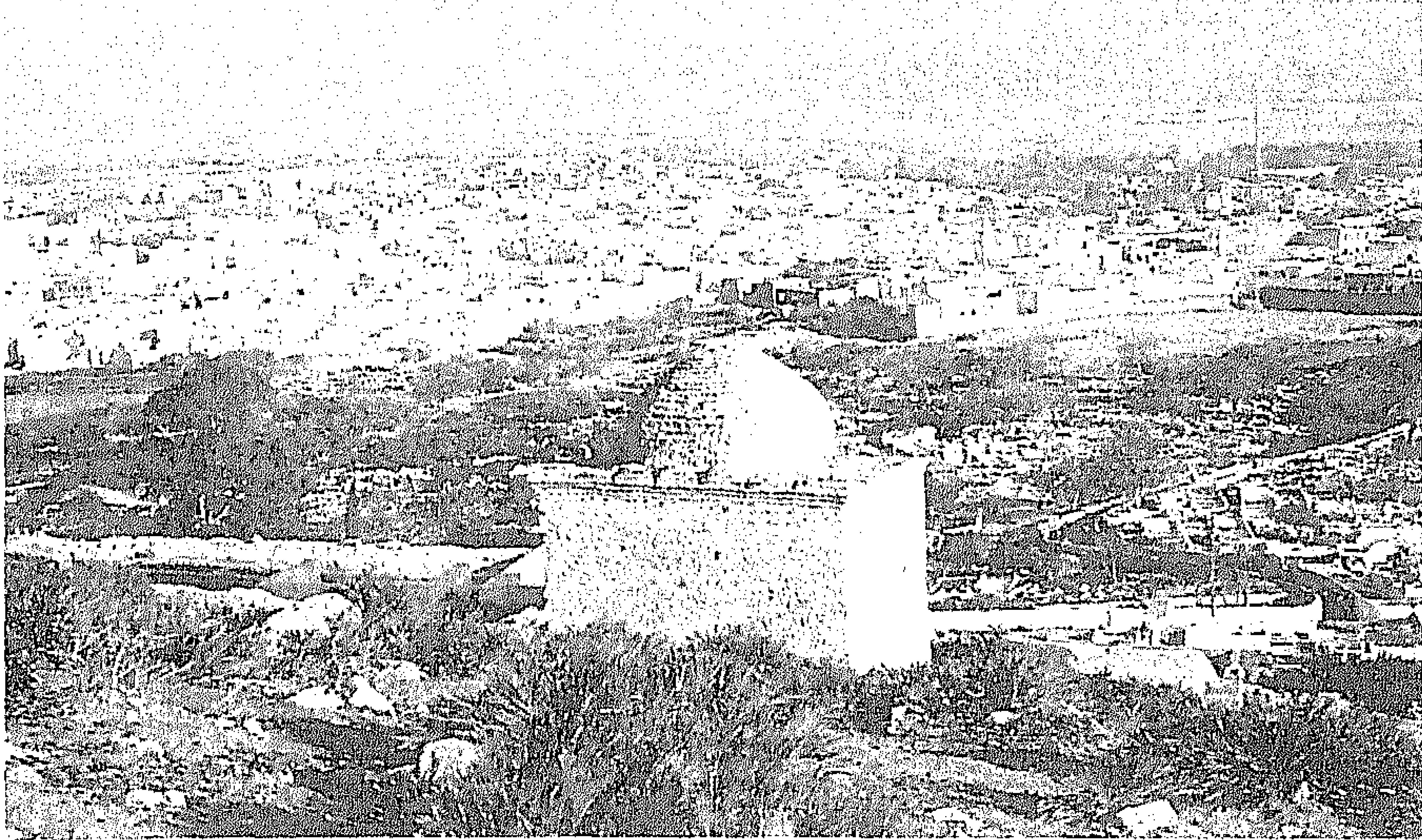


صورة (٢٦)

الأول، هو أن الموريسكيين قد هربوا أو طُرِدوا، فى آخر الأمر بسبب مقاومتهم ليكونوا ذوى حضارة، وكان يوجد فى هذه الحضارة، عامل أساسى هو العامل الدينى.

الثانى، هو أن وجودهم فى الشمال المغربى كان يجلب لهم المشاكل بسبب عداوة السكان الأصليين والأعداء المسيحيين للمواقع الساحلية القوية.

كان اهتمامهم الأول هو حماية أنفسهم، والتحصن للدفاع عن حياتهم فى حالة التجمعات ذات الحكم المستقل. لهذا كانت كل الأطلال التى وجدناها تقريبًا عبارة عن مبانٍ دينية وحربية. فى المكان الذى تمركز الموريسكيون فيه، سواء فى الفترة الأولى أو فى الفترة الثانية. كانت هناك سبعة أبواب ذكرها المؤرخ التطوانى إيرهونى فى مدينته: باب مقابر**Maqabir** وباب جياف **Yiaf** وباب سعيدة **Sa'ida** وباب رموز **Ramuz** وباب عُقلة **Ukla** وباب توت **Tut** وباب نوادر **Nuader** . نستطيع، فى الخريطة التى أخذناها

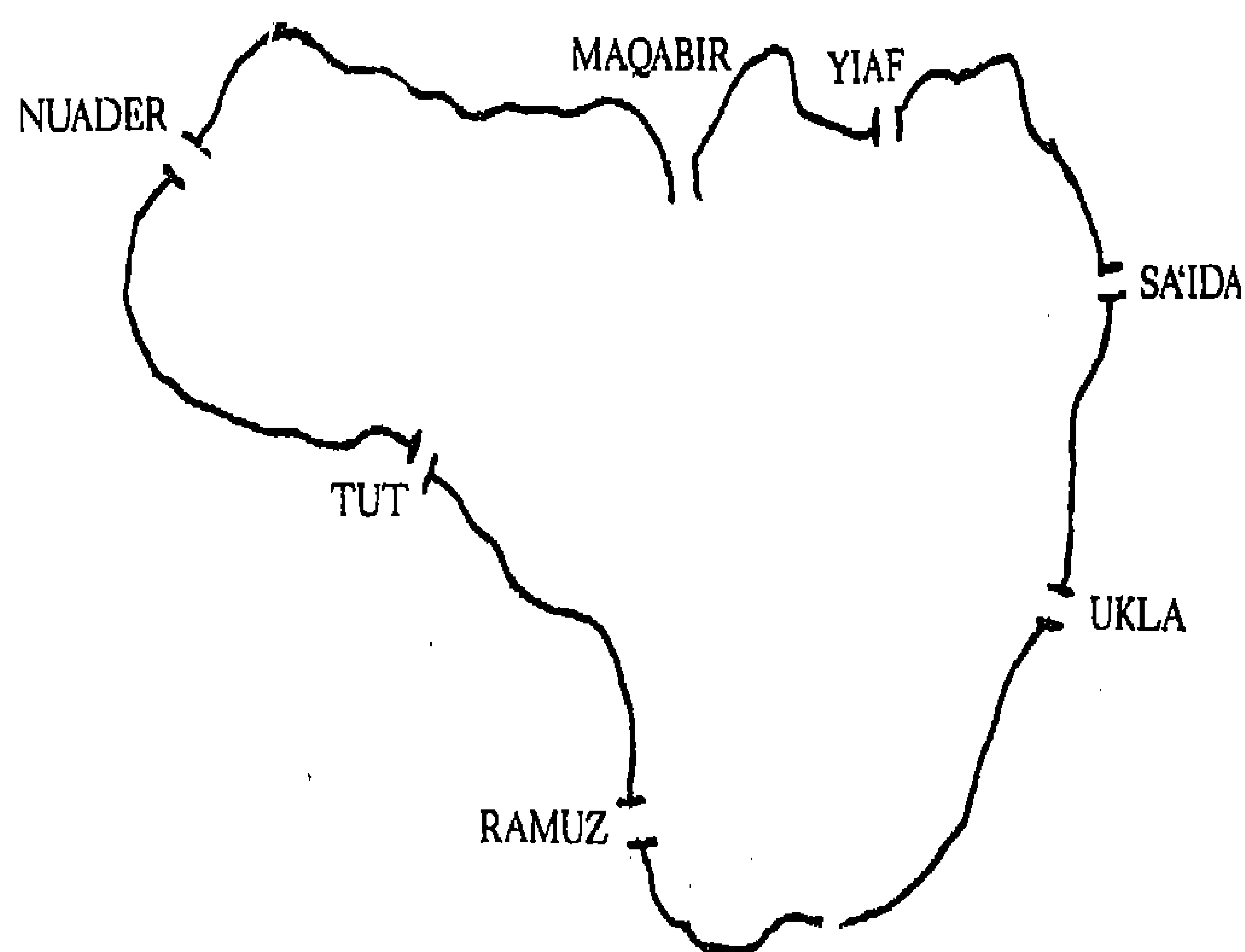




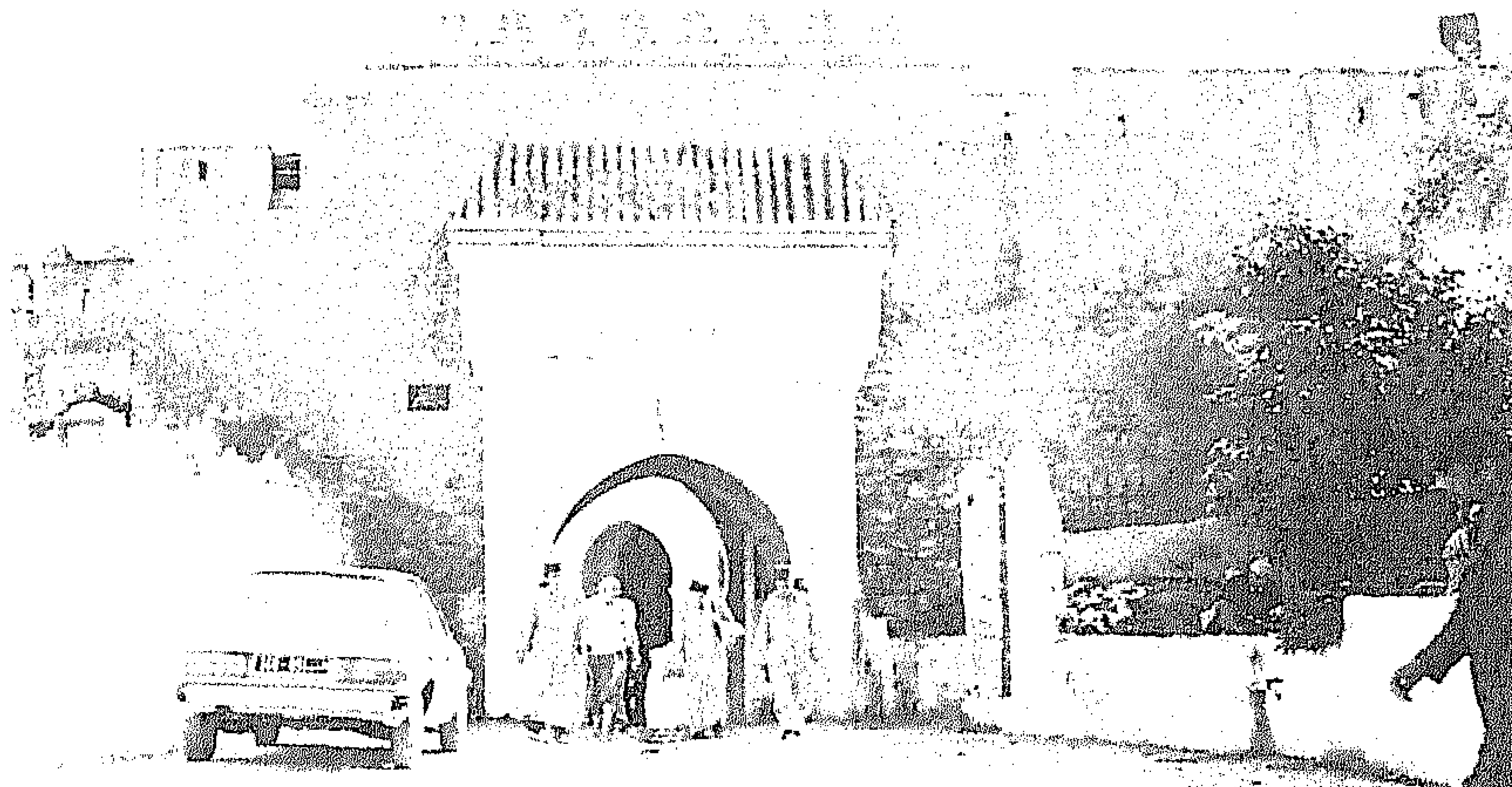
صور (٢٧- ٢٨)

كقاعدة لتحديد مكان مدينة المندارى، أن نحدد موقع الأبواب السبعة، حيث نجد، بداية من الجزء الشمالى، باب مقابر Maqabir ونجد، فى اتجاه عقارب الساعة أبواب جياف و سعيدة و عقلة و رموز و توت و نوادر وهى النهاية الشرقية.(شكل ٢٩).

يعتبر باب مقابر أو باب الجبَّانة، المسمى أيضًا باب سبتة، (لأن هناك كان يبدأ وينتهى الطريق الأكثر قدمًا تجاه سبتة)، واحدًا من النماذج الأكثر تكرارًا فى المدينة، بجماله المتميز، عند تصويره من الخارج، بحيث نجعل زاوية حراكية harrakia كخلفية.(شكل ٣٠).



صورة(٢٩)





صور (٣٠-٣١)

يؤدى مخرجه إلى مقابر على كلا الجانبين، على اليمين واليسار. كانت المقابر الموجودة على الجانب الأيسر هى الأكثر قدمًا، حيث توجد المدافن الأندلسية، سواء لمنفيي عصر المندارى أو لموتى القرن السابع عشر. تتوزع المقابر فى منحدر ربوة تصعد حتى القصبة. تتفرق، فى هذه الربوة، القباب التى تخص أشخاصًا من الطبقة العليا للنبلاء التطوانيين.

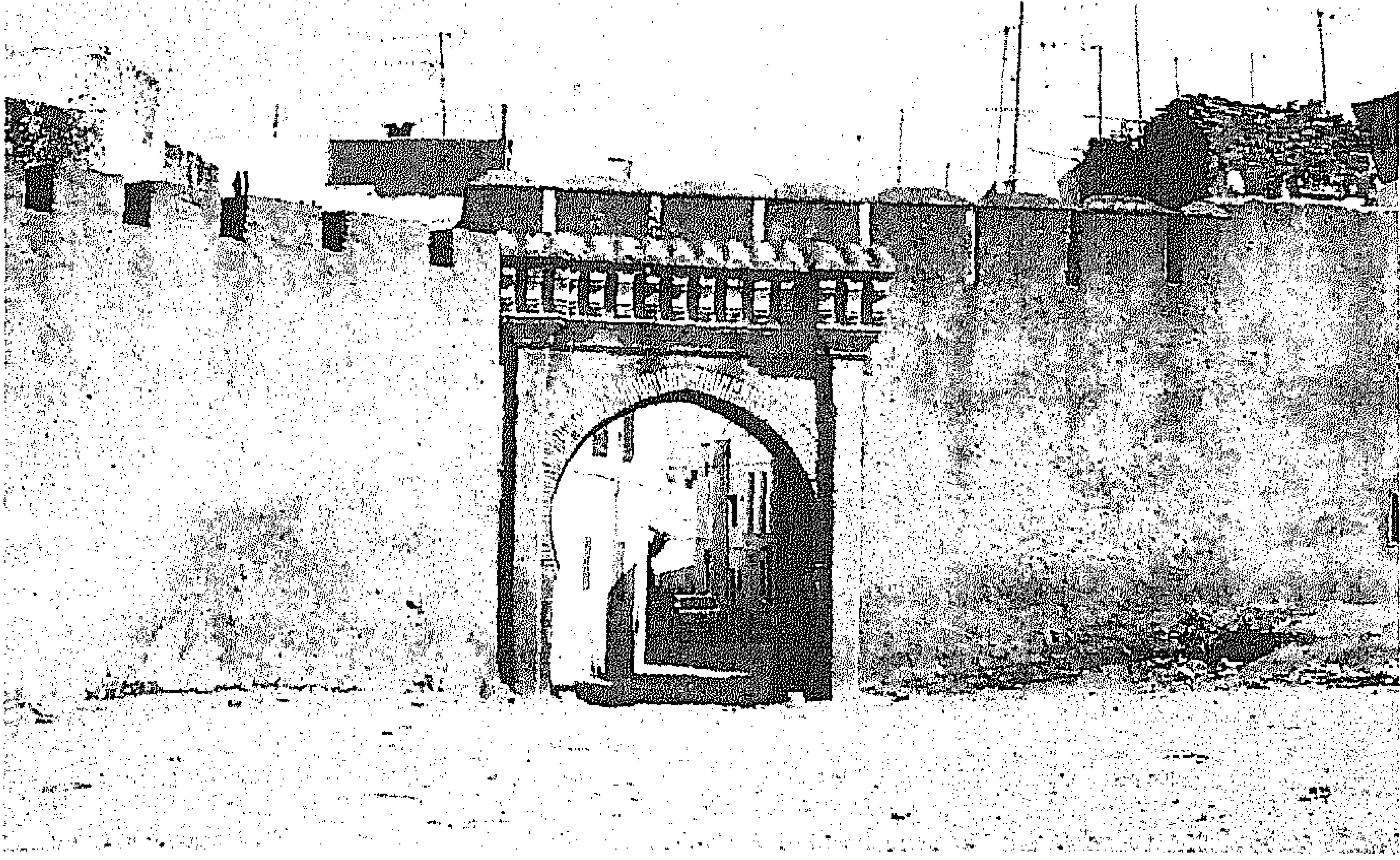
إن على المندارى ذاته مدفون، ليس بعيداً عن المدخل، فى الجزء السفلى، وقد دخلتْ مقبرته الآن فى المدفن الخاص بموتى "عبد الخالق تورّيس "Abd el Jalak Torres . دُفنت فى هذه الجبانة أيضًا عائلة النقسيس، بالرغم من أن المقبرة الوحيدة المعروفة هى التى حددها لنا داوود. تمتد مقبرة أخرى على يمين الطريق الذى يخرج من باب مقابر.

عندما نصل من داخل المدينة حتى هذا الباب، نرى فراغين، لكل منهما عقد يشبه المخرج. مع ذلك، فإن واحداً منها فقط هو الذى يؤدى مباشرةً إلى الخارج.(شكل ٣١). كان هذا الباب فى الأصل بابًا فى ركن، ربما الوحيد فى المدينة، أو الوحيد الذى ترك كذكرى عن هذا الظرف. كان العقد الشمالى، الأكبر شيئًا ما، هو الوحيد الذى يمرر إلى الجبانات.

كان الباب الأكثر قربًا من باب المقابر هو بالتحديد باب آخر يطل على المدافن الأكثر حداثة، ومن خلاله خرجت و لا تزال تخرج جنازات عديدة. من هنا أُطلق عليه اسم باب جياف، باب الجثث أو باب الموتى.(شكل ٣٢).

هناك انطباع بأن فتحة هذا البناء قد صُنعت فى عصور أكثر حداثة من هجرة الموريسكيين، الذين استفادوا من مخرج آخر أصغر مستخدم بكثرة.

لقد رأينا، فيما سبق، باب سعيدة، ونقدم الآن منظرين جديدين له من الخارج: الصورة الأولى له و هو فى المقدمة، والأخرى مشابهة جدا للصورة التى رأيناها من قبل.(شكل ٣٣ و ٣٤).

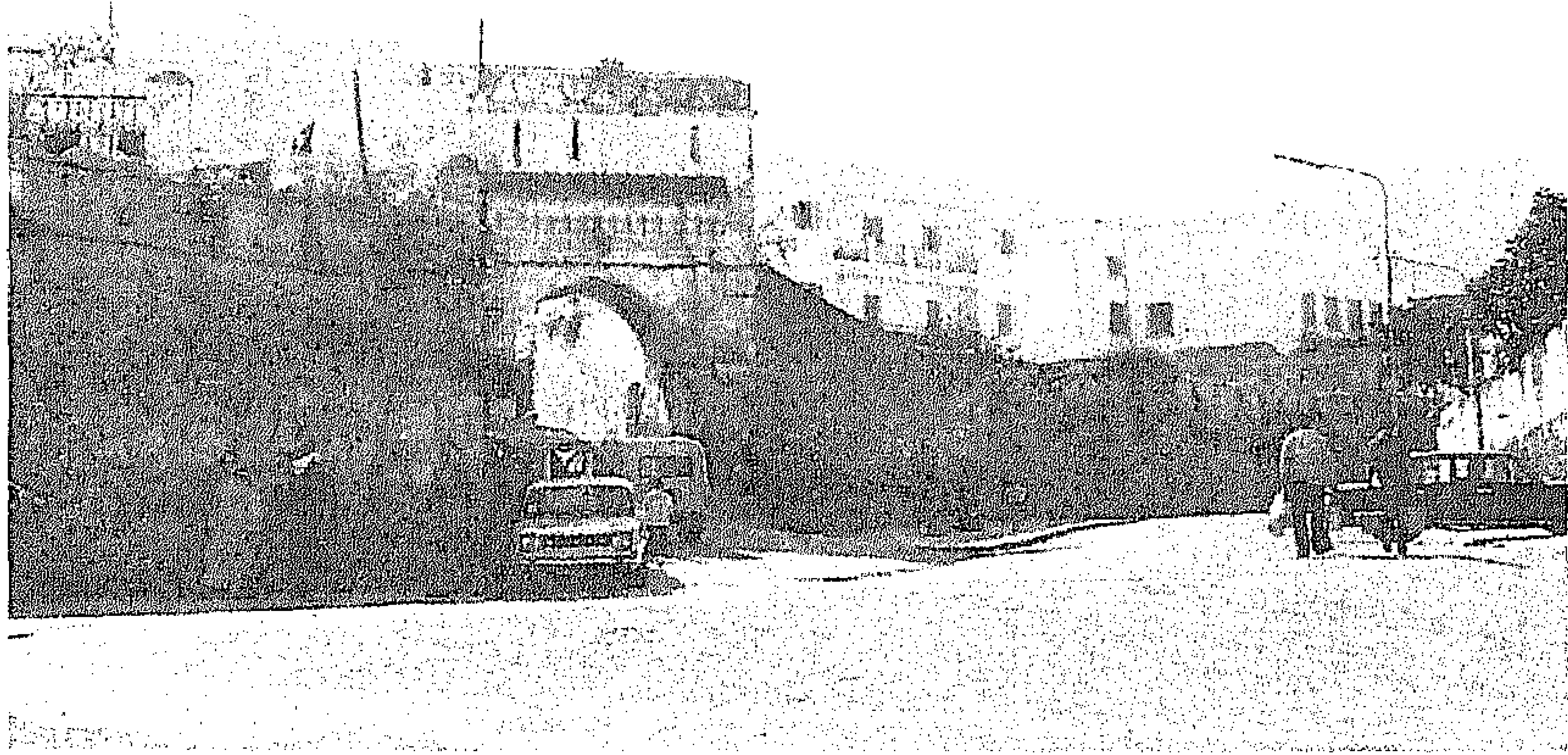


صورة (٣٢)

نجد أن جزء السور بالشرفات ذات الطرف المزدوج له شكل مميز و هى شرفات عالية الارتفاع. يوضح لنا الشكل رقم ٣٥ النظرة التى لدينا بالفعل عن باب عقلة **Ukla** بعد تدمير الباب القديم وإعادة إنشائه وفقًا لتصور المسئول عن البناء.

يوجد فى العمق على اليسار، أحد الأبراج الدفاعية، المحفوظ فى شكله المضلع الأصلى، بمنحدره النموذجى للتحصينات البرتغالية للقرنين السادس عشر والسابع عشر. نجد فى الأعلى خرسانة ذات حواجز حجرية وزوايا من الطوب، خاصة بالإنشاءات الدفاعية الموريسكية للقرن السابع عشر، مثل تلك التى نستطيع تأملها فى مدينة الرباط. لا تزال تظهر مدافع الذين دافعوا عن المدينة فى هذه القرون، وهى الآن لا تعمل. يسمى باب عقلة هذا باب الملكة، لأن من خلاله دخلت قوات الملكة إيزابيل الثانية، أثناء حرب عام ١٨٦٠ .





صور (٣٣-٣٤)

يوجد باب الرموز بعد باب عقلة، و كان يسميه الإسبان باب الهلال، لوجود الهلال فى نهاية هذا الشارع، الذى ينتهى بانحدار يقطعه هذا الباب. كانت بعض الدرجات الصغيرة تنزل من باب الرموز إلى حديقة كاخيغاس Parque Cagigas ومنها إلى طريق مدخل المدينة. استغل الموريسكيون هذا الانحدار الذى تعلوه صخور لمسافات طويلة، لرسم أسوارهم الدفاعية – كما رأينا فى الجزء العلوى لمقبرة سيدى عبد القادر تبين – وإنشاء الأسوار فى اتجاه باب العقلة.(شكل ٣٧ و ٣٨).

يوجد باب طنجة بين باب رموز وباب نوادر أو بين باب الهلال وباب فاس. اسمه الأصلى هو باب توت، واشتق اسمه من أشجار التوت التى كانت موجودة على الجانبين فى عصرٍ آخر. كانت هناك نافورة ملحقة فى الجزء الخارجى إلى اليمين. يعطى عدم التناظر الغريب بين النافورة والباب انطباعًا عامًا بالجمال. بالرغم من وعورة مدخل المدينة.

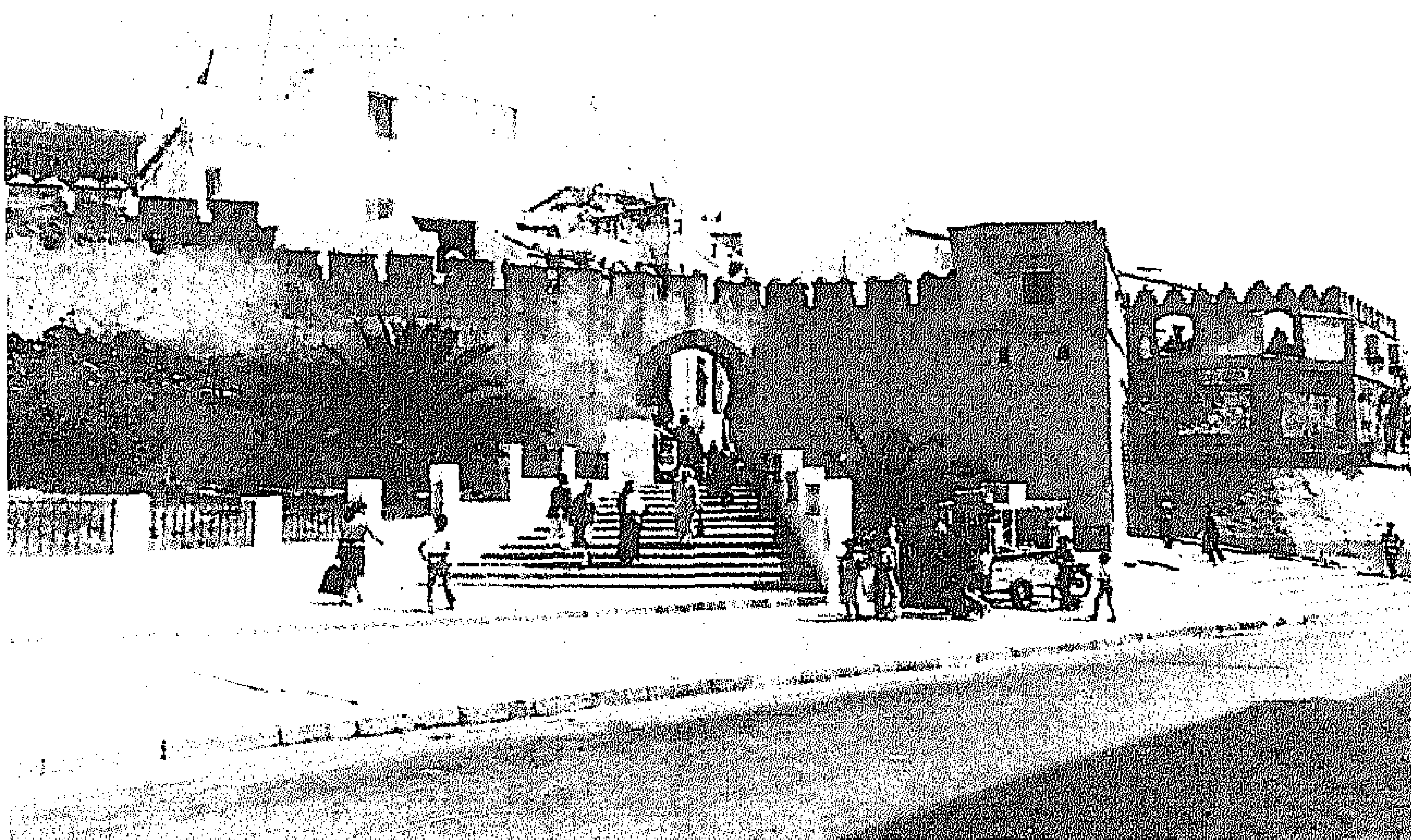
لا يزال من الممكن أن تظهر قطع من سور على أحد جوانب هذا الباب أو على جانب آخر، و تكون مرئية من الداخل بالأخص.

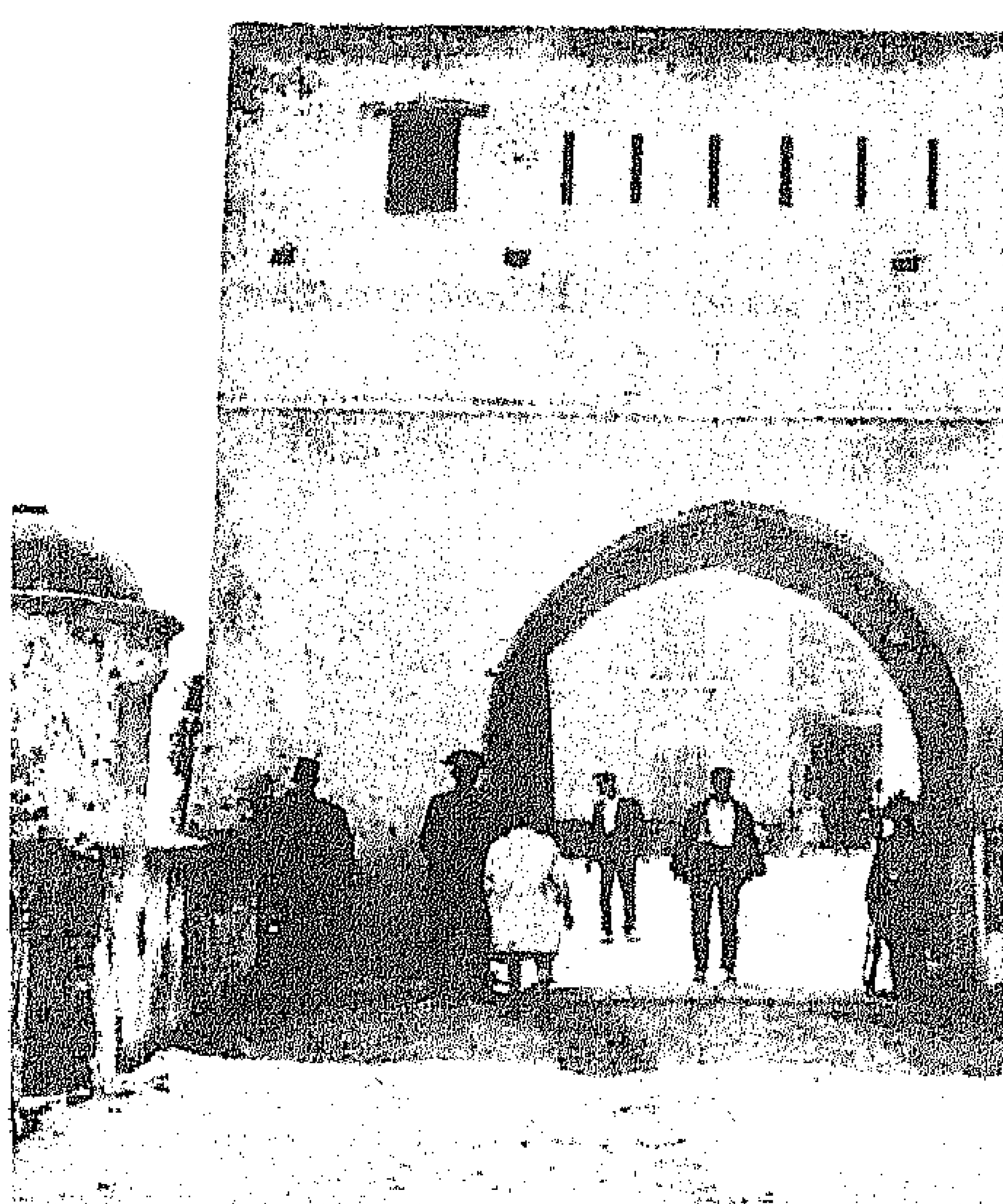
يؤدى باب توت، إلى الشرق، إلى شارع ترنكات الطويل، الذى كان يحاذى الأسوار الدفاعية التى أنشأها أوائل الموريسكيين المنفيين.

نستمر فى اتجاه الشمال، حتى نجد شارعًا صغيرًا بمنحدر يربط الباب بشارع العيون، وهو الطريق الموريسكى الأكثر حداثة الذى أنشأه المنفيون عام ١٦١٠ .

كان شارع العيون، المسمى أيضًا شارع فاس، هو الأكثر طولاً. كان طوله أكبر حتى من شارع ترنكات.(شكل ٣٩ و ٤٠).

و أخيرًا لدينا نظرة خارجية لباب نوادر، الذى يسمى باب فاس، فى الطرف الشرقى لشارع العيون الطويل، (العيون أو النافورات)، المعروف أيضًا بشارع فاس. تُرى على يمين الصورة أطلال برج – قلعة، تهدَّم حديثًا. كانت الأسوار تستمر على الشمال، فى تسلق يتجه إلى أعلى، مخترقًا ربوة من رُبى جبل درسة.





صور (٣٥ – ٣٦)

حكومة أحمد النقسيس

قدّر حاكم سبتة، ماركيز بيياريال، عدد الموريسكيين الذين تركزوا فى المنطقة الواقعة بين سبتة وتطوان، بأكثر من ٤٠,٠٠٠، عقب قرارات الطرد الأولى.

بطبيعة الحال لم يبق الكل هناك. لم تكن الأرض ولا التركيبات الاجتماعية - الاقتصادية الموجودة فى المدن التى أسسها الموريسكيون مسبقًا، تسمح بالذوبان السريع، ولا على المدى المتوسط، لهذه الكمية البشرية.

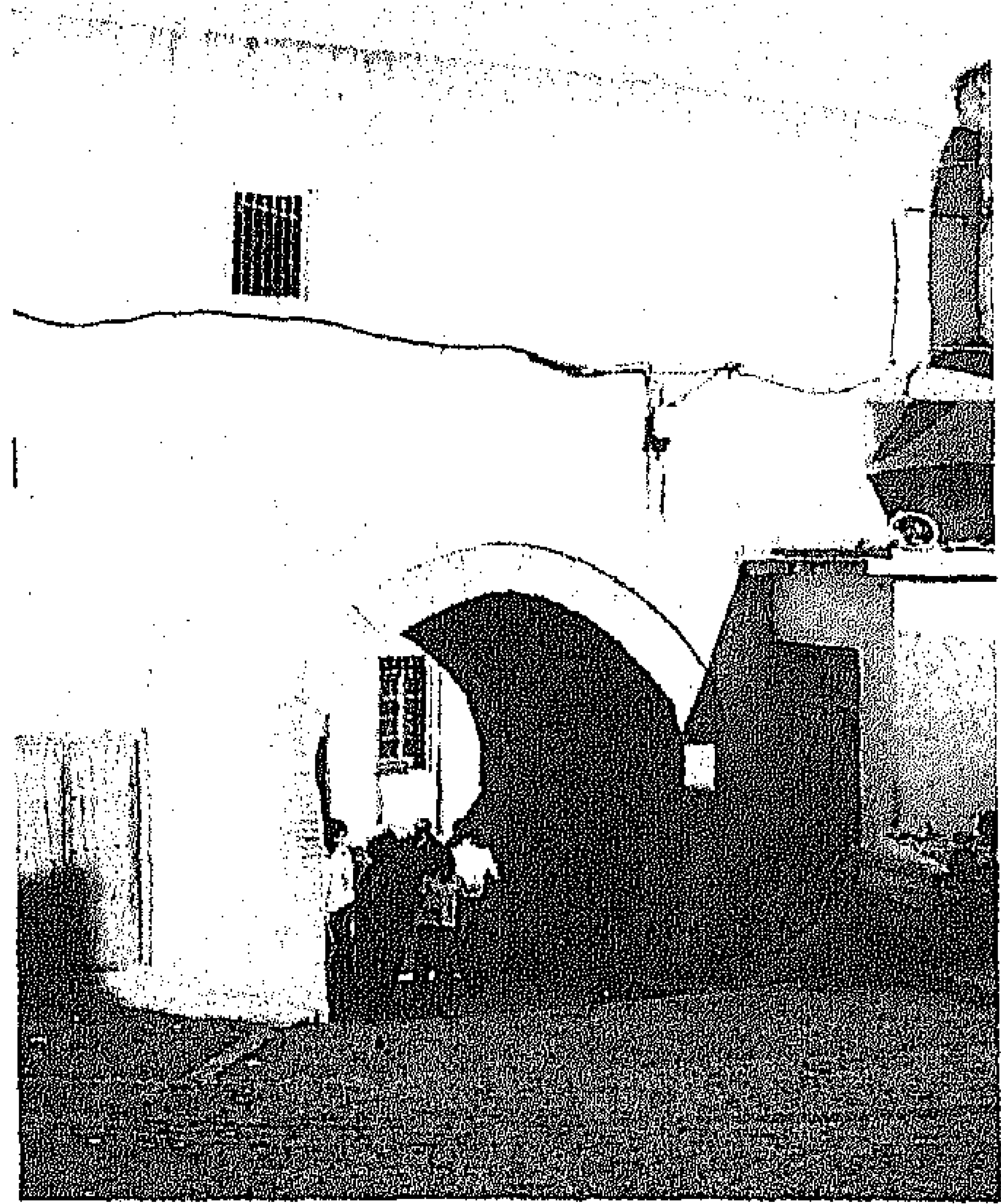
لكن بقى الكثير منهم، ربما أكثرهم ميلاً إلى القتال، فى تطوان، حيث استمالهم *الصراع* ضد *"عدو الدين"* *البرتغالى*، أو *الانتقام الذى* كان فى متناول أيديهم عند التوجه للحرب البحرية، بقوارب ومراكب القرصنة لنهر مارتين.

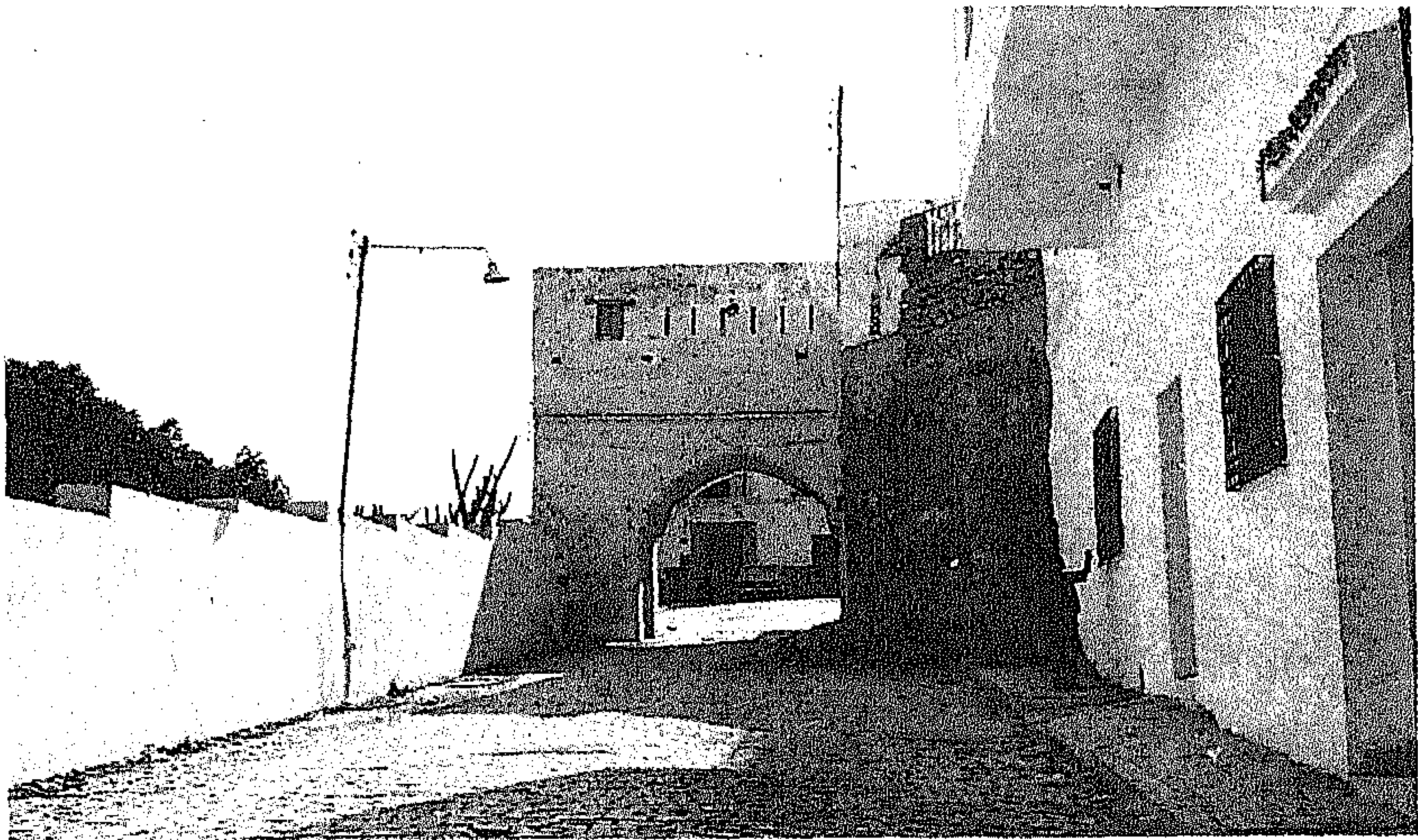
ازداد عدد سكان المدينة كثيراً. استطعنا إثبات ذلك عند فحص *الآثار الدينية*، التى تركتها تلك الأجيال كبقايا مقدسة إلى الأجيال الحالية والقادمة. لا يحدثنا أى مؤرخ أو أية وثيقة رسمية عن العدد، ولا حتى بصورة تقريبية.

وصل عدد سكان مدينة المندارى الإجمالى من ١,٥٠٠ إلى ٢,٠٠٠ فى العقد الأول من إنشائها، ووصل إلى ١٠,٠٠٠ عند بداية القرن السادس عشر. هذا هو عدد السكان الذى كان موجوداً، تقريبًا، عند موت القائد المؤسس فى عام ١٥٤١ . استمر فى الازدياد مع مرور القرن السادس عشر وقفز قفزة عددية بداية من عام ١٦٠٩ .

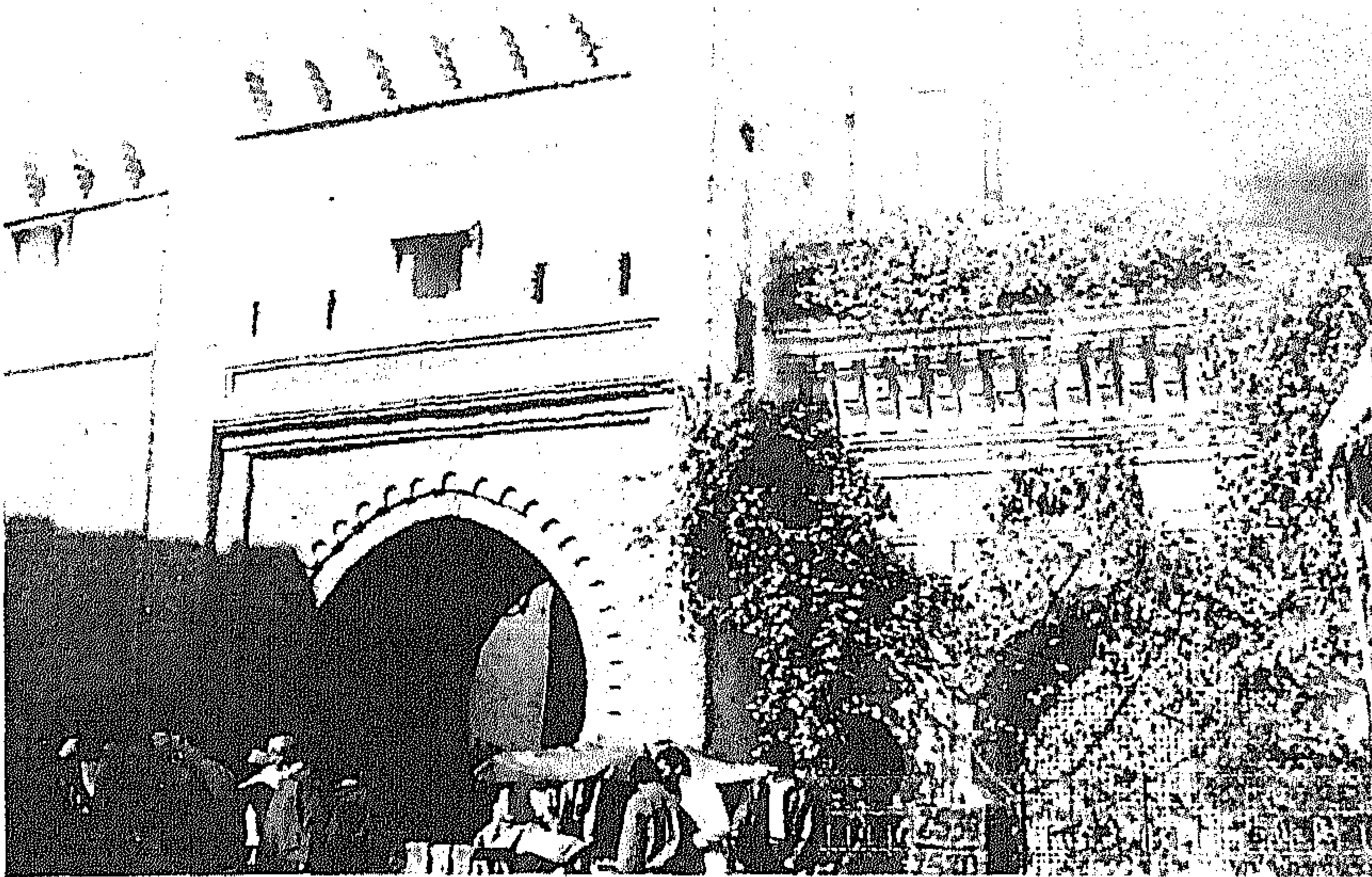
يحتمل أن تكون الزيادة ملحوظة، وتعكس هذا معلومة أخذناها من نص يهودى لذلك العصر. قرر مولاى الشيخ، عند احتلال تطوان فى عام ١٦١٠، ضريبة استثنائية أو ضريبة على السكان، بعد هروب النقسيس.

انقسم المدنيون، بسبب هذه *الضريبة*، إلى ثلاث مجموعات كبيرة: مسلمون وأندلسيون ويهود. نفترض أنهم كانوا على التوالى، التطوانيين الأصليين والذين وصلوا مؤخرًا واليهود، أو بكلمة أخرى، قدماء الموريسكيين والموريسكيون الجدد واليهود. طُلب من أول مجموعة ١٠٠,٠٠٠ أوقية، أو عملات *البلد النقدية*، ومن المنفيين فى *اللحظة* الأخيرة طلبوا ١٥٠,٠٠٠ ومن اليهود ١٠,٠٠٠ (٢٨) .





صور (٣٧ - ٣٨)





صور (٣٩ - ٤٠)





صور (٣٩ - ٤٠)

ليس هناك مجال للشك فى أن الموريسكيين الوافدين حديثًا كانوا يشكلون الأغلبية العددية للسكان، وكما هو ملاحظ، كان تحت تصرفهم ممتلكات كثيرة وكانوا مستقرين بصورة كافية لكى يجعلهم السلطان يدفعون الضرائب كما كان يفعل السكان القدامى.

مع ذلك لا نستطيع تحديد معيار تقريبى، بسبب أنه فى واقع الأمر كانت هناك عدة عوامل. أولها هو احتياج السلطان الملحّ للنقود فى تلك الفترة، بالرغم من المبالغ الضخمة التى قدمتها له المملكة الإسبانية بالتنازل عن العرائش.

و هناك عامل آخر و هو أنه كان يعرف تمامًا أن الموريسكيين بوجه عام، والتطوانيين، بوجه خاص، كانوا أكثر تأييدًا لمولاى زيدان . بذلك لم يكونوا يفعلون أكثر من اتباع ميول المقدم النقسيس، المعادى للشيخ.

إن انقسام أو تجمع الموريسكيين التطوانيين فى فئتين، عند وقت الدفع، يجعلنا نشك أنه أيضًا عند وقت إبداء الرأى أو الميل لإحدى المجموعات أو الأخرى، كان يوجد تعدد فى وجهات النظر. ظهر هذا الأمر فى إحدى المناسبات، لكن نعتقد أنه إذا لم يكن النقسيس قد اصطدم بشكل مباشر، فإن خلفائه قد اصطدموا بازدواجية السكان القدماء والجدد فى تطوان النامية.

استمر أحمد النقسيس، حاكمًا فى تطوان أو لاجئًا فى الجبال، فى كونه دائمًا الحاكم ذا المكانة الواضحة بين أتباعه والتأثير الكبير فى شئون البلد.

فى يونيو عام ١٦١٠ فشل ماركيز سان خيرمان بأسطوله وجيشه، المستعد لاحتلال العرائش، التى تنازل عنها الشيخ أو المأمون، لأن النقسيس قد حذر حاكم العرائش وأرسيلة والقصر الكبير، بهدف أن يتجمعوا ويقاوموا هذا التسليم، وقد قاموا بذلك بالفعل (٢٩).

نُفذت العملية بعد ذلك بشهور، عندما أرسل السلطان للمقرب إليه، القائد بودبيرا لكى ينفذ عملية الانسحاب من الموقع. ذلك التنازل سبب أضرارًا أكثر

مما سبب من منافع لقضية السلطان، حيث تسبب فى موجة من الاعتراضات وكان بمثابة حجة عادلة لمعارضيه لكى يتنصلوا من أى دعم له. لم يسامحه رجال التاريخ والمؤرخون المغاربة، ونقدوا بطريقة قاسية تركه مدينة إسلامية فى أيدى العدو المسيحى.

إن المفاجأة فى هذا الموقف فى النقد الذى حدث حينذاك هو أن النقسيس، وهو واحد من معارضيه الأساسيين، استطاع تنبيه محاربى القصر والعرائش نفسهما، بفضل التحذير الذى تلقاه من زوجته، التى كانت لاجئة فى سبتة و رأت بنفسها الأسطول الإسبانى و هو يخرج متجهًا إلى العرائش .

فعندما رأى أحمد النقسيس نفسه عاجزًا عن مقاومة هجوم جيش مولاى الشيخ، اختار المَخرج الذى كان فى متناول يده، وعلى الجانب الآخر، كان ذلك مألوفًا داخل آلية صراع الحدود ذاته الذى كان يحدث فى المنطقة. تفاوض على هدنة مع الحاكم السبتى، حيث أرسل له زوجته وأبنائه لكى يكونوا تحت حمايته.

ضايقت هذه الاستضافة السلطان الذى تسانده إسبانيا، والذى عارض هذا الموقف الذى كان يعنى الحماية المقدمة لبعض أعداء الحلف الإسبانى حينئذ. كان لدى قائد سبتة العام، ماركيز بيياريال، أسبابه لكى يتصرف بهذه الطريقة، لأن وضع المنطقة وكفاحه المستمر ضد المحيط العدائى، الذى لم يعتمد، فى كثير من الأحيان، على وسائل كافية للقيام بذلك، مع ما يلزم ذلك من تضحية بالمحاربين و بالشعب، جعله يضمن السلام مع أرضٍ قادرة جدا كتطوان، عن طريق النقسيس (٣٠) .

لم يكن هناك شيء يوقف الحبل الذى كان يخنق الحياة السياسية والمدنية فى سبتة. لم تستطع الأسباب أن تكون مقنعة أكثر. ومع ذلك، عندما أرسل الشيخ قائده أمو بودبيرا Amu Budbira ، إلى تطوان، كحاكم للمدينة، ربما يكون قد تفاهم مع زميله من سبتة، لأن النقسيس سحب زوجته وأبناءه من سبتة، و هرب إلى الجبال المجاورة بجانب قائد حزب زيدان. نضيف إلى رؤية الحالة التى انتهينا من الإشارة إليها، أن سبتة لم تكن فقط ملجأ وعزلة للسياسيين المنشقين، وبالأخص لهؤلاء المقيمين فى

تطوان، ولكن للكثير من الموريسكيين الذين لم تكن عقيدتهم الإسلامية ثابتة، وجدوا فى هذه المنطقة الإسبانية القوية مكانًا للعودة إلى المجتمع المسيحى(*).

وفى عام ١٦١٠ هذا، استفاد بالتأكيد ما لا يقل عن عشرين ساكنًا من تطوان، - كانوا بلا شك موريسكيين وصلوا حديثًا - كنتيجة للود الموجود بين سلطات تطوان وسبتة و طلبوا نقلهم إلى سبتة لكى يرتدوا . وقد أرسل ماركيز بيياريال قاربين إلى خور نهر مارتين لكى يأخذهم.

يضيف المؤرخ نفسه الذى قدّم لنا الخبر أنهم كانوا مسيحيين مخلصين، الأمر الذى يجعلنا نفترض أن بعضًا منهم قد بقى فى سبتة.

يقول لنا نفس المؤرخ أن بعد ذلك بقليل ذهب عضو بارز فى المجتمع التطوانى، حامد مفضل، إلى سبتة مع كل أفراد عائلته، و ارتد إلى المسيحية و اتخذ اسم رافائيل دى مينسيس Rafael de Meneses (٣١) (**) .

يحتمل أنها كانت صدمة معنوية وسياسية فظيعة لعائلة مفضل، وهى إحدى العائلات الأكثر وجاهةً و التى رافق أسلافها من غرناطة القائد المؤسس ذاته فى منفاه و فى إنشاء المدينة. مع ذلك فإن عائلة مفضل، بعد غياب قصير، ظهرت قوية فى الحياة العامة التطوانية بعد أعوام قليلة من هروب ذلك الشخص.

لدينا معلومات أكثر مأساوية إلى حدٍ ما تتحدث عن اضطهادات وأيضًا استشهادات للموريسكيين الذين وصلوا إلى تطوان، والذى اعترفوا بأنهم مسيحيون وماتوا و هم كذلك (٣٢) .

(*) نستغرب العزف على هذا الوتر من بعض المؤرخين الإسبان ونقول إن النظرة المتأنية تؤكد أن أساس المشكلة الموريسكية دينى، ولو أن الموريسكيين كانوا مسيحيين لظلوا فى إسبانيا الكاثوليكية. هناك فرق بين العقيدة الدينية و المصالح السياسية التى قد تؤدى إلى التحالف مع طرف غير مسلم .(المراجع)

(**) أما القصص التى يوردها مؤرخو القرنين السادس عشر والسابع عشر حول ارتداد قادة مسلمين وتحولهم إلى المسيحية فلنا أن نفنّد ذلك بالاستشهاد بمقال للزميلة دلورس برامون تهكمت فيه من المبالغة فى تصوير الأمر وأبدت شكوكها فى القضية برمتها . انظر الجزء الأول من كتاب تكريم الدكتورة سوليداد كرّاسكو ، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات ، (زغوان تونس) ١٩٩٩ ، ص ٢٦٧ - ٢٧١ . (المراجع)

مرت أعوام كثيرة، أكثر من قرن، منذ اختفاء الإسلام فى شبه الجزيرة، وكان من النادر جدا أن يُحافظ عليه فى كل نقائه، حيث كانوا يتذكرونه أحيانًا كثيرة كعلامة على الهوية. كان القمع والعزلة فى إسبانيا يمحوان طقوس وصلوات وباقى دلالات العقيدة الإسلامية. لم يكن إسلام التجمعات الموريسكية فى شبه الجزيرة يتشابه فى شىء مع إسلام القرى التى توقفوا فيها(*).

عندما وصل الهورناتشيون والأندلسيون إلى وسط البيئة المغربية، لم يكن السكان الأصليون يتعجبون من ملابسهم وعاداتهم فقط، ولكن أيضًا من ديانتهم، لدرجة أنهم كانوا يطلقون عليهم مسيحيى قشتالة.

كان سكان تطوان، بالإضافة إلى ذلك، متأثرين بالمواجهة المستمرة مع مسيحيى سبتة. فإذا أظهر بعض الذين وصلوا عدم حماس للعقيدة أو إشارة ما على عدم الاتفاق مع البيئة، فليس من الغريب، إذن، أن يعانوا من بعض المشاكل معهم.

إن التحول إلى المسيحية، كحالة المفضل والعشرين مدنيًا الذين رأيناهم من قبل، لم تكن لتفعل أكثر من إغضاب المتعصبين واستثارة كل الباقيين.

بعد هروب النقسيس من تطوان بقيت المدينة تحت سلطة الشيخ وحكومة القائد بودبيرا حتى قُتل السلطان فى عام ١٦١٣ . اختفى لذلك أفراد النقسيس من نطاقات التأثير المغربية فى خلال ثلاثة أعوام بسبب الظروف، لأن جذور سيطرتهم كانت تعتمد على القوة التى كانت عشيرتهم المقربة و حلفاؤهم التطوانيون يعطونهم إياها .

كان أحمد عبد الله بودبيرا أو بوديبيرا هو القائد - الحاكم الذى باع، فى عام ١٦١٢ ، النصيب الأكبر من الأسرى المسيحيين الذى تم تسجيله فى مخطوطات ذلك العصر. كانوا عبارة عن ٥٦ أسيراً . كان من بينهم ٣٦ رجلاً و ١٥ امرأة و ٥ أطفال، حصل من بيعهم على ربح قدره ٣,٨٦٥,٨٠٠ مرابطى. بالإضافة إلى ذلك، فقد طلب

(*) لا شك فى وجود اختلاف بين إسلام الأندلسيين وإسلام أهل المغرب فى بعض الجوانب، لكن ذلك لا يشمل المبادىء الأساسية فى الدين ولا فى طريقة الصلاة والصوم...إلخ. تدل على ذلك مخطوطات موريسكية كتبها المسلمون فى إسبانيا فى أوج اضطهاد السلطات المسيحية لهم. ربما يكون الفرق بين إسلام الأندلسيين وإسلام أهل المغرب هو عدم قدرة الأندلسيين على أداء الحج مثلاً . (المراجع)

الحاكم التطوانى أن يهدوه قطعة من القماش تتكلف فى سبتة ١,٧٠٠ ريال ، أى ٥٧,٨٠٠ مرابطى، بالإضافة إلى ١٠ بارات من المخمل بسعر ٥٨٠ ريال أى ما يساوى ١٩,٧٢٠ مرابطى، حيث بلغ ثمن تكلفتها الإجمالية تقريبًا أربعة ملايين مرابطى (٣٣) . و هى ثروة جيدة لخادم الشيخ الذى لم يتمتع بها سوى قليلاً، حيث أنه عندما دخل النقسيس فى تطوان فى عام ١٦١٣ المذكور، قام بقتل بوديبيرا.

لم يكن أحمد النقسيس، فى تلك الفترة من هروبه الإجبارى فى جبال هاوس Haus، رجلاً شابًا، بل على العكس، كانوا يصفونه بأنه، عجوز أصلع، قليل الجسم وأعور. و هو مظهرٌ يعطى انطباعًا بهيئة فظيعة، لمحارب متصلب، مخيف لأعدائه ومحترم من حلفائه. كان الأعداء يفضلون أكل أولادهم عن تسليمهم إليه. يستمر المؤرخ المعاصر فى الإشارة، ويروى كيف أن السلطان، عندما دخل فى تطوان، أمر بهدم منزل عائلة النقسيس، وسلبهم كل ممتلكاتهم، من بينها، حوالى أربعمائة بقرة. وهى تعتبر إشارة على الثروة الضخمة التى كانت تمتلكها عشيرة النقسيس.

لم يستطع السلطان مولاى الشيخ أن يقبض على أى شخص من عائلته، فقد هربوا جميعًا إلى جبل قريب جدا حيث كانت أنوار المحلة / المعسكر/ تُرى كل ليلة. لكن سلطة النقسيس، كما قال المؤرخ، كانت كبيرة لدرجة أن البربر كانوا يثقون به بدرجة كبيرة و يحترمونه ويخافون منه(٣٤) .

يقول الكاتب، متحدثًا عن تلك الوقائع التى سوف نعلق عليها، إن السلطان قد فرض ضريبة على الموريسكيين تقدر بمبلغ ١٧,٠٠٠ دوقية من ٢٧,٠٠٠ فرضها على كل المدينة، الأمر الذى يُقر الأخبار التى قدمها لنا النص اليهودى الذى عرضناه مسبقًا.

فيما يبدو، وفقًا للنصوص القشتالية أو المغربية، أن الشيخ كان يمارس أعمال النهب فى المنطقة عندما قُتل.

يقول أحد المؤرخين المغاربة إن أحمد النقسيس، بجانب مقدم آخر من المنطقة، كان هو المتسبب في الجريمة التي ارتكبت في ٢١ أغسطس عام ١٦١٣، عندما كان السلطان بالقرب من تطوان [٣٥] .

سوف نرى فيما بعد روايةً أخرى للأحداث. ربما أكثر قربًا للحقيقة.

استرد القائد العجوز، عند موت الشيخ، السيطرة أو على الأقل تأثيره الحاسم على مدينته. نجده في منصب المقدم في وثائق الأعوام التالية لمقتل الشيخ، في عامي ١٦١٤ و ١٦١٥ . في العام الأول مع القائد مامي Mami والعام التالي مع قائد آخر، يدعى أمو بن عمار Amu Benamar ، الذي لا نعرف ما إذا كان هو نفس الشخص وأخطأ الكتّاب الإسبان في كتابته [٣٦] .

المؤكد هو أن أمو بن عمار، الذي وصف بالقائد الأعلى، قد استقر في القلعة، وحقيقةً كان يظهر كسلطة عليا للمدينة، وكان يجتمع بالوجهاء، و من بينهم أحمد النقسيس، عندما تتطلب الأمور ذلك.

حكم ابن عمار تطوان باسم مولاي عبد الله، المقيم في فاس، وابن الملك المقتول الذي، كما هو طبيعي، لم يكن على وفاق مع النقسيس، ولم يكن النقسيس بالمثل على وفاق معه.

طلب السلطان مولاي عبد الله قائده التطواني بشكل عاجل واجتمع القائد معه وترك مسئولية الشئون للمقدم النقسيس، بجانب حامد بوردان، وهو فردٌ آخر من البرجوازية التطوانية يجب أن نتحدث عنه.

بالتأكيد استفاد أحمد النقسيس من فرصة غياب القائد لكي يثير المدينة ضد عبد الله، حيث أنه في نفس وثيقة عام ١٦١٥ التي رُويت فيها هذه الأحداث، في يوم ١٠ مايو، شهد الكاتب العام خوان دي لاكيتغي Juan laquitegui أن تطوان كانت محاصرة من قبل ملك فاس، مولاي عبد الله.

إن الإشارة إلى القادة في الوثائق، إلى جانب المقدم أحمد، تُظهر التاريخ التطواني كشيء غامض. إن أحد الأخبار عن وجود رسالة، كتبها النقسيس إلى قائد

تطوان، يلح فيها على الاتحاد معه فى حربه ضد سبتة، قد جعلت داوود يتردد فى أمر حكومة المدينة[٣٧] .

ربما كان هؤلاء القادة يمثلون السلطات الرسمية التى يعينها مولاى زيدان، الذى يعترف به أحمد النقسيس كملك، بالرغم من أنه فى الواقع لم تكن هناك سلطة أخرى فى تطوان غير سلطته.

فى الواقع، إذا كان فى المدينة قادة يعينهم سلطان لا يبقى بالكاد فى عرشه إلا قليلاً، فلم يكن لأولئك القادة سلطة فعلية بل كان المقدم هو الذى يقترح المبادرات التى كانت تقرر مستقبل المنطقة.

يشير أحد المؤرخين التطوانيين إلى أن النقسيس هو الذى صدّ مولاى الشيخ عندما أراد أن ينزل إلى شواطئ تطوان، قادمًا من شبه الجزيرة، لكى يسترد أراضيه. فى هذه المناسبة لم يهينه فحسب بل منعه من أن يطأ الأرض فى ضواحى المدينة[٣٨] .

كان يجب على السلطان أن يغير مساره لكى يدخل البلد من ميناء بيليث.

يقول نفس المؤرخ إنه كان هو أيضًا الذى دخل، على رأس أنصاره، فى تطوان فى يوم ١٣ أغسطس نفسه الذى أُعدم فيه مولاى الشيخ، واستولى على المدينة وقتل القائد، حامد بودبيرا الذى عينه الملك، وأباد أتباعه، وسلبهم ممتلكاتهم وسيطر على حكم المنطقة[٣٩] .

هذا يعنى، أيضًا، أن السلطان المتوفى قد اعتمد على هذه المعارضة التى افترضنا وجودها قبل ذلك داخل الأمة الموريسكية.

هكذا انتقم النقسيس من هدمهم لمساكنه، ومصادرة ممتلكاته وكل الأضرار التى سببوها له، فى فترة الأعوام الثلاثة الانتقالية من عهد مولاى الشيخ.

كان يجب كذلك أن يستمر الحاكم العجوز فى حكومته تسعة أعوام أخرى بعد عام ١٦١٣، بالرغم من أنه لم يستطع التمتع بهذه الفترة فى هدوء تام، الأمر الذى كان يُعد معجزة فى هذا البلد الذى تعرض لكل الويلات البشرية الطبيعية.

أراد ابن السلطان المقتول، عبد الله بن الشيخ، الذى خلف والده فى حكم فاس، أن يثأر ويعاقب المتسببين فى موته، وكان يعرف تمامًا أنه سيجد من بينهم القائد التطوانى. لم يستطع تنفيذ ذلك بطريقة فورية، فقد كانت لديه مشاكل ضخمة فى العاصمة ذاتها، فاس، لم تتركه حتى نهايات عام ١٦١٨ .

قبل ذلك كان يجمع جنودًا، ولكنه بدلاً من أن يوجه كل جهوده ضد هدف واحد، قام بتقسيم جيشه، حيث أرسل جزءًا منه لمحاصرة تطوان وجزءًا آخر لجبى الضرائب[٤٠] . من الممكن أن يكون هذا هو الذى سهل دفاع النقسيس، الذى صد كل الهجمات.

وبالإضافة إلى مصائب عبد الله بن الشيخ، والبلد بوجه عام، فقد ثار أخيه، محمد الشيخ، ضده و استولى على فاس، مؤقتًا، وسبّب مشاكل كثيرة للسلطان حتى موته.

لم تظهر بوضوح فى مؤلفات المؤرخين المغاربة درجة خضوع أحمد النقسيس لأى من السلطانين عبد الله أو زيدان. يشير أحد المؤرخين المغاربة إلى أحداث الشمال حوالى عام ١٦٢٠، و يقول إن المقدم أحمد النقسيس هو من أدار حركة الثورة فى تطوان[٤١] .

رأينا من قبل تلك الفترة التى كان يتعايش فيها المقدم مع القائد الأكبر، و كان يطيع أوامر مولاى عبد الله فى عام ١٦١٥ و كيف أنه فى نفس شهر مايو من هذا العام كانت تطوان محاصرة من قبل جيوش ملك فاس.

ونظرًا لكون الوثيقة نصًا محايدًا حقا من وجهة نظر الخلافات الداخلية المغربية، يمكننا أن نصدق تمامًا ما يتعلق بالتاريخ و بالحدث، أى أن النقسيس قد استفاد من غياب ممثل الملك لكى يعلن نفسه صراحةً أنه ضد ابن مولاى الشيخ. من المفترض أنه إسميًا على الأقل، قد اعترف بمولاى زيدان.

لم يكن لأى من الملوك الحاكمين قوة كافية لكى يُظهر سلطته فى تطوان، مع مقدمٍ مستمر فى وضعه بثبات وتدعمه نخبة محاربة، بعدما أباد أعداءه الداخليين.

لا نملك وثائق أخرى جديدة، بعد عام ١٦١٥، تمدنا بأخبار مؤكدة عن المقدم التطواني، حتى عام ١٦٢١ . مع ذلك، نجد في روايات ذلك العصر، بصورة غير مباشرة، الوضع السياسي لأحمد النقسيس منعكساً في عامي ١٦١٧ و ١٦١٨ .

لدينا عن كلا العامين مذكرات الأب بدور أورتيث دي لوياندو، و هو راهب من جمعية السيدة العذراء، كان في تطوان في خدمة كنسية، في عامي ١٦١٧ و ١٦١٨ . يقول مشيراً إلى العام الأول إن البلد كانت ثائرة، و بسبب ذلك اتخذ حاكم سبتة، لويس دي نورونيا، سلسلة من الاحتياطات لأمنه لكي يسافر إلى تطوان. في هذه المدينة كان أول احتياطاته هو الذهاب في اليوم التالي ليقبّل يد الحاكم، المسمى بن مونين Benmu-nin، و هو رجلٌ ذو عقل جيد و نية حسنة ووديعة. وفي الحال زرنا المقدم الأكبر، الذي يطلقون عليه لقب(كبير) ويُدعى النقسيس، و هو رجلٌ ذو حكمة وفطنة كبيرة محبٌ للعدل ورحيم جدا تجاه الأسرى حيث لم يستطع معاناة أن يعاملهم أسيادهم بطريقة سيئة ...

انعزل رجل الدين في منزلٍ في حي اليهود، وعندما استيقظ، في اليوم التالي، وجد حارسين أمام بابه، حيث أنه كان يجب أن يشترى من المقدم الكثير من الأسرى. بعد ذلك بقليل استقبل سكرتير النقسيس، و هو أحد الموريسكيين من إشبيلية و يدعى قاسمي كارديناس، الذي شرح له أنه أولاً يجب أن يشترى عبيد الحاكم، وبعد ذلك عبيد المقدم، وفيما بعد عبيد أبناء المقدم وأخيراً عبيد تجار تطوان. إذا تبقى شيء كان يستطيع التعاقد مع أي تاجر آخر من الجزائر أو من أي مكان آخر.

تفاوض الأب أورتيث عدة أيام مع أحمد النقسيس حول هذه الشروط، حيث أنه إذا كان هكذا سيُنفذ الافتداء فلن تتبقى أموال أو بضائع للمسيحين الذين لم يكن أسيادهم من السلطات أو من الحكام الرئيسيين.

وأخيراً تم التوصل إلى اتفاق في الافتداء، و حكى الأب أورتيث واقعة أن أحد الأسرى وكان لدى بوردان، و لم يكن بوردان يريد إعطاءه له، لكن أجبره على ذلك مسلمٌ آخر له نفوذ أكبر، ويُدعى بوعلي Bohali .

قبل الذهاب إلى سبتة، ذهبنا لتوديع المقدم الأكبر، الذى أمر بأن يقدموا لنا خروفين وإبريقين من العسل وأمر أيضًا أن ننام تلك الليلة فى المعسكر، و نصبوا لنا خيمتين وسط الطريق حتى نستطيع أن نستريح(٤٢).

نستطيع أن نستخلص بعض النتائج من الرواية الحية للراهب ونستنتج أو نؤكد البعض الآخر، المعروض كافتراضات، و من بينها افتراض أن الأسود، المعين كحاكم يحتمل أن يكون قد أرسله مولاى زيدان، ملك المغرب، والذى يمكن أن يكون قد وضع النقسيس تحت وصايته، و كان الموريسيكيون أكثر حبًا له. كان ذلك بصورة إسمية، كما هو مفترض، لأن الذى كان يحكم الشئون المدنية بالفعل هو المقدم العجوز، الذى كان مشتركًا، فى هذه التاريخ، مع أبنائه ذاتهم.

يمثل الموريسكى الإشبيلى، كارديناس، الأوضاع الجديدة التى حدثت بداية من عام ١٦٠٩ . أدار هؤلاء الموريسكيون، كما يمكن تسجيل ذلك فى مخطوطات متعددة، جزءًا مهمًا من الاقتصاد وسياسة الشئون العامة. ربما كان أحمد بوردان واحدًا منهم. ذكر المؤرخُ التطوانى بوردان كحاكم لتطوان فى أواخر القرن السابق. لم نجد أى حاكم بهذا الإسم ولكننا وجدنا اسم بوردان هذا، كتاجر لعدد كبير من العبيد. ربما يكون قد تولى كذلك، مناصب عليا فى البرجوازية التطوانية وكان له تأثير كبير .يمكن إثبات، فى وثيقة عام ١٦١٥، أنه تم وضعه إلى جانب النقسيس فى غياب الحاكم.

إن وصف الراهب لأحمد النقسيس، "رجلٌ فى الأعوام الأخيرة من حياته"، لا يمكن أن يكون أكثر تقريظًا . إن سلوكه الكريم تجاه المفتدى يؤكد ويكمل، بطريقة ما، الصورة المقدمة.

يوجد شخص آخر، بالإضافة إلى الحاكم والمقدم وبوردان، تفوقت سلطته على سلطة بوردان، وفقًا لرواية الأب أورتيث. إنه أبوعلى، الذى يمكن أن نجد أسلافه فى وثائق عامى ١٥٢٣ و ١٥٤٨ أى من زمن المندارى أو زمن قريبٍ منه، و يحتمل أن يكون من مؤسسى تطوان الجديدة والعائلة التى كانت بطلة المواجهات والخلافات، كما قرأنا فى مؤلفات مارمول ويمكننا تأكيده فى وثيقة لاحقة.

عند توديع السلطات، تذكّر الأب أورتيث المقدم فقط، الذى كان يجب عليه بالتأكيد أن يعاقب بعض الأسرى ويوقف قائد السجون، بسبب بعض الأحداث التى وقعت عندما كان رجل الدين يمر فى الشارع الذى كانوا فيه، وكانت موجودة فيه أيضًا السجون المظلمة(٤٣) ، وذلك دليل آخر يؤكد شخصية من كان يحكم المدينة.

لا توجد أخبار مباشرة عن النقسيس ولا عن تطوان، فى رواية المفتدى لعام ١٦١٨، لسبب بسيط هو أن التجارة والإجراءات الأخرى لافتداء الأسرى قد نُفذت هذه المرة، تحت أسوار سبتة، من الممكن جدا أن يكون ذلك بسبب وعورة الأراضى المرتفعة هذه، التى تحدثوا عنها فى العام السابق. أحضرهم سادة العبيد من تطوان لكى يتفاوضوا فى الافتداءات. دخل بعض المسلمين الوجهاء فى الموقع، وهو أمر كان يحبه ساكنو سبتة، لأنهم كانوا يقيمون تجارتهم واتفاقياتهم فيما بينهم(٤٤) .

إن المنظر الفوضوى الذى تقدمه لنا نصوص نفس كتّاب الأخبار والمؤرخين المغاربة يمكن أن يفسر معلومات الرواية والمذكرات التى كتبها قائد القرصنة الإنجليزى، هنرى مينوورينغ Henry Mainwaring فى عام ١٦١٨، ويصف فيها موانى بلاد البربر الرئيسية. كانت تطوان هى الميناء الأول الذى وجده البحّار، حيث يستطيع القرصان أن يتزود بالماء ويشترى أطعمة طازجة، وخزينة من البارود، التى يبيعها فى أغلبيتها التجار الإنجليز والهولنديين، حيث يمكن بيع البضائع تمامًا بصورة سريعة بفضل قوارب المدينة. لكن لا توجد حكومة ويجب أن يكونوا فى حراسة. يوجد قليلٌ من النظام والسلطة. يجب الإبحار إذا قامت رياح الشرق. الناس هنا عادلة وموثوق فيها.

هناك شكوك حول ما إذا كان القرصان الإنجليزى قد زار المرسى التطوانى فى أوقات صعبة، كان لاضطربات البلد فيها إنعكاسها فى الجزء الشمالى منها.

على الجانب الآخر كان شاطئ نهر مارتين نقطة تلاقى القراصنة من كل أنحاء البحر المتوسط الغربى و من المحيط الأطلنطى، مع مغريات الغنائم الممكنة والغنية التى تمخر مياه المضيق، بما فى ذلك السفن القادمة من أمريكا، كما يظهر فى بعض وثائق الافتداء. كانت ثروات القرصنة، كما ذكرنا كثيراً، تشكل الدخول الأساسية التى كانت تغذى الخزائن التطوانية.

ليس غريبًا، لذلك، أن يخصص النقسيس نفسُه وأقرباؤه جزءًا من رؤوس أموالهم لتأجير السفن للتجارة والقرصنة. كدَّر هذا الظرف الأعوام الأخيرة من حياة المقدم أحمد النقسيس الذى واجهته طوارئ جادة سببها له الإنجليز، وتجارتهم وأسطولهم.

نعرف الكثير من الوثائق التى تتحدث عن كل هذا، بعضها جديد يوضح لنا بعض المشاهد المسلسلة، المتصلة بالإنجليز والمقدم الذين عكروا بعض المفاوضات التجارية وغيروها بحيث تكون مثمرة لكلا الجانبين؛ إنجلترا وتطوان.

توضح لنا هذه الوثائق أيضًا التلاعب الذى كان الموريسكيون هدفًا له – وبالتحديد أولئك اللاجئين فى تطوان – من جانب الوكلاء الإنجليز.

كان الموريسكيون فى وضعٍ ملائمٍ لاستثارة الكره الذى يكنّونه للدولة الإسبانية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذين اختاروا ملجأهم فى الشمال المغربى، كانوا يرون أنفسهم غارقين، منذ وصولهم، فى البيئة الحربية المعادية لإسبانيا، وخاصة المواقع الحصينة، التى كانت تحاصر فعليًا كل الساحل، دون أن تترك ملجأً آخر للإبحار غير خور تطوان فى البحر المتوسط الغربى وخور العرائش فى المحيط الأطلنطى.

كان هذا الموقع الأخير، كما نعرف، هو الذى سلَّمه مولاى الشيخ للإسبان فى عام ١٦١٠ . من هنا فإن كل التجارة الممكنة التى كانت تصل إلى شمال المغرب لكى تدخل إلى البلد، كان يجب أن تمر عبر تطوان، وقد استفاد التجار من كل الجنسيات من ذلك، بمن فيهم الإسبان، لكى يعينوا فى مدينة المارتين، وكلاءً ومستشارين و مبعوثين، إلخ. لم يكن لبعضهم أى هدف تجارى، كما سيمكننا إثبات ذلك[٤٥] .

كان أحمد النقسيس، ذلك العجوز الأصلع والأعور ، مقدم تطوان العتيد، يشعر بالرضا ، فى الأعوام الأخيرة من حياته لكونه المالك المطلق فعليًا للمدينة، وللمرج والإقليم الواسع جدا، الذى ربما يشمل مدينة الشاون، المأهولة جدا بالموريسكيين، ولكنه كذلك عانى من التغييرات السيئة التى سببها له وضع البلد ووضع منطقة القرصنة التى كان يحكمها. ربما كان مبعث رضاه الأكبر، دون شك، هو عائلته نفسها. يذكرنا بها أحد النصوص لعام ١٦٢١، عندما أعطوا تأمينًا بالإجماع لكى

يستطيع بعض رهبان جمعية الثالوث المقدس المرور إلى تطوان حيث كانوا ينتظرون تنفيذ افتداءٍ في سبتة.

كتب أحمد النقسيس مسبقًا إلى رجال الدين في ٩ مارس من نفس عام ١٦٢١، حيث كان مسرورًا جدا بوصولهم، وكان ينتظر زيارتهم ويتمنى أن تكون مفيدة للجميع. قام المفتدون، الذين كانوا يعرفون عدم الاستقرار الدوري في البلاد المجاورة، باستشارة حاكم سبتة، لويس دي نورونيا، و انتهى الأمر بالموافقة على تأمين حامد النقسيس، المقدم وسيدي الحاج وسيدي حامد وسيدي عبد الله وسيدي عيسى وسيدي مفضل، صهره[٤٦] .

يعد هذا دليلاً مهمًا على أن الحاكم التطواني، على الأقل قبل عامين من موته، قد جمع أبناءه وصهره في حركة التجارة العامة، وعلى الجانب الآخر يؤكد كذلك على وجود العلاقات العائلية الحميمة للسلالة الغرناطية القديمة لعائلة مفضل مع أفراد النقسيس الذين اختفوا، في النهاية المأساوية لتلك الأعوام.

دون أن نسبق الأحداث، نعود إلى عام ١٦٢١ هذا الذي اختلط فيه رضا واستياء المقدم. تنبهنا إحدى رسائله في ديسمبر عام ١٦٢١ إلى سلسلة المشاكل المنبثقة من صفة القرصنة للمرسى التطواني وكيف كانت السفن الإنجليزية تنهب في هذه المياه، سواء كانت سفن قرصنة أو سفن عادية.

عرض النقسيس نفسه ذلك في هذه الرسالة الموجهة إلى السفير الإنجليزي في إسبانيا على هذا النحو:

استولى أحد التجار، ويدعى توتشينغ Touching، على سفينة يملكها أبناء النقسيس في مصب نهر مارتين، وباع بعد ذلك السفينة و الموجودين بها . وكرد على هذا الفعل القرصني، حيث أن توتشينغ كان هناك بتأمين من المقدمين التطوانيين، قام أحمد النقسيس بالقبض على أحد الإنجليز، و يدعى فريسويل Frisuel الذي ذهب للتجارة في تطوان ولم يكن لديه تأمين. و كرد فعل، قام الأمير مانسيل Mansell ، الذي

كان يبحر فى هذه المياه، بسلب أحد المراكب وعلى متنها عدة موريسكيين، و كانوا من أندلوثيا و يعيشون فى جبال تطوان، وكانوا يرغبون فى الانتقال إلى الجزائر(٤٧) .

يقول أحمد النقسيس، فى مكتوب لاحق، إنه طوال فترة حكم إيزابيل وحتى قبل ذلك، كان يوجد سلام وعلاقات طيبة بين الأمة الإنجليزية وبلده وإنه كان مستعداً أن تستمر الأمور كما كانت قبل ذلك(٤٨) .

عرض معاهدة سلام وصداقة تؤمِّن عدم أسر أى إنجليزى وتموين الأسطول الإنجليزى الذى كان يقترب من أى ميناء أو مرسى من ممتلكاتنا .يجب الأخذ فى الاعتبار أنه فى تلك اللحظات كان للحاكم التطوانى علاقات طيبة مع مولاى عبد الله(٤٩) . استمر الصراع فى مفاوضات طويلة، طوال فترة كبيرة من عام ١٦٢٣ . فنحن نعرف، من أخبار داوود، أن أحمد النقسيس مات فى أكتوبر عام ١٦٢٢ . لذلك كان هذا هو العام الأخير لنشاط المقدم التطوانى السياسى. كان نشاطاً غير محدد بموجب الوثائق التى سنعرضها فيما بعد و التى توضح، بالإضافة إلى ذلك، درجة الاستقلال الذاتى التى كان يتمتع بها القائد العجوز، عند الاتصال مباشرة مع البلاط الإنجليزى.

فيما يتعلق بهذا البلاط ومقاصده التجارية وعدائه لإسبانيا، فقد كان أسلافه ذوى أثر بالغ، عندما أرسل أحمد النقسيس سفيراً إلى ملكة إنجلترا، إيزابيل، حيث عرض عليها غزو إسبانيا و يقترح عليها الإحتلال الجماعى لبلاد الهند إذا كانت الفكرة ليست مقبولة بالنسبة لها (٥٠) .

تبدى رسالة لاحقة للمنصور إلى الملكة إيزابيل موافقته على وجهة نظر الملكة، التى كانت تفضل غزو بلاد الهند، ولذلك طلبت منه، ليس أقل من ١٠٠,٠٠٠ جنيه بهدف تحمل نفقات الأسطول الإنجليزى(٥١) .

توضح لنا هذه الوثائق التى تحمل تواريخ عامى١٦٠٠ و ١٦٠١ على التوالى، قبل موت كلا الملكين بأعوامٍ قليلة، المناخ العدائى ضد إسبانيا الذى كان يوجد فى البلدين، حتى قبل طرد الموريسكيين. وعاد هؤلاء ليصعِّدوه فى المغرب. إنها رسالة مهمة، تلك

التى كتبها السفير الإنجليزى فى إسبانيا فى عام ١٦١٩، حيث قال إن القراصنة الذين كثر عددهم عبر السواحل المغربية، لم يكونوا يؤذون انجلترا فى شىء تقريبًا ولكنهم كانوا يؤذون إسبانيا كثيراً، لأنهم كلهم تقريبًا موريسكيون أتوا لكى ينتقموا، بالهجوم على ساحل شبه الجزيرة[٥٢] .

كانت خطورة الوجود الإنجليزى بالاخص تتمثل فى تهريب الأسلحة، وهو ما أعطى السلاطين والطامعين الوسائل، ليس فقط للدفاع عن أنفسهم والصراع فيما بينهم، لكن لمحاصرة المناطق الحصينة التى كانت المملكة الإسبانية تملكها فى الموانئ المغربية الرئيسية.

إن كثرة التسلح والمدفعية، التى استعملها عبد الملك فى معركة مخازن Mejacen والتى سببت الكارثة الفظيعة للملك سبستيان فى عام ١٥٧٨ ، قد شكلت إنذاراً خطيراً جعل كل قادة القلاع الإسبانية فى المغرب يقظين. تشير وثيقة غير منشورة إلى هذه المشاكل. فى ٩ إبريل عام ١٦٢٢، كتب حاكم طنجة، السيد خورخى ماسكارينياس Jorge Mascarenas، رسالةً إلى دوق مدينة سيدونيا الذى نقلها إلى الملك، فأرسل نسخة منها إلى السفير فوق العادة فى لندن، السيد كارلوس كولوما Car- los Coloma .

يقول الحاكم " وصلت إلى يدى رسالة من قادش موجهة إلى النقسيس، مقدم تطوان و عندما رأيت الظرف المكتوب بحروف أجنبية ، قمت بفتحه. وجدت رسالة من أحد الإنجليز، و هو تاجر فى قادش و رسالة أخرى من سفير إنجلترا، الموجود فى البلاط، كانت ردًا على رسالة أخرى من النقسيس يقول فيها لملك إنجلترا، إن إقامة الإنجليز بيت دعارة فى تطوان ... سيكون ذو ضرر عظيم للحدود وسيكون وسيلة كبيرة لسرقتهم وأيضا لسرقة الجزائر ...[٥٣] .

قام الملك الإسبانى فى الرسالة التى نقلها للسفير، ومرفقًا نسختها، بإعطاءه تعليمات بهذا الصدد :

... أمركم أن تبذلوا كل المساعى الضرورية لفهم وتصحيح ما يُتحدث فيه وما يُنوى هناك فى هذا الموضوع، بحيث تبعدوها عن طريق التقدم فيها بأى وضع، حيث ترون العوائق التى يمكن ان تنتج عن هذا فى حدود هذه الممالك ...(٥٤).

إن فيليبى الرابع، الذى كان قد اعتلى العرش حديثًا والسيد كارلوس كولوما الذى كان جديداً فى سفارته، لم يكونوا يتركون مناصبهم لكى ينتبهوا إلى المشاكل المتعددة التى كانت محتدمة حينئذ فى الامبرطورية الإسبانية فى كل جوانبها. ربما يبدو لهما أن الجانب الجنوبى هو الأقل شغلاً للبال، على الاقل بالنسبة لكولوما الذى صقلته التجارب الأوروبية (٥٥). هذا ما توضحه الرسالة التى وجهها إلى ملك إسبانيا من لندن، فى ٢٨ يونيو عام ١٦٦٢:

اليوم حدثنى شخص شريف من هنا ... عن شىء بالرغم من أننى أخذته على محمل الهزل ... أردت أن أحذر عظمتكم منه ...

كان الأمر يتعلق بالهولنديين الذين كانوا يجهزون ١٥٠سفينة للهجوم على القارة الأمريكية. بعد ذلك يواصل:

... كم كان مخيفًا التصور الذى سببوه لى ، فقد كان الرجل متأكدًا مما يقوله، وقد فهمتُ من أماكن أخرى، ليس على سبيل الهزل، أنهم ضموا أسطولاً من ٤٠ سفينة تحمل مسلمى الجزائر وذهب ٦٠,٠٠٠ موريسكى إلى مملكة فالنسيا، و هم مسلحون ويقال إنهم ينتظرونهم على لسان مياه بلاد البربر، لإشعال الحرب فى إسبانيا ...(٥٦).

فى الحقيقة لم يتخيل كولوما أى خطر قادم من الجنوب، ليس فقط لأنه لا يعطيه اهتمامًا و لكن لأنه كان يجهل الخطر الذى يمثله الوجود البحرى الإنجليزى فى المياه المغربية. تمثَّل هذا فى وجودٍ بحرى لم يقتصر على القوارب التجارية، و لكن، كما رأينا فى حالة الاسرى الأندلسيين، أن مراكب الحرب كانت تعمل عندما ترى ذلك ضرورياً وكانت بعض السفن ذات الصفة الحربية، مثل سفن القرصنة الإنجليزية، تبحر من قواعد مغربية. يتضح جهل كولوما فى فقرة من المعلومة التى أرسلها من لندن فى ٢٦ أغسطس عام ١٦٢٢:

منذ أن حذرتني عظمتكم مما كتب حاكم طنجة، وتم إرسال نسخة من رسالته إليّ، حاولت معرفة إذا كان هناك شيء بهذا الخصوص في مصنع تطوان ولم أجد حتى الآن خبراً صغيراً أو كبيراً، و لديَّ أصدقاء من التجار قالوا لي ذلك ...(٥٧).

مع ذلك، وكما نعرف من وثائق أخرى، فإن الوجود و التأثير الإنجليزي كان يتزايد، وفي البلاط الإسباني وصلت تحذيرات أخرى مختلفة جدا وليست مطمئنة. هكذا بعث الملك رسالة أخرى إلى سفيره، في ٢٤ اكتوبر من نفس العام : ... بسبب تحذيرات وصلتني من أماكن متعددة، فهمت أن بعض الإنجليز تعاقدوا مع مسلمي إفريقيا وباعوا لهم أسلحة وأشياءً أخرى...

اعتقد الملك الإسباني أن هذه المعاملات تقوم دون علم و إرادة الملك الإنجليزي، ولكنه حذَّر كولوما لكي يعاقب المتمردين. أمر القادة والوزراء أن يحضروهم كقراصنة وقدم للملك الإنجليزي المواقع التي كانت للمملكة الإسبانية في بلاد البربر لكي يتم المتاجرة من هناك فيما يرغبون، مع إعطاء الإنجليز تسهيلات في هذه الموانئ(٥٨) . استعجل كولوما لكي يتصرف ويرد بصورة سريعة. أرسل الرد في رسالة، مؤرخة في لندن في ١٨ ديسمبر عام ١٦٢٢ . يقول كولوما، في الفقرتين الأخيرتين من خبر طويل، عن السياسة الخارجية:

بحثتُ أيضاً مع هذا الملك ما يتعلق بتجارة أتباعه مع المسلمين وكيف أنه زودهم بالأسلحة وبخبرات الحرب ...

أبدى الملك الإنجليزي امتنانه، لعرض فيليبي الرابع لاستخدام الموانئ الإفريقية التي كانت في أيدي إسبانية وأشار كولوما أنه سوف يعلن ذلك لكي يعلم الجميع، وبخاصة كل من يصل، من الآن فصاعداً، من هذه المملكة إلى تلك المناطق(٥٩) .

لا تزال هناك رسالتان أخريان عن هذا الأمر، واحدة من الملك الإسباني في ٢٩ يناير عام ١٦٢٣ (٦٠) والأخرى من كولوما، مع وعد من الملك الإنجليزي بإعلان ذهاب أتباعه إلى الموانئ الإسبانية في موانئ بلاد البربر، و معاقبة المخالفين بعقوبات صارمة.

نعرف سياسة ملوك العصر الإنجليزى، كسياسة ذات وجهين تناقض الأفعال فيها الأقوال. بينما كانوا يقدمون هذه الوعود للسفير الإسبانى فى لندن، فإن البحارة الإنجليز الذين كانوا يبحرون فى المياه المغربية لم يكونوا يحمون تجارهم وقراصنتهم فحسب، بل كانوا يوافقون على معاهدات صداقة وتجارة مع الحكام المحليين والإقليميين، كما كان يقترح أحمد النقسيس لكى يصفى الخلافات التى تظهر بسبب أنشطة القرصنة التى يمارسها البحارة الإنجليز، كالقائد توتشينج أوأمير البحر مانسيل ذاته(٦١) .

يتحدث المؤرخ التطوانى الشهير داوود، عن موت القائد أحمد النقسيس، فى يوم الإثنين الموافق ٢٤ أكتوبر عام ١٦٢٢، و يقول إن مقبرته هى الوحيدة التى يمكن معرفتها بين المقابر الأخرى لأولاد النقسيس. يشرح للزائر كيف استطاع أن يجد قبر المحارب الكبير، فى الجبانة التطوانية القديمة. هكذا يقول:

من يرغب فى أن يجد مقبرة المقدم، أبى العباس النقسيس، عليه أن يصعد إلى الجزء العالى من جبانة تطوان. ويتوقف عند باب قبة سيدى قاسم بو قُريعة Kasem bu Cuare'a، ويوجه نظره تجاه المسجد الكبير. ويمشى مسافة ثلاثين خطوة من هذا الاتجاه. هناك سيجد المقبرة وفيها الشاهد الذى يبلغ طوله ٦٥ سنتيمتر وعرضه ٤٥ سم وسمكه ١٣سم.و فيه ١٤ سطراً. ظل هذا الشاهد فى هذا المكان حتى يومنا هذا (١٣٧٤هـ -١٩٥٤م)(٦٢) .

عندما كان داوود فى الجبانة أمام هذه المقبرة، رأى الشاهد المنحوت الموجود فيها وبالرغم من الصعوبة، استطاع قراءة ما هو مكتوب فيه، ونقل هذه القراءة. بالإضافة إلى المديح الجدير برجل فوق العادة، يمكننا الإشارة فى السطرين ١١و١٢ إلى التاريخ الدقيق لموته. فى السطر رقم ١٠ ظهر اسم والده الذى كان أيضاً "مجاهداً" محارباً من أجل العقيدة. وبعدما دُفن فى اليوم التالى لموته ذهب إلى الجنازة حشد من أكثر من ١٠,٠٠٠ شخص، بين عجائز ورجال وأطفال، الأمر الذى يعطينا فكرة عن عدد السكان التطوانين فى هذه الفترة.

فى السطر الأخير يمكن قراءة أن القائد الشهير، كان يحسن استخدام الشيخوخة ويحافظ على الاحترام وينشر الخوف والقلق فى قلوب الظالمين الموجودين فى المواقع الحصينة. سوف يكون مكانه ممتازًا فى العالم الآخر وسيكون التشفع بفضله، ستكون رحمة وفضل الله سخية معه(٦٣) .

إذا وجدت شخصية يمكن أن تبارى شخصية أحمد بن عيسى النقسيس فلن تكون غير شخصية مؤسس تطوان ذاته، أبو الحسن على المنداري الغرناطي. فهو محاربٌ لا يقهر، و سياسيٌ ذكى و حاكم قدير و موجهٌ صارم. تلك هى الصفات الأكثر بروزًا فى شخصيته، والتى أُستخرجت من النصوص المختلفة التى درسناها والتى تشير إليه أو إلى أعماله.

مثلما حدث مع المنداري، تنقصنا سيرة ذاتية حقيقية لشخصية النقسيس تساعدنا على الاقتراب من الفرد و من بيئته القريبة أكثر مما استطعنا تحقيقه مع الوثائق الموجودة.

كان لمسار حياته خطان، مرسومان بوضوح فى الأخبار والكتابات. منذ موت السلطان أحمد المنصور فى عام ١٦٠٣ وبعده حتى نهايه أيامه فى عام ١٦٢٢ . تميز فى الجزء الأول من حياته كثيرًا بسبب سلوكه المحارب الذى قفز إلى أخبار السلطان نفسه دون أن يكون بالتحديد من محيط بلاطه الملكى.

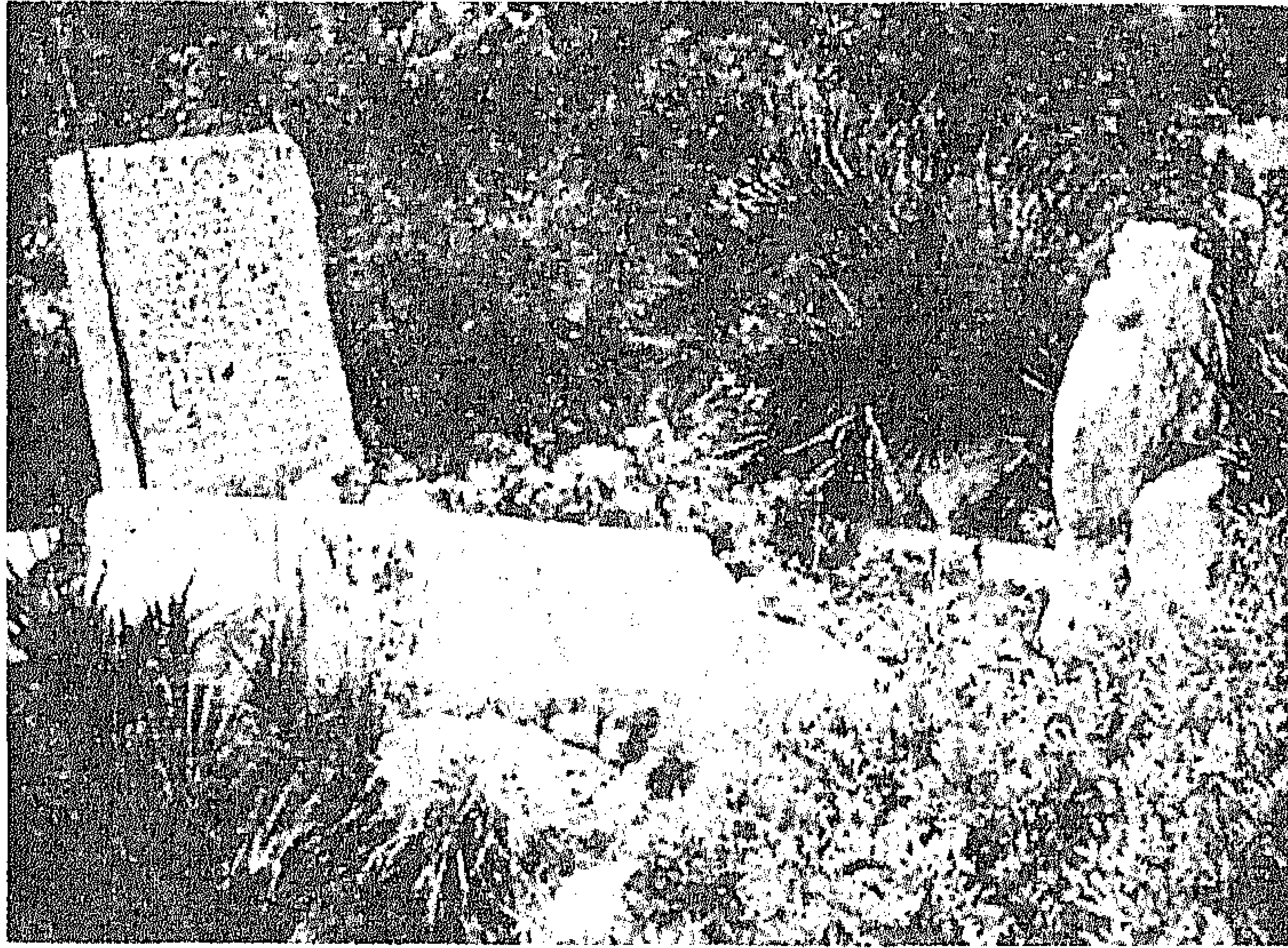
بعد موت المنصور وبداية الخيانة المدنية، اعتقدالنقسيس أن السلطان الذى يجب أن يخلفه هو مولاى زيدان، ابن الزوجة الشرعية للملك المتوفى. ولم يبعده الخوف من فقد مكانه أو حياته عن مسلكه الذى أدى به، فى النهاية، إلى منفى الجبال الموحشة للجنوب التطوانى. بعد ذلك، وكقائد لجماعته، عرف كيف يكسب نفس الإعجاب والاحترام بين جنوده وأتباعه الأكثر إخلاصًا.

يبدو أن ضوءًا يسيرًا قد أوحى إليه قتل السلطان مولاى الشيخ فى ضواحى تطوان. لا يبدو أنه كان اليد المنفذة، بالرغم من أنه كان يشكل جزءًا مهمًا فى المؤامرة التى انتهت بهذا الموت. على كل الأحوال، فإن موت الشيخ كان نتيجة للكره الذى أشعله

تسليمه العرائش إلى إسبانيا. إن النقسيس، ذلك الشيخ الأصلع والأعور، الشخصية الموثوق بها، النحيل الهزيل، عزاء الضعفاء، الذى يخاف منه أعداؤه، قد مات وشيعته الحشود، وترك خلفه بقية حماس وإعجاب يسرّ الاستمرار فى السلطة الإقليمية لذريته. من الآن فصاعداً سيستمر أولاد النقسيس فى الحرب والحكم فى تطوان. ستمر أعوامٌ كثيرة وأجيال من عائلة النقسيس، لكن لن يتكرر وجود شخصية، قوية مؤثرة هكذا، كشخصية أحمد بن عيسى النقسيس الأول.

لا نستطيع ولا يجب أن نترك مرحلة أحمد النقسيس دون أن نتحدث عن بعض البقايا الأثرية لذكراه التى يحتمل أنها كانت الأكثر شهرة فى العمارة التطوانية.

تحدثنا قبل ذلك بقليل عن موقع مقبرته الذى تحدث عنه المؤرخ التطوانى الشهير محمد داوود، كذلك عن قراءته ونقله لكلمات الشاهد. ففى الصفحة ٢٧٢ من كتاب تاريخ تطوان يقدم صورة لمقبرة النقسيس مع تعليقاته التى نقدم محتواها للقارئ.



صورة (٤٣)

"قبر المجاهد الكبير، بطل تطوان و حاكمها و زعيم مجاهديها، أبى العباس المقدم أحمد بن عيسى النقسيس. و هو واقع فى القسم الأعلى من مقابر تطوان، فى سفح جبل درسة الواقع شمال المدينة و قد ظهرت فيه الحجرة التاريخية التى أثبتنا نص الكتابة التى عليها فى صفحة ٢٠١ من هذا الكتاب. و المقدم النقسيس هو أكبر و أشهر حاكم تطوانى فى القرن الحادى عشر للهجرة. فلقد كان وطنياً غيوراً، و مجاهداً كبيراً، وبطلاً مغواراً و سياسيًا محنكًا، و عهده – الذى كانت شمس الدولة السعدية فيه على أطراف النخيل – لم يكن فيه بالمغرب عاهل كبير قوى الشخصية واسع النفوذ، ممن يرضى أن يخضع له أمثال المقدم النقسيس من كبار القادة الأبطال. و زعماء المجاهدين الأحرار، فلذلك تصدَّر أبو العباس للرئاسة و الجهاد فى تطوان و نواحيها وكان موفقًا فى أعماله ناجحًا فى سياسته و إدارته و جهاده رحمه الله. و هذا المقدم، إليه تنسب زنقة المقدم التى بين السوق الفوقى و الغرسة الكبيرة، و داره و دور أولاده هى التى تحولت لمساكن الأشراف من آل وزان فى درب الشرفاء بالزنقة المذكورة.

و فى مظهر الإهمال المؤسف البادى على قبر المقدم النقسيس و أمثاله، عبرة لمن يعتبر من أصحاب السلطة و الجاه و الغطرسة و الجبروت، و البقاء و الدوام لله سبحانه."

توجد صورة أخرى لقبر أحمد النقسيس، وهى صورة باهتة موجودة فى كتاب داوود. نشرها كليمنتى ثيرديرا، وهو مترجم شهير للمفوضية العليا الإسبانية فى المغرب، والذى قدم، بالإضافة إليها، نص شاهد القبر مع ترجمته التى سنوردها فيما بعد.

هى ترجمة قام بها كليمينتيى ثيرديرا للكتابة المحفورة الموجودة فى شاهد مقبرة أحمد بن عيسى النقسيس. نُشرت فى مقاله "الكتابات العربية المحفورة فى تطوان. شاهد أحمد بن عيسى النقسيس". مجلة تروباس كولونياليس **Tropas Coloniales** رقم ١٣ العدد الثانى. يناير ١٩٢٦ .

فى الجزء الداخلى من الشاهد فى الوجه الخارجى تُقرأ عبارة "هذا قبر مجاهد الحرب المقدسة".

1 بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا محمد وءاله
2 هذا ضريح نصيح البلدة التطوانيه
3 ومن عليه في كل المهمات مدارها من سيفه
4 على الاعادي مسلول وحبل عنايته بالتاييد
5 الالاهي موصول الذي لولاه لفغرت طواغيت الكفار
6 افو اهها ولا ضحت ملة الاسلام تنادي المنار
7 ان طلع شمس الدعه وسنن ضحاها المسكن روعه
8 الشيخ والكهل والولد السالك في جهاده سبيل
9 خالد بن الوليد الاسنى المزيي الاحمد المقدام ابي الفارس
10 احمد بن المجاهد المجالد الخير الدين الحاج المقدم
11 عيسى النقسيس وكانت وفاته يوم الاثنين الثاني عشر
12 من الحجه متم احدى وثلاثين والف سنه ودفن من الغد هنا
13 وصلى عليه جم غفير ينيف على عشرة ءالاف مابين شيخ وكهل وصغير
14 . . . . ومنزلاً كان معمورا من الخ ر

رقم (٤٤)
شكل الشاهد

خلفاء أحمد بن عيسى النقسيس

يوضح لنا شاهد قبر أحمد بن عيسى القسيس أن موته يضع نهاية الجيلين الأول والثانى من المحاربين من عائلة النقسيس، حيث أنه ابن مجاهد آخر أو محارب من أجل العقيدة، و هو المقدم، عيسى النقسيس.

لدينا هنا، لذلك، صلة بين العصر البطولى والأساسى للمندراى و موريسكيى الفترة الأولى من المهاجرين الإسبان المسلمين، وعصر النقسيس الآخر هذا ، الذى يعاصر الفترة الثانية من الهجرة الموريسكية، فترة طردهم الإجبارى من شبه الجزيرة. يوجد، إذن، فى تطوان الموريسكية هذه، بعض السكان، الذين أقاموا أكثر من قرن فى المدينة، والذين حافظوا من أصلهم الإسبانى فقط على الحنين الذى لم يترك ذلك الجيل أبداً، وحتى عصرنا هذا فإن أحفاد الموريسكيين الغرناطيين يشعرون بأنهم مختلفون.

أُضيف إلى النواة الأولية سيل ثابت من "الذين كانوا يعبرون إلى الجانب الآخر" ويهجرون الشواطئ الجنوبية الإسبانية. فى المناسبات الخاصة تحول هذا العبور إلى فيض بشرى صغير؛ وهكذا كانت هناك فترات اختفت فيها مجموعات بشرية بأكملها من مملكة بنى نصر القديمة. أيضا كان يوجد فى نفس البلد نزوح من الريف إلى المدينة، وهو أمر طبيعى فى كل وقت. بعد ذلك، تجمعت أقلية من الغرباء من كل الأنواع، من الخائنين والقراصنة والتجار و حتى ساكنى الجبال والريفيين، صورة شعب كان يختلط، ولكن ببطء، مع عامة البلد، طوال القرن الخامس عشر.

وسريعًا ما بدأت موجات جديدة من الموريسكيين فى الهجرة إلى المدن والقرى، حيث جددوا وأنعشوا الدم الإسبانى فى المغرب، و تُرجم ذلك فى بعض المناطق إلى تجمع أو ارتباط للأمم المسماة "أندلسية". سوف تتسبب هذه التجمعات فى ظاهرة الاستقلال، إزاء الفوضى الشائعة فى كل البلد. انتهت، مع الذين وصلوا حديثًا، من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٤، الهجرات المتواصلة التى حدثت منذ سقوط مملكة غرناطة. لن يكون هناك "عبور إلى الجانب الآخر" ثانية. على العكس وُجدت حالات كثيرة من الذين كانوا يعودون، حتى مع معرفتهم باحتمالية سقوطهم فى العبودية. لكن الاختلاف بين هؤلاء السكان الموريسكيين من شبه الجزيرة والسكان الأصليين من البلاد التى

هربوا فيها، كان، أحيانًا، ملحوظًا جدا، حيث أدت الصدمة النفسية، وأيضا الرفض الطبيعي للسكان الأصليين لهم(*) ، إلى حنين العودة إلى الوطن الإسباني.

من الممكن أن تكون هذه الهوة المفتوحة بين الحضارتين، الأكثر عمقًا كل مرة، هي السبب في أن تلك الموجات من المهاجرين قد تأخرت أكثر قليلاً عن سابقاتها في الذوبان في قلب المجتمع المغربي. من هنا نرى في الوثائق، أنه عند الإشارة إلى سكان تطوان في هذه الفترة، يدعون بلقب "أندلسيين" للموريسكيين الجدد. في الواقع، و كما قلنا، فإن الموريسكيين القدماء قد اختلطوا، بنسب قليلة جدا، مع عناصر بشرية أخرى، لكنهم حافظوا دائمًا على أن يكون النسل الإسباني مسيطرًا في المدينة التي أعادوا هم إنشاءها في نهايات القرن الخامس عشر. وبالإضافة إلى تسميتهم موريسكيين أو أندلسيين فقد حافظ المنفيون الجدد، كلهم تقريبًا على أسمائهم المقشتلة، التي أضافوا إليها اسم إبراهيم أو علي أو قاسم. نرى العديد من الأسماء مثل كانتييانا Cantillanaوسوريا Soria وديثا Deza وتاغارينو Tagarinoوموراليس Morales وناربايث Narváezوبيلاسكو Velasco ... في الوثائق، بداية من العقد الأول للقرن السابع عشر، و طوال هذا القرن. في الحقيقة، لا تزال تسكن في تطوان اليوم أكثر من مائة عائلة مع الألقاب التي بقيت من أسلافهم(٦٤) .

عندما مات البطل الكبير لعائلة النقسيس، أحمد، لم تتوافر في واحد من أبنائه الشخصية الكافية لكي يجمع بمفرده كل صفات الأب. فقد حكم البلد بصورة مطلقة ليس أقل من أربعة منهم، و قد قسموا المناصب، لا نعرف هل كان ذلك يتم بطريقة دورية أو دائمة. كان واحدٌ منهم على رأس طبقة الفرسان، و كان آخرٌ يدير المشاة وآخر ربما كان يقود القوات الحربية، عندما كانوا يتحركون ضد سبتة أو طنجة و، أخيرًا، كان واحد آخر يبقى دائمًا مع إحدى الحاميات لكي يدافع عن المدينة من أي مفاجأة محتملة أو لكي يحافظ على النظام ضد الأعداء الداخليين.

(*) لا ننكر أن السكان الأصليين في تونس على سبيل المثال قد شعروا بشيء من الغيرة إزاء احتفاء السلطات بالموريسكيين وتقديم التسهيلات لهم .(المراجع)

هكذا، إذن، تدعَّم فيما يبدو الاتجاه الحزبى القديم لعائلة النقسيس فى هذا الجيل الحديث. نعرف أيضا أنهم كانوا يشتغلون بالقرصنة، لأن إحدى سفنهم، عندما سلبها الإنجليز، قد تسببت، كما رأينا، فى أحداث دبلوماسية محددة بين لندن وتطوان. كان الأخوة الأربعة يحلون الشئون الخطيرة مجتمعين وإذا حدثت أحدها، وكان أفراد النقسيس المحاربين فى الخارج، كان ينتظرهم من يبقى فى المدينة، لكى يتناقشوا ويقرروا معًا.

عمل هذا المجلس العائلى المصغر عدة سنوات. نعتقد من عام ١٦٢٢ إلى عام ١٦٢٦، لأن لدينا أخبارًا عديدة من عام ١٦٢٧عن تغييرات، وإن كانت ليست جوهرية، ولكنها كانت تمثل شيئًا مختلفًا. من الممكن أنه خلال العام الأول فقط لحكومة هؤلاء النقسيس الأربعة كانوا تحت سيادة السلطان مولاى زيدان. فيما بعد، و بسبب عتابهم على قسوته وطغيانه، طردوه شكلاً بعد أن كان مطرودًا من الناحية الفعلية وأعلنوا أنفسهم دولة حرة، على نمط فيينا و هولندا، وفقًا لما كانوا يقولونه هم أنفسهم.

من المحتمل جدا أن واحدًا من هؤلاء الأخوة قد نال سيطرة أكثر أو كان أكثر حكمة أو حرصًا من الآخرين، لا نعرف ما إذا كانوا أكبر أو أصغر منه. الواقع أن المدعو سيدى عبد الله، قد تميز سريعًا عن الباقين وسيكون، كما سنرى، هو الذى بقى وظل فى السلطة، ما يقرب من عشرين عامًا، مع بعض الانقطاعات.

يوجد، فى الواقع، مخطوط يقدم لنا معلومات عن هذا الموضوع. ففى بدايات عام ١٦٢٥ تم تنفيذ افتداء للأسرى فى طنجة. وبقى الرهبان من جمعية مريم العذراء فى منزل فى طنجة، وذهب إلى هناك مفوضو مملكة فاس للتعاقد على الافتداءات. إنها حالة غريبة، داخل هذا النوع من العمليات لأنها، بطبيعة الحال، كانت تُنفذ فى سبتة، سواء كقاعدة للدخول إلى تطوان، أو كمحطة محددة فى انتظار البائعين والأسرى. ربما ترجع هذه الظروف إلى تدخل رئيس الدير البرتغالى، المقيم فى طنجة والذى قام بالمساعى الضرورية لشراء وافتداء بعض المساجين القادمين من سلا، وهو الميناء الكبير الآخر وسوق قرصنة بلاد المغرب فى العصر الحديث.

الحقيقة هي أن أحد الموريسكيين (و يدعى قاسمي دي كارديناس ذهب إلى المنزل الطنجي، في ١ فبراير عام ١٦٢٥، وكان مسلماً من أندلوثيا وسكرتير المقدمين الإخوان النقسيس، حكام تطوان)، و كان معه مسلمون آخرون من تطوان، يقال إن بعضهم من أصل تطواني والآخرين من أندلوثيا[٦٥] .

سلم رئيس الدير الذي أشرنا إليه، ٦٩ أسيراً، من ٧٠ الذي اتفق عليهم، لأن أحدهم مات قبل أن يُحرر. لكن لا تهمنا دراسة المسيحيين المحتجزين في سلا، بل تهمنا دراسة أولئك الذين حملهم كارديناس، من تطوان. لقد تم بيع ٢٧ أسيراً من سوق تطوان، كان ثلثهم أو تسعة منهم ينتمون إلى عائلة النقسيس، وهناك تفصيل يسترعي انتباهنا. كان هناك ٣ من هؤلاء التسعة ينتمون إلى سيدي عبد الله، (ثيود الله Ciudala في النص)، و٦ ينتمون إلى المقدمين مجتمعين. وُصف ثيود الله بالمقدم في إحدى كشوفات المخطوط لكي يمحى عنا أي شك عن انتسابه لأفراد النقسيس، وقد حصل على ١٤,٠٠٠ ريال مقابل هؤلاء الأسرى الثلاثة وباع إخوته ٦ أسرى بمبلغ ٢٣,٠٠٠ ريال، حيث مثلوا نسبة ١٨٪ و ٣٠٪ بالتتابع من الإجمالي المحصل في هذا الجزء من الافتداء، الأمر الذي كان طبيعيا في مجموع العمليات من هذا النوع الذي نعرفه. كانت النخبة الحاكمة في السلطة التطوانية تقتطع دائمًا لنفسها نصيب الأسد في سوق العبيد، من حيث كانت تأتي، كما نعرف، الدخول الأساسية التي كانت تدعم الأمة الموريسكية.

في هذه الحالة ستكون الأرقام والنسب أكثر لفتًا للنظر إذا أضفنا العبيد الذين باعهم مفضلٌ بمبلغ ٦,٠٠٠ ريال، وهو رقم يتجاوز نسبة ٥٠٪ من كل المبلغ الذي دفعه الآباء المفتدون لافتداء المسيحيين الذين كانوا يعانون في السجون التطوانية. نذكر أن مفضلاً هذا كان يشكل جزءاً من القبة الحاكمة للمدينة منذ زمن المنداري و كان مرتبطًا بصلات عائلية مع أفراد النقسيس.

أخذ الموريسكيون الجدد يفتحون طريقًا كلما استطاعوا و بالفعل استطاعوا ذلك. نجد هنا كارديناس، الذي كان في منصب عالٍ في الحكومة؛ و ُذكر في النص كل من

كابريرا Cabrera وأغيلار Aguilar وأوليباريس Olivares وأبيلا Avila، كسادة للعبيد، حيث توحي لنا كلها بأسماء لموريسكيين وصلوا حديثًا إلى المنفى(٦٦) .

فى نفس عام ١٦٢٥ وصل إلى تطوان وفد دينى آخر من المفتدين، من جمعية الثالوث المقدس.

حصلوا قبل كل شيء على تأمين موقَّع من الإخوان النقسيس، إنها الوثيقة الوحيدة الموجودة حتى الآن، حيث يظهر توقيع باللغة العربية لأحد أفراد هذه العائلة(٦٧) .

كتبه، باللغة القشتالية، سكرتيرنا قاسمى كارديناس، فى أول يونيو عام ١٦٢٥ وعنونه باللغة العربية الحمد لله الواحد الأحد .

أُعطى تأمينًا إلى كل من الراهب غابرييل دى لا أسونثيون، والراهب سبستيان دى لا مادرى دى ديوس من جمعية الثالوث المقدس و لويس أوتشوا، الكاتب العام للافتداء و خوسيه ميخياس، الصبى اليهودى، وإلى أى شخص يذهب معهم، لكى يستطيعوا الدخول فى تطوان، دون إكراه أو مضايقة أو نكاية. سيمكنهم افتداء الأسرى الذين يرونهم مناسبين دون أن يجبرهم أحد على افتداء أسرى محددين.

فى التوقيع نسبوا إلى أنفسهم صفة المقدمين – الحكام.

كانت عائلة اليهودى ميخياس تنحدر من إحدى العائلات الممتدة التى ظهرت من الآباء إلى الأبناء فى مخطوطات الافتداء كسادة للعبيد و كوسطاء ومترجمين. فى إحدى الوثائق يوجد شخص يُدعى ميخياس مقيم فى سبتة. خوسيه ميخياس هذا كان يهوديًا من سبتة كذلك ، حسب ما نفهم من التأمين حيث سمحوا له بالدخول فى تطوان مع رجال الدين.

فى ١١من يونية، ذهب شخص آخر يدعى إسحاق ميخياس، بصفة مترجم مع الراهب سبستيان دى لا مادرى دى ديوس لكى يزور المقدم الحاكم، الذى كان فى هذا الوقت هو عيسى النقسيس، الذى استقبله مع سكرتيره قاسمى كارديناس(٦٨) .

كان كارديناس، بكل تأكيد، السكرتير والمترجم الموريسكى الذى حضر الاجتماع السرى الذى عقده مقدمو تطوان مع الوكيل الإنجليزى، هاريسون، الذى وصل إلى المدينة فى ٣ يونيو من نفس عام ١٦٢٥، لكى يسلم رسالة من الملك الإنجليزى وللتعرف على درجة استعداد السكان للحرب ضد إسبانيا التى كانت انجلترا تفكر فى القيام بها قريبًا[٦٩] .

استقبله السكان بفرحة كبيرة، و بخاصة الموريسكيين الذين وصلوا حديثًا، والذين كان عددهم كبيرًا جدا فى تطوان وفاس، وكانوا يرغبون أن تحميهم إنجلترا، على حد قول القائد الإنجليزى.

فى هذه الأوقات، كان الموريسكيون المطرودون حديثًا يفضلون الاعتماد على أى عدو للإسبان.

تحرى هاريسون عن إمكانية تجنيد موريسكيين، فقد كانوا،- وفقًا لما سمعه من أراء مخاطبيهم التطوانيين- أفضل جنود اعتمدت عليهم المغرب. عرض المقدمون عليه ١٠,٠٠٠ رجل، إذا كان هذا من أجل الهجوم على سبتة أو أى موقع قريب، بمساعدة الأسطول الإنجليزى.

كانوا سيقدمون له، بالمثل، كل أنواع الخدمات، خاصة تزويد الأسطول بالمؤن الضرورية. وطلبوا منه شيئين فقط: البارود وإصلاح بعض المدافع التى كانت لا ينتفع بها هناك.

وجه الوكيل الإنجليزى لهم سؤالاً رئيسيًا: إذا جاءت اللحظة هل سيمكنهم نقل مقاتلين موريسكيين للحرب فى أماكن أخرى؟ كانت الإجابة بارعة جدا ومقنعة ودبلوماسية؛ فلن يستطيع المقدمون إجبار أحد على ترك مدينته، ولا على هجرها ليكونوا تحت رحمة أعدائهم. غير أنه، إذا أراد أحد الموريسكيين أو اليهود أن يرحل إراديًا، فلن يمنعوه هم، وإذا تعلق الأمر بحملة برية ضد سبتة، فسوف يكون أفراد النقسيس شخصيًا، على رأسهم. كان هاريسون، الذى أقام فى أحد المنازل فى الحى

اليهودى، يستقبل فى هذا المنزل موريسكيين و يهود من المدينة كانوا يمطرونه بالأسئلة ويحدثونه عن منفاهم المرير. شعر الإنجليزى بأنه رسول بروتستانتى ونظم جلسات لقراءة الكتاب المقدس، و ترجمه منطقيًا إلى اللغة الإسبانية. أكد، بحماس، أن اليهود والموريسكيين هم فى معظمهم مسيحيون طوعًا وإنه يمكنهم أن يلعبوا دورًا عظيمًا فى هذه المنطقة إذا قررت إنجلترا احتلال سبتة. يمكن أن يبقى هذا الموقع مع حامية صغيرة، عندما تكون مدينة تطوان ومنطقتها حليفةً، وبذلك يمكن للمراكب الإنجليزية التى تعبر المضيق أن تتوقف هنا للتزود بالبارود وبكل ما هو ضرورى(٧٠) .

يجب توقع سلامة نية هاريسون، بالرغم من عدوانيته ضد إسبانيا، لأنه تحول إلى محامٍ للموريسكيين، ليس فقط لأنه حاول حملهم إلى معسكره السياسى، كإنجليزى مخلص، ولكن، لأنه يعلم مأساة هذه الاقلية. اعتقد أنه يحقق عملاً دينيًا عظيمًا، بتقريبهم إلى الديانة المسيحية التى يعتنقها.

من الغريب أن المنزل، (كان هاريسون يقيم فى تطوان)، كان أيضًا مركزًا للعربدة والسكر الذى يديره أحد أفراد النقسيس حيث كان الناس يشربون الخمر. وقد قتل فى نفس المنزل أحد أفراد عائلة النقسيس.

نملك، بفضل روايات ورسائل هاريسون، أخبارًا ليست موجودة فى أى مصدر آخر عن الموريسكيين، سواء من تطوان، أو من نواحيها كمنطقة سلا وأرضها، التى كان يتم التوجه إليها بعد انتهاء العمل المكلف به فى تطوان.

هناك ملحوظتان أكثر أهمية تقدمها لنا رواية هاريسون، فيما يتعلق بالجماعة الموريسكية. الملحوظة الأولى هى استخدام اللغة الإسبانية حيث نُسيت اللغة العربية فى شبه الجزيرة الأيبيرية، حتى فى كنف العائلات.

الملحوظة الثانية هى مأساة الموريسكيين و مأزقهم، فبمجرد أن يصلوا إلى الضفة الأخرى، كانوا يتأملون أسباب منفاهم الإجبارى أو الإرادى وهو اهتمامهم بأشكال

الإسلام الدينية و يلاحظون وجود إسلام آخر فى أراضى إفريقيا مختلف اختلافًا مطلقًا عن الإسلام الذى كانوا يمارسونه فى شبه الجزيرة(*).

ومن جانب آخر، أشكال الحياه المختلفة جدا التى تعودوا عليها كانت مختلفة تمامًا عن الأشكال التى وجدوها فى أماكن استقبالهم الجديدة.

يفسر كلا العاملين بصورة كافية أن المنفيين قد بقوا متجمعين خلال وقت طويل، دون التفرق فى أنحاء أمة المغرب، ومن جانب آخر، يفسر الاستقبال الممتاز الذى تلقوه هناك حيث كان يوجد مسبقًا "أندلثيين" أو منحدرين منهم كما فى حالة تطوان والشاون.

و فى الرباط، عندما فرض الهورناتشيون أنفسهم كملاّك القصبة أو القلعة، قاموا باستدعاء كل الأندلسيين الذين وجدوهم لتعمير الرباط، النطاق الخارجى للقصبة، وهو أمرٌ تحقق سريعًا.

نجد أخبارًا عن النقسيس قدمها لنا هاريسون، عندما مر بتطوان، سواء فى عام ١٦٢٥ أو فى عام ١٦٢٧.

ليس عاديًا أن نجد أخبارًا فى الأعمال التاريخية أو التأريخية المغربية، التى عكرها، فى ذلك العصر، التمرد الدينى الكثير الذى ظهر فى البلد، و الذى سبب ظهور حكام وصلوا، أحيانًا، بنفس الطريقة التى وصل بها مؤسسو العائلات الحاكمة، بينما اختفت السلالة الموجودة حينئذ فى السلطة، العاجزة والمنقسمة الآن إلى جزئين، بفعل الصراعات العائلية.

استسلم الشمال لمصيره، مثل مناطق شاسعة أخرى من البلاد المغربية، كما أعلن أفراد النقسيس للوكيل الإنجليزى أنهم قرروا العمل لحسابه، و هو الشىء الذى كانوا معتادين عليه بالفعل منذ القدم. كانت فقط الفترة الطويلة لفترة حكم المنصور من

(*) لا نشك فى وجود اختلافات بين ممارسة الأندلسيين والمغاربة للإسلام، لكننا لا نظن أن تلك الاختلافات كانت جوهرية . (المراجع)

عــام ١٥٧٨ إلى عــام ١٦٠٣ هـى التى جــعلت الناس تنسى الحكم الذاتى الذى تم الحصول عليه فى الفترة الوطاسية الأخيرة وبداية السلالة السعدية.

تسلّطت على أفراد النقسيس فكرة، مثل كل الحكام الذين ظهروا هنا وهناك، وهى الحرب ضـد المحتل الأجنبى لسواحلهم. ستكون المثابرة فى تحقيق هذا الهدف وراء تغييرات السلالة الحاكمة والقادة.

قام شخصٌ عظيم من أفراد النقسيس- أحمد بن عيسى- بتأسيس شهرته ونفوذه على "الجهاد" ضد سبتة. لا يبدو أن خلفاءه، هذه المجموعة من المقدمين الإخوان الأربعة، كان لديهم نفس الإصرار.

فى ١٤ يونيو عام ١٦٢٤، وقبل عام من وصول هاريسـون إلى المدينة، ألحقت حامية سبتة هزيمة قاسية بالفرسان التطوانيين قريباً من الموقـع، وفى هذه المناسـبة لم يكن أى من أفراد التنقسيس موجوداً هنـاك لكـى يرد على الهجـمة أو الكارثة. وقد مات شخص يدعى ماريروس Marreros، و هو موريسكى كما يتضح من اسمه، بسبب تلك الموقعة، التى تم الاحتفال بها كانتصار شهير فى حوليات سبتة.

حاول أفراد النقسيس، رداً على ذلك، أن يعوضوا هذه الخسارة، حيث جمعوا عساكر من أنييرا Anyera وجبل حبيب Yebel Habib ووادى راس Wad Ras ، ولكن تم صدهم أيضا وألحقت بهم خسائر فادحة(٧١) .

يعطينا هذا المشهد الأخير حدود تأثير أفراد النقسيس: أنييرا ، و هى أرض بين سبتة وتطوان، و جبل حبيب أو خروب Jarrub بين تطوان وأرسيلة؛ ووادى راس، بين طنجة وتطوان. و هو ما يكوّن فعليًا الشمال المغربى، حيث أن شاون تُعتبر أيضًا ضمن نطاق السلطة الإقليمية(٧٢) .

إن الأخبار السبتية تذكر الاحتياطات التى اتخذها فيليبى الرابع، فى الأمر الذى أعطاه للسيد مانويل دى غوثمان، دوق مدينة سيدونيا، فى ٢٥ أغسطس عام ١٦٢٥ لكى ينجد سبتة بأفراد و مؤن وذخائر، بهدف الدفاع عنها ضد الغزو الذى كان يهددها من الأسطول البحرى الإنجليزى(٧٣) .

كان لمساعى هاريسون رد فعل وقائى فى الجانب الإسبانى، بالرغم من أن رد الفعل الإسبانى كان متأخراً، وفقاً لما أثبتاه. مع ذلك، قطع الإنزال الإنجليزى الفاشل فى قادس فى ١٦٢٥ آمال البعض والبعض الآخر، و أطفأ، بالأخص، الحماس الذى استيقظ بين المورسيكيين، لأنه كانت تجرى بينهم التنبؤات من كل نوع. كانت إحداها هى النبوءة القديمة التى يُقال إنها كتبها أسلافهم فى ألواح من الرصاص، فى جبل سكرومونتى الغرناطى، والتى تنبأت بطردهم من إسبانيا إلى بلاد البربر وأنهم سوف يعودون من جديد فى مراكب مسيحية. كانت المراكب، فى مخيلتهم، هى هذا الأسطول الإنجليزى المجهز للحرب الذى انتظره هاريسون والموريسكيون أنفسهم. تزود الموريسكيون بالمؤن والبارود والأسلحة فى انتظار نداءٍ لم يصل فى النهاية.

نعتقد أن وجود الأسطول الأنجليزى أو وجود هذه البلبلة بين السكان الموريسكيين المجاورين للحدود الإفريقية، كانت أسباباً للإنذار بالخطر الذى أعطاه حاكم سبتة والذى قام الملك الإسبانى، على إثره، بالأمر بتدعيم حامية سبتة، بسبل مختلفة.

كلما كانت توجد اتصالات بين الإسبان والإفريقيين والموريسكيين، كانت هناك تعليقات استهزائية من قبل الإسبان إلى الباقين، بمعنى أنه فى إنجلترا لم يعد هناك من هو مثل دريك(*) وأن الإنجليز كلهم كانوا جبناء، مشيرين بذلك إلى الهزيمة الإنجليزية أمام قادش.

وصلتنا أخبارٌ أخرى، عن طريق سبتة، عبر هذا الخبر غير المنشور فى المدينة. ففى فبراير عام ١٦٢٧ وفى إحدى اللقاءات الحربية، سقط مفضل سجيناً، و هو صهر عبد الله النقسيس، قائد تطوان، حيث قام حاكم سبتة بتحريره ببساطة، الأمر الذى تسبب فى إقالته، بسبب استهتاره وحماقته[٧٤] .

هل كان فعلياً، عبد الله النقسيس قائداً بدلاً من مقدم، كما كان أخوته؟ فى الواقع لقد تغير الأمر منذ هذا المجلس المصغر الذى تكوَّن بعد موت أحمد بن عيسى النقسيس. جعل القائد، فى آخر توصياته لأبنائه، واحداً منهم، يُدعى عيسى، مسئولاً

(*) كان فرانسيس دريك (١٥٤٠ - ١٥٩٦) Drake قرصاناً إنجليزياً ذائع الصيت فى الشجاعة وكانت له بطولات عديدة فى حروب إنجلترا ضد إسبانيا . (المراجع)

عن إدارة العدل بين الشعب. كان عيسى هذا رجلاً شريراً وقاسيًا وفاسداً، حيث لم يجد وسيلة لتطبيق توصيات والده أفضل من استخدام قوته دون تمييز، حيث كان يقتل أى معارضة. بالإضافة الى ذلك، كان يثير حنق الموريسكيين التطوانيين بالاهانات التى كان يلحقهم بها، و كان يغتصب نساءهم وبناتهم كلما حلا له، ووصل الأمر إلى الذروة فى إحدى المناسبات عندما اختطف عروسًا فى نفس يوم زفافها. كان هذا هو الانفجار الذى جمع إرادة العائلات المهانة، و أعداءه العديدين و المعارضة السياسية التى كانت موجودة، وفى يوم من الأيام كان يعبر وهو سكيرٌ منزل أحد اليهود، فاجأته مجموعة من المتآمرين وقتلوه، بالإضافة إلى اثنين آخرين من أخوان النقسيس كانوا معه.

كان ابن علىّ على رأس المعارضين، و هو أحد المنحدرين من طبقة النبلاء الغرناطية القديمة التى أعادت إنشاء المدينة. إن عائلة ابن علىّ التى نجدها فى الوثائق القديمة التى تتحدث عن تطوان الغرناطية، على سبيل المثال، فى إحدى افتداءات الأسرى لعام ١٥٢٣، قد ظلت من بين العائلات المميزة و الثرية فى المدينة، و تصاهرت، بالإضافة إلى ذلك، مع عائلة المندرى.

يذكر مارمول، كاتب عصر النهضة، هذه العائلة كإحدى العائلتين اللتين تنازعتا السلطة فى القرن السادس عشر، مقابل عائلة أبى حسن. مازلنا فى القرن السابع عشر نرى نفس العائلة تلعب دوراً فعالاً فى الأحداث الواقعة فى المجتمع التطوانى.

يوضح لنا هذا البقاء الطويل، مع العائلات الأخرى، كعائلة مفضل، أنه بالرغم من مرور الزمن فقد كان هناك ميل مؤكد للتصاهر، ربما يكون ذلك من ذكريات السلالات القديمة التى استمرت لا شعوريًا فى المنفى. يحتمل أن تكون الأحداث التى أشرنا إليها قبل ذلك بقليل قد حدثت بعد عام ١٦٢٥ وقبل عام ١٦٢٧، وهى تواريخ الزيارتين اللتين قام بهما القائد هاريسون إلى تطوان .

استفاد قتلة عيسى وإخوانه بوجود ثلاثة إخوان من عائلة النقسيس خارج المدينة، لكى ينفذوا عقابهم النموذجى دون قلق. اجتمع واحدٌ من الذين بقوا أحياءً، ربما كان

أكثرهم حكمة، وهو عبد الله النقسيس، مع أصدقائه والقوات التى استطاع الاعتماد عليها، ربما القوات التى كانت لديه فى مواجهة سبتة، ودخل فى تطوان، وأجبر بن علىّ على الهرب، وأعدم المتآمرين الأساسيين.

ربما كانت المعارضة والكره، الذى تسبب فيهما سلوك عيسى، شائعة جدا بين الموريسكيين، لأن عبد الله وجد نفسه ملزمًا بالاجتماع معهم و تخلى عن سلسلة من عمليات الانتقام الأخرى، و رجاهم بكلمات طيبة ألا يهربوا وأن يعودوا إلى منازلهم، حيث يمكنهم الاستمرار فى العيش بسلام، مثلما كانوا يعيشون قبل ذلك.

نعتقد أن الأحداث المروية ربما تكون قد حدثت قبل وصول هاريسون فى سبتمبر عام ١٦٢٧ بقليل، حيث أنه عندما وصل الوكيل الإنجليزى هناك، خاف سيدى عبد الله وإخوانه من أن يعود ابن على فى أى لحظة ويستولى على المدينة، معتمداً على الموريسكيين المستائين. تحرك أفراد النقسيس على رأس حامية قوية وأرسل سيدى عبد الله ممتلكاته إلى سبتة، و عهد بحراستها إلى الإسبان، و هذا ما كان يعتقده احتياطًا وشيكًا لترك البلد لأعدائه(٧٥) .

من الواضح أنه كان هناك حزبان، مختلفان بوضوح، فى تطون الموريسكية للقرن السابع عشر. تكوّن أحدهما من الذين وصلوا حديثًا ، أى الموريسكيين الجدد الذين كانت تقودهم واحدة من أنبل و اقدم عائلات المدينة: عائلة ابن على . وكان أفراد النقسيس يقودون الحزب الآخر الذى كان يجمع التطوانيين الأصليين، وهم الموريسيكيون القدماء الذين بنوا وطوروا المدينة، كعائلة مفضل، المتحدة حينئذ مع عائلة النقسيس.

ستحكم هاتان العائلتان الأخرتان الكثير من الأعوام، طوال القرن السابع عشر، ولكن مع بعض الثورات و الانقطاعات التى سوف نوضحها بأفضل صورة ممكنة كلما فحصنا الوثائق القليلة التى وصلت إلى أيدينا. ظهر بجانب عبد الله اسمٌ آخر من إخوة النقسيس فى خبرٍ ورد من سبتة، فى نفس عام ١٦٢٧ ، يقول إن عبد الكريم وعبد الله النقسيس كانا يحكمان فى تطوان و قراها(٧٦) .

على ما يبدو فإن خوف أفراد النقسيس أنفسهم من عودة ابن علي وحلفائه لم يتأكد، لأننا نجد ذكراً لأفراد النقسيس في الأعوام التالية ١٦٢٨ و ١٦٢٩ . في ديسمبر عام ١٦٢٨ وجه القائد العام لسبتة، خورخي دي ميندوثا باكانيا، حملة إلى معسكرات تطوان، و أخذ المدافعين على غرة . وفي مناسبة أخرى هزم كلاً من عبد الكريم و مقدمي تطوان و أجبرهم على الفرار في معسكرات نغرون، وسلبهم غنيمة كبيرة من أسلحة ودواب وأكثر من ألف بقرة، و سبب لهم دماراً عظيماً (٧٧).

ونظراً لأن أهل تطوان كانوا يتهاونون في مراقبتهم وفي مواقع قواتهم في مواجهة سبتة، فقد تسببت الحامية الإسبانية في إلحاق خسائر لسكان المنطقة و للفرسان التطوانيين. لكن يجب ملاحظة أن منطقة نغرون Negrón ، و هي نهر وأرض تقع على بعد ١٥ كيلو متراً تقريباً من سبتة، كانت في العصر الذهبي للسيطرة البرتغالية عبارة عن حقل زراعي متسع، حيث كان سكان سبتة يزرعون و يحصدون محصولهم ويرعون مواشيهم. لذلك، فإن الوصول إلى منطقة نغرون يعتبر إنتصاراً وتقدماً في المواقع الهجومية ضد سبتة. كانت المعارك تتكرر قريباً جدا من أسوار المدينة نفسها، ففي العام التالي، في ٧ مايو عام ١٦٢٩، سقط واحدٌ من أفراد النقسيس من على فرسه وأصيب بطعنة رمح، ولا نعرف من هو(٧٨) . لكن بالرغم من شعورنا بأننا نجهل أي الأخوة هو الذي جُرح في تلك المواجهات الحربية، فإننا نشكر للمؤرخ روايته، لأنها تشير إلى استمرارية أفراد النقسيس في حكومة تطوان، التي استطاعوا أن يبقوا فيها، أحياناً بصورة وقتية، منذ موت والدهم أحمد بن عيسى.

هناك احتمال كبير أن يكون عبد الكريم هو الذي جُرح، لأنه هو الذي كان يظهر دائماً في المعارك التي تقوم ضد سبتة. أما عبد الله فكان يُذكر كمسئول رئيسي أو حاكم، في الشئون الداخلية والدبلوماسية. كان هو من وجّه في ٣٠ يونيو ١٦٢٩ رسالة إلى الملك كارلوس الأول، ملك إنجلترا، عبّر فيها عن سعادته بالصداقة القائمة بينهما وعن الاستقبال الجيد الذي يُمنح للإنجليز في الميناء التطواني(٧٩) .

فى أكتوبر من نفس العام رد عليه الملك الإنجليزى، ووجه له شكرًا حارًا بسبب الترحيب الذى "يجده رعايانا فى موانئكم"، و تمنى استمرار وزيادة التعامل الطيب الذى بدأ بالفعل. أعطى أوامر للتجار لكى يترددوا على مينائه وعلى مدينة /تطوان/ كلما استطاعوا، من أجل التجارة أو تبادل البضائع(٨٠) .

كان هذا التعامل دليلاً على استمرار عبد الله النقسيس فى حكومة تطوان، على الأقل حتى عام ١٦٣٠ . و قد تم إدراك هذا الاستمرار فى رواية لهاريسون كتبها فى أكتوبر عام ١٦٣٠، و يتعلق أمرها بقطعة صغيرة من المدفعية، سرقها أحد الإنجليز فى تطوان، وطلب مقدم المدينة إعادتها(٨١) .

يقول هاريسون نفسه، فى إحدى مذكراته عن قلعة المعمورة Mamora، فى نفس التاريخ إنه كان هناك عدة "مقدمين أو حكام"(٨٢) فى المرة الأخرى التى كان فيها فى المدينة.

نستنتج من النصوص التى بُحثت أن أفراد النقسيس لم يفقدوا السيطرة على تطوان و منطقتها طوال عدة أعوام متتابعة، منذ موت والدهم فى١٦٢٢ عام وحتى عام ١٦٣٠، الذى يُسجل فيه نشاط عبد الله كحاكم.

تشتمل هذة الأعوام التسعة على فترة أولى كانت تحكم فيها معًا مجموعة من الإخوة و فترة أخرى تركّز الحكم فيها على شخص واحد، بالرغم من تميز واحد آخر من الإخوة فى اللقاءات الحربية. بالإضافة إلى القرصنة والصراعات الحدودية من المهم ملاحظة أن النشاط التجارى كان يفتح الطريق عبر هذا المخرج إلى البحر الذى يمثل المرسى التطوانى الطبيعى.

إن أخبار التجارة الإنجليزية، التى لا تكون دائمًا عبارة عن مقايضة الأسلحة بالمنتجات المغربية، وأسماء التجار من جنسيات مختلفة، و من بينهم إسبان، تقودنا إلى التفكير فى تجارة متزايدة لتطوان كمركزٍ للقوافل القادمة من داخل البلد، التى كانت تمتد حتى سبتة، أحيانًا، فى فترات الهدنة أو الفترات السلمية.

نشك فى تأثير مصدر الثروة هذا فى تنمية المجتمع الموريسكى إذ ليس لدينا، حتى هذا الوقت، نصوصٌ تنعكس فيها هذه الأنشطة التجارية. نحن نفترض، مع ذلك، أن هذه التجارة، قليلة كانت أو كثيرة، لم تخرج عن الأيدى نفسها التى كانت تحتكر سوق العبيد.

فى هذه الأثناء، كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ فى كل أنحاء المغرب. لم يوجد فقط سلطان ضد سلطان آخر، فى فاس والمغرب، ولكن كثُر عدد رؤساء الجمعيات الدينية، التى تحول تأثيرها على مناطق ممتدة من الأرض، بسبب الطاعة العمياء لتابعيها، إلى سلطة دينية، تنافس الجمعيات الأخرى والحكومة السعدية. فى الشمال ظهر محمد العياشى el Laexe , Layasi كبطل للحرب المقدسة ضد عدو الدين فى الأخبار الأوروبية، و حصل، بحافز "الجهاد"، على السيطرة المطلقة على مناطق شاسعة و بطبيعة الحال، سعى أن يقوم الشمال المغربى، المستقل فعليًا عن سلطان فاس، بالاعتراف به كسيد.

لم يكن سيدى عبد الله النقسيس يعتمد على قوات كثيرة ولا على بلاد مثل المرابط العياشى، بالرغم من أنه لم يجب عليه أيضا تشتيتهم كثيراً، و من هنا قاومت تطوان ضغوط الحاكم الدينى، الذى أصبح عدو الموريسكيين المميت بعدما كان المدافع الأول عنهم. كانت أولى خططه هى الهجوم على المواقع القوية التى كانت المملكة الإسبانية تحتفظ بها فى السواحل الشمالية، و من بينها سبتة و طنجة.

لم يكن أفراد النقسيس يحتاجون أن يعطيهم أى أحد دروسًا فى الجهاد، بالاخص ضد سبتة أو طنجة التى كانو يريدون احتلالها منذ فترة طويلة، لكن الامتثال لأوامر شخص بعيد عن اهتمامات الأقلية التطوانية كان شيئًا لايدخل فى الحسابات. نتذكر أنهم فى صراعهم ضد أعدائهم السياسيين قد بحثوا، فى لحظات الشدة، عن ملجأ نافع حيث أمنوا على ممتلكاتهم فى سبتة.

إن حكام سبتة الذين كانوا يتمتعون بقدر من حرية الحركة فى الأعمال السياسية والعسكرية، كانوا لا يتلقون أوامر مباشرة من الملك، وكانوا يوقعون اتفاقيات هدنة واتفاقيات وعهود تكتيكية لاستقبال الهاربين من أى حزب، بالأخص عندما كان هؤلاء

اللاجئين يعنون ورقة رابحة تؤمن لهم مستقبلاً أكثر هدوءًا من مستقبل المعارك الحربية المستمرة الخطيرة دائمًا على حياة الحامية. يضاف إلى كل هذه الميزات احتياج السكان لكسب قوتهم فى الضواحى دون الخوف من هجمات الكمائن والقرصنة.

حينئذ كان سيدى عبد الله، أمام ضغوط المرابط العياشى، مستمرًا فى صلته مع كلا الحاكمين، حاكم سبتة وحاكم طنجة. كانوا يطلعون حاكم طنجة على تحركات العياشى الموجهة إلى الهجوم على هذا الموقع الذى استطاع حاكمه، فرناندو ماسكارينياس، صد كل محاولات المجاهد بنجاح.

كان العياشى، الذى كان يستفيد أيضًا من عداء الموريسكيين فى الرباط فى ذلك العصر، يريد أن يستفيد من كلتا الأمتين المستقلين لمنفعته الذاتية. لذلك حاصر تطوان، دون نتيجة، "لأن تطوان كانت مدعمة جدا بأناس من نار"، وفقًا لرواية مجهولة من ٣١ أكتوبر عام ١٦٣١، وسنتبع حكايتها لكى نصل الأحداث.

يقول الغفرانى فى كتابه " نزهة الهادى" أن العياشى عهد إلى الموريسكيين ببعض المواقع و المهام للهجوم على العرائش. لم يكن الموريسكيون يؤخرون فقط تنفيذ المهمة، لكنهم كانوا يخطرون المسيحيين بموقف قوات المرابطى غير المستقرة. طلب العياشى فتوى من علماء المسلمين تجيز الصراع ضد الموريسكيين. كان الموريسكيون يحملون المؤن إلى المسيحيين وكانوا يعلمونهم نقاط الضعف عند المهاجمين. قتل العياشى الكثير منهم(صفحة ٤٤٤).

عندما رأى المرابط أنه لم يكن يستطيع بالقوة إحتلال مدينة تطوان، أمر أحد رجال الدين الذى كان الجميع يوقره و يطيعه لتقواه، و يُدعى سيدى بوسالاطيب Bu-salatib، بالدخول فى تطوان لكى يتفق مع مسلمى تطوان الوجهاء، ويفتح أبواب المدينة فى يوم محدد، لجيش من ثمانية أو تسعة آلاف رجل، كامن بالقرب من أسوارها. أرسل هذا الجيش مقدم جبل حبيب، الفاروبو Farrobo، وحامد بن على، العدو الكبير لحاكم تطوان، لكى يحل مكانه. تحقق كل شىء وفقًا لما هو متوقع وانسحب عبد الله النقسيس، مع أصدقائه وأخوانه إلى ترغة[٨٣] .

هذا التحرك إلى ترغة سبقته فترة إقامة فى الشاون، التى كانت ترغة مخرجها الطبيعى إلى البحر. يدهشنا كثيرًا الصمت الموجود عن الشاون فى كل المصادر، بالرغم من أنها كانت مأهولة أيضًا بالموريسكيين. ربما كان مصيرها مثل مصير تطوان ومنطقتها فى تغييرات العصر. مع ذلك ربما لم تُلاحظ فى الملجأ الجبلى فى الشاون الاضطرابات الاجتماعية الدينية بنفس الكثافة الموجودة فى تطوان التى، بالإضافة إلى ذلك، استمرت فى النمو كمدينة، بينما توقفت الشاون قليلاً بعد لجوء آخر موجة من الموريسكيين إليها.

مرة أخرى نجد أفراد بوعلى فى الحكومة التطوانية، بالتأكيد مع تأييد الموريسكيين الجدد، أو الحزب الذى كان يتعارض دائمًا مع عائلة النقسيس.

لسنا متأكدين من السلطة التنفيذية التى مارسها ابن علىّ فى تطوان، على الأقل بطريقة مطلقة وشخصية. كانت أحداث تلك الفترة من التاريخ المغربى متشابكة بحيث من السهل فقدها عند محاولة اتباعها بترتيب زمنى.

فى الواقع نجد شخصًا غير معروف يُدعى بن يوسف، كتبَ من تطوان رسالة فى ٣٠ مارس عام ١٦٣٢ إلى كارلوس الأول ملك إنجلترا، يقول فيها من بين أشياءٍ أخرى:

...لقد استطعت أن أعرف أن عظمتكم كنت متفقًا مع عبد الله النقسيس الذى كان حاكمًا لهذه المدينة ... أنا أقدم نفسى وأقول كلمةً بهذا الصدد باسم المرابط محمد العياشى، سيدى، بأن نعطيكم إذن المرور بصورة أفضل بكثير مما كان يقدمه لكم عبد الله النقسيس وبأمان أكثر بكثير، فى أشخاصكم وممتلكاتكم، التى تأتى إلى هذا الميناء[٨٤] .

وقَّع بن يوسف كخادم للعياشى بطريقة تجعل من الممكن جدا أن يكون ابن علىّ حاكمًا ويوسف هذا، ممثلاً للمرابط وأن يكون فى صورة مراقب عيّنه سيد البلد لكى يحكم الموقف. تقودنا هذه النتيجة إلى دراسة وثائق ظهر فيها أحد الأشخاص بعض المرات وشخص آخر فى مرات أخرى، فى قرارات كانت دائمًا خاصة بحاكم واحد.

حرر الحاج بو على، حاكم مدينة تطوان، مكتوبًا فى شهر أغسطس عام ١٦٣٣، يصدر فيه تأمينًا لكى يستطيع بعض المفتدين القادمين من سبتة الدخول[٨٥] .

فى شهر مايو السابق لهذا التاريخ نستطيع أن نسجل ظهور عبد الله النقسيس فى موقع سبتة الحصين، بناءً على ما قرره الملك فيليبى الثالث، فى ١١ مايو عام ١٦٣٣ حيث خاطب حاكم سبتة وأفاده بعلمه بالخبر الذى أرسله عن لجوء كل من عبد الله النقسيس و أوكلاتيه دى أنخيرا **Oclate de Angera** ومفضل فى حدود إفريقيا الإسبانية[٨٦] .

وأمام ضغط نفس القوات التى احتلت تطوان، والتى وجهها مقدم خرُّوب أو فاروبو بأوامر العياشى لكى يقبضوا على سيدى عبد الله حيًا أو ميتًا، ترك سيدى عبد الله ترغة و لجأ إلى سبتة، فى ساعات قليلة، عن طريق البحر. الاحتمال الأكثر هو أنه اصطحب معه كل أقاربه وأصدقائه، و تفرقوا فيما بعد، من سبتة إلى طنجة والعرائش، وهى المواقع الأخرى ذات الحامية الإسبانية - البرتغالية.

ضمن هذه المغامرات، رأينا عجوزًا آخر معروفًا لدينا و هو، مفضل، سليل طبقة النبلاء الغرناطية القديمة، وصهر عائلة النقسيس. سوف يكون هذا واحدًا من آخر الأخبار، المثبتة وثائقيًا، عن هذه العائلة القديمة من المنفيين والتى تتبعنا آثارها منذ عام ١٥٢٣ .

ظلت مدينة تطوان فى سلطة العياشى حتى عام ١٦٣٥، على الأقل.

تذكر إحدى وثائق عام ١٦٣٥ شخصًا يدعى إبراهيم بن على **Abrahim Ben Ali**، حاكم تطوان أو نائب للمرابط وشخصًا يدعى سليمان قاديمو **Soliman Cadimo** قائد عام ...

لا نعرف إذا كانت الشخصية الأولى المذكورة، إبراهيم، هو نفسه حامد على الذى رأيناه فى وثيقة سابقة أو أنه قريب له. ليس هناك مجال للشك أن الكاديمو هو مقدم خرُّوب أو جبل حبيب الذى طرد بجيوشه عبد الله النقسيس فى عام ١٦٣١ . مرت

أربعة أعوام، إذن، على سيطرة العياشي وأفراد بوعلي في الشمال المغربي. هل كان سليمان قاديمو هذا هو سليمان يوسف الذي كتب إلى ملك إنجلترا كارلوس الأول وعرض عليه خدمات المدينة باسم المرابط؟ ، بالتأكيد هو كذلك.

نتأمل بالصدفة، في هذا المخطوط لعام ١٦٣٥، إحدى الثورات الكثيرة التي هزت الحياة التطوانية، في وقتٍ حافلٍ بها . كان الآباء المفتدون شاهدين على ثورة الأندلثيين(*) الذين طعنوا الحاكم ونائبه. نعتقد أنهم كانوا ابن علي وسليمان قاديمو، وكما يقول النص، حمل كل أهالي المدينة السلاح.

توضح كلمة "أندلثيين" أن الموريسكيين الجدد كانوا أبطال هذا الانقلاب و نتأكد من ذلك من كتابات تالية. كان هؤلاء الموريسكيون، بشكل تناقضي ظاهري، هم أيضًا أعداء عبد الله النقسيس، الأمر الذي يفسر أن العياشي قد فقد حكم المدينة، ولكن لم تتمكن عائلة النقسيس من استعادة السلطة. يُقال في المخطوط، الذي تجمعت فيه بطريقة عرضية هذه الأحداث التطوانية في ديسمبر عام ١٦٣٥ ، إن المحرِّض الأول على الانقلاب كان أحمد المورال، الذي كان يطلب، بعد الانقلاب، أن يُفتدى له أسراه، الأمر الذي وضع الآباء المفتدين في مأزق، حيث أنهم أنهوا واستنفذوا بالفعل رأس مال الافتداء(٨٧) .

نعرف في أي الأيادي سقطت حكومة تطوان، بعد موت ابن علي ومقدم خُرُّوب، بفضل مذكرات إنجليزي آخر، جيليس بن Giles Pen، الذي كتب ما يلي في ٣٠ نوفمبر عام ١٦٣٧:

إن الوضع الحالي في تطوان، في مضيق جبل طارق، حيثما كنت أعيش لفترة طويلة من الزمن حيث كان يقام هناك تعامل كبير مع رعاية سيادتكم، والتي وجدتها هناك، كان منذ عامين تحت سيطرة حكومة الولي العياشي من سلا القديمة، حتى ثارت

(*) هناك فرق بين "الأندلسيين" وهم أبناء إسبانيا الإسلامية و"الأندلثيين" وهم أبناء الجنوب الإسباني . (المراجع)

هذه المدينة ضد حاكمها وقتلته. منذ ذلك الوقت ويحكمها مجلس المدينة أو نقابة الرجال، مع رجال المدينة الوجهاء، والذى سموه ديوان، وهكذا استمرت دون الخضوع إلى ملك أو ولى، و كانوا فى إطارها قادرين على الدفاع عن أنفسهم كدولة.

يفسر ما سبق الخبر، المتناقض فيما يبدو، الذى قدمه جيليس بن ذاته، فى العام السابق، بالتحديد فى ديسمبر عام ١٦٣٥ الذى كان يعلن فيه ما يلى،

لقد علمت أن الولى المرابط قد انضم الآن إلى حاكم تطوان القديم، المسمى عبد الله النقسيس، لكى يعارض، بقواته، الأندلسيين أو الموريسكيين فى تطوان وقلعة سلا، يريدون الانتقام منهم ولديهم جيش عظيم للقيام بذلك[٨٨] .

أما عن مصير عبد الله النقسيس فى تلك الأثناء فهذا ما نعرفة من خلال خبر من سبتة من عام ١٦٣٦ إلى عام ١٦٣٧:

جاء المرابط العياشى إلى تطوان و عاد القائد عبد الله النقسيس إلى سبتة لعدم وجود قوات من أجل المقاومة و عاد شيخ أنبيرا ومفضل إلى طنجة[٨٩] .

نستنتج من هذا الدليل، غير القابل للشك، ضياع الحكومة التطوانية من يد النقسيس، الذى كانت حياته المضطربة تساوى حياة المغرب فى عصره.

إن الديوان أو المجلس المكون من عشرين حاكمًا ، والذى أنشأه الموريسكيون أنفسهم فى عام ١٦٣٥، قد حكم الشئون المدنية حتى أوائل عام ١٦٣٩، على الأقل، هذا العام الذى وقّع فيه شخص آخر يدعى إبراهيم بن على تأمينًا فى تطوان فى الأول من فبراير من نفس العام، ووقعه كخادم للسيد محمد العياشى. كان محمد بنيخيا أو بن يحيى Mahamed Benegia هو القائد فى نفس هذه الوثيقة[٩٠] .

وفقًا لهذه الوثيقة، فقد استرد العياشى المدينة من جديد وقام الهارب عبر السطوح، ابن على، بوضع نهاية لحكومة الديوان المشتركة، عندما عاد إلى المدينة. لم يكن التحالف بين النقسيس والمرابط قويًا.

لم يظهر أيضًا أى فرد من أفراد النقسيس فى وثائق عام ١٦٤٠، وعلى العكس استمر إبراهيم بن على حاكمًا، نظن أنه باسم المرابط[٩١] .

هناك أحداث مهمة فى هذه الأثناء فى تاريخ إسبانيا والمغرب و يهمنا بحثها باختصار.

فى عام ١٦٤٠ حدثت ثورة قطالونيا والبرتغال مع رد الفعل الناتج فى المواقع الحصينة للسلطة البرتغالية القديمة.

اختارت سبتة البقاء تحت طاعة فيليبى الرابع الذى عين حاكمًا جديداً لكى يؤمّن امتلاك الموقع. و فى المغرب كانت زاوية ديلا تتنافس مع كل المرابطين والحكام الذين يقسمون البلد إلى أجزاء.

لجأ الموريسكيون الذين يطاردهم العياشى فى زاوية ديلا التى توسل رئيسها إلى سيدى محمد العياشى لكى يتركهم سالمين. وأمام تشدد العياشى تصادم كلا الحزبين وهُزم المرابط ومات و نقلت رأسه إلى الرباط، حيث حملها الموريسكيون بسعادة بالغة.

فى تلك الزوبعة من الصراعات والانقلابات والتأثيرات الانعكاسية لها، اختفى عبد الله النقسيس، إما فى إحدى المعارك العنيفة التى كانت تحدث باستمرار، أو لأسبابٍ طبيعية. فقدنا أيضًا أثر أخيه عبد الكريم فى أعوام سابقة. مر الجيل الثانى والثالث من عائلة النقسيس، كما شاهدنا، كما مر تاريخ تطوان والمغرب وإسبانيا من مرحلة إلى أخرى.

فى عام ١٦٤٠ هذا كانت هناك سحب كثيفة فى الصراع الذى بدأ فى وسط شبه الجزيرة؛ فى المغرب بدأت عائلة ديلا فى الظهور كسلالة جديدة، و فى تطوان ، ظهر نقسيس آخر على رأس الأمة الموريسكية.

قطعنا فى صحبة هذه العائلة، منذ عام ١٥٨٨، نصف قرن من الحياة التطوانية ومن تاريخ المغرب وتاريخنا ذاته. والآن وُلد الكثيرون من الموريسكيين فى أرض غريبة، فى ذلك الشمال المغربى.

الأزمة الاجتماعية - السياسية المغربية

الموريسكيون وعائلة النقسيس.

بعد تعيين السيد خوان فرنانديث دى قرطبة، ماركيز ميراندا، حاكمًا لسبتة فى ١٩ فبراير عام ١٦٤١ تولى منصبه فى ١١ من مارس التالى، و كان من أول أعماله توقيع اتفاق مع حاكم تطوان، محمد بن عيسى النقسيس[٩٢] .

وهكذا نبدأ العقد الجديد من القرن السابع عشر، مع نقسيس آخر على رأس المصائر فى تطوان. إنه الجيل الثالث من قادة هذه العائلة فى المنطقة الشمالية وعلى رأسها مدينة تطوان. وفقًا لما يذكره داوود فقد حكم محمد بن عيسى النقسيس من عام ١٦٤٠ إلى عام ١٦٥٣ [٩٣] .

كان ابنًا لعيسى بن أحمد وحفيداً لأبى العباس أحمد بن عيسى النقسيس، المقدم الأكبر، و قد أكد داوود نفسه أن محمداً هذا كان هو الحاكم الأول بالمفهوم الواسع والمستقل للفظ، حيث كان أسلافه مجرد مقدمين عاديين[٩٤] .

كان لديه دعم مرابط ديلا الذى هزم وقتل المرابط الآخر، العياشى، العدو اللدود للموريسكيين. مع ذلك لا نعرف إذا كان لدى أفراد عائلة ديلا أى شخصية منتدبة فى الموقع تحدد السلطة التى يقوم بها محمد النقسيس، الذى كان من أول اهتماماته إقامة اتفاق، كما رأينا مسبقًا، مع حامية سبتة، يتعلق بأسعار الافتداءات، وبتأمين الشخصيات وبحرية القوافل التجارية بين المدينتين[٩٥] .

ربما دفع الأسرى المشاة ٨٠٩ متسكاليس mitscales أو ١٥٠ باتاكا pataca، والفرسان ١٠٠ متسكاليس أو ٢٠٠ باتاكا. كانت الباتاكا عملة إسبانية تساوى ٨ ريالات دخلت حديثًا فى سبتة[٩٦] ، لذلك فإن سعر الجنود والفرسان كان يتراوح من ١,٢٠٠ إلى ١,٦٠٠ ريال.

وهى مبالغ أكثر اعتدالاً إلى حدٍ ما من التى كانت تُدفع فى الافتداءات العادية.

لم تذكر الأخبار السبتية حركات هجومية للنقسيس هذا على سبتة، إما لأن العهد الموقع أقر نوعًا من أسلوب حياة بين ذلك الموقع الحصين وتطوان، وإما لأن محمد بن عيسى النقسيس هذا لم تكن لديه ميول حربية بارزة، أو لأن احتلالاته فى أماكن أخرى من البلد قد شغلته. الأكيد أنه ذُكرت فقط حركة مهمة سنراها على الفور نظرًا لنتائجها الشهيرة.

وعلى العكس سُجلت هجمات سبتية وصلت حتى معسكرات تطوانية، حيث تم الاستيلاء على غنائم عديدة، على سبيل المثال، فى مايو عام ١٦٤٣ وفى أغسطس عام ١٦٤٥, مات أحد القادة الموريسكيين، رادان، وهو يحارب فى إحدى هذه المعارك، حيث ذُكر الحاكم أو قائد تطوان، ولكن دون ذكر أى اسم[٩٧] .

فى ١٦٤٧ تحدث الخبر عن ابن عيسى، قائد تطوان، على أنه رجلٌ ماكرٌ، يستخدم حيلاً كثيرة لخداع المسيحيين[٩٨] .

كانت إحدى هذه الحيل تقوم على وضع أحد المواشى كطُعم لكى يجذب طمع المحاربين السبتيين، التواقين دائما لتموين الموقع بالغنائم المأخوذة من العدو، والانقضاض عليها عندما يكون أعداؤهم أكثر انشغالاً وغير منتبهين. كان هذا يشكل جزءًا من الأكمنة المستمرة أو الأكمنة المضادة التى كان ينصبها البعض والبعض الآخر. لم يكن الموريسكيون يتركون الحامية السبتية فى سلام، و لم تكن هذه الحامية تسمح بأن يرعى التطوانيون حقولهم و مواشيهم فى سلام.

باع محمد النقسيس، فى افتداءٍ للأسرى نفذه الراهب خوسيه دى توليدو والراهب ماتياس دى تريبينيو، فى شهر أبريل عام ١٦٤٥، خمسين عبداً، بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ ريال. و هو ما يعادل ربع مبلغ ٤٠٧,٣٧٢ ريال الذى دُفع لشراء ٢١٠ مسيحى تم افتداؤهم فى هذه المناسبة. كانت تمارَس الحقوق التقليدية للحكام لبيع غنائمهم مع الامتيازات، حيث كانوا يسلمون، بالإضافة إلى ذلك، من هم أكبر سناً وأكثر عيباً، كما كان يقول الرهبان. فى هذه الرحلة وُزعت أملاك الرهبان على ٦٧ مالك رقبة، من بينهم الموريسكى على راميريث، سكرتير الحاكم واثنين من اليهود(٩٩) .

يمكن اعتبار المائة ألف ريال التى حصَّلها محمد النقسيس الآن كالدخل القومى للدولة الإسبانية سنوياً تقريباً. نعرف أنه يوجد افتداء آخر فى عام ١٦٤٦ (١٠٠) .

كان من النادر أيضاً وجود ظروف غير عادية، كالتى سنراها فى الحال. ففى شهر يونيو عام ١٦٤٨ اشترى رهبان جمعية مريم العذراء أسرى آخرين فى تطون، وشهد على ذلك الكاتب خوان ألونسو دى مولينا، حيث افتدوا ٣٥ مسيحياً من الحاكم، ويمثلون نسبة ٤٢٪ من إجمالى المحررين هذه المرة و اعتُبر هذا دخلاً مالياً كبيراً آخر للنقسيس. تقاسمت مجموعة كبيرة من الموريسكيين، عددهم ٥٤ شخصاً – ليس عدداً كبيراً كما فى الافتداء السابق – الأمتعة التى أحضرها رجال الدين(١٠١) .

كانت القرصنة تمثل للحكام مصدراً للثروات، التى ربما تضاف إليها ثروات الغنائم التى كانت تتحقق، من حين إلى آخر، فى المعارك مع حاميات الحدود، و كانت تخصص للحاكم الغنائم الأكثر جودة فيها، مثلما حدث فى الحالة التى سنرويها حالاً.

فى ٩ سبتمبر عام ١٦٤٨ سقط ابن قائد سبتة العام، السيد فرانثيسكو سواريث دى ألاركون Francisco Suárez de Alarcon سجيناً فى إحدى المعارك الدامية. حينئذ كتب محمد النقسيس إلى الأب و أعلمه بحالة ابنه.، بعث الحاكم السبتى بعض الخدم إلى تطوان، و أحد المترجمين، لكى يخفف أسر الإبن، الذى حصل على الحرية فقط بعد ستة أشهر بمبلغ كبير من المال. رجع الابن المحرر إلى سبتة، ممتطياً جواداً أشهباً جميلاً، مزوداً بمعطف و سروال من نسيج قرمزى بعروة من الذهب، مع أكمام قميص طويلة على الطريقة الموريسكية، كان كل هذا هبةً من سيده.

وبعد سطور قليلة من رواية هذا المشهد، علم المؤرخ أن عيسى النقسيس قد قُتل بعد دخوله إلى سبتة بواسطة أحد الهاربين. ولأنه لم يضع تاريخًا لذلك فلم نعرف إذا كان هناك تناقض أو لا مع تاريخ الوفاة الذى حدده داوود والذى سجلناه بالفعل[١٠٢] .

فى حوالى عام ١٦٥٢ قدم محمد النقسيس مؤنًا للبحار الإنجليزى، الكابتن وليم بن William Penn حيث استمر بذلك فى السياسة المحبة للإنجليز التى بدأها أوائل النقسيس. حينئذ كان الأسطول الإنجليزى يراقب المضيق، ضد هولندا. نلاحظ اهتمامًا أساسيًا لهذا النقسيس بتنمية كل انواع العلاقات التجارية، والاستفادة من كون تطوان، فعليًا، المخرج الوحيد إلى البحر المتوسط، لمملكة فاس[١٠٣] .

لدينا رواية عن استيراد وتصدير، وهى وإن لم تكن مستفيضة، إلا أنها ذات دلالة لعمليات التبادل التجارى التى، كانت تصل إلى سبتة عبر تطوان، أو كانت تخرج من تطوان مباشرة عن الطريق البحرى. هذا التبادل التجارى لم يكن على نطاق واسع، ولكن أيضًا لا يمكن التحدث عن انعدام التجارة بين المغرب والعالم الخارجى.

توجد هنا المواد التى كان يتم تبادلها فى عمليات الشراء والبيع بواسطة التجار العديدين، والذين وردت أسماؤهم كثيرًا فى المصادر الوثائقية، ومن بينها المؤرخ السبتى، الذى سيذكر أن المواد التى كانت تستورد من المغرب هى التالية: شمع معجون ومنقوش وجلود خام ومدبوغة وسجاد وأبسطة وصقور وريش نعام وتبغ وعنبر وبلح وبياضات، كل هذا بالجملة، أما بالتجزئة فيذكر: برانس وكتان وأقمشة ودجاج وسمن وعسل ولوز ولبن وجبن و خزف. و عقّب المؤرخ أنهم كانوا يرفضون دائمًا بيع الحبوب والأحصنة والبقر والخرفان.

كانت المواد التى تصدَّر إلى المغرب هى التالية: الأحجار الكريمة، وخاصة الزمرد والمرجان والخرز والنسيج القرمزى والأعشاب للصباغة وبعض العقاقير و أقمشة من سيغوبيا وقلنسوات سوداء وملونة من مصنع طليطة.

كان المسلمون يقومون بهذه التجارة عن طريق قوافل إلى سبتة. كان التجار المقيمون فى سبتة معتادين على استخدام طريق البحر تجاه كاستييخوس Castillejos ورينكون المضيق أو تطوان نفسها، فى مصب نهر مارتين[١٠٤] .

نستنتج من القائمة المقدمة- حيث نلاحظ مواد قادمة من الجنوب المغربى، ومواد من دول أخرى أكثر بعداً، كريش النعام - أن تطوان كانت فقط مرحلة مرور للتجارة القادمة من داخل البلد ولم يكن لديها مخرج سهل بعدما احتلت البرتغال وإسبانيا كل الموانىء الصالحة لملكة فاس.

كانت الحبوب والأغنام ضرورية جدا لنفس البلد و لذلك كان طبيعيًا ألا يسمح المسئولون عن التجارة بخروجها. ومع ذلك ففى مناسبات عديدة استخدمت لكى تخفف من القحط فى شبه الجزيرة.

فيما يتعلق بأسماء التجار، فقد لاحظنا أنه لم تندر الأسماء الإسبانية التى نراها موجودةً فى كل الموانئ المهمة، ونجد من بينهم، الذين اتجهوا إلى القرصنة. كانت القرصنة بالتحديد واحدة من مصادر الثروة الرئيسية لسكان هذه الموانئ. احتكر موريسكيو تطوان مبيعات العبيد وتزايد ملاَّكهم فى حكومة محمد النقسيس هذه.

فى نهاية يوليو عام ١٦٤٠-عندما لم يكن قد ظهر بعد محمد بن عيسى كحاكم، بل كان الحاكم شخصًا يدعى إبراهيم ياناس Ibrahim Llanas، (لا نعرف ما إذا كان قد ظهر كممثل لديلا)- ذُكر فى أحد الافتداءات ثمانية عشر اسمًا موريسكيًا، كلهم تقريبا من بائعى العبيد[١٠٥] .

نرى هذه الاسماء تتكرر سواء فى وثائق سابقة أو لاحقة من نفس النوع. اتجه على أراغون Alí Aragon ، وإبراهيم سانتيانا Brahim Cantillana، مرة أخرى للتجارة منذ عام ١٦٣٥ على الاقل[١٠٦] .

استمر آخرون مثل عمار كارديناس Amar Cardenas وعلى مالدونادو Ali Maldo-nado وعلى بوبرى Alí pobre وعلى راميرث Alí Ramírez وحامد كابريرا Hamed Cabrera والحاج ليون Hayy León وعلى موراليس Alí Morales فى التجارة فى عام

١٦٤٠[١٠٧] . سُجلت آخر ثلاث شخصيات فى المبيعات منذ عام ١٦٣٥ وحتى ١٦٤٥ . يبدو أن هذه المعلومات شكلت ظهور برجوازية قادمة من الموريسكيين فى الفترة الأخيرة من هجرتهم، وكان بعض عناصرها لا يزال يعتمد على عائلات فى تطوان، على سبيل المثال، أراغون أو بوبرى أو مواليس. لا نذكر أكثر من الأسماء الموجودة فى الوثائق الثلاثة التى ذُكرت مؤخراً[١٠٨] .

يبدو أنه تحت حكومة محمد النقسيس قد زاد عدد الموريسكيين المشتغلين بالتجارة القادمة من أنشطة القرصنة.إذا كان عددهم عشرة فى عام ١٦٣٣ ، فقد أصبحوا اثنى عشر فى عام ١٦٣٥، وفى عام ١٦٤٠ أصبحوا ستة عشر، ووصل عددهم فى عام ١٦٤٥ إلى ما لا يقل عن خمسة وعشرين مالكًا امتلكوا، بشكل كامل تقريبًا، كل مجموع العبيد المباعين. فى افتداء عام ١٦٤٥ دُفع لمحمد النقسيس، حاكم تطوان، مبالغ كبيرة مقابل أسراه وعددهم ٤٥ تقريبًا. فى نفس الوثيقة نجد ابن أخيه، عبد الكريم النقسيس، وقد حصل على مبالغ أكثر تواضعًا. يبدو أن الموريسكيين الجدد قد حلوا محل طبقة النبلاء الغرناطية التطوانية القديمة فى الانتفاع من مصادر الثروة. ليس هناك مجال للشك فى أن محمد بن عيسى كان يحكم معهم. ظهر عنصر آخر فى الأفق السياسى المغربى، وأثّر بالأخص فى شمال البلد، و هو خضر غايلان، حيث كان ينافس أفراد عائلة ديلا فى النفوذ والسلطة. كان غايلان، الملقب بغورفيتى الأندلسى Gurfeti، من قبيله بنى غورفيت القريبة من العرائش، وهى من أصل موريسكى أيضًا.

لقد حارب، وهو شاب، إلى جانب العياشى المرابط، و جمع إرث الأخير وحرّض قبيلته أولاً واستولى على مدينة القصر الكبير، وجعل تلك المدينة مركزًا لنشاطه السياسى والحزبى. عين سكرتيرًا له واحدًا من أبناء الشخص الذى كان حاكم جمهورية رباط الاندلثية، عبد القادر ثيرون Abd el Qadir Cerón' ، والذى حصل بنصائحه على نجاحات سياسية متميزة. استطاع السيطرة على الرباط و سلا وانتصر على رئيس زاوية ديلا ذاته.

جاء إلى تطوان، وحاصرها وضيّق عليها بحيث استسلم له أفراد النقسيس بخضوع، وأقاموا علاقات تصاهر معه[١٠٩] .

من المؤكد أن المؤرخ الذى أعطانا هذا الخبر كان يعلم جيداً أن تطوان لم يكن يحكمها أحد أفراد النقسيس بعينه ولكن العائلة مجتمعة، مثلما حدث عند موت أكثرهم شهرة، أحمد بن عيسى. لا نعلم إذا كانت الأمور قد سارت هكذا. لاحظ المؤرخ نفسه الذى ننقل عنه أنه بعد موت محمد النقسيس، كان هناك جدل كبير بين المسلمين حول من يمكن أن يكون الأفضل لحكومتهم[١١٠] .

يمكننا، من خلال وثيقتين سنراهم فى الحال لعامى ١٦٥٤ و ١٦٥٦ وأيضا من وثيقة أخرى لاحقة من عام ١٦٦٠، استخلاص أن ابن أخ محمد، المدعو عبد الكريم بن عيسى النقسيس قد خلَّف عمه فى حكم تطوان.

وفقا لما يذكره داوود، كان عبد الكريم هذا يحكم منذ ١٦٥٣ حتى ١٦٥٩ ، الأمر الذى يمكن أن يكون مطابقا بشكل كبير للحقيقة، لأنه فى عام ١٦٦٤ ظهر حاكمان، هما أحمد بن النقسيس وأحمد بن عبد الكريم النقسيس[١١١] . لا نعرف إذا كانوا إخوة أم أبناء عم. أما فى عام ١٦٦٠ فكان يوجد حاكم واحد فقط.

فى مرحلة حكم عبد الكريم النقسيس وصلت إلينا حسابات عمليتى افتداء نفذهما رهبان جمعية الثالوث المقدس فى تطوان.

كانت أحداهما من عام ١٦٥٤ و الثانية من عام ١٦٥٦ . فى عملية الافتداء الأولى اشتروا منه ٣٥ أسيراً. ليس عدداً كبيراً إذا فكرنا أن هذا العام كان هو العام الأول لحكمه وأنه كان يريد الاستفادة من الظروف. يمكن أن تقدم لنا عدة كشوفات تفسيراً لذلك حيث تم امتلاك ٢٢عبداً من أرملة الحاكم المتوفى. ليس هناك مجال للشك فى أن عبد الكريم قد ترك ثغرة لكى يبيع عبيد عمه ولكى يؤمن للأرملة ثروة طائلة[١١٢] .

يبدو أن هذه التفاصيل تؤكد موت محمد النقسيس فى عام ١٦٥٣، حيث بدأ حينئذ ابن اخيه فى حكم الشئون المدنية.

فى الافتداء الثانى لم يكن هناك كثير من الأسرى الذين عرضهم للبيع، كانوا ٣٧، ربما لأنه ترك مكاناً لكى يبيع ٤٦ من ملاّك رقبة آخرين عدد ١٢٨ أسيراً. هذا يعنى أن

كلهم تقريبًا باعوا واحدًا أو اثنين، ما عدا القائد مؤمن الذى باع ٦ ، وأراكسال الذى باع ١١، و باع الموريسكى كابريرا ٨، و باع ميدينا ٤أسرى. يوجد نقسيس آخر يدعى الحاج على بن عيسى النقسيس اشتروا منه عبدًا واحدًا. لذلك كانت الأمور متكررة إلى حدٍ ما(١١٣) .

هناك مكتوب لعبد الكريم بن حامد النقسيس، "حاكم تطوان وملحقاتها بفضل الله وممثل الملك سيدى عبد الله الغزوانى"..."أُصدر هذا التأمين و جواز المرور..." تنتهى هذه الوثيقة بعبارة" أقر أنا خوسيب ميخياس(*) أن التوقيع باللغة العربية هو للسيد حاكم تطوان و سيدى عبد الكريم بن حامد النقسيس فى سبتة فى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٦٥٦ وهو موقع أيضًا من كاتب افتداء هذا العام، فرانثيسكو غوميث ديل اييرو(١١٤) .

يجب أن نوضح أن الغزوانى كان مراقِبًا فرضَهُ خضر غايلان، حينما كان مسيطرًا على المنطقة.

فعل غايلان كل ماهو ممكن لبسط وتأكيد نفوذه فى الشمال المغربى، و بمصاهرته مع عائلة النقسيس - كما عرفنا من المؤرخ السبتى- ضمن دعم هذه العائلة القديرة، التى كانت فى الحقيقة، هى التى تتخذ القرارات الأكثر أهمية فى المدينة وليس ممثل غايلان، الغزوانى الذى يذكره المؤرخ داوود.

كان عبد الكريم النقسيس مستمرًا فى تطوان فى سياسة أسلافه المحبة للإنجليز، واستفاد من الوجود الكبير للأسطول الإنجليزى فى مياه المضيق ومن احتياج البحارة الإنجليز للتموين.

عرض أحد التقارير التى قدمها واحد منهم، و يدعى بادلى **Badley**، فى عام ١٦٥٦، الاحتياج لتعيين ممثل دائم بجوار حاكم تطوان، ليس فقط لكى ينمى علاقات

(*) ورد فى كتاب "بين الإسلام والغرب" تأليف غارثيا أرينال وجيرارد ويغرس (المشروع القومى للترجمة) مايفيد أن اليهود كانوا يقلدون توقيع الحكام المسلمين . (المراجع)

الصداقة بين الرجال فى الأسطول و تابعى هذا الحاكم فحسب، ولكن أيضًا بسبب احتياج المراكب للمياه. وبالأخص، " بينما كنا نحن فى حرب مع إسبانيا".

كان هناك تجنبٌ لوقوع البحارة، المقبوض عليهم مرات كثيرة، فى الأسر، عندما كانوا يتزودن بالماء. بالإضافة إلى ذلك، فكان يمكن لموظف دائم أن يمد الأسطول بعدد ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رأس ماشية، و كان نصف هذا العدد أكثر رخصًا عنه فى إنجلترا، بالاضافة إلى مؤن طازجة أخرى. اقترح المُبلّغ شخصية ناتانييل لوكى Nataniel Luke كالشخصية الأكثر ملائمة لكى يكون مستشارًا دائمًا لإنجلترا فى تطوان، بسبب إقامته الطويلة فى هذا المكان و معرفته بالبلد، بالاضافة إلى لياقته ومهارته و نشاطه الواضح[١١٥] .

فى نفس هذا العام ١٦٥٦، عدد أحد قادة الأسطول، مونتاغو، نفس الأهداف لكى يطلب من اللورد المنتدب من إيرلندا، تعيين مستشار فى تطوان، الموقع الأساسى فى المضيق، لكى تأخذ مراكبنا المياه و تحصل على اللحوم و الأطعمة الأخرى. أضاف أنهم فى الصيف الماضى كان عليهم الانتظار، لكى يحصلوا على المياه، حتى يعطى الحاكم إذنًا بذلك. كان هذا الحاكم يريد إقامة اتفاق تجارة حرة معنا.

رأى مونتاغو أن لوكى Luke، " شخصية مناسبة جدا لهذا العمل" [١١٦] . مع ذلك، فإن جمعية الجنوب، التى شُكلت لهذا الغرض، نصحت بعمل العكس، فى رد وجهته إلى القيادة البحرية العليا الإنجليزية فى ٢٠ فبراير من ١٦٥٧ .

يقولون إنه لم يكن لتطوان ميناء ولكن مرسى مفتوحًا لكل الرياح المعاكسة، ولذلك فهى ليس لديها قدرة على القيام بتجارة كبيرة، بل تلك التجارة التى يقوم بها سكانها على ظهر المراكب، حيث يحملون إليهم كل المواد التى يريدونها، ولذلك فنحن "لدينا ميزة عدم دفع جمارك" . كانوا يعتبرون أنه من الافضل الاستمرار هكذا على أن يحملوا البضائع الى الأرض، "حيث لن يكون لدينا أى سلطة قضائية" و بالتالى لن يكون هناك احتياج الى موظف عام[١١٧] . رغم هذا التقرير السلبى إلا أن مجلس الدولة واللورد

الحامى على رأسهم قد راق لهم تعيين لوكي ليذهب إلى تطوان للتعامل مع الحاكم، "فيما يخص البضائع التى يمكن أن تكون ضرورية لاقامة تجارة حرة بين الكومنويلث وتلك المدينة"(١١٨) .

فى ٣ مارس عام ١٦٥٦ أعطى مجلس الدولة الإنجليزى التعليمات المناسبة للوكى لكى يقيم فى تطوان، كمتعهد لتموين الأسطول، وفى العام التالى بُعثت له رسالة التعيين من قنصل سلا وأرسيلة وتطوان وصافى Safi و سانتا كروث حيث سمحوا له بتعيين ممثل. خُصصت له نسبة ٢٪ عن كل البضائع التى يستطيعون بيعها على ظهر السفن أو فى البر، فى الموانئ المذكورة، مع كل المزايا المرتبطة بالمنصب(١١٩) .

وقَّع عبد الكريم النقسيس، كحاكم تطوان، فى ٩ أغسطس عام ١٦٥٧، معاهدة سلام مع القائد الاعلى ستواكيس Stoakes باسم أوليبيرOliver، اللورد الحامى ...

يظهر فى البنود الثمانية لهذه المعاهدة، فى الواقع، حكم ذاتى للمدينة التى كانت تحت السيادة الإسمية لمحمد (بن بكر)، ملك أسويا Asowia وكان عبد الكريم النقسيس يباشر عمله فيها، بالرغم من ظهور القصر الكبير وأرسيلة و ملكيات أخرى فى البند الأول. تشير البنود، من الأول إلى السابع، بشكل أساسى، الى أوضاع متعلقة بالبحر، موجودة فى تطوان وسواحلها، وبسبب ذلك فإن المعاهدة كانت تتركز بكل وضوح فى العلاقات بين هذه المدينة والإنجليز.

كان الحكام التطوانيون يبحثون باجتهاد عن مصادر أخرى تبادلية تجلب المال غير القرصنة و مشتقاتها. كانت التجارة، بطبيعة الحال، أحد هذه المصادر. اشتغلت بها واحدة من المجموعات الاجتماعية التى كانت تكون كل المنفى الإسبانى، لكنها، فى ذلك الوقت من القرن السابع عشر كانت مدمجة إلى حدٍ ما فى المجتمع المغربى. نقصد اليهود الذين استعلم عنهم تجار أمستردام فى عام ١٦٤٧ و الذين من خلالهم كانت تقوم أساسًا التجارة مع المغرب(١٢٠) .

فى وثائق افتداء عديدة كثرت مبادلة البضائع الإسبانية أو القلنسوات أو الأقمشة أو المجوهرات أو الحرير التى يحملها رجال الدين المفتدون، وتفاهم هؤلاء بشكل خاص مع اليهود التطوانيين، أسياد العبيد أو بالأحرى ممثلى ملاّك آخرين وكّلوهم لهذا الصدد.

ربما كانت التجارة الصغيرة التى نشأت بين الجزائر وتطوان - بالإضافة إلى تجارة العبيد، المستمرة على طوال القرنين السادس عشر و السابع عشر- كانت تُنفذ فى غالبيتها بواسطة تجار يهود مقيمين فى واحد أو آخر من مراكز القرصنة الكبيرة فى البحر المتوسط الغربى [١٢١] . كانت أسماء أفراد عائلة بيمينتا وباياتشى Pallache (*) وميخياس وأسماء أخرى متشابهة تُذكر بتكرار فى هذه الوثائق ووثائق أخرى، لأنه، بالإضافة إلى كونهم تجاراً جيدين فقد اعتادوا أن يكونوا مترجمين عظماء ودبلوماسيين ذوى نفوذ يحصلون على رضا وثقة السلاطين والحكام المغاربة.

يقول داوود متذكراً ثيرديرا، إنه بعد موت عبد الكريم النقسيس، فى عام١٦٦٠، خلفه فى السلطة التطوانية شخص يدعى غزوانى، منتدب عن خضر غايلان، الأمر الذى يعنى أن المدينة كانت مستمرة حينئذ تحت حماية غايلان السابق ذكره.

لا نعرف شيئًا عن غزوانى ولا عن تطوان فى فترة حكمه. نعرف فقط أنه كان قصيراً جدا وأن أحمد بن عبد الكريم النقسيس قد خلف الغزوانى فى حكم تطوان.

نذكر أن أحمد بن عبد الكريم النقسيس هذا هو واحدٌ من حكام هذه العائلة الذين أعطوا التأمين لرهبان جمعية الثالوث المقدس الذين ذهبوا لافتداء الأسرى، فى ٢٥ يناير عام ١٦٦٤ . يعطينا نفس النص اسم حاكم آخر، سيدى المدن Almuden الذى حل محل الغزوانى، دون شك، كممثل لغايلان حيث أن هذا الاخير هو الذى كان يملك سلطة اتخاذ القرارات الأخيرة، كما يمكن إثبات ذلك فى هذا المخطوط حيث بعث الرهبان يهودياً، من سبتة، يدعى بوتيمير، لكى يذهب إلى أرسيلة، مقر غايلان، لكى يعطى غايلان أوامر لحاكم تطوان لكى ينفذ الافتداء. بالإضافة إلى ذلك، كان يجب على رهبان جمعية الثالوث المقدس أن يذهبوا أولاً إلى أرسيلة لافتداء أسرى غايلان نفسه[١٢٢] .

(*) نشير إلى قرب الانتهاء من ترجمة كتاب كامل عن نشاط أحد أفراد العائلة وهو صموئيل باياتشى فى مجال الترجمة و المفاوضات السرية بين المسلمين والمسيحيين: "بين الإسلام والغرب" ، ترجمة ممدوح البستاوى ، المشروع القومى للترجمة . (المراجع)

كان هناك، وفقًا لما يرويه ثيرديرا، نزاع على الحكم، عند طرد الغزوانى من المدينة، وحيال ذلك عاد غايلان إليها لإخضاعها، و لكن فى النهاية حدث اتفاق بين الطرفين، وبقى النقسيس كحاكم، ولكن بشرط استقبال ممثل غايلان، وهو بالتأكيد المدن Almu-den السابق ذكره. بالنسبة للمؤرخ التطوانى إسكيرى فإن من خلف عبد الكريم النقسيس كان هو أخوه وليس ابنه الذى يُجهل اسمه.

قتل أحد أفراد بنى رموز هذا الأخ الذى أراد سلبه بعض الممتلكات(١٢٣) .

ليس هناك فى متناول يدنا معلومات دقيقة عن حكومة أحمد بن عبد الكريم النقسيس. إنها الأعوام التى سطع فيها نجم السلالة الملكية الجديدة، الفلالية، الحاكمة بالفعل. استطاع ملكها الأول، مولاى راشد احتلال فاس فى عام ١٦٦٥ . وفى العام التالى، فى ٤ يونيو، كان يجب عليه أن يدخل من جديد فى هذه العاصمة حيث قتل كل الرؤساء، وفقًا للمؤرخ المغربى(١٢٤) . من هنا امتدت سيطرته على البلاد، واستطاع دخول تطوان فى عام ١٦٦٧ . فى هذه المدينة الأخيرة قام بأسر حاكمها، أحمد بن عيسى النقسيس وكل الوجهاء و حملهم إلى فاس، حيث أبقاهم سجناء.

تكاملت أخبار من مصادر مختلفة فيما يتعلق بهذا الحدث، ووضحت بعض النقاط بالرغم من أن تفصيلات أخرى قد ظلت مشوشة فى تاريخ تطوان وعائلة النقسيس، خلال الفترة الأخيرة من تأثير هذه العائلة.

تبرز يوميات فرانكا استيلاء مولاى راشد على تطوان، ويقدم معلومات كانت مجهولة حتى الآن. على سبيل المثال، أن السلطان أمر بشنق بن عروس، حاكمها، لقتله العبريين، إياكوبا غاباى وإياكوبا ميسياس، سكرتيريه، اللذين كانا قد حاولا فى تطوان أن يتدخلا لكى يقدما الطاعة لسيدهما ... (١٢٥) .

هكذا يبدو أكيداً أن غايلان قد فرض حاكمًا مساعداً للنقسيس قائد السلالة التطوانية، وفيه صب الملك الجديد العلوى غضبه.

يوعز إلينا اسم الحاكم التطوانى المشنوق فى ١٦٦٧، بنشأته فى قبيلة قريبة، قبيلة بنى عروس، ربما كانت الأكثر تأييداً لغايلان من سكان جبال تطوان أنفسهم. على الجانب الآخر فإن توظيف مولاى راشد لليهود قد كثر فى النزعة الظاهرة فى

الأخبار والروايات، للسلالة الجديدة، حيث كان هناك تعاطف مع هذه الأقلية المهشمة إلى حدٍ ما أحيانًا من قبل السلطات والشعب.

استمر المؤرخ فى الحديث عن نتائج استسلام تطوان لمولاى راشد، بالأخص عن هؤلاء الذين أثروا أكثر على الموقع السبتى، حيث أنه وفقًا لمن وكيف يحكم المدينة المغربية، كان يعتمد اطمئنان حامية وشعب سبتة. لقد تسبب محاربو النقسيس فى أكثر من كارثة للإسبان - البرتغاليين.

لكن على الجانب الآخر، فإن الطمأنينة والسلام كانا يستقران عندما كانت النزاعات المدنية تشتعل فى البلد المجاور. حمل مولاى راشد، أفراد النقسيس محبوسين بالسلاسل، دون الاحتفاظ بنساء أو أطفال. تُظهر هذه المعلومة القسوة، لكنها ببساطة تمثل عدم ثقة فى مناصرى النقسيس من إمكانهم التحكم فى المدينة من جديد، حيث كان أطفال ونساء النقسيس يمثلون حينئذ ضمانًا لسلوك تابعيه.

انتهت القصة باعتذار السلطان وعودة أفراد النقسيس إلى منازلهم. ... عندما وصل أفراد النقسيس إلى فاس، اعترضوا وأقسموا على بقاء وحماية تطوان بواسطة مولاى أرثيس Arcis ، الذى تركهم يعودون إلى منازلهم و يستعيدون ممتلكاتهم. تلك الممتلكات التى، فيما يبدو، قد تم سلب بعضها بعد القبض عليهم مباشرةً، وفقًا لما يقوله داوود، الذى يقول أيضًا إن مولاى راشد طلب ممتلكات أولاد النقسيس، وأمر ببيعها لمنفعة الأموال العامة.

لم يكن هذا العقاب نزوة من الملك، لكنه نتيجة لشهادة موقّعة من أكثر من أربعين شخصية بارزة فى تطوان، يتهمون فيها أولاد النقسيس بالظلم والاضطهاد والاستيلاء غير المشروع على الممتلكات وباتهامات أخرى.

كانت توجد، لذلك، معارضة سياسية واجتماعية، و كانت القوة فقط هى التى تُسكتها، وكانت تظهر فى أوقات صعبة، كالتى نبحثها الآن.

توضح لنا الأسماء التى وقعت وثيقة الاتهام المذكورة ألقابًا موريسكية، مشهورة جدا مثل خطيب وكاستالى وكارديناس ومارين ومونتورو وميندوثا وتشيبو Chivo (١٢٦) وألقابًا أخرى ذات رنين مقشتل أقل، ولكن نعرف أنها كانت تنتمى إلى عائلات موريسكية، مثل راتوت Ratut أو تانيا Tania(١٢٧) . كان الموريسكيون أنفسهم مقسّمين حسب وصولهم أو عدم وصولهم إلى مصادر الثروة التطوانية. كان من الممكن أن يكون الاستياء والمعارضة السياسية يتناسب مع المشاركة الأكبر أو الأقل فى رؤوس الأموال المشكلة فى الغنائم التى يحصلون عليها وفى التجارة الصغيرة. فى كل هذه الثروات كانت توجد نسبة أعلى من ٤٠٪ من المجموع أحيانًا، فى أيدى أولاد النقسيس أو أقربائهم.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يُفرض على أفراد النقسيس عقوبة صارمة كهذه، وكانت أيضًا هى المرة الأولى التى يُرون فيها فى وضع حَرِج. أقسموا على الإخلاص للملك العلوى، ولا نعتقد أن ذلك كان عن اقتناع كبير. أعيدت إليهم ممتلكاتهم، لكن بالتأكيد كان ذلك بشرط "الحفاظ والدفاع عن تطوان نيابةً عن مولاى Arcis ، الأمر الذى كان يُفترض أن القيام به هو بالتأكيد لصالح استقرار السلالة الملكية الجديدة.

كان ما حدث، وفقًا لمصادر العصر، هو أن وفاء أفراد عائلة النقسيس كان ذا أجل قصير، ربما بسبب تعيين الملك أحمد بن يعقوب حاكمًا لتطوان؛ ففى ديسمبر من ١٦٦٨ قام السلطان بتهريب غايلان، الذى لجأ فى الجزائر وحينئذ، هرب أفراد النقسيس، لتقصيرهم فى العهد الذى تعهدوا به، إلى سبتة مع عائلاتهم، وأعانهم الإسبان بعشرة مكاييل من القمح وخمسين بيسو شهريًا. بعد ذلك بقليل لجأوا مع غايلان فى الجزائر و بعد حصولهم على عفو مولاى Arcis رجع أولاد النقسيس إلى تطوان (١٢٨) . ترك منفى الحكام التطوانيين آثارًا وثائقية أخرى. توجد إحدى الرسائل من ملكة إسبانيا فى ٢٩ يناير عام ١٦٦٩، موجهة إلى ماركيز أسينتار Asentar، قائد سبتة العام، تفيد باستلام العريضة التى بعثها القائد والخاصة بقادة

تطوان الســتـة الموجــودين فى هذا الموقع، و تخبـره بأنه بالإضـافـة إلى العــشـرة مكاييل من القمح شهرياً ، والتى أعانوهم بها ، فقد أمدوهم بخمسين بيسو منذ ينــاير عام ١٦٦٩ (١٢٩) .

يحتمل أن يكون القادة الستة، مجرد ستة أرباب أسر وأن العشرة مكاييل من القمح شـهرياً كانت تُعطى لهم مراعاةً للنساء والأطفـال الذين جـاءوا معــهم. تظل لدينا الرغبة فى معرفة السكن الذى وفره الحاكم السبتى للاجئين. فى هذه الأثناء، كان هناك تغييـر للحكام فى تطوان، حيث عُين قـاسم فـارشـيش Qasimi Farsis بدلاً من يعقوب. لقد شيَّد الأول فقط حصن أمسا Amsá وأنشأ الثانى أســوار القصـبة فــى عام ١٦٧٠ (١٣٠) .

ليس معروفًا الدور الذى كان يقوم به أفراد النقسيس خلال حكومة وكلاء مولاى راشد هؤلاء. لكنهم لم يختفوا كليةً من المسرح السياسى، بالرغم من أن ظهورهم مرة أخرى سوف يكلفهم الكثير، حيث انتهت محاولات سيطرتهم الأخيرة بنهاية درامية دامية.

تكمل لنا بعض التفاصيل الإضافية، الموجودة فى مخطوط افتداء عام ١٦٦٨، رؤية أحداث هذه الفترة تاريخياً. حصل رهبان جمعية الثالوث المقدس فى سبتة على جواز مرور موقَّع من مولاى أرثيس Arci، ملك فاس وتطوان.

ألزم مولاى راشد رجال الدين أيضًا أن يذهبوا إلى فاس لكى يتقابلوا معه، على الأقل كإشارة على السيادة. لا يوجد أى عبد لأولاد النقسيس، ولم يُذكروا أبداً. على العكس، يوجد ٢٠ مفتد من الديوان، الأمر الذى يمكن أن يعنى سيطرة مجموعة من المدنيين أو أنه إذا وجد حاكم فلم يكن له دور كبير. يوجد العديد من الموريسكيين يبيعون عبيداً ، من بينهم الكثير من الأسماء المذكورة مسبقًا كمتهمين لأفراد النقسيس، كارديناس، مونتورو، مارين .. وهو ما يمكن أن يشير إلى مصادر الشكاوى(١٣١) . كان الأكثر أهمية فى كل وثيقة هو، فى رأينا ، أن جواز مرور مولاى راشد والاختفاء النهائى لأفراد النقسيس، يمثل التغير العظيم الذى حدث، ليس فقط فى السياسة التطوانية، ولكن فى السياسة العامة للبلد. لقد دخل المغرب عصراً جديداً.

نهاية أفراد النقسيس :

عندما مات مولاى راشد فى عام ١٦٧٢، كان يبدو أن المغرب سوف تسقط فى الفوضى الكاملة تماماً، حيث كان هناك عدة طامعين يتنافسون على العرش، سواء فى المغرب أو فى فاس، ولكن أحد أخوته، ويسمى مولاى اسماعيل، والذى كان حاكماً فى مكناس قد أقنعه كل من فيرناندو ديل بينو المالقى Fernando del Pino و دومينغو دى أبريو السبتى Domingo de Abreu وعدد من الأسرى المسيحيين بأن ينادى الناس به ملكًا عليهم. وبالفعل كان المسيحيون هم أول من رفعوا أصواتهم بتحيته (١٣٢) .

نعتبر ما سبق فضولاً تاريخيًا يظهره لنا المؤرخ، وأيضًا اسم قائد تطوان فى هذه الأثناء، و هو شخص يدعى بوخيس (١٣٣) .

اعتقد غايلان، عند معرفته بموت مولاى راشد، أن اللحظة قد حانت لكى يظهر فى أراضى ممتلكاته السابقة ومواجهة الملك الجديد. عاد من الجزائر، و جمع إلى مناصريه جيشًا صغيراً وحارب مولاى اسماعيل الذى هزمه فى معسكرات القصر الكبير. لا نعرف ما إذا كان قد قطع رأسه كعقاب ، فالرأس هو الجزء الوحيد من جسده المعروف أنه مدفون فى مقابر سيدى على بو غالب فى القصر.

يواصل نفس المؤرخ وصف الوضع فى تطوان فى هذه اللحظة:

كان أفراد النقسيس من منازلهم يهتمون بخطوات الملك الجديد مولاى إسماعيل وكانوا يتولون، القيادة المستبدة ومدنها الصغيرة ومضارب خيامها، و يخطرون غايلان بكل الأحداث...

بالإضافة إلى ذلك فإن أفراد النقسيس اتفقوا على هدنة من ستة أشهر مع حاكم سبتة حموا بها التجارة وخروج السبتيين للحقل الخارجى لجمع العلف، حتى وجب وقفها بسبب خشية مناصرى مولاى إسماعيل، الذين كانوا ينتقدون هذه الصلات الجيدة مع المسيحيين. حذر أفراد النقسيس أنفسهم الماركيز الحاكم، و رجوه أن ينهى الهدنة(١٣٤) .

يحدد الخبر موت غايلان فى الأول من سبتمبر ١٦٧٣ [١٣٥] .

... لهذا السبب كان أفراد النقسيس من تطوان و أنبيرا يبكون الموت المفجع الذى كـان يهـدد نسـاءهم وأولادهم وأصـدقـاءهم وأقـاربهم، ولتـفـادى ذلك تركـوا منازلهم وأملاكهم ولجأوا فى سبتة فى نفس الشهر، و استجدوا حماية ملك إسبانيا: أفراد النقسيس مع ٢٣ مسلماً على ظهر خيل و ٣٧ من المشاه و ٣ نساء و ٧ عبيد مسلمون سود. والخاتى El xate مع ٨ على ظهر خيل و ٢٩ مشاة ، و ١٨ امرأة. وخفف عنهم الماركيز، بلطف وهدايا واستقبلهم استقبالاً حسنًا، وصرف لهم مساعدة من الأموال الملكية تقدر بخمسين بيسو فى الشهر لأفراد النقسيس و بثلاثين للخاتى والقمح لكل الناس على ظهور الخيل. وعندما علم البلاط بكل شىء قام بشكر الماركيز وطلبوا منه الاستمرار فى تقديم المساعدات[١٣٦] .

قدمت هذه المجموعة الكبيرة من الأشخاص، و كانوا أكثر من ١٢٥، مشهداً شجاعًا، عندما دخلوا سبتة، فى حرارة أسوار القلعة. من المؤسف أن كورييا لم يترك لنا فى روايته الانطباعات الشخصية عن الحدث، بالإضافة إلى أنه نقل لنا الخبر بشكل مختصر، ربما كان يمكن أن يسمع روايات من شهود مباشرين.

يكتمل الخبر بالمعلومات التى قدمها داوود فى مؤلفه عن تطوان، والتى عرفنا من خلالها من هو النقسيس الذى ساند عودة غايلان، وعندما قام بذلك، خاطر بمصير عائلته كلها، وبالإضافة إلى ذلك، سنعرف أيضًا ليس فقط نهاية النقسيس ولكن نهاية عائلة أخرى قامت بدور مؤثر منذ زمن المندارى. كانت هذه العائلة هى عائلة مفضل. فى الواقع كان شخص يدعى مفضل النقسيس هو الذى فتح أبواب تطوان وجمع قواتها مع قوات غايلان، عندما حضر الأخير عائداً عبر البحر من الجزائر، إلى المدينة مع مجموعة كبيرة من المنفيين[١٣٧] .

لقد اتحد أفراد مفضل وأفراد النقسيس عائليًا، مع تأكيد ذلك، بأكثر من رابطة زواج، ولذلك نعتقد أنهم كونوا مجموعة قوية من السلطة، سواء اقتصادية أو حربية.

كان أفراد مفضل يمثلون جذور الأرستقراطية الغرناطية. رأينا ذلك فى بعض النصوص وكيف أن ثراءهم كان يزداد باطراد. كان أفراد النقسيس قادة الجيش، ورؤساء ومقدمى المحاربين المستعدين دائمًا والمعتادين دائمًا على الحرب ضد عدو الدين فى الحدود القريبة. كانت كلتا المجموعتين تمثلان قوة قادرة ولا يمكن مقاومتها تقريبًا. ولو كانوا قد تحالفوا مع مجموعة الموريسكيين الذين وصلوا مؤخرًا فى بدايات القرن السابع عشر، فعلى الأقل كان يمكنهم أن يرضوا غالبيتهم وربما وجدت مشاكل أقل. ربما كانت المشكلة الأساسية، كما نوهت فى مناسبات أخرى، هى عدم وجود الكثير من المؤن تكفى للكثيرين، وعلى الجانب الآخر كانت هناك روح العرق أو النسل التى ظلت كأحد موروثات غرناطة بنى نصر.

تصالح بعض أفراد النقسيس، وتواجه البعض الآخر مع الغالبية الموريسكية، ولن تمر الأمور بشكل جيد جدا. إن الوثيقة الأخيرة والمدروسة مؤخرًا، والمتعلقة بمحضر ضد أفراد النقسيس، وقَّعه أربعون من الأعيان التطوانيين كان من بينهم، دون أدنى شك، الحكام الموريسكيون الأكثر شهرة، هى دليلٌ على كراهية البعض والبعض الآخر. لم يكن موريسكيو الهجرة الأخيرة يميلون إلى الفن الحربى. فقد مر وقت طويل وهم يعيشون فى شبه الجزيرة فى مجموعات ريفية تشتغل بأعمال زراعية. ربما كان منطقيًا استقبالهم فى ضياع ومدن صغيرة و توجيههم للاشتغال بزراعة الأرض وتربية الماشية كما فعلوا مع مجموعات كبيرة من المنفيين فى تونس.

على العكس، أظهر سكان الريف الأصليين فى المغرب رفضًا عامًا لهؤلاء الدخلاء، ولم تكن هناك سلطة قادرة على حمايتهم خارج المدن الكبيرة. كانوا يستطيعون ممارسة بعض الأعمال القليلة من بين تلك التى كانوا يعرفونها، لأن المدن حينئذ كانت مشبعة بأناس متخصصة إلى حدٍ ما. كانت تجارة العبيد تحتكرها السلطة الحاكمة على نطاق واسع. وعلى النطاق الصغير فلم يكن هناك مكان للكثيرين. كانت الكارثة، لذلك، دائمة وعميقة. كانت عبارة عن كارثة بطالة بسبب تكدس الناس فى المدن التى لم تستطع أن تمتص مؤقتًا هذا السيل من المنفيين.

كانت الحياة بالنسبة لهم صعبة جدا منذ البداية، وأصبحت أكثر صعوبة عندما كان يتجمع أناس أكثر في تطوان تلك التي كانوا يحلمون بها، عندما خرجوا من سواحل شبه الجزيرة القريبة.

ففي تجمع عديد كهذا من المحتمل وجود استياء كبير. بطبيعة الحال فإن ذنب كل الأشياء السيئة كان يرجع، في وجهة نظر المهمشين، إلى أصحاب السلطة. قام أفراد النقسيس المسيطرين على الوضع السياسي، على طول القرن السابع عشر، بوقف غضب وضغينة جزء كبير من السكان التطوانيين، نعتقد، بالأخص، غضب وضغينة هذا الحشد من الموريسكيين الذي كان يريد النجاة من هذه المصيبة ولا يجد مكانا تحت الشمس في هذا المجتمع الاسترقاقي.

وأخيرًا فإن أفراد النقسيس، بعدما اكتسحوا أفراد مفضل والعائلات الأخرى، ودخلوا سبتة، قد سقطوا نهائيًا لكي يختفوا، ليس فقط من المسرح التاريخي ولكن من مسرح الحياة. هل ظل أفراد النقسيس وعائلاتهم عدة أعوام في سبتة؟ هذا يبدو أنه يُستخلص من الرواية التي قدمها لنا كوربيا دي فرانكا عن المصير النهائي لهذه العائلة ، حيث أنه من عام ١٦٧٣ وحتى عام ١٦٨٧ قد مر ليس أقل من أربعة عشر عامًا. في هذه الفترة كان الكثير من اللاجئين يهربون كلما استطاعوا.

بعد ذلك بوقت قصير – يكمل الخبر – استطاع الخاتي تدبر أمره وعاد إلى بلده. رحل بعض من أفراد النقسيس إلى الجزائر، وآخرون لا نعرف عددهم دخلوا في القرى المجاورة لهذا المكان، وظل الباقون فيها حتى مات عيسى عبد الله، الذي كان الرئيس. وعند معرفة هذا الخبر في بلاد البربر، طلب المقربون من مولاي إسماعيل أن يسمح لعيسى كبير وسيدي عبد الكريم وسيدي حامد، الذين كانوا موجودين في سبتة، مع بعض الخدم والعبيد، بإمكانية العودة إلى منازلهم ومزارعهم. بعد الحصول على الإذن الملكي، وعندما كان السيد فرانثيسكو دي بيلاسكو يحكم في سبتة، في عام ١٦٨٧، أقنعهم أحد أفراد عائلة النقسيس، وذهبوا معا إلى مكناس لتقبيل يد الملك،

الذى استقبلهم بترحاب وأعطاهم جوازات مرور ورسائل لكى يعيد إليهم على بن عبد الله، قائد تطوان ممتلكاتهم. وعادوا راضين، لكن نظراً لوجود أوامر أخرى مع القائد فقد أمر بقتل الجميع فى ميدان عام(١٣٨) .

أكد باحث مغربى أنه فى تارودنت حيث مثل أفراد النقسيس أمام السلطان مولاى إسماعيل، حيث كان الملك مع جيشه، أمر بأن يقاد اثنان منهم إلى تطوان، حيث يُعلقوا علناً فى السور الرئيسى لفندق القاعة. حدث نفس المصير مع أقربائهم الذين كانوا موجودين فى فاس و سجنهم مولاى راشد(١٣٩) .

جمع داوود، فى فقرة بمفردها عنوانها " نهاية عائلة النقسيس" ، روايات بعض الكتّاب المغاربة(١٤٠) . يوجد هنا باختصار هذه النصوص، وفقًا لداوود:

فى كتاب "الاستقصا" خرج أولاد النقسيس من سبتة، التى كانوا قد وصلوا إليها وقت موت خضر غايلان وذهبوا إلى تارودنت Tarudant، حيث معسكر السلطان. أمر السلطان أن يحملوهم إلى تطوان ويقتلوهم. أمر أيضًا بإعدام من كانوا مسجونين فى فاس، فقتلوا الجميع.

يؤكد ابن الحاج من جانبه أن أولاد النقسيس مثلوا أمام مولاى إسماعيل عندما كانوا فى تارودنت، بعد وصولهم من سبتة، حيث مات أكبرهم، عيسى بن عبد الله، فى شهر ربيع الأول. طلب الباقون الحماية وأرسلهم الملك إلى تطوان حيث تم إعدامهم. قتلوا فى نفس العام ثلاثة من أفراد عائلة النقسيس فى فاس الجديدة وبعد ذلك بشهور قتلوا أربعة منهم، كانوا مسجونين فى تطوان. يؤكد مخطوط آخر أن أفراد النقسيس قد تم إعدامهم فى باب القاعة فى الغرسة الكبيرة Garsa Quibira . كانوا سبعة ولم يتبق أحد منهم. يقول إسكيرى إنهم علقوا رؤوسهم على أسوار المدينة فى المكان المسمى القاعة فى الغرسة الكبيرة. يوضح هذا الكاتب نفسه أن السلطان أرسل رسولاً، يدعى الحاج على بركة، حيث منح أمانه أو عفوه لأفراد النقسيس وأن هؤلاء عادوا و هم يأملون فى العفو الملكى وماتوا حينئذ فى تطوان.

يعرف ثيرديرا رواية إسكيرى هذه، و قال إن على بركة كان هو الذى طلب من السلطان عفوه لأفراد النقسيس، لكن السلطان بعد منحهم العفو تصرف بطريقة أخرى، كما ذكرنا.

نعرف فقط مخطوطى افتداء قدمهما رهبان جمعية الثالوث المقدس فى عامى ١٦٧٤، ١٦٧٧ . ربما كانت هى الافتداءات الاخيرة التى نُفذت بنفس الأسلوب القديم، نعنى بذلك بيع الأفراد لعبيدهم فى سوق تطوان الحرة.

فرض مولاى إسماعيل ليس فقط أن يزوره الرهبان، ولكن أيضًا أن يتم شراء ما يسميه المفتدون " أسرى إجباريين " . فى عام ١٦٧٤ كانوا ١٨ ، بالإضافة إلى الذين باعهم الموريسكى داودار لحسابه.

ظهر ديوان ولم يظهر أى حاكم، بالرغم من ظهور قائدين، كان واحد منهم قائدًا للبحر والآخر للبر. كان الأخير يدعى بوثيس Bucis والأول يدعى عبد الرحمن Abderra-man .

أشادت شخصية سياسية جديدة بالأزمنة الجديدة. إنه كبير خدم ملك فاس، وهو موريسكى يدعى خطيب. كانت قائمة أسياد العبيد مليئة بأسماءٍ موريسكية ويهودية(١٤١) .

يُلاحظ نفس الخط فى مخطوط عام ١٦٧٧ . صاحَبَ الكاتب، أغوسيتن دى سانتياغو، رهبان جمعية الثالوث المقدس إلى فاس. فى هذه المناسبة بقى أربعة من المسلمين كرهائن فى سبتة. فى فاس يحتمل أن يكون قد افتدوا أكثر من أربعة وعشرين من الأسرى الإجباريين.

يستمر الكاتب فى تسجيل أسماء كبير خدم ملك فاس ومناصب قائد البحر والبر ونرى، للمرة الأخيرة فى وثيقة من نفس النوع، الأسماء العديدة للموريسكيين واليهود الذين كانوا يتعايشون فى تطوان(١٤٢) .

ولم يكن هناك وجود لأفراد النقسيس. نفترض مصداقية المؤرخ الذى تحققنا من أن لديه معلومات جيدة، فى أن أحد أفراد النقسيس هرب إلى الجزائر واستقر هناك.

على الجانب الآخر أشار السيد جبور yebbur إلى نقسيس آخر، و أعطاه السلطان سيدى محمد بن عبد الله إقطاعية مدينة أغمات Agmat [١٤٣].

إذا كان هذا الخبر، المؤرخ فى ١٧٦٤، بعد الأحداث المروية بحوالى قرن، أكيداً، فيحتمل أن أولاد النقسيس كان لديهم منفى فى تلك المدينة البعيدة عن المغرب الجنوبى..

نذكر أن أغمات، عبر تاريخ السلالات المغربية الملكية، كانت مكان منفى المعارضين السياسيين أو معارضى السلالة الملكية، مثل المعتمد، على سبيل المثال. فى الواقع بالنسبة لدراستنا هذه فقد انتهى مسار أولاد النقسيس فى اليوم الذى عُلقت رؤوسهم فى الأسوار التطوانية. إن نهاية أولاد النقسيس هى أيضًا نهاية عصر وبداية عصر آخر. جعلتهم سيطرتهم المضطربة والطويلة على تطوان الموريسكية فى القرن السابع عشر يظهرون فى عيوننا كرمز لتاريخ الموريسكيين فى شمال البلد. لم يكن لمولاى إسماعيل مشاكل أخرى لا مع تطوان ولا مع الموريسكيين. و لم يكن لديه مشاكل أيضًا مع موريسكيي رباط – سلا. بل أكثر من هذا، فقد ارتقى الكثير من الموريسكيين إلى مناصب مهمة، وبوجه عام فإن الأمة الموريسكية لا نستطع أن نقول إنها خرجت متضررة أكثر من باقى البلد بسبب حكومة مولاى إسماعيل الاستبدادية. من الواضح أن الأساليب كانت مختلفة جدا فيما يتعلق بأساليب الحياة الموجودة حينذاك وهى القرصنة،فقد تغير الأمر تماماً.

ربما استمرت القرصنة، ولكن بشكل خاص لمنفعة الملك، الذى كان يملك كل الأسرى ولذلك فُقد أهم عامل من عوامل القرصنة وهو اغتناء أصحاب السفن والبحارة من الغنائم والأسرى، واختفت السوق الجاذبة النشطة لتطوان وسلا التى ملأت خزائن البرجوازيتين المهاجرتين.

وبعد إقصاء الغنائم، و هى الهدف الأساسى من عمليات القرصنة، دخلت هذه العمليات فى انحدار حتى جعلتها الظروف الخاصة بعالم البحر المتوسط تختفى، عند دخول القرن الثامن عشر. لم تختف شخصيات فقط بل اختفت كذلك عوامل مهمة فى تطور المجتمع الموريسكى. إذا كنا إلى هنا استطعنا أن نتتبع آثارها فى نصوص ووثائق، فبداية من الآن ستُمحى الخطوط بشكل محسوس. لقد مر، منذ الطرد النهائى، ثلاثة أرباع قرن. هى الأعوام الكافية كى لا يعيش أحد من الذين خرجوا من قرى وضياع شبه الجزيرة. ولدوا كلهم فى المغرب، والذين كانوا يعيشون فى المدن المستقلة التى كانوا يحكمونها، قد غرقوا فى الكثير من الصراعات الأهلية التى جعلتهم مستنزفين ودون قوات لكى يستمروا فى معارضتهم لكل سلطة مركزية، و خاصة عندما أظهرت السلطة المركزية طاقةً كبيرة و قسوةً مختلطة بالخيانة، كما يوضح ذلك الموت المروع لأولاد النقسيس.

مازال يتبقى لنا الكثير لبحثه عن الموريسكيين فى المنفى، لكن على الأخص فيما يتعلق بالمغرب، نعتقد أننا أعطينا، بتاريخ أولاد النقسيس فى تطوان، معلومات إيجابية كافية على طريق هذه المعرفة، مثلما نتج كذلك من تأسيس المنداري والعصر التالى، الذى تم عرضه فى مكانٍ آخر.

إن الموريسكيين الإسبان - كبقايا مهمشة من المجموعات الإسبانية التى حاربت حتى آخر الأحداث للحفاظ على حضارتهم - لا يستحقون النسيان الذى أسقطهم فيه تاريخ إسبانيا حتى وقت قريب.

الهوامش

(1) GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada 1988.

(2) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "La República andaluza de Rabat en el siglo XVII". Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán. 9-10. Jun. Dicbre. 1974.

(3) MÁRMOL CARVAJAL, Luis del. Descripción General de África. Libro 4.* del Reyno de Fez. Granada 1573. Fol. 130v.

(4) MÁRMOL. Ibid. Fols. 131 y 131 v.

(5) MOHAMMED ESSEGHUIR BEN EL HADJ ABDALLAH AL OUFRANI. NOZHAT EL HADI...Tr. Fr. O. Houdas. París 1889. Pág. 265.

(6) DAWD, Muhammad. Tarij Titwan. (En arabe). Tetuán 1959,Tomo I P. 133.

(7) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Cueta. Biblioteca Nacional. Manuscrito 9741. Fols. 84 y 84v.

(8) من النادر أن نجد افتداءً للأسرى لا يكون فيه مفضل مالكًا للعديد من العبيد.

(9) Sources Inedites de l'Histoire du Maroc. (S.I.H.M.) France.. 1.a Tom. Tomo I. Pág. 347.

(10) YEBBUR ODDI, Abderrahim. El gobierno de Tetuán por la familia al Naqsis. (1597-1673). Tetuan. MCMLV

(11)

فقرة من العصر عن أخبار الملوك النصريين... تقديم و ترجمة ألفردو بستاني وكارلوس كيروس BUSTANI Alferdo y Qiros, Carlos. فى العرائش عام ١٩٤٠، وفقاً لكاتب الفقرة المجهول: ان سكان روندة وباثا وقصر موتشار Muchar وقرية كاردوس Cardox و قصر مارتيل Martil يتوقفون فى تطوان و نواحيها و كان سكان لوخا و ألفاكار Alfacar و جزء من غرناطة و مارشينا Marxena والبشرات يصلون إلى قبيلة غمارة وكان سكان بلاد البربر وبرخا Berja وبولا Bula و أندراكس Andarax يصلون إلى المنطقة الواقعة بين سبتة وتطوان، و كان بعض منهم يصل فيما بعد إلى قبيلة بنى سعيد. : إن الموريسكيون يملأون ليس فقط المدن ولكن أيضًا القرى فى القرن السادس عشر.

(12) ROJAS, José Luis de. Relaciones de algunos sucesos postreros de Berbería... Lisboa 1673. Fols. 30 y 30 v.

(13) S.I.H.M. Inglaterra. 1.a Tom. II. P. 526.

(14) AZZUA HAKIM, Mohammad. "Apellidos tetuaníes de origen español". Awraq. Volumen IX. 1988. Págs. 101 a 123.

شمل ابن عزوز أفراد النقسيس فى قائمته عن الأسماء التطوانية من أصل إسبانى، لكنه ذكر اللقب المنقرض فى عام ١٦٨٨,

(15) .DAWD. Tarij Titwan, cit. Pág. 175.

(16) B.N. de Madrid. Mss. 2.791. Fol. 48.

(17) B.N. de Madrid. Mss. 2.791. Fol. 54.

(18) TERRASSE, Henri. Histoire du Maroc. Casablanca s/a. Vol. II. Pág. 210.

(19) AL OUFRANI. Op.cit., Pp. 321 y 323.

(20) B.N. Mss. 2.791.

(21) B.N. Mss. 4.390.

(22) S.I.H.M. Pays Bas. 1.a Tom. I. Pág. 299.

(23) PAVoN MALDONADO, Basilio. " Arte hispanoamericano en Ceuta y Tetuán" Cuadernos de la Alhambra. 6. Granada 1970. P. 102.

(24) SEBASTIÁN, Santiago. " La arquitectura tetuani" Archivo Español de Arte. Tomo XXX. 1957. Pág. 59.

تبدو لنا نظرية هذا الكاتب الذى يتبع داوود أكثر قبولاً، من نظرية إيرهونى الذى قدم تاريخ عام ١٧٣٨ .

(25).R. Honi, Ahmed. Historia de Tetuán. Tr. Azzuz Hakim, Mohammad Ibn. Tetuán 1953. Pág. 80.

(26)

هنا يختلف المؤرخون المغاربة. فبينما يؤكد إيرهونى أن جامع الجديدة أنشأه مؤسسه فى عام ١٠٠٠هـ (١٥٩١–١٥٩٢م)، يشير داوود، على لسان سانتياغو سبستيان، إلى عام ١٦٢٠ كتاريخ تنفيذ الأعمال البنائية. ونحن من جانبنا نعتقد أكثر فى رواية داوود لسبب أساسى، ففى عام ١٥٩١ لم يكن حى العيون قد تم إنشاؤه، حيث توسع بداية من عام ١٦٠٩ عندما بدأ المنفيون في الوصول بأعداد كبيرة و كان هناك احتياج لمسجد كبير يستطيع أن يستوعب عدداً كبيراً من المصلين، مثل جامع جديدة الذى به خمسة صحون. و فى حوالى عام ١٦٢٠، فى الواقع، سيصبح حى العيون مكدساً بالناس.

(27):هذه الصورة لبابون مالدونادو، وموجودة فى مقاله المذكور مسبقًا من مجلة

Cuadernos de la Alhambra N.* 6. Pág. 90.

(28) VADJA, G. Recueil de textes historiques judeo-marocaines. París 1951. P.23.

(29) S.I.H.M. England 1.a II. Pp. 435 ys.

(30) ROJAS, José Luis de. Relaciones de algunos sucesos postreros de Berberia... Lisboa 1673. P. 65.

(31) CORREA DE FRANCA, Alejandro. Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9741. Fol. 89 v.

(32) ROJAS, J. Luis de. Relaciones... P. 67.

(33) B.N. Mss. 3862.

(34) ROJAS, Relaciones... Pág. 67.

(35) AL OUFRANI. Nozhet... Pág 323.

(36) B.N. Mss. 3.870 y A.H.N. Cod. Libr. 124 B.

(37) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 177.

(38) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 179.

(39) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 184.

(40) AL OUFRANI. Nozhet... P. 392.

(41) AL OUFRANI. Nozhet... P. 394.

(42) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones de cautivos cristianos...por los hijos de la Orden de la Merced. Barcelona 1873. Pp. 28o y 285.

(43) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... P. 292.

(44) GARI y SIUMELL, Fr. José Antonio: Historia de las redenciones... P. 288.

(45) S.I.H.M. England II. 507.

(46) Archivo Histórico Nacional (A.H.N.) Códices.Lib.126/ B.

(47) S.I.H.M. England II. P. 523.

(48) S.I.H.M. England II. P. 528.

(49) S.I.H.M. England II. P. 536. Es una carta de 10-7-1622.

(50) S.I.H.M. England II. P. 177.

(51) S.I.H.M. England II. P. 207.

(52) S.I.H.M. England II. P. 511.

(53) Archivo General de Simancas. (A.G.S.) Collecion Coloma. Libro 3.*. Fol. 42.

نشرت نسخة من هذه الرسالة باللغة الفرنسية فى:

S.I.H.M. France. 1.a III Pp. 82 y 83.

أتوجه بالشكر، مرة أخرى، لمديرة أرشيف سيمانكاس العام، لسماحها لي باستخدام مجموعة كولوما

(54) (.A.G.S.) Col. Coloma. Libro 2.*. Fol. 19.

بالتأكيد نسى كاتب البلاط نسخة رسالة ماسكارينياس بأمر الملك و أرسلها في رسالة منفردة، و طلب منه إذنًا و عرض عليه مساعداته.

(55)Cfr. Col. Coloma. Cartas. Libro 3.* Fol. 41). Carlos Coloma, Marqués de la Espina.

كارلوس كولوما، ماركيز إسبينا Espina ، والمولود في أليكانتي عام ١٥٦٧ والمتوفي في مدريد عام ١٦٣٧، وقد خدم تحت قيادة أفضل قادة في العصر، دوق ألبا و أليخاندرو فارنيسيو و كونت فوينتيس و أرتشيدوق ألبرتو، ووصل إلى منصب القائد، عينه فيليبي الثالث قائدًا عامًا لروسييون Rosellon وثيرديتيا Cerdena وكونفلينت Conflent وفي عام ١٦١١ أصبح نائب ملك لمايوركا Mallorca . في عام ١٦٢٢ كان سفيرًا فوق العادة في لندن. كان كبير خدم فيليبي الرابع و مستشار دولة و حرب. أنظر:

Gran Enciclopedia de la Región Valenciana Tom. II Valencia 1973. P. 200. c. 2.

كتب كولوما كتابًا عن حروب فلانديس، حيث قضى بالفعل كل مساره الحربي. ليس غريبًا عدم اهتمامه بالجبهة الجنوبية.

(56) .A.G.S. Col. Coloma. Minutas de Cartas. Libro I. Fol. 26.

(57) A.G.S. Col. Coloma. Minutas de Cartas. Libro I. Fol. 60 v.

(58) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Cartas. 3 Fol. 80.

(59) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Minutas. I Fol. 110 v.

(60) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Cartas. Libr. 13. Fols. 2 y 3.

(61) A.G.S. Col. Coloma. Libro de Minutas. 3 Fol. 61.

(62) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 200 n. 1.

(63) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 201.

(64) أشار الأستاذ عزوز إلى وجود ١٠٧ عائلة ذات أصل إسباني في تطوان في أيامنا هذه.

(65) Bibl. Nac. Madrid. Mss. 3.634. Fol. 9.

(66) B.N. Mss. 3.634 Fol. 35 v.

(67) A.H.N. Códices. Libro 127 B. Fols. 34 y 34 v.*

(68) A.H.N. Id. Id. Id. Fol. 11 v.*

(69) S.I.H.M. 1.a II P. 572 y s.

(70) S.I.H.M. England 1.a II. Pp. 573 a 582.

(71) CORREA DE FRANCA. Historia de Ceuta. Ms. 9741. Fol. 98 V.

ظهر مقدمو أنبيرا و الخروب كملاك للعبيد فى تطوان فى افتداء عام ١٦٢٥و الأمر الذى يشير إلى (72) استقلالهم الضمنى عن أفراد عائلة النقسيس.

(73) CORREA. Historia... Fol. 100.

(74)CORREA. Historia... Fol. 101. V. y 102.

(75) S.I.H.M. England-III-Relacion de Jhon Harrison el 11 de Septiembre de 1627.

(76) CORREA. Historia... Fol. 102 v.

(77) CORREA. Historia... Fol. 103.

(78) CORREA. Historia... Fol. 104.

(79) S.I.H.M. England 1.a III. P. 85.

(80) S.I.H.M. England 1.a III. Pp. 87-88.

(81) S.I.H.M. England 1.a III. P. 112.

(82) S.I.H.M. 1.a III. P. 130.

(83) S.I.H.M. France. 1.a III. Pp. 422-24.

(84) S.I.H.M. England 1.a III. Pp. 182-183.

(85) B.N. Mss. 3.819. Fol. 12 v.

(86) ESAGUY, José de Libro de los Veedores de Ceuta... Tanguer 1939. P. 147.

(87) B.N. Mss. 3628. Fol. 105.

(88) S.I.H.M. England 1.a III. P. 267.

(89) CORREA. Historia... Fol. 107 v.

(90) A.H.N. Códices. Libro 131 B.

(91) B.N. Mss. 6160.

(92) CORREA DE FRANCA. Historia de Ceuta. B.N. Mss. 9741. Fol. 117.

(93) DAWD. Tarij Titwan, Pág. 174.

(94) DAWD. Id. P. 233.

(95) CORREA. Historia... Fol. 138.

(96) POSAC MON, Carlos La historia de Ceuta a través de la Numismática. Ceuta 1989. P. 58.

(97) CORREA. Historia... Fol. 123 v.

(98) CORREA. Historia... Fol. 127 v.

(99) B.N. Mss. 4365.

(100) A.H.N. Cod. Libro 134 B.

(101) B.N. Mss. 3631.

(102) CORREA. Historia... Fol. 129.

فى هذا الخبر يقال إن ثمن افتداء ابن حاكم سبتة كان ٣٢,٠٠٠ بيسو و ١٨ مسلم و مسلمة واحدة. إنها ثروة من ٤٨٠,٠٠٠ ريال للنقسيس، بالإضافة إلى إيرادات الآباء المفتدين.

(103) S.I.H.M. England 1.a III. Pág. 554.

(104) CORREA. Historia... Fol. 138.

(105) B.N. Mss. 6.160.

(106) B.N. Mss. 3628 y Mss. 6160.

(107) B.N. Mss. 3628 y Mss. 6160 y Mss. 4365.

(108) AZZUZ HAKIM, Mohammad. "Apellidos tetuaníes de origen español". Rev. Awraq. Vol. IX. 1988. Pp. 101-123.

(109) CORREA. Historia... Fol. 138.

(110) CORREA. Historia... Mss. 9741 Fol. 129.

(111) A.H.N. Cod. Libr. 140 B.

(112) A.H.N. Cod. Libr. 137 B.

(113) A.H.N. Cod. Libr. 136 B.

(114) A.H.N. Cod. Libr. 136 B.Fol.27.

- يظهر غزوانى فى مصادر أخرى كمعاون مهم لغايلان في تطوان. عندما هاجم القائد غورفيتى طنجة فى مايو ١٦٥٨، أحضر غزوانى فى تطوان عددًا كبيرًا من الجنود حملة البنادق، الذين يُعتبرون من الرماة الممتازين. ظهر أيضًا فى هذا اللقاء الحربى كاديمى، قائد خاروب، ربما يكون سليل قائد آخر مات مقتولاً فى تطوان عام ١٦٣٥ ، أنظر:

MENEZES, F. Historia de Tángere. Lisboa 1732. Págs. 225-226.

(115) S.I.H.M. England 1.a III. P. 576.

(116) S.I.H.M. England 1.a P. 578.

(117) S.I.H.M. England 1.a P. 580.

(118) S.I.H.M. England 1.a III. P. 582.

(119) S.I.H.M. England. III. P. 586.

(120) S.I.H.M. Pays Bas. V. P. 132.

(121) S.I.H.M. Pays Bas. V. P. 115.

(122) A.H.N. Cod. Libr. 140 B.

(123) DAWD. Tarij... Pág. 234.

(124) AL OUFRANI. Nozhet... Pág 501.

(125) AL OUFRANI. Nozhet... Fol. 140.

(126) DAWD. Tarij... Pág. 238 y s.

(127) AZZUZ. "Apellidos...

(128) CORREA. Historia... Fol. 141.

(129) ESAGUY, José de Libro de los Veedores de Ceuta. Tánger 1939. P. 501.

(130) DAWD. Tarij... Pág. 242.

(131) A.H.N. Cod. Libr. 1542 B.

(132) CORREA. Historia... Fol. 143.

(133) CORREA. Historia... Fol. 144 y s.

(134) CORREA. Historia... Fol. 145.

(135) DAWD. Tarij... Pág. 243. يقدم لنا هذا المؤرخ تواريخ مختلفة.

(136) CORREA. Historia... Fol. 145 v.

(137) DAWD. Tarij... Pág. 242.

(138) CORREA. Historia... Fol. 146.

(139) YEBBUR ODDI, Abderrahim. El gobierno de Tetuán por la familia al Naqsis. Tetuán 1955. P. 21. MCMLV

(140) DAWD. Tarij... P. 273.

(141) A.H.N. Cod. Libr. 143 B.

(142) A.H.N. Cod. Libr. 144 B.

(143) YEBBUR. Op. cit. P. 21.

الفصل الثامن

ردود فعل فى أندلوثيا على لحظة مخفقة: غزو مملكة فاس (القرنان السادس عشر و السابع عشر)(*)

عند انتهاء استرداد مملكة غرناطة، كان الهدف العاجل للملوك الكاثوليك هو امتداد هذا الاسترداد فى أراضٍ إفريقية.

كان هؤلاء الملوك مكروهين بعض الشىء بسبب معاهداتهم مع البرتغال، تركوا مملكة فاس جانبًا واحتلوا مواقع حصينة فى السواحل الشمالية الإفريقية، كمفاتيح للسيطرة على الأراضى. لكن لم تكن تلك المواقع، فى الحقيقة، أكثر من نقاط دعم، أو إلغاء لبؤرة القرصنة، أو على الأكثر أداة لوضع حكومات محلية. كان الهدف المطلوب تحقيقه هو احتلال مملكة فاس هذه، التى كانت سواحلها القريبة جدا من شبه الجزيرة تشكل مشكلة سياسية وحربية ذات أهمية كبيرة.

كانت الضفة الأخرى من المضيق، حيث وضعت البرتغال أقدامها منذ بدايات القرن الخامس عشر، محل اهتمام السياسة الإفريقية للملوك الكاثوليك التى تحدثت عنها الملكة فى وصيتها الشهيرة، وتحدث عنها الملك فى محاولته، التى عُرقلت قبل موته بخمسة أعوام، بسبب تقلبات السياسة الأوربية.

فيما بعد، عندما كان حفيده غارقًا فى آلية مختلفة للقوة الإسبانية الموجهة إلى الشمال والغرب، لم يهتم بالضفة الأخرى من مضيق جبل طارق، المتروك حينئذ بالكامل فى أيدٍ برتغالية، و بقت مملكة فاس فقط فى ذكرى بعض العقول.

(*) عُرض فى المؤتمر الثانى لتاريخ أندلوثيا. قرطبة، أبريل ١٩٩١ .

سوف نشير فى هذه الدراسة، فى المقام الأول، إلى محاولة الملك فرناندو الفاشلة لغزو مملكة فاس، وفى المقام الثانى إلى أحلام شخصية غريبة، الأب كونترايراس، فى العصر الإمبراطورى، وأخيراً إلى دخول كل هذا فى تاريخ أندلوثيا .

إن المعالجة بعمق للموضوعات الثلاثة التى انتهينا من ذكرها غير ممكنة بسبب الطبيعة الخاصة لبحث يُلقى فى مؤتمر، ولذلك فسوف نقتصر فيها على وضع الخطوط الأولية لكى يمكنها أن تخدمنا كقاعدة فى دراسات مستقبلية.

فرناندو الكاثوليكى ومملكة فاس:

ليس جديداً أن يركِّز الملوك الكاثوليك اهتمامهم السياسى على شمال إفريقيا[١] . كانت المعاهدات تقيِّد الملوك فى هذا الصدد، و خاصة فيما يتعلق بمملكة فاس، التى تُركت للبرتغال.

كان معروفًا أيضًا قلق الحكام القشتاليين بسبب الهجوم البحرى الذى كان يبرز باستمرار ضد مياه المضيق والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة، من واجهة البحر المتوسط لمملكة فاس.

ولكن كان معروفًا بصورة أقل أن للملك فرناندو تعاملاً وعلاقةً مع القادة المغاربة لمملكة فاس، وأنه بالرغم من تأخر ذلك فقد عزم على احتلال فاس بمساعدتهم، بالرغم من المعاهدات و بالرغم من معارضة البرتغال.

قبل وبعد تسليم العاصمة الغرناطية توجد إشارات أكيدة على العلاقات السابق ذكرها . وقد قُمت ببحثها فى عدة دراسات منشورة بالفعل[٢]، لكن جمع هذه الدراسات هنا والآن ليس عديم الجدوى.

ذكر فرناندو دى ثارا Fernando de Zarra فى كتابه "رواية الهدايا التى قدمت للمسلمين" "relación de regalos hechos a moros"، فى ١٤٩١ ، شخصًا يدعى حامد الكرياف Hamet Alcriaf، سفيراً فى باراكس Barrax ، تكلفت هديته مبلغ

٨,٣٥٠ مرابطى[٣] . من مايو إلى يونيو عام ١٤٩٢ نعرف وثيقتين تتحدثان، مباشرةً إلى حدٍ ما، عن على باراكس المذكور و سيدى على بن راشد، مع الملوك الكاثوليك. الوثيقة الأولى هى محضر توثيقى يتحدث فيها عن مدينة ترغة، " إقطاعية على باراكس"[٤]، و الوثيقة الثانية هى وصية ملكية تذكر ببساطة حاكم ترغة [٥] .

إن سيدى على بن راشد المالك فعليًا للشمال المغربى، ذى التأثير الملحوظ على العديد من المنفيين الغرناطيين كان يمثل قطعة أساسية فى لعبة التأثيرات التى كان ينميها فرناندو الكاثوليكى من خلال إسهاماته العميقة لكى يحقق سياسته الخارجية. لم يكن لثافرا وتنديا صلات مع بن راشد فحسب، لكن أيضًا كان الثانى يصفه "بأخٍ وصديق"، و كان يرعى اهتماماته فى شبه الجزيرة كما لو كانت تخصه[٦] . اتصل تنديا أيضًا بالقائد المحارب الآخر للشمال المغربى، سيدى على المنذارى، الغرناطى، القائد السابق لبينيار، وصهر بن راشد وقائد المهاجرين من مملكة بنى نصر الوافدين إلى هذا الجزء من الأرض المغربية[٧] .

ليس هناك شك فى أن الملك الإسبانى، المشغول للغاية بالواجهة الجنوبية والمقتنع بعدم جدوى الجار البرتغالى للحفاظ على السيطرة، كان يقرر التدخل بصورة فعالة وقاطعة فى مملكة فاس. منعته الظروف حتى عام ١٥١١ الذى تجمعت فيه الاستعدادات الحربية للقيام بالمحاولة. تم توثيق هذه الاستعدادات بكثرة فى مصادر قشتالية وبرتغالية[٨] .

مع ذلك فإن واحدًا فقط من هذه المصادر هو الذى يتحدث بوضوح عن مملكة فاس كهدف للإجراءات التى اتخذها الملك فرناندو للهجوم على شمال إفريقيا بنفسه على رأس جيش قوى.

يؤكد دامياو دى غويس Damaiao de Gois، (١٥٠٢ – ١٥٧٤)، مؤرخ العديد من الملوك البرتغاليين المعاصرين له، أنه كانت هناك محادثات بين الملك فرناندو وعلى بن راشد، كان الثانى يتعهد فيها بمساعدة الأول عندما يذهب إلى مملكة فاس، بشرط أن يجعله ملكها، وأن يبقى كجابى ضرائب فى قشتالة. أرسل فرناندو إنذارًا نهائيًا إلى سلطان فاس، مع سلسلة من المتطلبات الصعبة، إن لم تكن مستحيلة

التنفيذ. كانت هذه المتطلبات بالنسبة لغويس مجرد تبرير لكى تقوم الحرب على السلطان. فى رسالة أخرى لحاكم الشمال المغربى مولاى ألباراكس، كان يشير إليه لكى يجهِّز كل أتباعه وحلفائه و أصدقائه حتى- عندما يغزو هو مملكة فاس - يجد مساندات وسهولة أكثر فى خلع السلطان الحاكم، مولاى محمد. سينصّب بن راشد ملكًا محله، و سيحوله إلى تابعه[٩] .

لم يكن للحدث تأثير بسبب الضغط الفرنسى على إيطاليا، التى يعتبرها الملك الكاثوليكى خطيرة، لدرجة أنه هجر بالكامل محاولته التى صرف من أجلها نفقات كبيرة و وجَّه لها عنايته الفائقة. كانت الموانى الجنوبية تُرى مكتظة بالتجهيزات والجيوش والمراكب المتوجهة إلى القيام بالعملية. لم يسعفه الوقت، أيضًا، لمحاولة ذلك من جديد وبقت مملكة فاس كهدف لا يستطيع الوصول إليه وحلمًا لأهل أقليم أندلوثيا، فهم الذين كانوا سيعانون مستقبلاً من جوارهم لذلك العدو.

مملكة فاس فى ذهن الأب كونتريراس

لم تمر أعوام كثيرة عندما ذكَّرنا أحد الأندلثيين، ذو نزعة صوفية، لكن ذو جذور واقعية، "بغزو مملكة فاس"، هذه المرة فى فترة حكم خليفة الملوك الكاثوليك، الإمبراطور كارلوس الأول. يتعلق الأمر بالأب فرناندو دى كونترايراس، الإشبيلى الذى قمت برسم أوَّلى عن حياته وأعماله فى دراسة أخرى حديثة عنه[١٠] .

أنهى الأب كونترايراس حياته كمفتدى للأسرى، ومنذ عام ١٥٣٩ حتى عام ١٥٤٨، تاريخ وفاته، حقق عمله فى مملكة فاس وبالتحديد قضى فترات طويلة فى تطوان، حيث عقد علاقات خاصة وحميمة مع سلطات المدينة، خاصة مع القادة: أولاً مع مؤسس المدينة الغرناطى، على المندارى وثانيًا مع خليفته، البسطى، أحمد حسن. كانت المدينة مليئة بالأندلوثيين كما سنرى فيما بعد. كان بعضهم مهاجرًا من المملكة الغرناطية قبل سقوطها النهائى و البعض الآخر منفيًا بعد ذلك. إن تطور الأحداث فى المملكة الإسلامية الإسبانية القديمة قد أطلق موجات متتابعة من الأندلسيين تجاه

سواحل الشمال الإفريقى. كانت الموجات الأخيرة تصل مع أسماء مقشتلة بسبب عمليات التنصير الإجبارى، بداية من عام ١٥٠٢ . تقابل الأب كونترايراس مع أناس مختلفة عنه دينياً كما التقى بمشاعر كره وضغينة فى بلاد المنفى.

أقام صداقة مع المندارى جعلته يحاول تحويل القائد العجوز إلى المسيحية قبل موته بقليل فى بدايات عام ١٥٤١ (١١)(*) .

استطاع خليفته، أحمد حسن، تقديم نفسه كتابع للإمبراطور، و ألح على كونتريراس لكى يسرع من الاستعدادات بهدف تسليم تطوان إلى إسبانيا وهذا كمدخل لغزو مملكة فاس.

اعتقد الإشبيلى أن كل شىء يمكن تحقيقه. تحمَّس وكتب للبعض والبعض الآخر، وبدأ بالأمير فيليبى(١٢)، وانتهى بكردينال طليطلة(١٣) . تعاقبت الكتابات دون أن يرى الراهب الطيب الصبور أى حل.

كتب كونترايراس: "آه يا سادة، أيها السادة المسيحيون، المتحمسون لنصر عقيدتنا الكاثوليكية، تحفزوا لذلك جيداً!......................" (١٤) . فى نفس المكتوب لم يتوقف الأب فى فاس، حيث أنه أطلق لخياله العنان فتحدث عن بيليث ومراكش وأيضاً الصحراء، "وهى من حيث يأتى التبر الذى يأخذونه من الرمال بدون حفر". أعطى تعليمات من أجل حكومة مستقبلية جيدة مكونة من "مسلمين ويهود"، ويرغبون بكل حب فى مجيئنا"؛ يكفى، وفقاً له، معاملتهم بصورة جيدة وبذلك سيحرثون ويرعون الأرض لانتاج ما يكفى، ليس فقط من أجلهم، لكن لإمداد قشتالة. "... هذا أكثر من وهران"، يؤكد، و هو يمزج خططاً تبدو واقعية، مع أخرى لها مظهر خادع، واعترف أن لديه عصا يمكنه بها أن يكتشف كنوزاً مختبئة، يعرف بالفعل أين تُوجد(**).

(*) نعيد التذكير بدراسة زميلتنا برامون التى تسخر فيها من الوثيقة التى تتحدث عن تنصير قائد تركى . (المراجع)

(**) هل بعد كل هذا الخيال الجامح يمكننا تصديق روايته عن تنصير على المندارى؟ . (المراجع)

طلب منه القائد أن يأتى أمير قشتالة، السيد برناردينو دى ميندوثا، (عند مصب نهر مارتين، أى عند شاطئ تطوان، أو عند ألمونيكار، ركن المضيق الحالى، فى منتصف الطريق، تقريبًا بين سبتة وتطوان) لكى يتفق معه.

أكد كونتريراس أنه يوجد خمسة آلاف أسير وأنه أحصى مجموع افتداءتهم وسيغطى نفقات أى عملية. على العكس، كان المسلمون يمكنهم بهذه النقود التسلح بسفن أكثر وإحضار أسرى جدد. قال إنه ظل ثلاثة أعوام منتظرًا ردًا لكل كتاباته، دون إجابة. كان قائد تطوان يمكنه خلال هذه الأعوام الثلاثة أن يلح، أكثر فأكثر، على صدور قرار بخصوص هذه النوايا التى عُرضت على الراهب بوضوح جدا. ربما كان يرغب فى الوصول إلى اتفاق مع ميندوثا، مثلما فعل والد الأخير، كونت تنديبيا، مع والده حسن، قائد باثا. ظل الأب كونتريراس دون رد، أو عنَّفه رؤساؤه.

إن غزو مملكة فاس، كما تبين لنا، لم يكن فقط مجرد فكرة تراود خياله، بل ظلت أيضًا فى أحلام قائد بسطى، كان يتحكم فى مصائر تطوان، وراهب إشبيلى، مفتد للأسرى (١٥) . إن كاردينال طليطلة، فى رسالة إلى رئيس ليون، يعلمه فيها بكل أخبار الأب عن مملكة فاس وقائد تطوان، لكى يعرضها على مجلس الدولة، فى ٨ مايو عام ١٥٤٥، ويحدد رأيه حول هذه الأحلام فى جملة يقول فيها: "الأشياء التى يقولها لها – فى رأيى – أساس ضعيف" (١٦) .

أسرى مملكة فاس:

يقودنا الأب كونتريراس إلى واحدة من المظاهر الأكثر إيلامًا فى الوضع القائم كنتيجة لإهمال التاج الإسبانى للواجهة الجنوبية. سوف تصبح أندلوثيا هى التى تدفع الضرائب الأكثر فى الأرواح والثروات. من الممكن أن يكون ذلك أصل انحدارها الدينى. فمن ناحية كان هناك الاستنزاف البشرى المستمر الذى كان يمثله منفيو المملكة الاسلامية الإسبانية. ومن ناحية أخرى كان هناك الافتقار لمنطقة ساحلية للجنوب الأندلسى، المهجورة بسبب الهجمات والأضرار المستمرة. وأخيرًا، الأسْر، الذى كان

يؤدى إلى نقص الأيدى العاملة ونقل رؤس الأموال التى كانت تُنفق على الافتداءات، من إسبانيا إلى المغرب.

تلك المظاهر الثلاثة التى كانت لها نتائج سلبية فى إسبانيا، كانت لها نتائج إيجابية فى المغرب. أحيا المنفى والقرصنة والافتداءات تلك المدن المغربية، وتحول بعضُ منها، مثل تطوان والشاون، التى أسسها الغرناطيون، إلى نواة مدنية ذات أهمية كبرى.

أسهمت أموال الافتداءات، فى بعض الحالات المحددة، مثل تطوان نفسها على سبيل المثال، فى خلق سلطة حاكمة محلية، و دعم بعض البُنى الاجتماعية، التى اعتمدت بشكل كامل تقريبًا على أنشطة القرصنة (١٧) .

سوف يمتد فى الزمن مظهر الأسير، الكلاسيكى فى إسبانيا القرن السادس عشر، فى مساحة من الوقت تصل إلى أكثر من ثلاثة قرون، حيث تعطى صفة الاستمرارية للمواجهة الإسلامية – المسيحية، وتمنع التقريب بين شعبين جارين. كانت هناك ألقاب متشابهة تتطابق فى بعض الأحيان يحملها الأسياد فى بعض الأحيان، ويحملها العبيد فى أحيانٍ أخرى.

نجد بين أسماء ملاك العبيد للافتداء، على كاستيو وعلى بيرالتا وبراهيم (سانتيانا) وعبد الرحمن ليون وعلى موراليس وعلى أراغون وأمين بالنثويلا، وقاسم كابريرا وعبد الكريم ليون وعلى سوريا وحامد بلانكو وحاج مونتيل وعلى ميندوثا وآخرون، وهى أسماء ظهرت فى وثيقة افتداء واحدة (١٨) .

القائمة لا تنتهى، لكن يمكننا أن نكمل ونتجاوز أيضًا القائمة التى قدمناها فى دراسة سابقة، التى كانت تصل إلى مائة وتسعة وستين لقبًا للمنفيين الأندلسيين لها اشتقاق قشتالى، فى تطوان فقط (١٩) . لا يزال الكثير منها موجودًا فى أيامنا هذه. لم نشمل كل هؤلاء، الذين – سواء بسبب الكراهية أو بسبب شعور دينى بسيط – كانوا يتخلون عن الألقاب المأخوذة فى شبه الجزيرة بشكل كامل، عند الدخول فى العالم الإسلامى، وكانوا يتحولون إلى مفضل أو أبوعلى، كما وجدنا فى وثائق كثيرة. إنها ألقاب يمكن أن نرجعها إلى رفقاء محتملين لمنفى المندراى، حيث أن واحدًا منهم

ظهر في وضع عبد مسيحي لمدة ثلاثة وعشرين عامًا كاملةً، في افتداء عام ١٥٢٣ في تطوان [٢٠] .

كم من أذرع مفقودة، خسرتها الزراعة، و الصناعة الناشئة والتجارة والصيد، وأى نشاط إنتاجي، إذا أضفنا المنفى والعبودية! وكان إقليم أندلوثيا هو الذى يعانى الجزء الأكبر من الخسائر الموجودة لسبب أو لآخر. يكفى مراجعة المخطوطات العديدة للافتداءات المنفذة في مملكة فاس، أو كما يقولون إحصاء الكثير منها، في مملكة فاس والمغرب وتطوان. كانت هذه المدينة الأخيرة تعتبر بؤرةً أساسية لبيع العبيد المسيحيين.

إلى جانب الألقاب الموريسكية نجد ألقاب عبيدهم التابعين لهم، والتى يذكر مصدرها في بعض الأحيان. بهذه الطريقة نستطيع رؤية الإشبيلي سبستيان هيرنانديث" أسير أمادور ميخيا، مسلم أندلسي"، و بدور دياث من ليبي Lepe عبد عمار نامياس والقرطبي امبروسيو دى هيريرا في سلطة اليهودى صاموبل بيمينتا، -حيث أن المنفيين اليهود كانوا يشتغلون أيضًا بتجارة العبيد،- والولبي غاسبار بييوسو أسير خوسيه أتشويلا مسلم، والمالقي سبستيان كاستيانو، والغرناطي خوان هيريرا، بدرو بيثكاينو من بالوس، الذى كان تعيس الحظ ، حيث أنه، لسوء حظه، مات في تطوان بعد افتدائه.كانت كل هذه المعلومات من سجل افتداء واحد فقط. يمكننا التقاط أسماء أندلسيين كثيرين جدا، حيث أننا أخذنا فقط عينة من أقاليم مختلفة، لكن يمكننا ذكر مدن وقرى أندلسية، من كارمونا حتى جبل طارق، من المرية حتى أيامونتيه، كي نملأ صفحات كتاب. من المؤكد أنه كانت هناك أسيرة من المرية مع طفلة عمرها شهران "كانت تحملها على صدرها" ! ياالسوء الحظ![٢١] .

لن نستطيع نسيان أموال الافتداء في حد ذاتها. توجد إحدى عمليات الافتداء، ربما الأكثر تكلفةً في التاريخ، أخذنا منها المعلومات المذكورة سلفًا، حيث بلغت تكلفتها ليس أقل من سبعة ملايين مرابطي؛ بالتحديد ٧,٤٦٣,٢٥١ مرابطيًا لكي نكون دقيقين.

بالرغم من هذه التكلفة الضخمة، الكافية لإنشاء وامتلاك أسطول من ثلاثة سفن في مضيق جبل طارق، فقد كانت استثنائية، حيث إنها تحققت في افتداء عام ١٥٧٩،

أو فى عام معركة القصر الكبير، وحدثت افتداءات أخرى بمبالغ كبيرة، مثل افتداء عام ١٦٠٩، على سبيل المثال، الذى ارتفع إلى أكثر من ثلاثة ملايين، بالتحديد ٣,٩٠٥,٦٨٠ مرابطى، أى ما يقرب من أربعة ملايين(٢٢) . قبل ذلك بعامين تم تسجيل افتداءات قيِّمة لحكام تطوان. إن مقدم المدينة، أحد أفراد النقسيس، والذى كان عبيده، بجانب عبيد القائد، هم أول من يباع، لم يكن يطلب أقل من ٢,٠٠٠ ريال فديةً للشخص، أى ٦٨,٠٠٠ مرابطى، فيما عدا حالات استثنائية نادرة(٢٣) .

عند الاستيلاء على الغنائم كان القراصنة يحملونها للبيع فى تطوان، حيث تشتريها هذه الشخصيات ذات القدرة المالية الواسعة والذين كانوا يستطيعون تخزينهم "كبضائع" فى السجون الكئيبة المشهورة. كانوا يتركزون فى أيدٍ قليلة، وبوجه عام، فى أيدى البرجوازية المحلية، وكان العبيد يتم اقتناؤهم بأسعار منخفضة ويعاد بيعهم بعد ذلك لرجال الدين المفتدين وتحقيق مكاسب كبيرة. كانت هذه المكاسب الكبيرة تدعم القوة الاقتصادية لمدن بأكملها. شكلت الافتداءات " فى ممالك فاس والمغرب وتطوان" نزيفًا ضخمًا للممتلكات وللعائلات المسيحية فى شبه الجزيرة، كان ذلك تدعيمًا مفيدًا للمصادر المغربية الفقيرة. يمكننا زيادة المعلومات الاقتصادية فى اثنى عشر افتداءً تم بحثهم، لكن ليس هذا هو موضوع هذه الدراسة. أعتقد أنه يكفينا، ما أظهرناه فى السطور السابقة، لكى ندرك التكلفة الباهظة فى الأرواح والثروات التى أدى إليها تحول السياسة الإسبانية عند اختفاء الملوك الكاثوليك.

ستُقدم بعض الملاحظات الأخيرة لإنهاء هذه الدراسة.

فى المقام الأول، إن تاريخ الأندلس، كتاريخ إسبانيا لا يمكن كتابته بانفراد دون معرفة تاريخ المغرب ودون ربطه به.

فى المقام الثانى، من الممكن أن نجد أن بعض اصول التخلف فى أندلوثيا فى بعض مظاهر تاريخها لم تُبحث بصورة كافية.

وأخيرًا، داخل تاريخ المغرب المجهول، ما زالنا نجهل النتائج التى أدى إليها تخلى إسبانيا عن الجبهة الجنوبية و أثر انعزال المغرب – من ناحية – وفرض العزلة عليه – من ناحية أخرى – على تطور الحياة فيه(٢٤) .

الهوامش

(1) SUÁREZ FERNÁNDEZ, Luis, en "La España de los Reyes Católicos" de la Col. De H.a de España de M. Pidal. Tomo XVII, vol. II. Pp. 307-8 y ss.

(2)GOZALBES BUSTO, Guillermo: Al Mandari, el granadino, fundador de Tetuán. Granada 1988. Capts. VI y VII. V.

أنظر كذلك دراستي عن:

" Alí ben Rasid intenta ocupar Ceuta en 1490". Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta. Año I. N.* 3 1988. Pág. 74.

(3) GARRIDO ATIENZA, Miguel. Las capitulaciones para la entrega de Granada. Granada. 1910. P. 207.

(4) LADERO QUESADA, Miguel A. Los mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel I. Valladolid. 1969.

(5) Archivo Catedral de Malaga. P. 62. Pág. 44.

(6) يوجد حديث عن ثافرا و على بن راشد في

C.O.D.O.I.N. vol. LI Pp. 51, 67, 72, 99.

(7) MENESES, Emilio. Correspondencia del Conde de Tendilla Madrid, 1974. III-36.

(8) يمكن الإشارة إلى الدراسة السابقة كملخص لها:

DOUSSINAGUE, José M. La política internacional de Fernando el Católico, en el Capt. XXVII, Pp. 453 a 465 y el Apéndice 54, Pp. 647 y ss.

(9) GOIS, Daniao de. Chronica d'el Rei D. Manuel. Lisboa 1909. 3.a parte Capt. XXIII y vol. XII. Pp. 73 y s. V. también el Cap. VII de mi "Al Mandari..." ya citado.

(10) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "El P. Contreras en Ceuta". Cuadernos del Archivo Municipal de Ceuta. n.* 8. En prensa.

(11) ARANDA, Gabriel de. Vida del V.P. Fernando de Contreras. Sevilla 1692; P. 536.

(12) Sources Inedites pour l'Histoire du Marox (S.I.H.M.) Espagne 1.a Serie. Tome I. París- Madrid-1921 Pp. 95 y 99.

(13) S.I.H.M. id. Id. P. 101.

(14) S.I.H.M. id. Id. P. 110.

(15) S.I.H.M. id. Id. Pp. 107 y s.

(16) S.I.H.M. id. Id. P. 119.

(17) GOZALBES BUSTO, Guillermo: "La sociedad granadina- nasrí en el exilio". Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su reino. Segunda época. n.* 3, Granada 1989.

(18) Biblioteca Nacional. Madrid. Manuscrito n.o 3.628, folios 24 y s.

(19) GOZALBES BUSTO, Guillermo. "Notas sobre la tradición oral morisca en Tetuán". Anales del Colegio Universitario de Almería. Ano 1982. Letras. P. 102. En este mismo libro Antroponimia morisca en Marruecos.

(20) Archivo Histórico Nacional. Osuna. Leg. 422-9.

(21) Biblioteca Nacional Madrid. Manuscrito 6.569.Fol.

(22) 18 V.

(23) Biblioteca Nacional Madrid. Manuscrito n.* 4.390.

(24) Biblioteca Nacional Madrid. Manuscrito n.* 2.791.

الفصل التاسع

صفحات من التاريخ

تأمين أولاد النقسيس:

تحت عنوان "صفحات من التاريخ"، نجمع، حرفيًا، بعض الوصايا المباشرة، نقلها كتّاب عموميون من مدينة تطوان نفسها، حينما كانوا يرافقون إجباريًا الافتداءات التى تنفذها الجمعيات الدينية فى المدينة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. هناك وثائق أخرى ستكمل الرؤية العامة.

فى بعض الأحيان لا يقدم نفس الكتّاب الوثائق، ولكن يدمجونها مع مجموع الكتابات والكشوف، التى كانت تكوِّن حصيلة الافتداء، كما هو على سبيل المثال، المكتوب الذى نعرضه فى مقدمة هذه الصفحات التاريخية.

تتعلق الوثيقة بتأمين أو بجواز المرور، الذى أعطاه إخوان النقسيس، المسئولون عن السلطة السياسية فى تطوان، فى اليوميات الخاصة برجال الدين من جمعية الثالوث المقدس الذين ذهبوا لافتداء أسرى فى يونيو عام ١٦٢٥ . سنقتصر باختصار على اللحظة التاريخية التى حُررت فيها هذه الوثيقة.

عندما مات القائد العظيم أحمد بن عيسى النقسيس، فى أكتوبر عام ١٦٢٢، خلفه أبناؤه فى حكومة تطوان. سيخلف هؤلاء فى السلطة أبناء آخرون بالتوالى، حتى الربع الثالث من القرن، والذى قرب نهايته قام الملك العلوى الثانى، مولاى اسماعيل بإبادة العائلة. هكذا، إذن، منذ نهايات القرن السادس عشر، بدأ تأثير ونفوذ أفراد عائلة

النقسيس على الحياة التطوانية، واستمر وجودهم وجاذبيتهم فى أعمال المدنية ما يقرب من قرن أطلقنا عليه "قرن عائلة النقسيس" وهو يلى قرن المنداری، مؤسس تطوان.

يجب ملاحظة أن التأثير الذى طبعه أفراد عائلة النقسيس فى سير عجلة السياسة فى الشمال المغربى كان دون شك ذا أهمية حيوية لباقى البلد، لدرجة أنه دون الموريسكيين وأفراد النقسيس، فإن تاريخ المغرب، خلال القرن السابع عشر، كان سيكتب بطريقة أخرى. فى نهاية الوثيقة التى نقلناها، وبعد ذكر المناصب الخاصة بكل منهم، نستطيع أن نرى التوقيعات، باللغة العربية، لإخوان النقسيس الأربعة، الذين كانوا يحكمون المدنية معًا وهم، من اليمين لليسار، كما هو مكتوب بالعربية، أحمد بن أحمد النقسيس والحاج بن أحمد النقسيس، وعبد الله بن أحمد النقسيس وعبد الله عيسى بن أحمد النقسيس.

إن هذه الآثار الحقيقية لأفراد النقسيس تجعل من هذه الوثيقة، بالنسبة لنا، واحدةً من الوثائق الأكثر قيمة من بين كل الوثائق التى رجعنا إليها.

فيما يلى نقل للتأمين الموجود فى مخطوط ١٢٧ب، قسم المخطوطات القديمة للأرشيف التاريخى الوطنى.

فى المقدمة بحروف عربية، وفيما يبدو، بنفس خط كاردیناس الجميل:

الحمد لله وحده

على اليسار بحروف صغيرة ومختلفة:

جواز مرور من تطوان

فى جسم نفس الورقة رقم ٣٤:

نحن المقدمون الموقعون بالأسفل، نعطى تأمينًا إلى الآباء المفتدين: الراهب غرابيل دى لا أسونثيون Graviel de la Asunción والراهب سبستيان دى لا مادرى دى ديوس Sevastián de la madre de Dios، رجال الدين الفقراء من جمعية الثالوث المقدس لافتداء الأسرى، وإلى لويس أوتشوا Luis Ochoa، كاتب هذا الافتداء و إلى

جوزيف ميخياس Joseph Mejías، الصبى اليهودى، و إلى أى أشخاص آخرين يُحضرهم هؤلاء المفتدون فى صحبتهم، لكى يستطيعوا كلهم أو أى منهم الدخول فى مدينة تطوان، للقيام بافتداء الأسرى المسيحيين دون أن يلحق بهم ضررٌ، أو مضايقة، لأى سبب من الأسباب، أو أى حدث وقع من قبل أو بعد تأميننا هذا.

ونعطيهم تأمينًا آخر لا يُلزمهم بحمل أسرى بالقوة، بل من يرغبون فيهم، هكذا من جانبهم، أو من جانبنا. تحت الاتفاق الجيد. ولا نلزمهم بالقيام بأى مجهود، أو أى شىء ضد إرادتهم، ولكن سنتعامل بكل بساطة فيما سنتفق عليه. ولن نعتقلهم ولكن سنعيدهم بالتأكيد إلى مدينة سبتة، بعد القيام بالافتداء أو إذا رغبوا فى العودة، دون الضغط عليهم أو مضايقتهم أو تكديرهم، هذا يتعلق بهم كلهم مجتمعين أو بأى منهم، بوجه خاص، سيُعاملون معاملة جيدة، ولذلك نوقع، ما قيل سلفًا، // نهاية الورقة ٣٤//، بأسمائنا باللغة العربية. وهذا التأمين سيكون باللغة القشتالية، وسيصدق عليه سكرتيرنا، قاسم كارديناس Casim Cardenas، الذى قام به فى تطوان فى الأول من يوليو عام ١٦٢٥ . المقدمون، أولاد النقسيس، الحاج وحامد وعبد الله وعيسى النقسيس، المقدمين، حكام تطوان.

يلى ذلك توقيعات الإخوان الأربعة، باللغة العربية، حتى منتصف ظهر الورقة رقم ٣٤ .

يتبع هذا التأمين لأولاد النقسيس نموذج التأمينات التى تنتمى إلى نفس النوع، ويشتمل على كل نوع من الضمانات، المقدمة لرجال الدين، سواء على أرواحهم أو على أملاكهم، وعلى حسن المعاملة الشخصية. كان هناك شىء آخر بوجه عام، وهو تنفيذ الفقرات الموجودة فى هذا التأمين، الذى يؤدى عدم الحفاظ عليها إلى شكوى الرهبان، الذين كانوا يُجبرون، فى أكثر الأحيان، على شراء أسرى غير مرغوب فيهم وغير مطلوبين. كان يوجد من بين الأسرى الغير مرغوب فيهم من يسمون "بالمُرحَّب بهم"، وهم الهاربون من حاميات الحدود، والذين كان يتم افتداؤهم، كوسيلة للرجوع إلى إسبانيا، هاربين من ظروف الحياة القاسية من إقاماتهم المجاورة للحدود(*).

(*) هكذا يرد تعريف "المرحب بهم" bienvenidos وهم يختلفون عن الأسرى كما نرى. (المراجع)

وكـان من بين الأسـرى غـيـر المطلوبين أجـانب، مع وجـود أوامـر صـارمـة للآباء المفتدين بافتداء الإسبـان فقط. يشمل التأمين بالإضافة إلى الرهبان والكاتب، اليهودى خوسيه ميخياس الذى، بالرغم من عدم ذكر ذلك، كان يقوم بوظيفة المترجم أو بوظيفة السمسار وأيضًا سيد أو مالك للعبيد. وصل ميخياس أو نسله، إلى أعلى المناصب الإدارة التطوانية، فكان سكرتير الحكام النقسيس فى أعوام ١٦٥٦ و١٦٦٠ و١٦٦٤ . كانت هذه العائلة اليهودية تقيم فى سبتة، بالرغم من احتمال معيشتها بين المدينتين، بسبب موقعها السياسى فى تطوان. فى الحقيقة، نفكر، أنه بالنسبة له لم يكن يحتاج لتأمين السلطات، لأنه كان يتحرك فى هذا المعسكر كالسمكة فى الماء. إن الموافقة من جانب موظفى الطرف المسيحى أو الإسلامى، على إقامتهم الازدواجية، تفرض اهتمامًا كبيرًا من الجميع بسبب الخدمات التى كان يقدمها أفراد ميخياس. ولأنهم كانوا فى خدمة أولاد النقسيس، فقد استمروا فعليًا طالما استمر هؤلاء.

Salvo conducto de Tetuan

الحمد لله

Nos los Almocadenes abaxo firmados damos
seguro a los Padres Redemptores fray Gabriel de la asumpcion
y fray Sebastian de la madre de dios Religiosos descal
sos de la orden de la SSma Trinidad Redempcion de cautivos
y a Luis Ochoa escrivano de la dha Redempcion y a Joseph
Messias el moço judio y a otras quales quier personas
que truxeren los dhos Redemptores en su compañia
para que puedan todos o qualquiera dellos en
trar en el seguimiento de Tetuan a hacer el Rescate
de los cautivos Xpanos sin que sean agraviados ni
molestados por ningun caso ni acontecimiento que
aya avido antes ni despues de este nuestro seguro y
otro si no se les obligara a llevar cautivos de
por fuerza sino aquellos que ayan por bien
assi de su parte como de la nuestra debaxo de nuestro
criterio ni les obligaremos a hacer ninguna fuerza
ni cosa contra sus voluntades sino tratando llana
y lisamente en lo que nos conservaremos y no se
van detenidos sino les bolveremos a poner
segura mente en la ciudad de Ceuta con redencion
hecha o por hacer cada y quando que se quisieren
volver sin hacerles fuerza ni molestia
ni vejacion alguna a todos juntos o a
qualquiera dellos en particular sino de hacer
les a nuestro comodo y pasaje por lo
qual lo firmamos lo sobre dicho de nuestros

شكل الوثيقة

رقم (٤٥)

Nombres en Arauigo y Atestiguo ba en castellano
de gouernador por nro secretario Lacin Cardenas
q lo hiço en Tetuan a primº de Junio de
mill y seiscientos y cinquenta y cinco

Los Almocadenes Hijos de Anicasis el Hache
y hamen y Cabdalla y eca anicassis al
mocadenes governadores de Tetuan

وكتب عبد الله سبحانه احمد بن احمد النقسيس لطف الله به   وبمثله الحاج محمد بن احمد النقسيس

وبه كتب عبد الله بن احمد النقسيس   وبه كتب عبد الله عيسى
لطف الله به   احمد النقسيس لطف الله به

(تابع) شكل الوثيقة

رقم (٤٥)

إذن ملكى

توضح الصفحة التالية من التاريخ الإجراءات البيروقراطية الحذرة الذى كانت الجمعيات الدينية، المسئولة عن افتداد الأسرى ، تحتاج أن تتبعها .

كانت تبدأ بتدخل الملك نفسه، فيليبى الرابع، الذى بدونه لم يمكن حتى البدء فى أى عملية من هذا النوع. يعطينا هذا فكرة عن الوضع المتردى الذى استطاع الأسرى الوصول إليه فى شمال إفريقيا فى المجتمع الإسبانى، حيث كان تحريرهم يعتبر هدفًا للدولة. ومن جانب آخر، كان هناك اهتمامٌ بألا تتحول الافتداءات إلى تجارة مستترة أو إلى خروج العملة أو أى حركة أخرى غير شرعية. بالإضافة إلى منع الغش والصعلكة المتعددة فى إسبانيا. كان عالم الضفة الأخرى من المضيق، هو عالم "عدو الدين، عدو عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة"، كما تقول النصوص، وبالإضافة إلى ذلك، كانت تظهر منه الحركات العدائية التى كانت تجتاح سواحل وبحار إسبانيا، و تشيع جوًا من العداء لم ينطفئ منذ العصور الوسطى.

لم تكن هناك رغبة فى إقامة أى علاقة مع "أرض أعداء الدين" هذه التى- من ناحية أخرى - كانت مليئة بالمنفيين الإسبان المسلمين، وهم بالتحديد الذين كانوا يوجهون الهجمات إلى وطنهم القديم.

كان الملك الشاب فيليبى الرابع قد قضى ثلاثة أعوام فى الحكم، عندما وقع وثيقة المرور الإعفائى، ننقل جزءًا منها، وبمقتضاها كان يسمح بحمل ١٦,٠٠٠ دوقية إلى الرهبان، بينابيدس Benavides ونونييث Núnez، أو قيمتها فى صورة بضائع، بهدف افتداء عدة أسرى مسيحيين فى طنجة.

كان مبلغ ١٦,٠٠٠ دوقية أو ٦,٦٨٤,٠٠٠ مرابطى يشكل مبلغًا كبيرًا من المال. كان كافيًا للإنفاق على أسطول مكون من أكثر من عشرين سفينة، ربما كانت تستطيع الحفاظ على المضيق ومياهه المتاخمة، خلال فترة من الزمن. إذا أخذنا فى الاعتبار أنه فى نفس هذا العام ١٦٢٥، كان رهبان جمعية الثالوث المقدس فى تطوان ينفذون شراء آخر للعبيد وأنه كان نادرًا العام الذى لا تقوم فيه سواء إحدى الجمعيات الدينية

أو أخرى بسفريات من هذا النوع، إلى المغرب أو الجزائر، فسوف يمكن للفرد أن يندهش كثيراً من الثروات التى كانت تخرج من إسبانيا لهذه الأغراض فى فترة محددة، ولا نستغرب أن يكون هناك من نادى – فى ذلك الوقت – بتغيير النظام والقضاء على الافتداءات والشروع فى دفاع نشط عن البحار والسواحل بالأموال التى كانت تُنفق فى افتداءات الأسرى. يمكن أن تكون المعلومة بمثابة مرجع حيث تقول إنه فى القرن السابع عشر كان هناك العديد من مخطوطات الافتداءات سواء إلى تطوان أو إلى الجزائر العاصمة. وكان يجب على الرهبان أن يعتنوا عنايةً شديدة بالتدقيق فى حساب ووزن وعدد الصناديق التى يذهب فيها المال و عرضها على موظفى الجمارك وبعض الشروط الأخرى. أعطى الملك الإذن الحالى إلى مدينة طنجة، وكانت موقعاً نادراً للافتداء.

فى هذه المنطقة المتاخمة للحدود كان يقيم رئيس الدير مارتين دومينغيث، المسئول عن افتداء بعض الاسرى فى سلا، وهو المكان الذى كان الرهبان يذهبون إليه لتسديد الديون المستحقة للرئيس المذكور، و ينتفعون بالرحلة لافتداء بعض الأسرى الذين حملوهم إلى تطوان.

فيما يلى نقل الإذن الملكى:

و هو منقول من الوثيقة الحقيقية، التى كتبها الكاتب سالبادور دى سيثيليا، من مدينة لوخا، وجاء النص فى ظهر الصفحة الأولى من المخطوط رقم ٣٦٣٤ فى مكتبة مدريد القومية.

السيد فيليبى، بفضل الرب، ملك قشتالة.. إلخ إلى كل رؤساء البلدية والمساعدين والحكام والقادة الرئيسيين والعاديين والقضاة الآخرون والقضاء أيًا كانوا من كل المدن والقرى وأماكن ممالكنا وسيادتنا، وإلى كل واحد وأى منهم فى تلك الأماكن والولايات القضائية، وإلى قادة المسئولين عن الممنوعات وموظفى الجمارك والموانئ والحراس وإلى أى أشخاص آخرين موجودين فى حراسة أى ميناء موجود فى ممالك قشتالة

وملقــة وقـرطاجــة وجــبل طــارق وقادش وإشبيلية وإلى أى أشـخاص آخرين يكونون في هـذه الحــراسـة، وإلى كل من تظــهـر له رســالتــى هـذه، أتمنى الصـحــة وأهدى الشكر.

إعلموا أن الآباء المفتدين، الراهب فرانثيسكو دى بينابيدس والأب الراهب غاسبار نونييث من جـمعـيـة السـيـدة مـريم العذراء، وهم المفتدون المعينون من قبل قائد هذه الجمعية الراهب فرانثيسكو دى بينابيدس من إقليم قشتالة والأب الراهب غـاسـبار نونييث من قبل إقليم أندلوثيا، قد قالوا إنهم مـعينون من قبل حضـرتكم، لكى يذهبوا لافتداء الأسرى، ومن جهتنا أعطيناهم أمراً لكى يذهبوا إلى مدينة طنجة لكى يحصلوا من رئيس الدير مارتين دومنيغيث بوانييه على سبعين أسيراً مسيحياً، كانوا فى ممالك إفريقيا هناك مجاورين وأن يدفعوا فى مقابلهم ستة عشر ألف دوقية، أوضحتـها الاتفاقيات، ولكى يذهبوا للقيام بافتداء هؤلاء الأسرى والحصول على الستة عشر ألف دوقية هذه كانوا يحتاجون إلى إذنٍ منا للحصول عليها من ممالكنا للقيام بهذا الافتداء ولعدم دفع أى رسوم في الجمارك و الموانئ التى يمرون عبرها. وقد نظر رجال مجلسنا فى ما سبق واتفقوا على أنه يجب أن نأمر بإرسال رسالتنا هذه إليكم، وقد رأينا أن نرسلها بالفعل. لذلك نطلب بعد عرضها عليكم ونقلها الموقّع من أحد الكتّاب العموميين، أن تتركوا وتسمحوا لهؤلاء الآباء، الراهب فرانثيسكو دى بينابيدس و الراهب غاسبار نونييث أن يذهبوا بأمرٍ منا لافتداء هؤلاء الأسرى، وأخذ هذه النقود الستة عشر ألف دوقية، فى صورة ذهب وفضة وجواهر وأى بضائع أخرى، يحملونها معهم إلى مدينة طنجة هذه، على ألا تكون ممنوعة بقوانين (نهاية الصفحة رقم ٢) ممالكنا، وألا تتجاوز المبالغ التى يحملونها لهذا الغرض، سواء بالمرابطى، أو فى صورة بضائع، الستة عشر ألف دوقية هذه، و يجب تحميلهم فى أى ميناء أو موقع، لكى يحملوهم إلى هذه المدينة، للقيام بها بهذا الافتداء، ونطلب أن يُعرض هذا المال أولاً أمام رجال القضاء والقادة المكلفين بمراقبة الخروج من الميناء أو الموانئ التى يجب أخذها عن طريقها، وفى حضور كل كتّابنا، وإذا لم يكن الكتّاب من ممالكنا، فأى كتّاب يكونون معينين من قبلنا، على أن يُقسموا أولا حسب الاصول، وأن ينظــروا ويقومــوا بما هو مــوجود فى الرسالة بصورة جيدة ومخلصــة. ويجــب على رجال الدين المذكورين وسالبادور

دى سيثيليا، كاتبنا، معًا، وليس واحد دون الآخر، أن يحضروا ويزنوا العملات المرابطية هذه والبضائع ويضعوها فى الصندوق أو الصناديق، حسبما يجب أن يذهبوا، و تُغلق هذه الصناديق، وتُحمل وتدون وتُعد، ويجب أن يكتب دائمًا عدد العملات الموجودة فى كل صندوق وما يزنه كل واحد وما يحمله، وأن تراجع البضائع، وتُسجل السفينة التى يجب أن تذهب، ويكتب ذلك دائمًا فى ظهر رسالتنا الأصلية و فى نسختها هذه، موقعة منكم ومن قضاتنا ورجال الجمارك والضرائب والقادة //نهاية ظهر الصفحة رقم ٢// وأن يشهدوا، مع توقيعهم، على الطريقة التى أخذوها بها وبأى مبالغ أو بضائع وما يحمل فى كل صندوق، وكيف تم إغلاق الصناديق وتدوين المبالغ وعدها، وما يزنه كل صندوق وكيف تم إدخالهم فى هذه السفينة، وكم عدد الصناديق التى تحوى هذه البضائع، ويجب على رجال الدين الذين يحملونها أن يحضروا أو يرسلوا شهادة أو دليلاً كافيًا إلى بلاطنا، فى غضون ستة أشهر من وقت الحصول على هذه البضائع، وكيف تم توظيفها فى العملية، وفى غضون ثلاثين يومًا، اعتبارًا من يوم الحصول على هذه العملات المرابطية والبضائع، وهم ملزمون أيضًا بإحضار أو إرسال رسالتنا الأصلية هذه أو نسختها هذه إلى بلاطنا، ويدفع المخالف غرامة قدرها ألفى دوقية إذا لم يقوموا بالأمر بهذه الطريقة، وبهذه الشروط المذكورة وليس بطريقة أخرى نعطى هذا الإذن الذى لا تعوقه أية موانع أو حظر موجود حتى لا يمكن أخذ نقود من ممالكنا هذه، ونحن نعفو عن كل شىء بالنسبة لهذا الأمر ونطلب أن تستمر رسالتنا لسحب هذه النقود والبضائع من ممالكنا وولاياتنا خلال فترة تشمل أول ستين يوم تالية، اعتبارًا من هذا اليوم، تاريخ الرسالة فصاعداً و أن تكون صالحة بالرغم من عدم كونها موقعة من محاسبينا الرئيسيين، ومن يخالف ذلك يعاقب بدفع مبلغ// نهاية الصفحة رقم٣// خمسين ألف مرابطى. كُتب فى مدريد فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٢٤ . أنا الملك. توقيع كل من السيد فرانثيسكو دى كونتريراس و بدرو دى تابيا. السيد ألونسو دى كابريرا و دون بيرينغير دى أوراث و السيد بدرو مارموليخو والسيد غارثيا دى أبيانيدا و السيد سبستيان أنطونيو دى كونتريراس. سكرتير المملكة جعلنى أكتبها بأمره، سجلّها مارتين دى ميندييتا.

أحمد النقسيس يثور على السلطان:

فى نهاية عام ١٦١٤ أرسلت جمعية مريم العذراء بعثة إلى سبتة، لكن ليس من أجل افتداء مسيحيين من تطوان، بل من أجل التفاوض بشأن ذلك مع الذين كانوا موجودين فى الجزائر، فقد منع ملك إسبانيا السفر إلى الجزائر، لكون هذه السلطات غير جادة.

حينئذ انصرفت سفينة يملكها أحد الفرنسيين، الذى وصل إلى الميناء السبتى فى هذه الأيام و تعهد بالذهاب والعودة من الجزائر، بأسرى من هناك.

رحل الآباء المفتدون، مع الكاتب لاكيتيغى، إلى تطوان فى ١٧ من ديسمبر لطلب مساندة حكامهم فى العملية التى يفكرون فى القيام بها. كان هؤلاء الحكام، وفقًا للدليل الواضح للمخطوط الذى سننقله، هم أمو بن عمار، القائد الأكبر، الذى كان يحكم باسم مولاى عبد الله، ملك فاس، وأحمد النقسيس، المقدم.

عرضنا المعلومات التاريخية فى مكان آخر من هذه الدراسة، لكن من الضرورى تلخيصها، لأننا هنا نتقابل مع صفحة أخرى حية من التاريخ التطوانى.

كان مولاى عبد الله ابنًا للسلطان مولاى الشيخ، الذى قتله أحمد النقسيس أو حرَّض على قتله فى ضواحى تطوان. حدثت الواقعة فى عام ١٦١٣، عندما حاك النقسيس، و هو هاربٌ فى الجبال المجاورة للموقع، مؤامرة مع قادة آخرين ودخلوا فى تطوان، وأعدموا القائد، بودبيرا، الذى عينه الشيخ، الذى أعدموه أيضًا.

ومع ذلك أصبح ابن الشيخ، لا نعرف كيف، مسيطرًا على المدينة، بالرغم من سماحه بوجود المقدم أحمد النقسيس فيها. هكذا كما سنرى فى النص الذى حرره الكاتب لاكيتيغى، فى الصفحات من ظهر الصفحة ١٧ إلى الصفحة ٢٤ من المخطوط رقم ٣٨٧٠ فى مكتبة مدريد الوطنية. سوف تكون المعايشة، فى هذه الأيام من نهايات عام ١٦١٤ وبدايات عام ١٦١٥، بين القائد الأكبر، أمو بن عمار، نائب مولاى عبد الله

مع الحاكم التطوانى العجوز، المقدم النقسيس. كان يجب على أمو بن عمار إزاء استدعاء من ملكه، مولاى عبد الله، أن يخرج بسرعة من تطوان، و يترك المقدم كنائب لسلطته.

ما حدث هو أن أحمد النقسيس، استغل غياب أمو بن عمار، و أثار المدينة ضد مولاى عبد الله.

يعرض هذا الحدث بدقة كشف حساب الكاتب العام، الشاهد على الأحداث. إنه يحدد ويوضح التاريخ الزمنى والأشخاص، بكل وضوح، و هو شىء كان مجهولاً حتى الآن فى تاريخ المدينة.

هذا هو ظهر الصفحة رقم ١٧ من المخطوط رقم ٣٨٧٠ فى المكتبة الوطنية .

فى مدينة سبتة فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر من عام ١٦١٤، أمامى، كاتب الافتداء، والآباء المفتدين وأروديبل بينيسى، فرنسى الجنسية، ربان السفينة، المشار إليها من قبل، فى حضورى، أشهد أنهم تعاهدوا واتفقوا على الرحلة التى طلب الآباء المفتدون من الربان أن يقوم بها، وذلك وفقًا للشروط التالية. أولاً، أن يلتزم الآباء بدفع مبلغ أربعة آلاف ريال للمذكور رينيال بينيتى، لعمله خلال الشهرين اللذين سيقوم خلالهما بهذه الرحلة، من ذهاب وإقامة وعودة، بواقع ألفى ريال للشهر. وما يزيد عن هذين الشهرين يُقسم بالكمية، مع إحضار شهادة من الأب الراهب برناردو دى مونروى، مفتدى جمعية الثالوث المقدس، الموجود فى مدينة الجزائر، تفيد بكيفية تأخير هذا الربان منتظراً عند سلطات وإذن جمارك الجزائر. يُحسب هذان الشهران منذ اليوم الأخير لهذا الشهر والعام. بالإضافة إلى ذلك، كان شرطًا أن يحمل الربان – ويدعى رينيل بينيتى – الآباء المفتدين من ميناء سبتة إلى مدينة الجزائر وأن يحضر منها أمراً لهذه المدينة، فى الوقت الذى يناسب الآباء المفتدين للسفر، سواء للأشخاص الأحرار، أو الأسرى والبضائع، والذين كان ضرورياً إحضارهم وحملهم من هنا ومن هناك، ولا يجب دفع أى مرابطى عنهم كأجرة شحن، على أن توزع أى بضائع يشحنها هذا الربان، من أشخاص أو أفراد، فى هذه السفينة فى الذهاب والإياب بين هؤلاء الآباء المفتدين وبين الربان بالتساوى. وكذلك فيجب على الآباء أن يسلموا هذا الربان

تأميناً ملكياً من ملكنا صاحب كل المعاقل والقوات وسفن إسبانيا، وتأميناً من جمارك ملك الجزائر، صدرت (الوثيقة) بناءً على طلب ماركيز بياريال لنفس //نهاية ظهر الصفحة رقم ١٧//الهدف. كل ما أشهد به حدث في وجودي كما هو ثابت في الاتفاقيات الأصلية الموجودة مع الرهبان المذكورين. توقيع: خوان دى لاكيتيغى.

في مدينة سبتة، يوم الجمعة، السادس عشر من يناير عام ١٦١٥، قام الآباء المفتدون الراهب إسيدرو دى بالكارثيل، مفتدى إقليم قشتالة والراهب خينيس دى أربيتا، مفتدى إقليم أندلوثيا والراهب بدرو دى ميدينا، الوكيل العام لجمعية سيدتنا العذراء والآباء الراهب توماس سانث، مفتدى إقليم فالنسيا والراهب خوان كابيرو، من مملكة أراغون، كلهم معاً ومجتمعين، رغبة في أداء ما كان أكثر ملائمة لخدمة الرب والأسرى المسيحيين، الموجودين في سجون مدينة تطوان، تحت سلطة عدو الدين، قاموا بالاتفاق على دخول الآباء، الراهب إسيدرو دى بالكاثير والراهب خوان كابيرو، إلى مدينة تطوان، لمقابلة قائد ومقدم هذه المدينة للاتفاق على افتداء الأسرى المسيحيين،الموجودين في هذه المدينة، برضا ورغبة ماركيز بياريال وبتأمينٍ من القائد والمقدم، و قد ذهب فرانثيسكو مارتين لإحضار هذا التأمين، و هو فارس من جمعية يسوع، ولتنفيذ المهمة اتفق الآباء على الاستعداد للقيام بهذه الرحلة، وأنا بصحبتهم، أشهد على كل ما سبق. في حضوري، خوان دى لاكيتيغى.

في مدينة سبتة، اليوم السبت، السابع عشر من هذا الشهر والعام، لتنفيذ ما هو متفق عليه عاليه، رحل الآباء المفتدون إلى مدينة تطوان، بصحبة ثلاثة فرسان مسلمين وفرانثيسكو مارتين، وفارس من جمعية يسوع، كان يقوم بمهمة المقدم، وأنا في صحبتهم ووصلنا عند حلول الليل، ونزل الآباء في قلعة هذه المدينة، حيث كان أمسى بن عامر القائد الاكبر لهذه المدينة موجوداً، وبعد نزولهم قبَّلوا يديه وأعطوه فكرة عن سبب مجيئهم، واستقبلهم القائد بسرور وامتنان و أظهر حماساً في طريقته في الحديث وقال إنه سوف يقدم لهم كل المساعدات التي يستطيع القيام بها، وبهذا ودّعهم، و اتفق معهم على العودة في يوم آخر للحديث عن الأشياء والتجارة المتعلقة بالافتداء، وطلب منهم أن يذهبوا للراحة وأن يقيموا في منزل خوداساس اليهودي، في حي اليهود في نفس المدينة. وذلك حدث في حضوري، وأشهد على ذلك. في حضوري، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، يوم الأحد، الثامن عشر من شهر يناير عام ١٦١٥، ذهب هؤلاء الآباء المفتدون، فى صحبة فرانثيسكو مارتينيث، فارس جمعية يسوع، وفى حضورى أنا الكاتب، إلى القلعة حيث كان أمو بن عامر موجوداً، و هو القائد الأكبر لهذه المدينة. وبعد تقبيلهم يديه وبعدما قاموا بتعريف أنفسهم لبعضهم البعض، أعطاه الآباء فكرة عن سبب مجيئهم. وبعد ما تحدثوا وشرحوا له كل شىء، أجابهم بأن خدمتهم هى من دواعى سروره، سواء بالأفراد أو بالممتلكات وأن كل ما فى المدينة سيكون فى خدمتهم. وأنهم يستطيعون تنظيم كل ما يريدونه. وشكر الآباء له تصرفه، وعرضوا عليه خدماتهم مرة أخرى و بعد ذلك تحدثوا فى موضوعات أخرى، متعلقة بأمر إرسال سفينة إلى الجزائر، لإحضار الأسرى المسيحيين الموجودين فى هذه المدينة، حيث أحضروا معهم التوصيات و المساعدات للقيام بافتدائهم، و إنه ما لم يحدث ذلك فإنه لن يكون بإمكانهم افتداء أى مسيحى. وعندما نظر السيد القائد فى هذا القرار (نهاية ظهر الصفحة رقم ١٨).

أجابهم أن يقرروا من أى طريق يجب أن يذهبوا وعن طريق أى شخص ومن الذى يريدون الالتقاء به فى الجزائر وإنه من جانبه سوف يُسهل ذلك ويُشجع الشخص الذى سيقوم بالرحلة. وقال الآباء، لثقتهم فى المساعدات الطيبة التى يعرضها القائد، إن حامد بوردان، المسلم من هذه المدينة، كان قد اتفق معهم على أنه سيرسل هذه السفينة لحسابه، لأن له، كما قال، علاقة فى مدينة الجزائر مع على بيتشيلين ومع الأب الراهب برناردو دى مونروى، ولكى تنفذ هذه العملية يجب أن يكون موسى ميخياس، اليهودى، موجوداً لكى يظل كضامن لأى مبلغ يُسلم إلى حامد بوردان نظير المسيحيين الذين سيأتون وأنه لهذا الغرض كان ضرورياً الانتظار لليوم التالى، الأثنين القادم، حتى يصل إلى هذه المدينة، من مدينة سبتة حيث يقيم، للاتفاق على هذا الأمر مع هذا اليهودى وهؤلاء الآباء. وبذلك، ودع الآباء هذا القائد وذهبوا إلى منزل المقدم النقسيس للحديث والتباحث معه كشخص تجب مجاملته وأخبروه بكل ما هو مشار إليه عاليه ورأى أنه ملزم بأن يعرض عليهم المساعدة و استقبلهم استقبالاً جيداً. حدث كل ذلك فى وجودى وأشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، يوم الإثنين، التاسع عشر من هذا الشهر والعام، عاد الآباء من القلعة، بصحبة فرانثيسكو مارتينيث وبصحبتى أنا الكاتب، وبعد تحية أمو بن عمار، القائد (نهاية الصفحة رقم ١٩)

أمر بعد ذلك أحد المسلمين، فجأة، أن يستدعى حامد النقسيس، مقدم هذه المدينة وحامد بوردان وخوسيه باربانى وحامد بنساكور ومامى توريس وبعض المسلمين الآخرين، ملاّك العبيد المسيحيين. وبعد حضورهم كلهم، وفى وجود القائد، عرض الأب الراهب إيسيدرو دى بالكارثير، مفتدى مقاطعة قشتالة، ما يلى:

رغبةً منا فى خدمة الملك فى تقديم العون للأسرى المسيحيين، أولاً و بشكل أساسى أن يطلب السادة القائد و المقدم النقسيس برسائلهم أن يذهب شخصٌ إلى الجزائر بالسفينة المتعاقَد عليها فى سبتة لإحضار عدد من العبيد ترد أسماؤهم فى رسالة موجهة إلى على بيتشيلين والراهب برناردو دى مونروى، مفتدى جمعية الثالوث المقدس، الموجود فى الجزائر، و إذا لم يتم تنفيذ ذلك، فلن يكون لديه أمر بافتداء الأسرى الموجودين فى هذه المدينة، من رفقائهم الموجودين فى سبتة. وثانيًا، بعد رحيل هذه السفينة، مع رسائلهم، أن يؤمن لهم افتداء حتى عشرين مسيحيًا من الأسرى الموجودين فى هذه المدينة، بشرط أن يكونوا أسرى شرعيين، مأسورين فى حروب وليسوا هاربين من معاقل عظمة الملك فيليبى، ولا من الموريسكين المطرودين من إسبانيا، وأن يأمر عظمته ملاّك هؤلاء الأسرى أن يخفضوا من صدقة الألفى ريال العادية، حيث كان يُرى بوضوح أن هذا الرقم مبالَغٌ فيه وذلك حتى يتمكنوا من الاتفاق على افتداء الأسرى و العودة إلى ميناء مدينة تطوان ويقلعوا عن الذهاب إلى ميناء فالنسيا وإلى موانئ (نهاية ظهر الصفحة رقم ١٩) إسبانيا الأخرى، فلم يكن هناك قرار بافتداء الأسرى و ليس لديه إذن من رؤسائه. قال هذا القائد، بعدما تحادث فيما هو معروض من الأب مع هؤلاء المسلمين الذين كانوا موجودين، باسم كل من سبق ذكرهم، إنهم عند رحيل هذه السفينة إلى الجزائر، سوف يكونوا مسئولين عن ترحيلها و إعطاء رسائل توصياتهم للأشخاص الذين يقولون إنهم لهم صلة بهم، و سيطلبون منهم أن يتعاونوا مع الشخص الذى يذهب بأمر من الآباء المفتدين فى هذه السفينة للتفاوض على حرية الأسرى، و ذلك وفقًا للمذكرات التى أعطوه إياها، و أن يطمئن

الآباء إلى ذلك فبإمكانهم البدء فى افتداء المائة أسير، الذين يقول إنه سيأخذهم من هذه المدينة، و أنهم سيقدمون له أسرى شرعيين و كذلك فسوف يكون على حسابه إذا مات بعضٌ من هؤلاء الأسرى المائة بعد تنفيذ افتدائهم وأنه رأى أنه إذا لم يتم افتداء المائة أسير فلن يتم تنفيذ طلب الراهب باستئجار سفينة الجزائر. من حيث طلب تخفيض الألفى ريال/ نهاية الصفحة ٢٠/ فلن يُناقش، إذ أن المسلمين غضبوا و قالوا إن ذلك شيء استقر العمل عليه منذ سنوات و لا يجب تغييره و إنه لا يجب عرض الأمر مرة أخرى فهم يفضلون أن يموت المسيحيون فى الأسر قبل أن يخفضوا ريالاً واحداً وذكروا أسباباً أخرى تنم عن طباعهم السيئة و المحبة للكذب. فلما رأى الآباء ذلك قرروا عدم افتداء الأسرى بالمبالغ المعتادة قبل الرجوع إلى زملائهم و إلى ماركيز بياريال. ونظراً لكل ما أُشير إليه ولأسباب أخرى كثيرة انتقلوا من مكان إلى آخر. عاد الآباء المفتدون إلى المسكن، حيث كتبوا إلى سبتة و أرسلوا ساعى بريد على أن يعود فى اليوم التالى، الثلاثاء، فى المساء، ومعه الرد، لأن السيد القائد كان متعجلاً لأنه لديه،كما قال، رسائل خطيرة من الملك مولاى عبد الله، سيده، و كنتُ موجوداً أثناء كل هذا، وأشهد عليه، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، الأربعاء، الحادى و العشرين من نفس الشهر و العام، رحل أمو بن عمار، القائد الأكبر لهذه المدينة، بسبب الرسائل الخطيرة و الكثيرة التى تلقاها من هذا الملك، و ترك مسئولية رعاية الآباء المفتدين إلى حامد النقسيس مقدم المدينة لكى يواصل الآباء عملهم، و بعدما حصلوا على رد من عظمة ماركيز بيياريال من باقى الآباء المفتدين، مع ساعى البريد الذى أرسلوه، فى حضورى، يوم الاثنين، التاسع عشر من نفس الشهر و العام، ذهبوا إلى منزل هذا المقدم، حيث اتبعوا فى كل شيء التعليمات التى كانت لديهم و التى وصلتهم من جديد مع ساعى البريد من الماركيز ورفقائه. و قد عرضوها على المقدم على أنه أفضل افتداء تم فى الجزائر و أن ذلك أمر واجب. رد عليهم المقدم أنه سوف ينفذ وعده الذى أعطاه و أنه فى الحال يمكنه أن يقوم بعقد الصفقة جنبًا إلى جنب مع حامد بوردان و مع كل الآخرين الضروريين و أن الآباء المفتدين، تحت هذا الوعد و التأمين، يمكنهم العودة إلى سبتة، و يحملوا معهم هذه الصفقات، لكى تستطيع هذه السفينة الرحيل من هذه المدينة، و تترك فى مدينة

تطوان هذه وثيقة موقعة بأسمائهم، تقول إن فدية الأسرى فى المدينة تصل إلى مبلغ ستة عشر ألف دوقية، من التى يقدمها الآباء، بشرط انه إذا احتاج إلى مبلغ خمسمائة أو ألف دوقية فسيقوم المذكور بإرسال أطفال أسرى. و تحت هذا الاتفاق ودع الآباء المقدم وعادوا إلى مسكنهم. حدث كل ذلك فى حضورى، و أشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، الخميس، الثانى و العشرين من نفس الشهر و العام، صباحًا استدعى المقدم فرانثيسكو مارتينيث، فارس جمعية يسوع، و موسى ميخياس، يهودى ومترجم، و قال لهم إنه يريد أن تتم الأمور بحذق، دون أن يستطيع القائد أو أى شخصية من الشعب أن تقوم بتدليس فى الصفقة، و هكذا يبدو له من الأفضل أن يحمل الآباء المفتدون الصفقات و الشخص إلى الجزائر، دون ترك الوثيقة التى أُشيرَ إليها من قبل، حتى لا يقول القائد إنه بينما كان هو موجودًا فى المدينة لم يُناقش شىء حتى لا يحصل على مقابل وأنه لما غادر المدينة تم التوصل إلى اتفاق. و قد أرسل هذا إلى الآباء المفتدين مع الأشخاص المذكورين فى حضورى، و قد قرر الآباء أنهم كانوا فى طريق العودة إلى سبتة و كانت الطرق تغمرها مياه الأمطار. حدث كل ذلك فى حضورى، و أشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى. و بعد ذلك فورًا، فى نفس اليوم و الشهر و العام، قام المقدم فى الثانية مساءً، قبل أو بعد ذلك بقليل، باستدعاء فرانثيسكو مارتينيث، و موسى ميخياس، يهودى، فى حضورى، و قال لهم، بأسى إنه تلقى رسالتين من أمو بن عمار، القائد، واحدة تلو الأخرى، يلومه فيهما كثيرًا على الانتقال إلى الجزائر، دون التفاوض أولاً فى هذه المدينة، وإنَّ أبناءه و المدنيين، ملاّك الأسرى، لاموه معًا على نفس الشىء، و أنه لا يجب عليه أن تكون صورته سيئة أمام الملك أو أمام سكان مدينته، و لا أن يعطى فرصة لأى شغب فيها و هكذا قال للآباء المفتدين من جانبه، إنه يخجل من رؤيتهم، حيث أنه لا يستطيع أن يوفى بوعده الذى أعطاه لهم، وأنه يرى أن يسامحوه و يقولوا له ما إذا كانوا يريدون التفاوض فى هذه المدينة أولاً ثم ينتقلوا إلى الجزائر وإلا فإن بإمكانهم العودة إلى سبتة إذا أرادوا ذلك بنفس التأمين. وهذا ما كتبه فى رسالتين إلى الآباء، إحداهما باللغة العربية و الثانية بالإسبانية وَرَدَ فيهما استغراب الآباء من المعاملة السيئة و الكذب أثناء التعامل معهم

محاولاً خداعهم و إتمام الصفقة. حدث ذلك فى حضورى، وأشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة تطوان، السبت، الرابع و العشرين من نفس الشهر و العام، ودع الآباء المفتدون حامد النقسيس المقدم و المسلمين الوجهاء، و توجهوا إلى سبتة، فى صحبة فرانثيسكو مارتينيث، وثلاثة مسلمين آخرين على ظهور الخيل أرسلهم المقدم مع الآباء المفتدين. ووصلوا إلى سبتة بعد ساعتين من شروق الشمس دون التفاوض فى أى أمر، وأنا فى صحبتهم، أشهد على ذلك. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

فى مدينة سبتة، الثامن و العشرين من نفس الشهر و العام، قرر الآباء المفتدون معًا و مجتمعين، متفقين على رأى واحد، أن يرسلوا السفينة، تحت/نهاية الصفحة رقم ٢٢/ الاتفاق السابق، بعد أن استعرضوا المشاكل. و قد رأوا أن المسلمين فى تطوان قد أساءوا معاملتهم. و كان ماركيز بياريال يرى نفس الرأى. و كنت حاضراً أثناء كل هذا، وأشهد عليه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

نظرًا لرفض المقدم فى يوم الثلاثاء، ١٠ فبراير عام ١٦١٥، أقلعت السفينة المتعاقد عليها إلى الجزائر فى الساعة العاشرة مساءً، وحمل قائدها تصاريح الآباء المفتدين، بالإضافة إلى أمرٍ ملكى لكل الموانئ والمعاقل الإسبانية لتسهيل مرورها، وجواز مرور من الجمرك الجزائرى. كان يحمل كذلك رسائل ماركيز بياريال إلى على باتشيلين 'Ali Pachilin وهو تاجر عبيد ثرى ذو تأثير كبير فى مدينته.

عادت السفينة فى ٨ إبريل التالى، دون أسرى، لأن على باتشيلين كان متذمرًا من شكوك الماركيز فيه، حيث كان مدينًا له بالكثير من الأسرى الذين قدمهم له سلفًا من باب الثقة . وأمام هذا الفشل تكرر افتداء المسيحيين الذين كانوا فى تطوان وبدأت المفاوضات فى هذا الأمر. كُتب إلى تطوان فى ٢٠ إبريل وطلب من سادة الأسرى المسيحيين أن يحضروهم إلى سبتة للتعاقد على الافتداءات على أبواب المدينة.

وبعد ذلك بعشرين يومًا ، لم يكن الافتداء قد انتهى، وقد ظهرت أسباب ذلك فى كشف حساب الكاتب التالى.

فى سبتة فى العاشر من مايو عام ١٦١٥، وفى حضورى أنا كاتب الافتداء، كان الآباء المفتدون مستمرين فى هذا الافتداء، وكانوا يطلبون افتداء المزيد من الأسرى من تطوان. كان السبب فى أن الآباء المفتدين لم ينهوا عملهم منذ اليوم الأول الذى أحضر المسلمون فيه الأسرى من تطوان، هو مجىء مولاى عبد الله، ملك فاس وتطوان، وحصاره لمدينة تطوان، لأن مسلمى هذه المدينة كانوا ثائرين ومتمردين عليه ولم يعترفوا به كملك. وظلت المدينة محاصرة مدة خمسة عشر يومًا، كما هو مشهور فى هذه المدينة، بسبب الرسائل والأخبار التى أرسلها هذا الملك إلى ماركيز بيياريال، ولهذا السبب قُطعت الطرق الموجودة من هذه المدينة إلى مدينة تطوان ولم يكن فى الإمكان خروج أى مسلم مع أى مسيحى، الأمر الذى كان يعرضنا لخطر وطوارئ كثيرة. ولإحضار المسيحيين الأسرى و لكى يؤدى الآباء المفتدون واجبهم فقد التقوا بشخص مسلم و سلموه رسائل إلى حامد بوردان لكى يرسل الأسرى الذين بحوزته. وأشهد على كل ما كنت حاضراً فيه. فى حضورى، خوان دى لاكيتيغى.

عن افتداء الأسرى

تقدم الأوراق الأربع الأولى من المخطوط رقم ٤٣٦٥، فى مكتبة مدريد القومية، التعليمات أو سلسلة التعليمات التى أعطاها المجلس الملكى، فى هذا العام ١٦٤٥، إلى الآباء الرهبان المفتدين الذين ذهبوا إلى تطوان لافتداء الأسرى.

أمام المجلس نفسه كان يجب على الرهبان أن يقدموا كشوفًا، عندما تنتهى عملية الافتداء المعقدة والطويلة فى أحيانٍ كثيرة، فى مدة ثلاثين يومًا. يوضح كل هذا التوثيق والإجراءات البيروقراطية، المفروضة منذ فترة حكم فيليبى الثانى، حماس السلطات بألا تخرج الافتداءات عن الطريق السليم، ويُظهر كيف كان المجتمع الإسبانى متشربًا بموضوع الأسرى .

تقريبًا فى منتصف القرن السابع عشر وبعد ثلاثين عامًا من قرار طرد الموريسكيين الأخير، يمكن القول إن القرصنة كانت تستثمر حدود إمكانياتها وإن مدن

القرصنة فى شمال إفريقيا، خاصة الجزائر وسلا وتطوان، المليئة بالموريسكيين، كانت تعيش من – ولأجل – القرصنة. يظهر فى تعليمات المجلس الملكى العمق الذى كانت تتحرك فيه عمليات التجارة، بين المجتمع الموريسكى، المستقر فى تطوان والمجتمع الإسبانى، الذى أُسر أفراده وحُملوا إلى السوق التطوانية. من أحد الجوانب؛ الجانب الموريسكى، احتياج رؤوس الأموال. وعلى الجانب الآخر، الجانب المسيحى، الشوق إلى حريتهم، وترك بعض ظروف الحياة غير الآدمية، لكن مع سلطات كانت تحاول عدم الوصول إلى التجاوز. كانت السلطات تبدو وكأنها تفهم القرصنة على أنها وباء لا يمكن منعه وأن الافتداء يعتبر ضرراً أقل.

إن المبالغ الموجهة لافتداء أسير معين، كانت يجب أن تظل فى السر، لأنه اذا كان الأسير نفسه يعلم بالأمر، كان يمكن أن يستدين، معتمداً على المال الذى سوف يحضروه له. هذا يعنى أنه كان يوجد تبادل عروض وطلبات، بين المسيحيين المسجونين وملاّكهم. كان يتم التوصل أحياناً إلى الإتفاق على أسعار عن طريق الأسرى أنفسهم مع ملاّكهم، حيث يجد رجال الدين، عند وصولهم، أنه يجب عليهم الالتزام بالكلمة التى أعطاها العبد، الذى اعتاد، فى ضيقه، أن يرفع من المبلغ العادى لدفع الافتداء، بهدف أن يُعامل بصورة أفضل وأن يظل لديه أمل أكبر فى التحرير.

وصى المجلس بأن يُفضّل النساء والأطفال، وهو أمر كان يعلمه الموريسكيون جيداً، حيث كانوا يرفعون أسعار بعضهن. كانت نسبة النساء والاطفال الذين يتم افتداءهم قليلة جدا، كما يُلاحظ فى النصوص العديدة المعروفة. كانت النساء أكثر قدرة على أعمال الحقول و إذا كن شابات، كُن يدخلن ضمن حريم ملاّكهم. اعتاد الاطفال أن يكونوا منفصلين عن آبائهم وأن يتعلموا عقيدة الإسلام، وبذلك كان يُفقد الكثير منهم فى العالم الذى أسرهم.

كانت هناك توصية أخرى من أعلى سلطة فى الدولة الإسبانية هى ألا تستخدم البضائع، كوسيلة للمبادلة بالأسرى أو بالعملة الإفريقية. إن خبرة الأعوام الكثيرة فيما يبدو قد أظهرت أن التاجر الجيد كان مختلفا شيئًا ما عن رجل الدين الورع.

كان يُسمح باستخدام بعض المنتجات ذات القيمة العالية فقط كعملة مبادلة، من المحتمل أن تكون تلك المنتجات هى التى أثبتت المزاولة أنها الأكثر نفعًا لتجارة الافتداء.

أمر المجلس أن الاموال التى يجمعها الرهبان من أجل القرصنة، العملات والبضائع، تظل فى سبتة لتفادى خطر الفقد أو الاستيلاء عليها، فهذا حدث فى الجزائر أكثر مما حدث فى تطوان، حيث كان يتم انتهاك التأمينات وجوازات المرور بتكرار. كان الآباء المفتدون يُلزمون فى كثيرٍ من الأحيان بتحرير أسرى غير مرغوب فيهم أو بدفع مبالغ باهظة فيهم حيث يستفيد حاكم مدن القرصنة من بقاء الممتلكات التى كان يحضرها رجال الدين فى الحراسة، لكى يقهروا رغباتهم. حتى هذه الدرجة وصل العنف فى الجزائر، حيث حُرم فى إسبانيا سفر الجمعيات المفتدية إلى هذه المدينة خلال بعض السنوات. ولأن سبتة كانت قريبة جدا من السوق التطوانى، فقد حل المجلس الملكى هذه المشكلة: الاتفاق على سعر الأسير فى تطوان ودفعه فى سبتة. بهذه الطريقة، كان يمكن لراهب من سبتة وآخر من تطوان القيام بمجهود لرفض أى بضاعة غير مرغوب فيها.

وفى أعوام أخرى، بعد صدور قرارات الطرد، طلب رجال المجلس توخى الحذر وعدم افتداء الموريسكيين على ما يبدو لأن الكثير من الموريسكيين يدّعون أنهم مسيحيون قدامى حتى يعودوا إلى إسبانيا بعد افتدائهم و هو أمر نجحوا فيه عدة مرات كما يُفهم من هذا التحذير، و كان أعضاء المجلس يدققون جدا فى أمر الصدقات و يحرصون على أن تنفق فى وجهها الصحيح، و ربما كانوا يحاولون بذلك تجنب تصرفات خاطئة حدثت قبل ذلك.

ربما كان استخدام ثلاث سجلات، كوسيلة لمراقبة التفتيش، من إحدى التوصيات أو التعليمات التى يجب أن نحمدها نحن باحثى اليوم، لأنه بفضل ذلك نجد فى متناول يدنا نسخًا، حيث فقدت الأصول أو العكس، و مع ذلك فإننا نعتقد فى وجود جزء مهم من سجلات الافتداءات فى أرشيفات خاصة وفى أديرة ومكتبات، و نظن أن هذه السجلات ستسد فراغات موجودة فى تاريخ الافتداءات.

وسوف نقدم عقب ذلك نص نسخة التعليمات المعطاة للرهبان الذين ذهبوا إلى تطوان فى عام ١٦٤٥، من قبَل المجلس التابع للملك فيليبى الرابع.

هذه هى نسخة منقولة بأمانة، لإحدى التعليمات التى أعطاها رجال المجلس الملكى إلى الآباء المفتدين، من أجل هذا الافتداء الذى سوف يقومون به فى ممالك إفريقيا، فى هذا العام ١٦٤٥، وفحواها كما يلى. ما يجب أن تفعلوه سيادتكم أيها الراهب خوسيه توليدو والراهب ماتياس دى ترينبويو، مفتدو الأسرى من جمعية سيدتنا العذراء لمقاطعة قشتالة وأندلوثيا، فيما يتعلق بافتداء الأسرى الذى يجب أن تقوموا به فى مدن تطوان وفاس والمغرب هو ما يلى:

أولاً، وفى حضور ألونسو دى كاريون، الكاتب الذى تم تعيينه من أجل هذا الافتداء، ستحصلون على كل العملات المرابطية وكل النقود بأى صورة، لافتداء أسرى من أصل هذه الممالك، ولن يسمح بافتداء أى أسير من أى مناطق أخرى غير تلك المشار إليها. ولذلك يوجد هنا ثلاثة كتب، تُسجل فيهم، فى حضور الكاتب المذكور، العملات المرابطية التى ستحصلون عليها من أجل هذه الافتداء، وكذلك ستسجل الصدقات والمذكرات والوصايا الخاصة، بأى طريقة. ستحملون الكتاب الأول وسيبقى الكتاب الثانى مع المفوض العام لجمعية السيدة العذراء. وسوف يسلم الكاتب الآخر إلى الشخص الذى يعينه المجلس، لكى يعرف المبلغ الموجود فى حوزتكم، وسيُخصص لهذا الافتداء، الذى يجب تنفيذه فى المناطق المذكورة. وإذا استلمتم بعض العملات المرابطية كصدقات عامة أو خاصة من اشخاص مشهورين بأى طريقة، فى المدن والقرى والأماكن الموجودة فى هذه المناطق التى تمر بها هذه الرحلة، يجب أن تُسجل فى هذا الكتاب، فى حضور الكاتب، لكى تُعرف المبالغ الأخرى التى جُمعت من أجل هذا العمل غير ما تسلمتموه هنا. وسنأمر بضرورة وجود إيصال وكشف لهذه المبالغ التى وصلتكم فى هذه القرى والأماكن التى تمرون عليها، على سبيل الصدقة، فى وجود الكاتب لكى يشهد على التسليم ويسجله فى هذا الكتاب بنفس النظام والشكل اللذين حصلتم فيهما على المبالغ. ويجب أن توقعوا كلكم عليه، فى نهاية هذا الكشف وتحددون، كلٌ على انفراد، المبلغ والشخص الذى أعطاه، ولأى سبب أعطاه لكم، والوقت الذى قضيتموه فى الميناء الذى تبحرون منه. ويجب أن ترسلوا إلى المجلس نسخة،

موقعة بأسمائكم وموقعة من الكاتب المذكور، من كل كشوفات العملات المرابطية والذهب والفضة والجواهر والنفائس وأى شيء حصلتم عليه من أجل الافتداء، ويجب تسجيلهم فى كتابكم. دون نسيان أى شيء، وذلك لكى يتم تسجيلهم فى الكتب الموجودة فى حوزة المفوض العام المذكور، والشخص الذى عينه المجلس، لكى تُعرف المبالغ التى دخلت إليكم من هذه الصدقات والوصايا.

وبالنسبة لاستخدام هذه المبالغ فى شراء البضائع وأشياء أخرى، يمكن حملها إلى مدينة تطوان أو إلى الأماكن الأخرى المشار إليها، كما حدث فى مراتٍ أخرى، لكى تتم مبادلتها وإرسالها إلى هؤلاء الأسرى، فإن هذا يبدو ضرره أكبر من نفعه، حيث أنهم لا يعرفون كيف يتصرفون فيها، ونظرًا لتكلفتها العالية ولأسبابٍ أخرى، سيكون من الملائم عدم صرف هذه المبالغ على أى بضائع أو أشياء ولكن يُفضل حملها كلها فى صورة قطع نقدية من ثمانى أو أربع ريالات ولكن مع الأخذ فى الاعتبار أنه فى هذه المناطق المذكورة يوجد نقص فى القلنسوات و الأحجار الكريمة والأقمشة الذهبية، ويمكنكم استخدام المبلغ الذى يناسبكم، فى مدينة طليطلة أو فى أماكن أخرى، إذا رأيتم أن ذلك يمكنه أن يدر بعض المكاسب. ويجب أن تكونوا موجودين كلكم مجتمعين، ليس واحدًا دون الآخر، وأن يحدث كل هذا فى حضور الكاتب المذكور، لتوضيح كل ذلك. يجب أن يتم افتداء المسيحيين قبل كل شيء بالمبالغ المخصصة لهم، وبالنسبة للأفراد الموصى بهم، يجب أن تولوهم عناية وأن تنفذوا إرادة الأشخاص الذين قدموا لكم هذه الصدقات والوصايا. وبالنسبة للأشخاص الذين تحملون وصايا من أجل افتدائهم ممن ربما يكونوا قد ارتدوا، والرب لا يسمح بذلك، أو ماتوا، أو لم يستطيعوا التواجد للانتفاع بهذا الافتداء فيجب أن يسجل الكاتب ذلك، حتى يصل إلى الأشخاص الذين قدموا أموالهم من أجل هذا الهدف ويعرفون كيفية ارتداد هؤلاء أو وفاتهم أو عدم تواجدهم، وإرجاع أموالهم إليهم، إلا إذا سمحوا لكم بافتداء أسرى آخرين إذا لم تجدوا هؤلاء الاسرى، أو إذا ماتوا.

فى هاتين الحالتين يمكنكم أن توظفوا الأموال فى افتداء مسيحيين آخرين موجودين، أو أسرى آخرين، مع الأخذ فى الاعتبار أنه يفضل افتداء الأشخاص الأكثر احتياجًا، على أن يكونوا من مدينة أو قرية من أعطوكم هذه الصدقة.

وإذا لم تجدوا أسرى فى الأماكن الســابقة فيجب أن تواصلوا افتــداء أشــخاص فقراء من أماكن قريبة من القرى الموجودة فيها هؤلاء الأشخاص الذين قدموا الصدقات المذكورة.

أما الأموال الباقية من الصدقات العامة المخصصة لهذا الافتداء، فيمكنكم توظيفها فى افتداء كل الأسرى الآخرين الذين تستطيعون افتداءهم، مع الأخذ فى الاعتبار أن يكون هؤلاء الأسرى من أصل ممالك قشتالة، ويُفضل أن يكونوا من الأطفال أو النساء على أن يكونوا من كبار السن، لوجود خطر أكبر عليهم، ويفضل كذلك من هم من أصل المكان الذى صدرت منه الصدقة على الذين ليسوا من نفس الأصل، وإذا كانت هناك توصية خاصة بافتداء بعض الأشخاص الأجانب، فيجب تنفيذ ذلك واحترام رغبة من يعطون الصدقات، و لا تُخرجوا الأسرى الذى تفتدونهم من بيوت مالكيهم إلا عند إبحار السفينة، فهم فى أمان عند مالكيهم. و يجب أن يتم افتداء هؤلاء الأسرى فى حضور الكاتب، وأن يشهد عليه، وأن يُسجل الأشخاص الذين يتم افتداؤهم والعلامات الموجودة فيهم ويسجل أصلهم ومن يكون أبناؤهم... وثمن افتدائهم والمكان الذى أُسروا منه والزمن الذى ظلوا فيه أسرى و يتم توضيح ذلك ويسجل فى هذه الشهادة، ويوقعها رجال الدين المذكورين. ويجب أن يُحضر كل شىء مسجلاً لكى يتم إثبات كل ما هو موجود فى الكتاب، و حاولوا ألا تكون التوصية التى تحملونها لافتداء أسير ما مفهومة، فإذا علم المسلمون بالتوصية فسيرفعون ثمن افتداء الأسير وسيدّعون أن هؤلاء الأسرى مدينون. و اعلموا أن من المعتاد أن تكون هناك قضايا تثار فى لحظة إبحار السفينة و أن الإبحار قد تأخر فى بعض الأحيان بسبب ذلك. ويجب أن تتحدثوا مع الملك حتى لا يسمح أو يقبل أن يستدين هؤلاء الأسرى الذين تم افتداؤهم بالفعل أو أن يبيع لهم أحدٌ شيئًا كدينٍ. وعند دخولكم أرض المسلمين، مع المال والأشياء التى تحملونها، يمكن أن يحدث لكم ضرر أو خطر، ولتفادى ذلك ولتنفيذ الافتداء بصورة أفضل، يجب أن يبقى أحدكم، مع كل هذه الأشيـاء، فى الموانئ والأماكن التى تقومون فيها بهذا الافتداء، وأن يذهب الآخر مع الكاتب إلى الأماكن المشار إليها أو إلى أقاليمها الأخرى، وأن يقوم بافتداء الأسرى وأن يبعث لمن يبقى فى سبتة أمر صرف الأسعار التى يتكلفها الافتداء، موقَّعًا باسمه وباسم الكاتب المذكور،

ويقبلها هذا الشخص ويدفعها ويسجل حساب ذلك في كتاب يبقى في حوزته، ويسجل ذلك أيضًا من يذهب للقيام بهذا الافتداء أمام الكاتب الذي يشهد على ذلك.

وبالنسبة لطريقة وشكل تحدثكم مع الملك أو مع كل الباقيين الذين تتعاملون معهم في الفنادق، نوصيكم بالحذر والانتباه اللازم لكي تتفادوا خبث ومكر المسلمين، حتى لا يصيبكم من ذلك أي ضرر أو عائق. وعند الإنتهاء من هذا الافتداء، احضروا الأسرى الذين تم افتداؤهم إلى الميناء حيث يجب عليهم أن يصعدوا الى السفينة، وفيها يجب أن تعيدوا عمل قائمة بهم، وتضعوها في الكتاب المذكور بعد صعودهم، وأن يشهد على ذلك الكاتب، ويجب أن تسجلوا اسم وأصل كل أسير وكم تكلف افتداؤه وبأي الأموال تم افتداؤه، وذلك في الميناء الذي تصلون إليه في هذه الممالك، وعندما تقومون بذلك اتركوا كل واحد يذهب بحرية واحضروا إلى مجلسنا، في غضون ثلاثين يومًا بعد نزولكم من السفينة، للحساب و النظر فيما قمتم به، وفي التكاليف التي أنفقتموها خلال هذا الافتداء، وعليكم تسجيل ما تنفقونه على أنفسكم وكذلك كل باقي المصاريف، على أن تكون معتدلة، ويُسجَل هذا في كتاب آخر لكي نعرف المصروفات التي أنفقتموها وفي أي الأشياء صرفت. وبالنسبة لكل العملات المرابطية التي كانت في حوزتكم أو وصلتكم عن طريق التوصيات أو عن طريق الصدقات، والتي حصلتم عليها في وجود ألونسو دي كاريون كاتب هذا الافتداء قبل صعودكم السفينة للقيام بهذه الرحلة، فيجب أن تسجلوا كل هذا في كتاب الافتداء وترسلوه الى ماركوس دي برادو، و أن تفيدوه عما استلمتوه وحصلتم عليه لكي يوضع ويسجل في الكتب التي تظل في حوزة رئيس إقليم الرهبانية والشخص الذي عينه المجلس. كتبت هذه التعليمات في مدريد في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ألف وستمائة وأربعة وأربعين، بأمر أعضاء المجلس، ماركوس دي برادو وبيلاسكو.

إن ما سبق نقله تم نقله بصورة صحيحة وأكيدة تتفق مع الأصل الذي أخذتها منه، أنا ألونسودي كاريون، كاتب عظمة الملك وهذا الافتداء، وقد قمت بتصحيحه والتأكيد من تطابقه. لقد تم نقل ما سبق بصورة صحيحة وفي التعليمات الأصلية يوجد توقيع، كما يظهر، لبعض أعضاء المجلس، و قد أعدتها إلى الأب الراهب خوسيه دي توليدو، المفتدي الذي سلمني إياها و شهدتُ على ذلك و وقَّعتُ في مدينة إشبيلية في

اليوم السابع من شهر مارس عام الف و ستمائة و خمسة و أربعين، فى وجود الشهود: ماتياس دى بايبخو و ثيليدونيو دياث، المقيمين فى هذه المدينة. يشهد على ذلك: ألونسو دى كاريون (توقيع).

ثورة فى تطوان

فى الثلث الأخير من عام ١٦٣٥، بالتحديد فى ٢٥ أكتوبر من ذلك العام، وصل إلى سبتة رهبان جمعية مريم العذراء: الراهب دييغو دى بيلاسكو والراهب بالتاسار دى فيغيروا، يصحبهم كاتب الملك، خوان بيلتران دى نانكلاريس. كانوا يشكلون المجموعة الرئيسية من المفتدين الذين كانوا يرغبون فى تنفيذ عملهم وهو افتداء أكبر عدد ممكن من المسيحيين، المقبوض عليهم كعبيد فى تطوان. فى ٣٠ أكتوبر خرجوا من سبتة متوجهين إلى تطوان ووصلوا إليها فى نفس اليوم. ليس هدفنا التوقف، ولا حتى عند الخطوط العريضة، فى عمل الافتداء فى حد ذاته الذى يشغل أكثر من ١٠٠ صفحة من المخطوط رقم ٣٦٢٨ من مكتبة مدريد الوطنية. ما سوف نحاول عرضه، ونقله حرفياً هو عدة صفحات، الصفحات الأخيرة من المخطوط المذكور، الذى يظهر فيه أحد الأحداث التاريخية المهمة لذلك الزمن ولذلك البلد، ولكنه يشكل صفحة مجهولة فى تفاصيله، جديرة بالنشر، للمعرفة الصحيحة لتاريخ المغرب بوجه عام، وتاريخ تطوان، بوجه خاص.

نلخص، فى سطور قليلة، الموقف السياسى المغربى لهذه اللحظة، لكى نفهم الأحداث التى نرويها بصورة أفضل. كان هناك، بالإضافة إلى سلطان فاس وسلطان مراكش، طامعون فى العرش ذوو صفات سياسية دينية، و يتنافسون على التأثير والسلطة. قام واحد منهم، العياشى، Al Ayasi - الذى جذب عدة أنصار إلى "الجهاد" أو الحرب المقدسة ضد الحدود – بالسيطرة على منطقة كبيرة من الأرض، التى يوجد بها الجزء الأكبر من الشمال المغربى. ومع ذلك لم تشأ مدينة تطوان، التى تحكمها عائلة النقسيس، أن تخضع له. حينئذ حاك المرابط، كما كانوا يسمونه أيضاً، مؤامرة

مع معارض النقسيس السياسي، داخل تطوان نفسها، ومع قائد جبل حبيب أو الخاروب، الذي كان يمكنه أن يسهم بقوة عسكرية من عدة آلاف محارب.

واستطاع كلٌ من ابن علي، العدو الرئيسي لعائلة النقسيس، من داخل البلد، وسليمان كاديمي، قائد خاروب، من خارج البلد، مع تسعة آلاف محارب، أن يجعلوا عائلة النقسيس تهرب إلى سبتة. حدث ذلك في نهايات أو في الثلث الأخير من عام ١٦٣١ . ومنذ ذلك التاريخ، أبقى كلٌ من أبو علي أو ابن علي مساعد المرابط، وسليمان كاديمي، القائد العام، السلطة في ملك المرابط. وبهذه الطريقة كانت موارد الشمال تحت تصرف العياشي لكي يستمر في مهاجمة الحدود المسيحية الموجودة في أيدي المملكة الإسبانية.

يخبرنا السيد فرناندو دي مينيثيس، في كتابه "تاريخ طنجة"، المنشور في لشبونة في عام ١٧٣٢، أن المرابط شن هجومًا في عام ١٦٣٢ ضد سكان طنجة، وفي هذا الهجوم شارك ٤٠٠ جندي من حملة البنادق من تطوان، والذين كان لهم شهرة كقناصين جيدين. إن الموريسكيين الذين حاول العياشي استمالتهم في بداية طريقة السياسي لم يكونوا يطيعوه، ربما بلا تبصر كما يرغب "المجاهد"، فهم لم يعارضوا أوامره في مناسبات متعددة فحسب، بل وضعوا أنفسهم في مواجهته علنًا. ولذلك فإن المرابطي لم يتمتع في تطوان، البلد التي كان أكثر سكانها من الموريسكيين، بتعاطف كبير، وإذا كان بعض الموريسكيين ضد عائلة النقسيس، فلم يكونوا يرغبون أيضًا في سيطرة العياشي.

وفي المدن التي تعمل بالقرصنة، مثل تطوان، كانت الأمور تتعقد بسبب تقسيم الثروات التي تجلبها القرصنة. كانت السلطات تجمع العبيد، وبالتالي تجمع ثروات كبيرة، وكانت تطلب من المفتدين، الذين يصلون مع أموالهم، أن يفتدوا أولاً وإجباريًا أسراهم، على حساب العديد من المدنيين الذين كانوا يرون تبخر الثروات التي يجلبها رجال الدين المفتدون، في أيدٍ قليلة. إن هذا، إلى جانب الاستياء السياسي، سوف يكون سببًا في حدوث ثورة مدنية في تطوان سوف يشهد عليها ويكون بطلاً إجباريًا فيها كلٌ من الراهب دييغو دي بيلاسكو وخوان بيلتران دي نانكلاريس، الكاتب، الذي سيشهد

على الأحداث، دون أن يعرف، بالطبع، أنه شخصية مهمة في إحدى الصفحات التاريخية. تلك هي الرواية التي نقدمها والموجودة في الصفحات من ١٠ إلى ظهر الورقة ١٠٦ من المخطوط المذكور رقم ٣٦٢٨ من مكتبة مدريد الوطنية:

المساعي التي نفذها في مدينة تطوان، الأب دييغو دي بيلاسكو، مفتدي مقاطعة قشتالة، في فترة الافتداء الذي قام به في شهر ديسمبر من العام الحالي ألف وستمائة وخمسة وثلاثين.

في مدينة تطوان في اليوم الواحد والثلاثين من شهر أكتوبر عام ألف وستمائة وخمسة وثلاثين، دخل في هذه المدينة الأب الراهب دييغو دي بيلاسكو، مفتدي مقاطعة قشتالة والراهب بالتاسار دي فيغيروا، وهو كذلك مفتدي مقاطعة أندلوثيا، لمناقشة أمر افتداء المسيحيين الموجودين كأسرى في هذه المدينة.

في هذه المدينة في اليوم الثالث من شهر نوفمبر من هذا العام، زار الآباء المفتدون السادة الحكام ومسئولي حكومة هذه المدينة وطلبوا مذكرات الأسرى وملاّك العبيد، وبعد إحضارها، رأوا أن هناك ما يقرب من ستمائة أسير موجودين في فاس وسلا وأماكن أخرى. في هذه المدينة في اليوم الثامن من نوفمبر عام ألف وستمائة وخمس وثلاثين. قام الآباء المفتدون، في حضور الحكام، بزيارة التجار الأساسيين لهذه المدينة، للتحدث عن أسعار الافتداء، وبعد الكثير من المناقشات والاختلافات حول هذا الموضوع مع الأب الراهب دييغو دي بيلاسكو، اتفق معهم أن القلنسوات لا يجب أن يقل ثمن الدستة منها عن مبلغ ١٢٠ ريال، وهكذا أيضًا اتفق الأب بيلاسكو المذكور مع التجار المسلمين على //نهاية الورقة ١٠١// أن يكون ثمن الرطل تسعين ريالاً دون أن يلتزم مالكو العبيد بالبيع بهذا السعر، وكذلك اتفق على سعر أقمشة قرطبة والأقمشة الأخرى التي أحضرها كمقابل للافتداء. وبعد رؤية الألوان والإعلان عن شرائهم لكثرتهم ولرخص الأسعار عرضوا سعر ٢٢ ريالاً فأقل لأقمشة قرطبة وعُرضت الأقمشة من سيغوبيا بسعر ٥٠ ريالاً للمتر. وعُرضت الأقمشة من بايثا حتى سعر ٣٣ ريالاً للمتر ولم يضعوا سعرًا لأقمشة إنجلترا لأن أحدًا لا يرغب فيها وليس لها سعر في هذه المدينة، وهكذا تحددت الأسعار على النحو المذكور.

في اليوم التاسع من نفس الشهر ذهب الآباء المفتدون، في صحبة خوان بيلتران دي نانكلاريس، كاتب الافتداء، إلى منزل الحكام للتفاوض //نهاية ظهر الصفحة ١٠١// على بيع المسيحيين ورؤية المذكرات، وعرضوا على ابراهيم بن على، مساعد المرابط، ثلاثين مسيحيًا تابعين للمرابط ولإبراهيم بن على المذكور وثمانية مسيحيين تابعين لسى لاتشى غوالى وعشرة تابعين لسليمان قاديمى، القائد العام، ووجدت اختلافات كبيرة فى ثمانية أيام حول الاعتدال فى السعر، نظرًا لقصر مدة الافتداء ولوجود الكثير من الأسرى، وبالرغم من وجود اختلافات كبيرة حول ذلك أصر الآباء على الرغبة فى إتمام الافتداء والعودة، و لم يكف هذا لكى يعدل الحكام عن رغبتهم، وقالوا إنه من العادة القديمة افتداء أسرى الحكام قبل أى أسرى آخرين، سواء كانوا قليلين أو كثيرين، كما كان يفعل عبد الله النقسيس وآخرون كانوا حكامًا قبل ذلك. وبعد عشرة أيام من هذه الخلافات، اتفقوا على أن يشتروا من المرابط و الحاكم خمسة و عشرين أسيراً بالإضافة إلى ثمانية موجودين بين الأسرى. وبعد التشاجر كثيراً فى هذه النقطة، اتفق الأب بيلاسكو، الذى قام بالتسوية، على أن يدخل اثنان فقط من المُرحب بهم(*) bienvenidos // نهاية الصفحة ١٠٢//. وقد رأى الحاكم سليمان قاديمى من ناحيته أن يعطى ثمانية أسرى من جانبه، بشرط عدم دخول أى "مُرحب به" bienvenido، سواء فرنسى أو انجليزى. ورأى الحاج بوعلى أن يدخل ستة أسرى، بشرط عدم دخول أى "مُرحب به" bienvenido فرنسى أو انجليزى. وهكذا أيضًا مع سيدى على سوريا، سكرتير حكومة هذه البلد، الذى رأى أن يعطى ستة أسرى وتم تنفيذ اتفاقيات هؤلاء السابقين. وهكذا طلبوا من الآباء المفتدين أن يفتدوا باقى الأسرى من سكان المدينة وعدم شراء أى أجنبى، هكذا من الذين وصلوا من الجزائر (العاصمة) فى سفينة كالذين وصلوا من سلا. ورد الآباء المفتدون على ذلك، أنه بين الأجانب يوجد البعض من الذين يطلبهم دير إشبيلية، ورد الحكام على ذلك ومن جديد نفوا قدرتهم على بيعهم. ورأى الآباء المفتدون أن هذا المنع يعارض الحرية التى

(*) من الواضح أن "المرحب به" شخص مسيحى يتمتع بنوع من الأسر يختلف عن الأسير العادى. نحن نجهل التفاصيل ونأمل أن يفيدنا المتخصصون عن هذا الموضوع الذى لم يتحدث عنه أحد كثيراً .(المراجع)

يتضمنها التأمين فيما يخص //نهاية ظهر الصفحة ١٠٢// شراء الأشخاص الذين يريدهم الآباء المفتدون، ولذلك تظلموا مرة أخرى من الإجبار الذى يتعرضون له ، وطلبوا أن يصدر أمر يمكّنهم من شراء من يريدون من الأسرى و حاولوا شراء بعض الأسرى من كارسول دى مورتا، وفى اليوم الثامن عشر من نفس الشهر ثارت المدينة واجتمع وجهاء المدينة، فى منزل سى براهيم بن على، وهو واحد من الحكام الذى اشتكى من أن هذا الافتداء كان فقط من أجل هؤلاء الحكام وليس أكثر من ذلك، وطلبوا أن يتم الاتفاق بحيث يستفيد عوام الناس من عملية الافتداء، و حدث صخب كبير، وهكذا اتفق الآباء المفتدون و الكاتب على أن يرسلوا على مالدونادو - وهو من أبناء هذه المدينة - إلى المرابط لإتمام الاتفاق و لإخراج الأسرى من المدينة.

فى نفس اليوم رحل الراهب فيغيروا غاضبًا إلى سبتة، واصطحب معه السيد بدرو خيرون الأسير، دون إذن من مالكه، وترك داميان لوبيث، على أبواب هذه المدينة.

طلب الكاتب إذنًا من الحاكم لكى يذهب الأب بيلاسكو إلى سبتة، و قد طلب ذلك الإذن لتأمينه، لأنه كان يعرف الخطر الذى يتعرض له هذا الأسير المهم عند خروجه من هذه المدينة، هو و آخرون. و بعدما قيل، و بعدما رأى مالك العبد// نهاية الورقة ١٠٣// - وهو السيد، بدرو خيرون- أنه خرج دون إذنه و إذن حكومته، و أنه يمكن أن يُفقد، حاول إعادته، إلى جانب الأب الآخر، بعدما وصل أمر من سليمان قاديمى، القائد العام، بعدم قبول خروج الرهبان إلى سبتة. ونظرًا للمشاكل التى مروا بها، و التى لم يعلم بها الأب الراهب دييغو بيلاسكو، فقد ذهب لمقابلة الحكام - الحاج بن على وسيدى بن على- واستصدر قرارًا بإلغاء الأمر السابق و السماح بخروج الرهبان تجنبًا للأضرار التى قد تلحق بهم.

فى الثانى و العشرين من نفس الشهر، عاد على مالدونادو، ومعه رد المرابط، الذى أمر فيه بالاهتمام بأن يبيع سكان تلك المدينة أسراهم أولاً قبل أسراه و أسرى باقى الحكام، و هكذا رد المرابط على الأب بيلاسكو، على رسالة كتبها له، حيث طلب منه أن يقدم له معروف إعطاء الحرية للرقيب نيكولاس بيرنال، بكل اللطف، و أمر الحكام أن يعاملوه معاملة حسنة و يعطوه إذن مرور.

وبعد ما سبق، وبعد أن رأى هؤلاء الحكام رسالة المرابط التى يطلب فيها شراء بعض العبيد من السكان //نهاية ظهر الصفحة١٠٣// قرروا- من حيث المبدأ- عدم تخفيض مبلغ الافتداء. و بعد النظر فى الحل السابق فإن الأب بيلاسكو، فى صحبة الأب رئيس دير جبل طارق، والكاتب و موثين بينيتاى، اليهودى، الذى كان يعمل مترجماً فى هذا الافتداء، ذهب إلى الحاكم، سليمان قاديمى، ووصف له الأضرار التى تعرَّض لها فى هذا الافتداء و أنهم خالفوا كل شىء فى التأمينات التى أعطاها له لكى يدخل و يقوم بالافتداء، أو يتركوه يعود إلى سبتة، مع رفقائه، دون القيام بالافتداء أو أن يحملوه إلى المرابط، مع الحماية الضرورية، فكان من الممكن أن يكون راضيًا، إذا حدث أى من هذه الأمور الثلاثة، و أنهم خالفوا كل ذلك فليسمحوا له بالخروج دون اتفاق أو الذهاب إلى سبتة أو أن يذهبوا به إلى المرابط تحت الحماية الضرورية و أنه سيكون سعيداً بتنفيذ أحد هذه المطالب الثلاثة، و لما قال الراهب دييغو دى بيلاسكو - فى وجود الكاتب - كل ذلك للحاكم طلب منه أن يعدل عن هذا الاقتراح و أنه سيحاول أن يعالج// نهاية صفحة ١٠٤// الأمور.

فى الأيام الثلاثة التالية، كان سكان المدينة يتفاوضون حول شراء هؤلاء الأسرى وأن يتمتع الجميع بفوائد الافتداء. و ضغطوا على الأب بيلاسكو بكل السبل لكى يتخلى عن بعض الأسرى الذين افتداهم لكى يشترى أسرى من السكان.

دافع الأب عن نفسه بشدة و قال للشعب إنه لا يستطيع ترك توصياته. كان الأسرى المفتدون من الحكام و القادة حوالى خمسين أسيراً، و قد أعطوه أسرى فى حالة سيئة و غير مفيدين و لهذا فليس بإمكانه الاستجابة لطلبات السكان. و لما اقتنع السكان بالحجج القوية التى ذكرها الأب بيلاسكو تجمعوا للحديث مع سليمان قاديمى الحاكم و القائد العام لكى يتخذ قراراً بتنفيذ طلباتهم خلال نصف ساعة و قد سيطر السكان على الشارع و تسلل أربعة رجال إلى بيته و قتلوه طعنًا بالخناجر، ثم توجهوا إلى بيت الحاكم الثانى إبراهيم بن على لكى يفعلوا نفس الشىء.

بعدما جرح هذا الحاكم أحد وجهاء المسلمين، عند دخوله المنزل، هرب من سطح منزله ودافع عن رجل أندلسى حتى لا يقتلوه و بهذا هاجت المدينة كلها و ماجت.

في اليوم التالى تجمعت كل المدينة، و هى مسلحة، فى المعسكر واستدعوا عشرين حاكمًا، و بذلك أعلنوا طاعتهم للمرابط.

فى ذلك اليوم أرسل الحكام رسالة إلى الأب بيلاسكو يقولون له فيها ألا ينزعج من الأحداث المذكورة لأن اتفاقية الافتداء بالشكل الذى تم التوصل إليه قبل اندلاع الأحداث//نهاية صفحة ١٠٥// ستنفذ كما هى لأن المدينة تحتاج إلى تنفيذ الاتفاقية والحصول على الأموال لدفع رواتب الجند، و رغم أن الأب بيلاسكو قد تناقش معهم من أجل افتداء بعض الأسرى الموصى عليهم إلا إن ذلك لم يكن ممكنًا ولم يتركوه يخرج من المدينة لا راجلاً و لا راكبًا و لا تركوا له فرصة لكى يكتب إلى قائد سبتة لكى يعالج الموضوع.

فى يوم ٣ ديسمبر من نفس العام، دخل آمى ديل مورال، القاتل الرئيسى، إلى حجرة الأب بيلاسكو و الكاتب التى كانوا ينامون فيها، و معه آخرين مسلحين، و طلبوا افتداء أسراهم. و رد الأب //نهاية ظهر الصفحة رقم ١٠٥// بيلاسكو أنه مر على الافتداء خمسة عشر يومًا و أنه ليس لديه أى مال أو بضائع لافتداء أسرى آخرين.

رد عليه بأنه لن يخرج أى أسير من تطوان حيًا، إذا لم يوقع له على وثيقته، و لهذا أجبر الأب بيلاسكو على توقيعها.

فى يوم ٦ ديسمبر من نفس العام، عندما رأى الأب بيلاسكو، مع الأب رئيس دير جبل طارق و الكاتب، أنه لا يمكن إعادة النظر فى الافتداء فى أى شىء، وأنهم لن يسمحوا لهم بالخروج بأى شكل و اتفقوا على تقديم طلب لدى خروجهم والوعد بإتمام اتفاق الافتداء بالشكل الذى يراد منهم. و كان فصل الشتاء قد دخل وكانت المدينة مضطربة تنتظر المرابط و العرب لعدة ساعات و قد قرروا أن نخرج عن طريق النهر والبحر حتى لا يقابلنا أعداء فى الطرق البرية فنخسر.

فى ٨ من نفس الشهر، وصلنا إلى سبتة مع عشرين أسيرًا، و قد حدثت له كُرب كثيرة، و لذلك فرح سكان سبتة برؤية الآباء و الرفقاء فى أرض المسيحيين لأنهم عرفوا الصراعات الكبيرة التى واجهوها.

أشهد أنا، خوان بيلتران دى نانكلاريس، كاتب جلالة الملك و هذا الافتداء، على أن كل ما حُكى فى هذه الورقات الست حقيقى و مؤكد، و لكى أثبت ذلك، و بطلبٍ من الأب بيلاسكو، أعطيت هذه الشهادة فى مدينة تطوان، فى ٨ من شهر ديسمبر عام ألف وستمائة و خمس و ثلاثين. خوان بيلتران دى نانكلاريس. توقيع.

من المهم أن نركز اهتمامنا فى المعلومات التى قدمتها لنا التحقيقات التى وقعها بلتران دى نانكلاريس فى تطوان، فى شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٦٣٥ . كان أحد اهتمامات الرهبان الأولى هو طلب بيانات الأسرى وأسيادهم، أى قائمة المسيحيين مع أسيادهم، ويفترض أنه يقدم مع ذلك، بعض البيانات الأخرى، كالنوع والعمر وغير ذلك، لأن هذا يمكنه أن يفيد الرهبان فى أن يجدوا من بينهم من يهمهم. كان المفتدون يحضرون أموالاً مخصصة بالتحديد لأسرى بعينهم، وكان يطلق على هذه المبالغ وصف "مساعدات".

وكذلك كانت هذه البيانات عن النوع والعمر تساعدهم فى الحالات الضرورية لتفضيل من يتم افتداؤه. فى المذكرات التى عرضوها على الآباء المفتدين، فى عام ١٦٣٥، لم يتم تفصيل شىء، فقد كانت تشير فقط إلى وجود ما يقرب من ستمائة أسير. وهو عدد أكبر بكثير، دون شك، من الذى كان الراهب دييغو دى بيلاسكو ورفيقه يستطيعان تحريره وعلى ضوء ذلك بالتأكيد كان رجال الدين يمكنهم اختيار البضاعة التى يحملونها معهم بشكل مناسب.

كان هناك ٦٠٠ أسير من فاس وسلا ومن أماكن أخرى، الأمر الذى يشير إلى أن تطوان كانت سوقًا مركزيًا للعبيد، حيث يمكن أن يرد إليها أسرى من مناطق أخرى.

كانت المهارات التى كانت لدى الراهب دييغو دى بيلاسكو غير عادية، وقد مارسها لكى يضع أسعارًا للبضائع التى كانوا يحملونها، وتقضى بدفع جزء من قيمة الافتداء. كان يمكن أن يُطلب منهم رسميًا أن يكون ثلثا الافتداء فى صورة عينية والثلث الآخر فى صورة عملة. ليس هدفنا توضيح هذا الجانب فى عملية الافتداء، ولكننا فقط نشير إلى أن المفتدين كانوا يحصلون على مكاسب جوهرية، من فارق

السعر الذى كانوا يشترون به المواد فى إسبانيا وذلك السعر الذى كانوا يبيعونها به فى شمال إفريقيا. ومع ذلك، نظن أن سكان شمال إفريقيا، الذين يفهمون ذلك جيداً، كانوا يرفعون أسعارهم حيث كانوا يأخذون هذه الظروف فى اعتبارهم.

كانت مدن القرصنة تعيش فعلياً من القرصنة ومن التجارة البسيطة التى تسمح لهم بالعيش. تشكلت الخطوة التالية، بعد تحديد أسعار البضائع، فى الوصول إلى اتفاق على الأسرى "الإجباريين"، وهم هؤلاء الأسرى الذين تفرضهم السلطات. فى المقام الأول كان عددهم يقلل من احتمالات تحرير هؤلاء الذين تخصصت لهم أموال بالفعل لافتدائهم وتحرير عامة العبيد من الموجودين فى تطوان، ذلك أن هذا العدد كان ينفق الجزء الأكبر من الممتلكات (هذا العام ارتفع عدد الأسرى إلى ٤٨).

كانت هناك مناقشات، بالمثل، على وجود عدد من "الموجودين" أو "المرحب بهم" bi-envenidos غير المرغوب فيهم (*)، داخل هذه الحصص الإجبارية، وكان عددهم كبيراً فى كل وقت، وكذلك كان هناك عدد من الأجانب غير المرغوب فيهم، الأمر الذى كان يتعدى على حقوق الأسرى الإسبان.

ولكن على عكس أعوام أخرى، فمن الغريب أن الآباء المفتدين كانوا يُحضرون توصيات لافتداء الأجانب، و لذلك اعترضوا على عدم حرية الشراء التى يتضمنها التأمين.

وصلت هذه المفاوضات، بشكلٍ ما، إلى المواطنين، بالأخص إلى هؤلاء المهتمين بعمليات شراء و بيع العبيد، و الذين كانوا مستائين من عدم وصول فائدة البضائع والأموال إليهم. كانوا يشتكون من اقتصار الافتداء على الحكام فقط.

(*) ليس هناك تناقض فى النص، فهم "مرحبٌ بهم" من قبل المغاربة، و"غير مرغوب فيهم" أى غير مرغوب فى تحريرهم من قِبل الإسبان، ربما لأن وضعهم يختلف. هذا ما يمكن أن توضحه لنا دراسات المتخصصين .(المراجع)

ولأن هؤلاء الحكام كانوا يحكمون المنطقة باسم العياشى، فقد أرسلوا له أحد الموريسكيين لكى يحاول التدخل فى القضية.

إن الرسالة و الرسول يعنيان تبعية الشعب والحكام لسلطة المرابط، وهو الأمر الذى زاد من الاستياء.

يُظهر قرار القائد ومعارضة الراهب كم كان يجب على رجل الدين أن يحارب لكى يقوم بعمله بنجاح، فصبر الآباء المفتدين كان موضع اختبار طوال فترة الرحلة.

إن مواجهة أشخاص من أماكن مختلفة، وموجودين فى مناصب أعلى من وسطهم الاجتماعى و الدفاع عن مصالح اقتصادية، كل ذلك كان يتطلب قوة تحمل تدعمها القيم الأخلاقية و الدينية.

إن تحمل الأحداث، كالتى سنرويها فى الحال فى النص، قد أوضحت وجود حالة من الشجاعة غير معتادة. لم يكن الجميع يعرفون أو يستطيعون احتواء اندفاعهم. تم الإشارة فى هذه المساعى إلى أن أحد المفتدين رحل إلى سبتة، غاضباً، وترك زملاء المشاق فى وضع غير مريح.

نستطيع أن نناقش الآن - كما نوقش سابقًا- جدول عمليات الافتداء، لكننا لا يمكن أن نستهين أبداً بشجاعة الرجال الذين كانوا يقومون بعمليات الافتداء.

وثيقة محمد النقسيس

نغلق هذه السلسلة من الصفحات التاريخية بتأمين منحه واحد من آخر أفراد عائلة النقسيس التطوانيين، محمد بن عيسى. يظهر التأمين فى الصفحة رقم ٢١ من المخطوط، المسجل تحت رقم "Cod. Libr. 134B " من أرشيف مدريد التاريخى القومى. لقد عرضنا ما نعرفه عن محمد النقسيس فى هذه الدراسة، داخل التسلسل الزمنى المخصص له. هو ابن عيسى بن أحمد، وحفيد المقدم الأكبر أحمد النقسيس، وكان، وفقًا لداوود، أول حاكم مستقل لتطوان بالمفهوم الواسع. لم يكن مستقلاً بشكل كامل،

هذا ما نفهمه على الأقل من الألقاب التى كان يحملها و التى تُذكر فى جواز المرور. مع ذلك، فمن الممكن أنه كان كذلك فى الواقع ولم يكن أبو بكير، سيد ديلا، يحكم فى تطوان مباشرة.

لم يكن محمد النقسيس حاكمًا لتطوان وقائدًا عامًا فقط، لكنه كان يستأثر بالسيادة على قبائل الشمال المغربى.

يحتمل أن تحوى هذه التسمية شيئًا من الحقيقة عندما استطاع أن يجمع جيشًا صغيرًا من ٩٠٠ فارس والكثير من جنود المشاة وذهب به إلى طنجة عام ١٦٤٧، وفقًا لما يقوله الكاتب فرناندو دى مينيثيس فى كتابه "تاريخ طنجة".

يدخل محتوى التأمين، الذى وقعه الموريسكى راميريث باسم محمد النقسيس، داخل نموذج نمطى، كما يمكننا إثباته بالنص الذى أعدنا تقديمه، والخاص بوالد وأعمام هذا النقسيس، فى عام ١٦٢٥ .

كان يقدم لرجال الدين الذين كانوا يذهبون إلى تطوان للافتداء، كل الضمانات والتأمينات. كانت تنفذ أحيانًا، وأحيانًا أخرى لم تكن تنفذ. والسبب فى هذا هو أن الكل، حاكمًا ومدنيين، كانوا ينتظرون الافتداءات للتخفيف من حدة الأحوال الاقتصادية السيئة، ولأن الأموال التى يحملها الرهبان لم تكن تغطى احتياجات الكل.

المقدم محمد بن عيسى النقسيس، القائد العام وحاكم مدينة تطوان ونواحيها، سيد قبائل حابيت، بفضل سيدى محمد الحاج بن بكر، القائم على مسجد إيديالا المقدس وأراضيه، عاهل مملكة فاس وكل أقاليمها، حفظه الله طويلاً.

أعطى تأمينًا للآباء: الراهب مارتين غاليندو ولكل من فى صحبته من جمعية الثالوث المقدس، لكى يستطيعوا القدوم إلى مدينة تطوان هذه، للتعاقد والتفاوض فى الالتزام الذى لديهم لافتداء الأسرى، وهكذا، يمكنهم التواجد فى مدينة تطوان خلال كل الفترة التى يرغبون فيها و كذلك العودة إلى مدينة سبتة، على ألا يتم الافتداء فى حالة عدم الاتفاق، و للآباء الرهبان افتداء من يرغبون فيهم من سكان هذه المدينة أو من أى مكان آخر، دون أن يكونوا ملزمين بحمل أى شخصية إلا الأسرى الذين يريد الآباء

افتداءهم، و للآباء حرية الذهاب إلى مدينة سبتة والعودة منها كلما شاءوا ذلك دون أن يتعرض لهم أحد بسوء، بل ستُقدم لهم كل أنواع الرعاية التى قُدمت لهم دائمًا، وأتعهد أن ألتزم بذلك و لهذا أمرتُ بإصدار جواز المرور هذا، و قد وقَّعته باسمى بأحرف عربية فى العاشر- بل فى الثانى عشر- من شهر نوفمبر عام ألف ستمائة و ستة و أربعين. سيد محمد بن عيسى النقسيس. بأمر من السيد الموقع أعلاه، على راميريث.

أشكال و صور الكتاب

شكل (ل) ص ١٦٣: المذبح الأكبر لكنيسة السجون(صورة موجودة في الأرشيف التصويري في مكتبة تطوان العامة).

صورة رقم (١) ص ١٨٦: عن خريطة لتطوان عام ١٨٦٠، المستطيل يشير إلى مدينة المنداري الأولية. ١ قصبة؛ ٢ سيدي مصباح؛ ٣ سيدي تبين؛ ٤ باب سبتة؛ ٥ باب سيدة؛ ٦ باب عقلة؛ ٧ باب نوادر؛ ٨ القصبة؛ ٩ الجبانة.

صورة رقم (٢) ص ١٨٧: رسم للمكتبة العامة و أرشيف تطوان.

صورة رقم (٣) ص ١٨٨: الفدان.

صورة رقم (٤) ص ١٨٨: باب نوادر.

صورة رقم (٥) ص ١٩٠: باب رموز.

صورة رقم (٦) ص ١٩٠: مقبرة تبين.

صورة رقم (٧) ص ١٩١: قلعة المنداري

صورة رقم (٨) ص ١٩١: الأسوار التطوانية. وفقاً لبابون مالدونادو.

صورة رقم (٩ أ و ٩ب) ص ١٩٣:لالا فريا.

صورة رقم (١٠) ص ١٩٣: جامع قصبة.

صورة رقم (١١) ص ١٩٣: شارع صغير يؤدي إلى مدخل بيت المنداري.

صورة رقم (١٢) ص ١٩٥: منارة جامع قصبة.

صورة رقم (١٣) ص ١٩٥: جامع ربطة.

صورة رقم (١٤) ص ١٩٥: جامع ربطة.

صورة رقم (١٥) ص ١٩٥: يوسف الفاسى.

صورة رقم (١٦) ص ١٩٦: الترنكات.

صورة رقم (١٧) ص ١٩٦: سيدى سعدى.

صورة رقم (١٨) ص ١٩٧: سيدى سعدى.

صورة رقم (١٩) ص ١٩٧: أسوار و باب سعيدة.

صورة رقم (٢٠) ص ١٩٨: جامع ميسيمدى.

صورة رقم (٢١) ص ١٩٨: ميسيمدى.

صورة رقم (٢٢) ص ١٩٨: جامع العيون.

صورة رقم (٢٣) ص ١٩٨: العيون.

صورة رقم (٢٤) ص ٢٠٠:جامع جديدة.

صورة رقم (٢٥) ص ٢٠٠: سوق الفوقى.

صورة رقم (٢٦) ص ٢٠١: القبور الأندلسية وفقًا لبابون مالدونادو.

صورة رقم (٢٧) ص ٢٠٢: منظر لتطوان.

صورة رقم (٢٨) ص ٢٠٢: قبة أندلسية.

صورة رقم (٢٩) ص ٢٠٣: أبواب المدينة (**Nuader** نوادر،**Tut** توت، **Ramuz** رموز، **Ukla** عقلة، **Sa'ida** سعيدة، **Yiaf**جياف، **Maqabir** مقابر.

صورة رقم (٣٠) ص ٢٠٤: باب سبتة.

صورة رقم (٣١) ص ٢٠٤: باب سبتة(من الداخل).

صورة رقم (٣٢) ص ٢٠٥: باب جياف.

صورة رقم (٣٣) ص ٢٠٦: باب سيدة.

صورة رقم (٣٤) ص ٢٠٦: باب سيدة.

صورة رقم (٣٥) ص ٢٠٧: باب عقلة.

صورة رقم (٣٦) ص ٢٠٧: باب لونيتا.

صورة رقم (٣٧) ص ٢٠٩: باب رموز (من الداخل).

صورة رقم (٣٨) ص ٢٠٩: باب رموز (من الخارج).

صورة رقم (٣٩) ص ٢١٠: باب توت.

صورة رقم (٤٠) ص ٢١٠: باب توت.

صورة رقم (٤١) ص ٢١١: باب نوادر.

صورة رقم (٤٢) ص ٢١١: شارع العيون.

صورة رقم (٤٣) ص ٢٢٤: قبر المجاهد الكبير، بطل تطوان و حاكمها و زعيم مجاهديها، أبى العباس المقدم أحمد بن عيسى النقسيس. و هو واقع فى القسم الأعلى من مقابر تطوان، فى سفح جبل درسة الواقع شمال المدينة و قد ظهرت فيه الحجرة التاريخية التى أثبتنا نص الكتابة التى عليها فى صفحة ٢٠١ من هذا الكتاب. و المقدم النقسيس هو أكبر و أشهر حاكم تطوانى فى القرن الحادى عشر للهجرة. فلقد كان وطنيا غيوراً، ومجاهداً كبيراً، وبطلاً مغواراً وسياسيًا محنكًا، و عهده - الذى كانت شمس الدولة السعدية فيه على أطراف النخيا- لم يكن فيه بالمغرب عاهل كبير قوى الشخصية واسع النفوذ، ممن يرضى أن يخضع له أمثال المقدم النقسيس من كبار القادة الأبطال. و زعماء المجاهدين الأحرار، فلذلك تصدر أبو العباس

للرئاسة و الجهاد في تطوان و نواحيها و كان موفقًا في أعماله ناجحًا في سياسته و إدارته و جهاده رحمه الله.

وهذا المقدم، إليه تنسب زنقة المقدم التي بين السوق الفوقي و الغرسة الكبيرة، و داره و دور أولاده هي التي تحولت لمساكن الأشراف من آل وزان في درب الشرفاء بالزنقة المذكورة.

وفي مظهر الإهمال المؤسف البادي على قبر المقدم النقسيس وأمثاله، عبرة لمن يعتبر من أصحاب السلطة والجاه، والغطرسة والجبروت، والبقاء والدوام لله سبحانه.

شكل رقم (٤٤) ص ٢٢٦:

شكل رقم (٤٥) ص ٢٦٩و ٢٧٠: توقيعات أصلية لأولاد النقسيس في:Mss. del
. A.H.N. Cod. Lib. 127 B. Fol. 34 r. y v.

المؤلف فى سطور :

غييرمو غوثالبيس بوستو

- أستاذ التاريخ بجامعة غرناطة.
- له العديد من الكتب والأبحاث حول تاريخ المغرب العربى وعلاقته بإسبانيا .
- شارك فى العديد من المؤتمرات الدولية التى عقدت حول تاريخ العصور الوسطى والموريسكيين .

المترجمة فى سطور :

مروة محمد إبراهيم

– ليسانس اللغة الإسبانية بتقدير عام جيد جدا – كلية الآداب – جامعة القاهرة .

– ماجستير فى أدب أمريكا اللاتينية عام ٢٠٠٢ .

– دكتواره بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (كلية الألسن ، جامعة عين شمس) عام ٢٠٠٥

المراجع فى سطور :

جمال عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف - كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر (١٩٧٩).

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا و مدريد.

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .

- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمدًا المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيميونوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنونًا (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك في الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. في. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتوريم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم.
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروينداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث .	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	چونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤- الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧- أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارووبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوچية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكليود وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

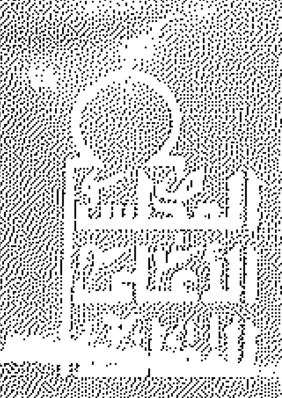
٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

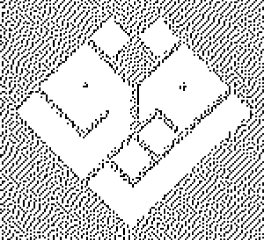
٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	ت. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد آدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	أيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	ميراث الترجمة: حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين

٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤- اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥- الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٥٤١ / ٢٠٠٥





لماذا يتخصص باحث إسبانى مثل غوثالبيس بوستو فى تاريخ المغرب العربى؟ المؤلف نفسه يجيب عن هذا التساؤل فى أكثر من مناسبة. إن قراءة تاريخ ضفتى مضيق جبل طارق فى القرن السادس عشر يدل على أن تاريخهما لا يمكن فصله، وعليه فإن دراسة تاريخ المغرب العربى - من قبل الباحث الإسبانى - ليست من باب التعرف على الآخر، بل هى ضرورة للتعرف على الذات.

ويلفت النظر فى كتابات المؤرخين الإسبان رجوعهم إلى المصادر العربية كابن الخطيب وابن خلدون، بالإضافة إلى ما خلفه الكتاب الإسبان المعاصرون لهما، وقد اعتمد غوثالبيس بوستو على وثائق كتبها مؤرخون عرب، لكنه اعتمد كذلك على بعض ما كتبه مؤرخون إسبان فى القرن السادس عشر، وهو يعلم أنها كتابات دعائية لا يمكن الاعتداد بها كثيراً، ومن ثم كان عليه أن يوضح ذلك للقارئ غير المتخصص. على أن هذا لايعفى المؤرخ العربى المعاصر للأحداث من المسئولية، فمؤلف الكتاب يلجأ إلى المصادر الإسبانية وحدها عندما لا يجد بديلاً عربياً!.

